

مِفْتَاحُ الْحِكْمَةِ وَمَعْدِنُ الْعِلْمِ

(دراسة في علم الإمام محمد الباقر عليه
السلام)

السيد زهير طالب الاعرجي

2021 م

مفتاح الحكمة ومعدن العلم

(دراسة في علم الإمام محمد الباقر عليه السلام)

السيد زهير طالب الاعرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في الذكر الحكيم: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ النَّبِيِّ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)¹.
قال الإمام محمد بن علي الباقر (ع): (نحن شجرة النبوة، وبيت
الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم...)². وعلى ذلك كان عنوان
الكتاب: (مفتاح الحكمة ومعدن العلم).

¹ سورة الأحزاب: الآية 33.

² بحار الأنوار ج 26 ص 245.

الكتاب: مفـتاح الحكمة ومعدن العلم
(دراسة في علم الإمام محمد الباقر عليه السلام)

المؤلف: د. زهير طالب الأعرجي
1442 هـ - 2021 م

Title: Keys of Wisdom and Essence of Knowledge
(Scientific life of Imam Mohammad Al-Baqir)
Author: Dr. Zuhair Talib Araji

بسم الله الرحيم الرحيم

مقدمة الكتاب

يمتثل الإمام محمد الباقر (ع) منصة العلم في زمن ما بعد مرحلة الطف، وما تلاها من نشوء أفكار ومذاهب تبتعد عن روح الإسلام. أعاد الإمام (ع) للإسلام رونقه الفكري والشرعي في وقت ماتت فيه الكثير من الضمائر طمعاً في دنيا تصيبها، أو ضلالة أخذتها إلى متاهات بعيدة. فكان الإمام (ع) منبر الحق، ورائد الصدق في المنهج العلمي، والمنارة في أصول المناظرات، والسد المنيع في مواجهة النظريات الجديدة الغريبة عن أصل الدين.

وهذا الكتاب يعكس زبدة النشاط العلمي للإمام الباقر (ع) في ذروة نشوء الأفكار والمذاهب، في حقبة فريدة من الزمن، كانت بأمس الحاجة إليه، وإلى المنبع الصافي في الفكر الديني.

وقبل الشروع في قراءة هذا الكتاب، لابد من ذكر النقاط التالية:

1 - وُلدَ هذا الكتاب الذي بين يديك من رحم كتابٍ أكبرٍ وهو كتاب (باقر العلوم عليه السلام) المطبوع في العتبة العباسية في مدينة كربلاء سنة 2017 م. وفيه مشتركات مع ذلك الكتاب، إلا أن الكتاب الجديد كُتب بأسلوب آخر، وروحية جديدة، ومنهجية مختلفة تماماً.

2 - تكررت بعض الروايات في هذا الكتاب أكثر من مرة لإقتضاء البحث، فمرة تُبحث الرواية ذاتها في المنهج العلمي، وأخرى تبحث في المناظرات، وربما وفي مرة ثالثة في العقائد.

3 - يصدر هذا الكتاب ضمن مجموعة من الكتب العلمية حول فكر أهل بيت النبي (ص)، كُتبت بأسلوب المنهجية الموضوعية التي نأمل أن يتقبلها الإنسان، مهما كانت عقيدته أو مذهبه أو توجهه الفكري.

اللهم إنك تعلم أنني لم ابذل هذا الجهد إلا ابتغاء وجهك الكريم، ومرضاتك في الدارين. فاسألك يا ربي الكريم، أن تتقبله بقبولٍ حسنٍ، وأن تجعله ذخراً لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

المؤلف

1 رجب 1442هـ

محتويات الكتاب

الفصل الأول: يومٌ في حياة الإمام محمد الباقر (ع)

الفصل الثاني: التركيبة العلمية

الفصل الثالث: المدرسة الإجتماعية

الفصل الرابع: النظرية الفقهية

الفصل الخامس: المنهج العلمي

الفصل السادس: أصول المناظرة والإحتجاج

الفصل السابع: مواجهة النظريات المضادة

الفصل الأول

يومٌ في حياة الإمام محمد الباقر (ع)

مقدمة. يومٌ في الصلاة والدعاء والصيام.
يومٌ في الحج. يومٌ مع الفكر والبلاغة.
يوم في نشر العلم. يومٌ أمام الحاكم
الظالم. يوم في الصبر.

مقدمة

يُعرف العظماء بأيامهم، كيف يستثمروها في خدمة مبدئهم، ونشر أفكارهم، وتعليم مجتمعاتهم وإرشادهم إلى سبل الخير والمعرفة. وحياة الإمام محمد الباقر (ع) تتميز بميزة استثنائية كونها مبنية على العلم والبلاغة. فإذا تحدثنا عن يوم من أيام الإمام (ع) كان ذلك اليوم مبنياً على العلم والمعرفة بالله تعالى، صلاةً كان أو دعاءً أو حجاً، ومبنياً على البلاغة في موعظةٍ حسنةٍ أو في حركة إجتماعية مثل مواجهةٍ مع حاكم، أو ربما سماعٍ شعري، أو في مساعدةٍ فقير أو إغاثةٍ محروم.

تصور يوماً افتراضياً ندرس فيه دلالات ما كان يعمله ذلك اليوم ليكون أقرب السبل إلى فهم واقع حياته العلمية. ولنفترض أن حياته كانت أياماً، فلنأخذ يوماً طغت فيه العبادة من صلاة ودعاء وصيام، ويوماً آخر طغت فيه مناسك الحج، وآخر كان أمام الحاكم الظالم، وآخر مع الفكر والأدب، وهكذا.

ونحن نعلم أن الحياة العملية لا يمكن أن تقسم بهذا الشكل، لكننا ومن أجل التركيز على موضوع معين، نفترض أن هناك يوماً لصلاته، ويوماً لحجه، ويوماً لفكره وبلاغته، ويوماً في صبره. وهذا الأسلوب ربما يوصلنا إلى فهم أفضل لعلمه الواسع، وجزئيات حياته الشريفة.

كان في جميع أيامه يدعو إلى التمسك بالدين والقرآن وإمامة أهل البيت (ع)، كان ينقل ذلك عن رسول الله (ص) عندما يشير إلى طبيعة آل البيت (ع) بالقول: (إنهم لا يدخلونكم في باب ضلال، ولا يخرجونكم من

باب هدى، فلا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم، وأني سألت ربي إلا يفرق بينهم وبين الكتاب حتى يردا عليّ الحوض)³.

يوم في الصلاة والدعاء والصيام

كانت عبادة الإمام (ع) منهج حياة، ونمط عيش، واسلوب تفكير. فقد أخذت تلك العبادة جميع جوانحه، ولم يعرف في حياته (ع) طريقاً غير طريق العبادة الواعية النابعة عن العلم والمعرفة بالله عزوجل. فهو يتوسل إلى ربه العظيم بأن يفتح له أبواب الخير والثواب، ويبعده عن أبواب الشر والرياء، فيقول (ع): (اللهم أني أسألك مفاتيح الخير وخواتمه، وشرايعه وسوابقه، وفوائده وبركاته، وما بلغ علمه عليّ، وما قصر عن إحصائه حفظي، اللهم إنهج لي أسباب معرفته، وافتح لي أبوابه، وعشني بركات رحمتك، ومُنّ عليّ بعصمة من الشيطان الرجيم، وما يريدني عن الإزالة عن دينك، وطهر قلبي من الشك، ولا تشغل قلبي بدنياي، وعاجل معاشي عن أجل ثواب آخرتي، واشغل قلبي بحفظ ما لا تقبل مني جهله، وذلك لكل خير لسانني، وطهر قلبي من الرياء، ولا تجره في مفاصلي، واجعل عملي خالصاً لك...)⁴.

يسأل الإمام (ع) ربه طامحاً أن يحصل على مفاتيح الخير والمعرفة، فعن طريق تلك المفاتيح تفتح الكنوز المخبوءة من العلم، واليقين، والإرتقاء، ويدعوه إلى عصمته من إغواءات الشيطان الرجيم، وإلى تطهير

³ الكافي ج 1 ص 209.

⁴ مهج الدعوات ص 213 - 215.

قلبه من الشكوك، لأن الشكوك تقتل اليقين بالفكرة والمعتقد. ويدعوه إلى عدم إشغال القلب بأمور الدنيا التي لا ترقى إلى فضيلة الإنسان الحائز على مفاتيح الخير والحكمة، بل يريد أن يكون قلبه مشغولاً بالعلم واليقين، والإيمان والخشية، والتذلل والزهد، وهو عين ما يرتضيه الله تعالى لعبده، ويدعوه إلى أن يجعل لسانه لسان خير يبيث العلم والصدق والمحبة بين الناس، وأن يجعله نقياً طاهراً من الرياء والتكلف.

العقل يأمر بالعبادة:

ومن الطبيعي أن تكون فكرة عبادة الخالق عزّوجلّ عند الإمام (ع) فكرة أخلاقية، بمعنى أنه حتى لو لم يأمرنا الله تعالى بعبادته، لكان لزاماً علينا أن نعبد. لأن لعبادة الخالق عزّوجلّ صفة أخلاقية حتى لو لم تتدخل العقيدة الدينية بها. وهكذا يأمرنا العقل بعبادته تعالى. فجاءت الشرائع السماوية لإمضاء ما ذهب إليه العقل. وإلى ذلك يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): (... وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)⁵.

ولا تعني عبادة الله تعالى القيام والصيام فحسب، بل تعني الطاعة العقلية المستمرة في كل ساعة، أي طاعة الله عزّوجلّ في كل أوامره وإجتنب كل نواهيه. وطالما كانت أوامره عزّوجلّ تصبُّ كلها في خير الإنسانية، وعدالتها، أصبحت تلك الأوامر والنواهي قضايا أخلاقية لا بد من

⁵ شرح نهج البلاغة ج 19 ص 68، الكلمات القصار.

الإذعان لها وتطبيقها كما أراد تعالى. وإذا كان من طاعة الله: بر الوالدين، وصلة الرحم، ومساعدة الجيران، وكلُّ من كان له حقٌّ علينا، كان ذلك العمل الأخلاقي خيراً وسعادة للمجتمع أيضاً.

فحبُّ الله تعالى يقترن على الأغلب مع حب أناس حول الإنسان من أرحام، وأخوة، وأصدقاء، وجيران ونحوهم. وتلك عبادة لله، فحبه تعالى يوجِّه الإنسان نحو حب الناس. وفي المأثور عن رسول الله (ص): (ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفتدُّ إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع)⁶.

وبالإجمال، فإن العقل يدعو البشر جميعاً إلى عبادة خالقهم، وطاعة أوامره، والإنتهاء عن نواهيه. ولو افترضنا ذلك اليوم التعبدى عند الإمام الباقر (ع) وتصورناه بناءً على الروايات المتضاربة لكان مقارباً للشكل التالي:

العابد الذابل في حضرة مولاه الجليل

كان الإمام (ع) يقبل على الصلاة بكل وجوده، وقد عُرف عنه أنه كان كثير الصلاة، يصلي في اليوم واللييلة مائة وخمسين ركعة⁷؛ وعندما يتهيأ للصلاة يصفّر لونه⁸، وترتعد فرائصه، ويتوجه إلى ربه تعالى بكله،

⁶ مجمع الزوائد - الهيتمي ج 10 ص 247.

⁷ تاريخ دمشق - ابن عساكر ج 51 ص 44. وتكررة الحفاظ - الذهبي ج 1 ص 125.

⁸ تاريخ دمشق ج 51 ص 44.

بل كلُّ شيء في كيانه يدلّ على خشوعه وذوبانه في حضرة خالقه العظيم، وكل شيء يدلّ على رسوخ يقينه ومعرفته بالله تعالى. يبدأ ليله بالصلاة والدعاء، وينتهي نهاره بالصيام والذكر الجميل. فقد ترك لنا التاريخ الكثير من أدعيته ومناجاته، في الليل والنهار.

وما أن ينتهي من صلاة العشاء حتى يتوجه إلى خالقه الكريم، ويقول: (... [الهي] لا تؤمنا مكرك، ولا تنسينا ذكرك، ولا تكشف عنا سترك، ولا تحرمنا فضلك، ولا تحل علينا غضبك، ولا تباعدنا من جوارك، ولا تنقصنا من رحمتك، ولا تنزع عنا بركاتك، ولا تمنعنا عافيتك، واصلح لنا ما أعطيتنا، وزد من فضلك المبارك الطيب الحسن الجميل...)⁹.

عبادة الليل:

وفي الليل حيث تأوي النفوس إلى مضاجعها، وتستسلم الأجساد للخلود من تعب النهار، وتُطبّق الأجنان، تبدأ رحلة الإمام الباقر (ع) مع العبادة في أجواء صافية ساكنة لا يكدرها شيء. يبدأ بالدعاء والتسبيح والصلاة.

ومع أنه كان شديد الذكر لله تعالى في صباحه ومساءه، ويومه وليله، إلا إن الروايات تُجمل دعاءه (ع) في الليل غالباً، فيتوجه إلى خالقه وبارئه في صلاة الليل، ويُقْبَلُ عليه تعالى وهو يناجيه بصفاته التامة: (...)

⁹ البلد الأمين - الكفعمي ص 15.

وأنت الله نور السموات والأرض، وأنت الله زين السموات والأرض، وأنت الله جمال السموات والأرض...¹⁰.

الإمام الصادق يتحدث عن أبيه (ع):

كان أقرب الناس إليه ابنه الإمام الصادق (ع) يروي لنا صفة عبادة والده (ع) قائلاً: (كان أبي يصلي في جوف الليل، فيسجد السجدة فيطيل حتى يقال أنه راقد، فما يفجأ منه إلا وهو يقول: لا إله إلا الله حقاً حقاً، سجدت لك ياربّ تعبدًا ورقاً، وإيماناً وتصديقاً، وإخلاصاً، يا عظيم يا عظيم إن عملي ضعيفٌ فضاعفه لي، فإنك جوادٌ كريمٌ، يا حنان اغفر لي ذنوبي وجرمي، وتقبل مني عملي، يا جبار يا كريم، اللهم إني أعودُ بك أن أجيب [ظالمًا] أو أعمل ظالمًا)¹¹.

وكان جعفر الصادق (ع) يمهد لأبيه فراشه وينتظره حتى يأتي، فإذا آوى أبوه الباقر (ع) إلى فراشه ونام، قام الصادق (ع) إلى فراشه أيضاً. وقد أبطأ عنه تلك الليلة، فجاء المسجد في طلبه، وذلك بعدما هدأ الناس، فإذا هو في المسجد ساجد، وليس في المسجد غيره فسمع حنينه وهو يقول: (سبحانك اللهم، أنت ربي حقاً حقاً، سجدتُ لك يا ربّ تعبدًا

¹⁰ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 490.

¹¹ قرب الإسناد - الحميري ص 4.

ورقاً، اللهم إنَّ عملي ضعيف فضاعفه لي... اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، وتبَّ عليَّ إنك أنت التواب الرحيم¹².

ثم يسترسل (ع) بوصف عبادة أبيه فيقول: (كان أبي يقول في جوف الليل في تضرعه: أمرتني فلم أنتمر، ونهيتني فلم أنزجر، فهذا أنذا عبدك بين يديك ولا أعتذر؟)¹³، (اللهم أعني على الدنيا بالغنى، وعلى الآخرة بالعفو)¹⁴.

صلاة العابد في إعماق الليل:

يستوعب الليل - على امتداده - عبادة الإمام الزاهد (ع)، يمجد الله تعالى ويصفه بأعظم الصفات، ويمجده بأعظم التمجيد، ويناجيه بأعذب كلمات المناجاة، ثم يتوسل إليه بالمغفرة والتوبة، فيقول (ع) بعد صلاة الليل: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. اللهم لك الحمد يا رب، أنت نور السماوات والأرض فلك الحمد، وأنت قوام السماوات والأرض فلك الحمد، وأنت جمال السماوات والأرض فلك الحمد، وأنت صريخ المستصرخين فلك الحمد، وأنت غياث المستغيثين فلك الحمد، وأنت تجيب دعوة المضطرين فلك الحمد، وأنت أرحم الراحمين فلك الحمد،

¹² حلية الأولياء ج 3 ص 182.

¹³ كشف الغمة ج 2 ص 319.

¹⁴ البيان والتبيين - الجاحظ ج 1 ص 515.

اللهم بك تنزل كل حاجة فك الحمد، وبك يا إلهي أنزلت حوائجي الليلية فاقضها لي يا قاضي الحوائج، اللهم أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، وأنت ملك الحق، أشهد أن لقائك حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من في القبور، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأسررت وأعلنت، إنك الحي الذي لا إله إلا أنت¹⁵.

وكانت عباراته (ع) مصداقاً لما كان يختلج في نفسه من الخوف من الله، وكان أصدقها قوله: (ما أغرورقت عينٍ بماءٍ من خشية الله تعالى إلا حرّم الله وجهه صاحبها على النار، فإن سألت على الخدين دموعه لم يرهق وجهه قنّز ولا ذلّة، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة، فإن الله تعالى يكفر بها بحور الخطايا، ولو أن باكياً بكى في أمةٍ لحرّم الله تلك الأمة على النار)¹⁶.

روى أحد الرواة ما كان يسمعه في العبادة الليلية للإمام الباقر (ع)، قال: سمعته يقول وهو ساجد في السجدة الأولى: (أسألك بحق حبيبك محمد (ص) إلا بدلت سيئاتي حسنات، وحاسبتني حساباً يسيراً). وفي السجدة الثانية: (أسألك بحق حبيبك محمد (ص) إلا ما كفييتي مؤونة الدنيا، وكلّ هولٍ دون الجنة). وفي السجدة الثالثة: (أسألك بحق حبيبك محمد (ص) لما غفرت لي الكثير من الذنوب والقليل، وقبلت منّي عملي اليسير). وفي

¹⁵ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 310.

¹⁶ الفصول المهمة ص 209.

السجدة الرابعة: (أسألك بحق حبيبك محمد (ص) لما أدخلتني الجنة، وجعلتني من سكانها، ولما نجيتني من سفعات النار¹⁷، برحمتك...)¹⁸.
وعندما تكتمل أعمال ليلته ويتهبأ للرقود في فراشه يناجي ربه مرة أخرى ويهمس: (اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، فتوكلت عليك، رهبةً منك، ورغبةً إليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، آمنْتُ بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت)¹⁹.
ثم يسبح تسبيح الزهراء (ع)، فيقول: (الله أكبر 34 مرة، والحمد لله 33 مرة، وسبحان الله 33 مرة)²⁰. ثم يختم (ع) قائلاً: (تسبيح فاطمة (ع) من ذكر الله الكثير الذي قال: (فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)²¹(²²، و(ما عبد الله بشيءٍ من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة (ع)، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله (ص) فاطمة عليها السلام)²³.

¹⁷ سفعة النار: لفحة النار التي تسود جلد الإنسان من شدة الحرارة.

¹⁸ الكافي - الفروع ج 3 ص 322.

¹⁹ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 297.

²⁰ وسائل الشيعة ج 6 ص 443.

²¹ سورة البقرة: الآية 152.

²² تفسير العياشي ج 1 ص 67. ومجمع البيان - الطبرسي ج 8 ص 853.

²³ وسائل الشيعة ج 6 ص 443.

العبادة المتواصلة:

كان لسانه (ع) في النهار لهجاً بذكر الله تعالى كما كان في الليل، وكان ذاكراً في قيامه وعوده، ومشبه وحديثه، وكان يجمع ولده وأهل بيته (ع) ويأمرهم بالصلاة، وقراءة القرآن من الفجر حتى طلوع الشمس.

هذا ما ذكره الصادق (ع) عن أبيه (ع)، فقال: (كان أبي (ع) كثير الذكر، لقد كنتُ أمشي معه وإنه ليذكر الله، وأكل معه الطعام وإنه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله. وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر)²⁴.

ولا ينقطع الباقر (ع) في عبادته عن اجداده السالفين فينقل: (قال سليمان بن داود (ع): أوتينا ما أوتي الناس وما لم يؤتوا، وعلمنا ما علم الناس وما لم يعلموا، فلم نجد شيئاً أفضل من خشية الله في الغيب والمشهد، والقصد في الغنى والفقير، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والتضرع إلى الله عزوجل في كل حال)²⁵.

ولم يشغله العلم والتدريس عن إقامة الصلاة. وإذا أضغنا إليه تلاوته للقرآن الكريم، وذكر الله الذي لهج به لسانه، لكان ذلك إستيعاباً تاماً

²⁴ الكافي ج 2 ص 498 ضمن حديث.

²⁵ الخصال ج 1 ص 114. وفي تاريخ دمشق ج 22 ص 281، يذكر الحديث ولا ينسبه إلى الإمام الباقر (ع).

لوقته (ع)، خصوصاً وأنه كان مشغولاً أيضاً في المناظرات وأجوبة الناس في مسجد رسول الله (ص) في المدينة المنورة.

تباينت مضامين ادعيته الرائعة ابتداءً من التوسل بالله تعالى، إلى قبول اليسير، وغفران الذنوب، إلى تمجيد الله وتسبيحه، والتوكل عليه، وإنهاءً بالشكوى له وحده لشدة الزمان، ووقوع الفتن. والنتيجة التي نستخلصها من تلك الأدعية عمق إتصاله (ع) به تعالى، وحسن ظنه به في المغفرة، وقبول العمل الصالح.

ومع أن الله عزوجل رفع محمداً (ص)، وآل بيته (ع) إلى أعلى درجات العبودية والطهارة الأخلاقية والدينية عبر قوله: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)²⁶، إلا أنهم كانوا يتعاملون معه تعالى وكأنهم أصحاب ذنوب، فيقول (ع): (أمرتني فلم أنتمر، وزجرتني فلم أنزجر...)²⁷، و(أسألك بحق حبيبك محمد (ص) لما غفرت لي الكثير من الذنوب والقليل...)²⁸، (اللهم إن عملي ضعيفٌ فضاعفه لي...)²⁹. ذلك لأنهم (ع) كانوا يتكلمون بلسان حال المذنب المقصّر، وهذا غاية التواضع مع الله تعالى. ولأنهم كانوا يعدّون اشتغالهم

²⁶ سورة الأحزاب: الآية 33.

²⁷ حلية الأولياء ج 3 ص 186.

²⁸ الكافي ج 3 ص 322.

²⁹ حلية الأولياء ج 3 ص 182.

ببعض المباحات كتناول الطعام مثلاً نزولاً عن تلك المرتبة العالية في العبادات فيرونه ذنباً، وإلى ذلك قيل: (حسنت الأبرار سيئات المقربين)³⁰.

عندما تبلغ القلوب الحناجر:

وفي فنوته كان يصف الخالق بأعظم الصفات، ويتوسل إليه بحسن تدبيره للخلق متمنياً أن يمنّ عليه بالرحمة والغفران. وربما يُعدُّ دعاؤه في القنوت شيئاً من خلجات النفس وقربها من بارئها، إلا أنه يحمل مضامين علمية عميقة تعكس مدى إحاطته بصفات الخالق عزوجل. فلسانه (ع) يناجي ربه تعالى قائلاً:

(بمَنِّكَ وكرمِكَ يا من يعلم هواجس السرائر، ومكامن الضمائر، وحقائق الخواطر، يا من هو لكلِّ غيبٍ حاضر، ولكلِّ منسِيٍّ ذاكِر، وعلى كلِّ شيءٍ قادر، وإلى الكلِّ ناظر، بَعْدَ المَهْلِ³¹ وَقَرُبِ الأجل، وَضَعْفِ العمل، وَأرِبِ الأمل³²، وأنت يا الله الآخر كما أنت الأول، مبيد ما أنشأت، ومصيرهم إلى البلى، وتقلدهم أعمالهم، ومحملها ظهورهم إلى وقت نشورهم من بعثة قبورهم، عند نفخة الصُّور، وانشقاق السماء بالنور، والخروج بالمنشر إلى ساحة المحشر، لا ترتد إليهم أبصارهم وأفئدتهم هواء،

³⁰ كشف الغمة ص 255.

³¹ المَهْلُ: التقدم في الخير، ومعنى بَعْدَ المَهْلِ أي قربت فرصة عمل الخير من الإنتهاء، وسوف يبدأ الحساب قريباً.

³² أَرِبِ الأملُ: الأرب: الحاجة الشديدة، والمعنى: اشتدت الحاجة إلى الأمل.

متراطمين في غمّةٍ مما أسلفوا، ومطالبين بما احتقبوا، ومحاسبين هناك على ما ارتكبوا...³³.

والإمام (ع)، وهو في قنوته وخشوعه لله تعالى، يذكر بعضاً من صفاته عزّوجلّ. فهو الله الذي يعلم ما في سريرة الإنسان، وما في خاطره، وهو الحاضر في كل غيبٍ، والقادر على كل شيءٍ، وهو الأول والآخر، وهو الباقي في الأزل والأبد، لا يحده زمان ولا مكان، فهو قبل كل شيء وبعد كل شيء.

فالله عزوجل محيطٌ بسرائر الناس ومطلّعٌ على ما في ضمائرهم، ويعلم ما في أعماق خواطرهم، فهو يعلم ما يفعلون في حاضرهم وفي مغيبهم، وينظر إليهم في كل ما كسبوه في أزمان حياتهم، وهو ناظرٌ إلى جميع البشر في كل زمان ومكان، فلا يفلت منهم أحداً.

وهو عزوجل كما خلق الناس، فقد أبادهم في لحظة من الزمن، لكن تبقى صحائف أعمالهم تثقل ظهورهم، محفوظة حتى وقت نشورهم. فلا يبلى عند الله عز ذكره شيء، فما أن ينفخ في الصور حتى تمتثل جميع الكائنات لخالقها وبارئها في ساحة الحشر. وعندئذٍ يبدأ الحساب ثم يتلوه الثواب والعقاب. هكذا ينقلنا الإمام الباقر (ع) في أدعيته من فصلٍ إلى فصل، ومن مشهدٍ إلى مشهد على مسرح الحياة الدنيا وما بعدها، في مشهدٍ يستوعب الماضي والحاضر والمستقبل بكل فصوله وتبعاته.

³³ مهج الدعوات ص 52.

ثم يقول: (اللهم فإنّ القلوب قد بلغت الحناجر، والنفوس قد علت التراقي، والأعمار قد نفذت بالإنّظار لا عن نقص إستبصار، ولا عن إتهام مقدار، ولكن لما تعاني من ركوب معاصيك، والخلاف عليك في أوامرك ونهيك، والتلعب بأوليائك، ومظاهرة أعدائك. اللهم فقرب ما قد قرب، وأورد ما قد دنى، وحقق ظنون الموقنين، وبلغ المؤمنين تأميلهم من إقامة حقك، ونصر دينك، وإظهار حجتك)³⁴.

فهو تعالى وحده القادر على محاسبة الظالمين وعقابهم. فقد تبادوا في ركوب المعاصي، وامتطاء الشهوات، وقد بلغت قلوب المؤمنين الحناجر امتعاضاً لما كان يفعله أولئك العصاة المعاندون. وظاهر القول أنه كان يعرض شيئاً مما كان يعانيه من ظلم العباد في زمانه (ع)، ويستجد به تعالى في إظهار دينه، ونصر حجته.

المعلّم العابد:

ولم تقتصر عبادته اليومية على شخصه فحسب بل كان يعلم تلامذته واصحابه طرق العبادة بتفصيلٍ دقيقٍ. فهذا زرارة يتعلم منه طرق العبادة الليلية، يقول (ع) له: (إذا قمت بالليل من منامك، فقل: الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي لأحمده وأعبده... سيّوخ قدوس ربّ الملائكة والروح سبقت رحمتك غضبك، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، عملت سوءً وظلمت نفسي، فاغفر لي وارحمني، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)³⁵.

³⁴ مهج الدعوات ص 52.

³⁵ الكافي ج 3 ص 445.

ثم يدعوه (ع) إلى النظر في آفاق السماء الساكنة، والتبصر في خلقها وعظمتها، ثم التفكير في قدرة الخالق عزوجل في معرفة خبايا النفس الإنسانية وما تضره من خير أو شر، كل ذلك والكائنات تأوي إلى مخادعها، وتنام عيونها، لكن عينه عزوجل لا تنام، فلا تأخذه سنة ولا نوم. ثم يشرح له كيفية النظر إلى كمال خلق الله، ويقول: (فإذا قمت فانظر في آفاق السماء، وقل: اللهم إنه لا يوارى عنك ليلٌ ساج³⁶، ولا سماء ذات أبراج، ولا أرض ذات مهاد، ولا ظلمات بعضها فوق بعض، ولا بحر لجي تدلج بين يدي المدلج³⁷ من خلقك. تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، غارت النجوم، ونامت العيون، وأنت الحي القيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم، سبحان رب العالمين، وإله المرسلين والحمد لله رب العالمين...) ³⁸.

وبلغة أكثر تبسيطاً، يقول (ع) له: ثم إذا أتممت نظرك في الكون وما يحيط به من جلال وكمال أشكر الله على نعمته عليك، وقل: (الحمد لله رب العالمين). ثم (إذا قمت إلى صلاتك فقل: بسم الله، وبالله، وإلى الله، ومن الله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اجعلني من زوار بيتك، وعمّار مساجدك، وافتح لي باب توبتك، واغلق عني باب معصيتك

³⁶ ليلٌ ساج: ليلٌ ساكن.

³⁷ تدلج بين يدي المدلج: أي السائر في الليل. أدلج القوم: ساروا أول الليل، أو في أية ساعة من ساعاته، وكان العربي إذا دلج جعل النجوم دليلاً في الإتجاهات.

³⁸ الكافي ج 3 ص 445.

وكل معصية، الحمد لله الذي جعلني ممن ينجيه، اللهم أقبل عليّ بوجهك
جلّ ثناؤك (...)³⁹.

العبادة في الحياة العملية:

وعندما يطوي الظلام ذيله وتشرق شمس النهار مرة أخرى، ويبدأ
دبيب الحياة مع الناس، كان لسان الإمام (ع) لا يزال دائماً على التضرع⁴⁰
إلى الله تعالى. وما أن ينتهي من الدار ويخرج حتى كان يدعو: (أعوذ بما
عادت به ملائكة الله من شر هذا اليوم الجديد، الذي إن غابت شمس لم
تعد، من شر نفسي، ومن شر غيري، ومن شر الشيطان، ومن شر من
نصّب لأولياء الله، ومن شر الجن والأنس، ومن شر السباع والهوام، ومن
شر ركوب المحارم كلها، أجير نفسي بالله من كل سوء)⁴¹.

وعندما كان يركب وسيلة النقل السائدة في زمانه كان يذكر الله
تعالى ويقول: (... الحمد لله الذي هدانا بالإسلام، وعلمنا القرآن، ومنّ
علينا بمحمدٍ (ص)، والحمد لله الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا
إلى ربنا لمنقلبون، والحمد لله رب العالمين)⁴².

³⁹ الكافي ج 3 ص 445.

⁴⁰ التضرع: هو التذلل والخضوع لله تعالى، وأيضاً التشفع والابتهاال.

⁴¹ مرآة العقول - المجلسي ج 12 ص 324.

⁴² الكافي ج 8 ص 276.

ومن ثم يكرر تسبيحه لله ويردد: (سبحان الله، ولا إله إلا الله، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذل، وكبره تكبيراً)⁴³.

ولا يمرّ تناول الطعام إلا بذكر الله وشكره فيقول: (الحمد لله الذي أشبعنا في جائعين، وأروانا في ظامئين، وآوانا في ضاحين⁴⁴، وحملنا في راجلين، وآمننا في خائفين، وأخدمنا في عانين⁴⁵).

والحياة في صباحها ومساءها، ويومها وليلها رحلة شاقّة نسير في طريقها كل يوم، وأحياناً نكون في عافية من دين أو دنيا، وأحياناً نظلم أنفسنا بتقصير مظنون أو إهمال مفترض، ولكن في النهاية لابد أن نكون ضمن دائرة التسبيح والتحميد والشكر لله على نعمه ولطفه وكرمه. وهذا هو حال الإمام الباقر (ع) في صباحه ومساءه يلهج بذكر الله تعالى:

(اللهم أني أشهدك أنه ما أمسي وأصبح بي من نعمةٍ أو عافيةٍ في دينٍ أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد، ولك الشكر بها عليّ حتى ترضى، وبعد الرضا الهنا)⁴⁷، (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك

⁴³ مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي ص 252.

⁴⁴ من ضجّي الشخص: برز وظهر في مكان مكشوف. والمعنى أنه سترنا بمأوى ليلاً حتى طلوع الشمس وزوال الظلام.

⁴⁵ عني: مصدر اعتنى، وكان محل إعتناء وإهتمام. فيكون المعنى: وضعنا في محل الإعتناء والخدمة.

⁴⁶ وسائل الشيعة - الحر العاملي ج 24 ص 357.

⁴⁷ علل الشرائع ج 1 ص 28، عنه (ع) فيما قاله نوح (ع).

إني عملتُ سوءً، وظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنك أنت التواب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءً وظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين)⁴⁸، (اللهم لك الحمدُ كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لك أن تُحمد، وكما ينبغي لكرم وجهك، وعزِّ جلالك)⁴⁹.

الجبهة التي لم تعرف الراحة:

وقد تحدث علماء أهل البيت (ع) عن عبادة الإمام الباقر (ع) فقالوا: "أنَّ السجودَ قد بقر جبهته أي شقها"⁵⁰. وبقر الجبهة يعني أنها لم تعد تتحمل ما صُمم لها من كثرة تمريرها بالتراب، شكراً لله تعالى أو اعترافاً بفضله ونعمته.

وفي رأي سبط ابن الجوزي (ت 654 هـ): "... وإنما سُمي الباقر من كثرة سجوده، بقر السجود جبهته، أي فتحها ووسعها..."⁵¹. وتلك أحد الأسباب في تسميته بالباقر.

يعلّمنا الإمام (ع) في سجوده ودعائه أن عليه أن يحتمل أسوأ الاحتمالات، فلو ظن الناس بإنسانٍ ما خيراً وصلاً، فعليه أن يطلب من

⁴⁸ قصص الأنبياء (ع) - الراوندي ص 53، عنه (ع) في الكلمات التي قال بهن آدم (ع) ربه تعالى فتاب عليه.

⁴⁹ قصص الأنبياء ص 278، عنه (ع) أن نبياً من الأنبياء (ع) حمد الله سبحانه بهذه المحامد.

⁵⁰ منهاج الكرامة - العلامة الحلي ص 55.

⁵¹ صفوة الصفوة - سبط ابن الجوزي ج 2 ص 108 - 112 ترجمة رقم 171.

الله المغفرة فيما لا يعلمون من أعماله، فهو لا يكثرث لما يفكر به الناس، وما يحكمون عليه من تقدير أو تجليل، بل الأصل عنده هو ميزانه عند الله تعالى، فهو مهتمّ بما خَفِيَ على الناس، وَعَلِمَهُ اللهُ تعالى، فيقول:

(اللهم إن ظنّ الناس بي حسناً، فاغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، وأنت علام الغيوب)⁵²، وفي سائر أدعيته (ع): (اللهم هب لي حَقك، وأرض عني خلقك، واغفر لي ما لا يضرّك، وعافني ما لا ينفَعك، فإن شقائي لا يضرّك، وعذابي لا ينفَعك، فإنك تعطي من سئلك، وتغضب على من لا يسئلك، ولن يفعل ذلك أحد غيرك، سبحانك وبحمدك)⁵³، (اللهم ألبسني العافية حتى تهنّئي المعيشة، وارزقني من فضلك ما تعيني به على سائر خلقك، ولا اشتغل عن طاعتك لشر سواك)⁵⁴.

عبادة الجوارح:

ومع كل ذلك لم تكن العبادة عنده (ع) مجرد كلمات تتحرك على شفاه العابد، بل كانت العبادة الحقيقية هي عبادة الله بالجوارح الظاهرة والباطنة. أي أن لبّ العبادة هو الإلتزام بما أمر به المعبود من أوامر، والإنتهاء عما نهاه من نواهي. فالعفة في البطن والفرج تُعدّ عبادةً، وعدم

⁵² قرب الإسناد ص 5.

⁵³ المصدر السابق ص 6.

⁵⁴ قرب الإسناد ص 6.

التعرض للناس بسوء تعدُّ عبادة. وذكر الله عبادة. فالعبادة الحقيقية هي الحالة العقلية للإنسان التي تأمره بأن يرقب الله تعالى في جميع تصرفاته. وعفة النفس وعفة البدن هما المفتاح، يقول (ع) في ذلك: (ما من عبادة عند الله تعالى أفضل من عفة بطنٍ أو فرجٍ، وما من شيء أحب إلى الله تعالى من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء. وإن أسرع الخير ثواباً البر والعدل، وأسرع الشر عقوبةً البغي. وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما تعمى عنه نفسه، وأن يأمرهم بما لا يستطيع التحول عنه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه)⁵⁵.

وعفة النفس والبدن أفضل العبادات لأنها تهذب الروح، وتوجهه إلى ذكر الله بتذلل وخشوع. فالصائم ذو البطن الخاوية أقرب إلى الله تعالى في صلاته من الآخر ذو البطن المتخمة التي يصعب عليها التحرك. والنفس العفيفة تدعو الله بصدق وإخلاص أكثر مما تلك التي تمارس الصلاة بجسدها لا بروحها، والنفس التي تبصر عيوبها بنفسها تكون أكثر رغبةً في السجود لله، والنفس التي انشغلت بإصلاح عيوبها ولا تهتم بعيوب غيرها تكون أقرب إلى معنى السجود لله، وعبادته عبادة خالصة. إذن عبادة الجوارح، وكثرة سجود الساجد على الأرض إنما تعبّر عن ارتباط الإنسان بمنشأه وكونه من تراب أو من حمأ مسنون بالأصل، وتترك بصمةً أبديةً كدليل على إذعان الجوارح لخالقها، وتمرغ الجبهة بالتراب تذلاًً لله، واعترافاً بخالقيته وربوبيته.

⁵⁵ تذكرة الخواص - سبط ابن الجوزي ص 191.

ولاشك أن كثرة السجود على الأرض تشق جبهة العابد. فالجبهة إنما خلقت في مكان شامخ من جسد الإنسان، لكن العبودية لله تعالى جعلتها تستقر غالباً على الأرض تذلاً لخالقها وبارئها. وهكذا كانت عبادة الإمام الباقر (ع).

التعب بتلاوة القرآن الكريم:

ولم يكن كتاب الله المجيد خارجاً عن دائرة عبادته (ع) بل كان المحور الأساس في حياته اليومية. وهو الكتاب الناطق بالحق، المتكفل بإسعاد البشرية معلناً: (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)⁵⁶، (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...)⁵⁷. كان (ع) شغوفاً بتلاوة كتاب الله المجيد، والتدبر في معانيه، وبث علومه بين الناس. فالقرآن الكريم كتاب الله المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو الكتاب الذي (ليس في أخباره عما مضى باطل، ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل)⁵⁸، كما قال عليه السلام.

يصنّف الإمام الباقر (ع) قُرْآنَ القرآن في زمانه، إلى ثلاثة أصناف: منهم من اتخذه بضاعة استدر به جوائز الملوك، ومنهم من حفظ حروفه وضيع حدوده، ومنهم من تلا القرآن بإخلاص. وهذا الصنف

⁵⁶ سورة آل عمران: الآية 138.

⁵⁷ سورة الإسراء: الآية 9.

⁵⁸ مجمع البيان - الطبرسي ج 9 ص 27.

الأخير هو موضع اهتمامنا، يمثله: (رجلٌ قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فأسهر به ليله، وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وبأولئك يديل الله عزّوجلّ من الأعداء، وبأولئك ينزل الله عزّوجلّ الغيث من السماء، فوالله لهؤلاء في قراء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر)⁵⁹.

كان (ع) يكرر للناس تحذير رسول الله (ص): (يا معاشر قراء القرآن اتقوا الله عزّوجلّ فيما حملكم من كتابه، فإنني مسؤول وإنكم مسئولون. أني مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأما أنتم فتسألون عما حملتم من كتاب الله وسنتي)⁶⁰.

فالتعبد بالقرآن الكريم ليس بالتلاوة وحدها، بل بالجمع بين التلاوة والعمل بمفاهيم كتاب الله المجيد وأحكامه، فهو مسؤولية يتحملها الإنسان العارف بآيات القرآن الكريم.

ولاشك أن التدبر في القرآن الكريم لا يتم إلا عن طريق الأخذ بآياته، والتفكر بما أراده الله تعالى للناس، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)⁶¹. فأمرهم (ع): (بإياكم والخصومة [في القرآن] فإنها

⁵⁹ الكافي ج 2 ص 627، وأمالى الشيخ الصدوق ص 121.

⁶⁰ الكافي ج 2 ص 606.

⁶¹ سورة محمد: الآية 24.

تحبط العمل، وتمحق الدين)⁶²، و(ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر)⁶³.

ولم يتوقف (ع) عند إرشاد الناس إلى التنعم بأجواء القرآن الكريم، بل حدد لهم عدد الآيات الذي يُستحب ان تُقرأ: (من قرأ عشر آيات في ليلة لم يُكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كُتب من الذاكرين، ومن قرأ مائة آية كُتب من الفائزين، ومن قرأ مائتي آية كُتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كُتب من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة آية كُتب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كُتب له قنطار من تبر)⁶⁴ ⁶⁵.

والأصل في التلاوة ذكر الله تعالى بحالة من حالات الخشوع، والتدبر والتفكر في خلق السماوات والأرض، وترسيخ مشاهد القيامة في ذهن القارئ المتدبر، وبذلك تصبح قراءة كتاب الله المجيد حالة تعبدية يتقد فيها الذهن، وتصفى فيها الروح، فتستريح عندئذ حالة الجسد العابد العارف بالله وتطمئن بذكره سبحانه.

يومٌ في الحج

ولنتصور أن يوماً قضاه الإمام (ع) في مناسك الحج، فكيف كان نشاطه في المناسك، وكيف يبدأ تلك الشعيرة الآلهية وكيف ينتهي منها؟

⁶² تفسير العياشي ج 1 ص 18.

⁶³ معاني الأخبار - الشيخ الصدوق ص 190.

⁶⁴ التبر: الذهب.

⁶⁵ الكافي ج 2 ص 612.

لاشك أن تصورنا عن يوم الإمام (ع) في الحج ينبع عن روايات وأحاديث تبين نشاطه (ع) وفعاليته أيام مناسك الحج، من المقدمات، إلى المناسك، إلى الأدعية، إلى الوقوف في عرفات والمشعر الحرام.

من مقدمات السفر إلى الحج:

في البداية وقبل سفره من مقره في المدينة المنورة إلى مكة المكرمة توضأ (ع) وصلى ركعتين، ثم دعا بهذا الدعاء الجميل:

(اللهم إني خرجت في سفري هذا بلا ثقة مني بغيرك، ولا رجاء يا أوي إلا إليك، ولا قوة أكلت عليها، ولا حيلة أجا إليها إلا طلب فضلك، وابتغاء رزقك، وتعرضاً لرحمتك، وسكوناً إلى حسن عبادتك، وأنت يا إلهي أعلم بما سبق لي في سفري هذا مما أحب وأكره، ولما أوقعت عليّ فيه قدرك، ومحمود بلائك، فأنت يا إلهي تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب...)⁶⁶.

فهو (ع) يخرج من بيته وكله ثقة بأن الله عزوجل يحميه بفضله وقوته، ويقدر له ما مضاه في قضائه. ثم يطلب منه تعالى أن يرزقه الصبر والقوة في عبادته، والحفظ في أهله وماله وحوائجه، فيقول:

(وارزقني الصبر والقوة والمحمدة لك، والنجاة من كل محذور ومقدور بما أنت أعلم به مني، واجعل ذلك خيرة لي في آخرتي ودنياي، وأسئلك يا رب أن تحفظني فيما خلقت ورائي من أهلي ومالي ومعيشتي

⁶⁶ بحار الأنوار ج 76 ص 262.

وصنوف حوائجي، يا من ليس فوقه خالقٌ يُرجى، يا من ليس دونه ربٌّ ينجى، يا من ليس غيره إلهٌ يدعى، يا من ليس له وزير يؤتى، يا من ليس له حاجبٌ يغشى، يا من ليس له بوابٌ يُرشى... (67).

وعن أبي عبيدة (ت 150 هـ)، يصف بساطة الإمام (ع) وتواضعه في وقت كانت الناس تفتخر بالخدم والحاشية: "زاملتُ أبا جعفر (ع) فيما بين المدينة ومكة، فلما انتهى إلى الحرم إغتسل وأخذ نعليه بيديه، ثم مشى في الحرم"68. أي بتلك البساطة، بدون خادمٍ يخدمه، أو حارسٍ يحرسه، أو حاشيةٍ تحيط به، على عكس عرف ذلك الزمان بوجود الخدم والحاشية.

الإمام الباقر (ع) في المناسك وسط الحجيج:

ومع أننا لا نعلم عدد المرات التي ذهب بها الإمام (ع) إلى الحج، لكننا نعلم أن الناس كانت تعرف إمامها (ع)، فما أن يذهب لأداء الفريضة، حتى يجتمع إليه الحجيج من كل صوبٍ وحدثٍ يسألونه عن أمور عقيدتهم، وأحكام دينهم.

ولما كان الحج عبادة ينقطع فيها الإنسان إلى ربه كبقية العبادات، كانت تظهر عليه (ع) آثار الخشوع بأجلى صورها في أداء المناسك. فعندما يدخل المسجد الحرام يمتزج صوت دعائه بالبكاء، مفسِّراً ذلك: (...)

67 بحار الأنوار ج 76 ص 262.

68 الكافي ج 4 ص 398.

أني أرفع صوتي بالبكاء لعل الله ينظر إليّ برحمةٍ فأفوز بها غداً⁶⁹.
وعندما يصلي خلف مقام النبي إبراهيم (ع)، كان لا يترك موضع سجوده
إلا وقد ابتلّ من دموع عينيه⁷⁰.

وكان (ع) لا يترك صلاة الليل حتى في سفره، كما نقل الإمام
الصادق (ع) عن أبيه (ع) قال: (كان أبي (ع) يدعو بالطهور في السفر
وهو في محمله⁷¹ فيؤتى بالتور⁷² فيه الماء فيتوضأ، ثم يصلي الثماني
والوتر في محمله، فإذا نزل صلى الركعتين والصبح)⁷³.

ولم تكن النخبة من الحجيج لتترك الإمام (ع) يحج بمفرده بل
كانت تحتفّ به إلى درجة أن أحدهم كان يصفه بهذا الوصف: "إلا أن هذا
باقر علم الرسل، وهذا مبين السبل، وهذا خير من رسخ في أصلاب
أصحاب السفينة، هذا ابن فاطمة الغراء، العذراء الزهراء، هذا بقية الله في
أرضه، هذا ناموس الدهر، هذا ابن محمد وخديجة وعلي وفاطمة، هذا منار
الدين القائمة"⁷⁴.

⁶⁹ تاريخ دمشق ج 5 ص 44.

⁷⁰ المصدر السابق.

⁷¹ المَحْمَل: الهودج.

⁷² التور: إناء يُشرب فيه. والجمع: أتواز.

⁷³ تهذيب الأحكام - الشيخ الطوسي ج 3 ص 232.

⁷⁴ مناقب آل أبي طالب - المازندراني ج 4 ص 183.

ولم يرق لهشام بن عبد الملك اهتمام الحجيج بالإمام الباقر (ع) في السنة التي حج فيها، حيث أقبل الناس ينثالون⁷⁵ عليه. فقال عكرمة مستقهماً: من هذا الذي عليه سيماء زهرة العلم⁷⁶؟ لأجربته! فلما مثل بين يديه اذعن لعلمه (ع)، ثم قال: يا بن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني أنفاً ما أنا به، فقال له الإمام (ع): (... إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)⁷⁷.

وكان جعفر الصادق (ع) يرافق أباه الإمام الباقر (ع) في الحج، وكان ينقل لنا دعاء أبيه (ع): (الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً، وأكرمنا به فنحن صفوة الله على خلقه، وخيرته من عباده وخلفاؤه، فالسعيد من أتبعنا والشقي من عادانا وخالفنا...)⁷⁸.

ما هو أقرب إلى الله من الحج:

لم يكن الدعاء وإداء المناسك كل عمله في مكة، بل كان يُطعم الفقير ويساعد المحتاج، ويتصدق في حبه بلحوم الأضاحي بثلاث على جيرانه، وثلاث على السائل الفقير، وثلاث يمسكه لأهل بيته (ع)⁷⁹.

⁷⁵ ينثالون: إنثال: إنصب عليه القول أي تتابع وكثر.

⁷⁶ زهرة العلم: بهجة العلم ونضارته وحسنه.

⁷⁷ مناقب آل أبي طالب ج 3 ص 317.

⁷⁸ الأمان من أخطار الأسفار والزمان - ابن طاووس ص 52.

⁷⁹ الكافي ج 4 ص 499.

وفوق ذلك كان (ع) يدعو إلى سد حاجة الفقراء، وإغاثتهم وكسوتهم، فالأصل في العبادة بعد شكر الخالق هو الرحمة بالعباد، كما نفهم من قوله (ع): (والله لأن أحج حجة أحب إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة ورقبة ومثلها ومثلها حتى أبلغ عشراً، ومثلها ومثلها حتى أبلغ السبعين، ولأن أعول أهل بيت من المسلمين أسدّ جوعتهم، وأكسو عورتهم، فأكفّ وجوههم، عن الناس أحب إليّ من أن أحج حجة وحجة ومثلها ومثلها، حتى أبلغ عشراً ومثلها ومثلها حتى أبلغ السبعين)⁸⁰.
ومفهوم كلامه (ع) أن الحجة الأولى الواجبة لا غبار في وجوبها، ولكن إذا كان هناك تخيير بين أن أسدّ حاجة الفقراء بإطعامهم وكسوتهم، وبين أن احجّ ثانياً وثالثاً، كان إعانة بيت من المسلمين أحبّ عند الله تعالى من الحجة الثانية والثالثة المستحبة.

في وصف النور الأبلج (ع):

وعن حيابة الوالبية (ت 204 هـ)⁸¹ قالت: "رأيتُ رجلاً بمكة، أصيلاً⁸²، في الملتزم⁸³، أو بين الباب والحجر، على صعدة من الأرض،

⁸⁰ الكافي ج 2 ص 195.

⁸¹ المشهور أن وفاتها كانت بعد وفاة الإمام الرضا (ع) بتسعة أشهر.

⁸² الأصيل: وقت العصر وبعده.

⁸³ الملتزم: هو مكان بين الحجر الأسود وباب الكعبة وطوله أربعة أذرع. عن ابن عباس: أن الملتزم ما بين الركن والباب. وهو موضع إجابة الدعاء. وكان الإمام

وقد حزم وسطه على المنزر بعمامة خز. والغزالة⁸⁴ تُخال على قلال الجبال كالعمائم على قِمم الرجال⁸⁵. وقد صاعدَ كفه وطرفه نحو السماء ويدعو، فلما إنثال الناس عليه يستقونَه عن المعضلات، ويستقون حل المشكلات، فلم يرم حتى أفتاهم في ألف مسألة، ثم نهض يريد رحله، ومنادٍ ينادي بصوت سهل⁸⁶: ألا إن هذا النور الأبلج⁸⁷ المسرج⁸⁸، والنسيم الأرج⁸⁹، والحق المُرَج⁹⁰. وآخرون يقولون من هذا؟ فقيل: محمد بن علي الباقر، علّم العلم، والناطق عن الفهم، محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام⁹¹.

فهذه المرأة المؤمنة تصف الإمام الباقر (ع) بأرقى صفاته، وتقول أنها رآته وقت العصر وهو يطوف بين الحجر الأسود وباب الكعبة، في مكان يسمى بالملتزم، يقُرُّ لله تعالى بذنوبه، ويدعوه عزوجل بكفيه وهو

الصادق (ع) إذا انتهى إلى الملتزم قال لمواليه: (أميطوا عني حتى أقرّ لربي بذنوبي في هذا المكان...) الكافي ج 4 ص 410 باب الملتزم والدعاء عنده. حديث 4.

⁸⁴ الغزالة: الشمس.

⁸⁵ القِمَم: جمع قِمة بالكسر، وهي أعلى الرأس. أي كانت الشمس في رؤوس الجبال، وكأنها عمامة على رأس رجل لإتصالها برؤوسها وقرب أفولها.

⁸⁶ الصهل: حدة الصوت مع بحج.

⁸⁷ الأبلج: الواضح المضيء.

⁸⁸ المسرج: المضيء، من إيقاد السراج.

⁸⁹ الأرج: إنبعاث ريح الطيب.

⁹⁰ الحق المُرَج: ربما من التحرك والإهتزاز لتحركه بين الناس.

⁹¹ مناقب آل أبي طالب ج 3 ص 317.

ينظر إلى السماء، فما أن انتهى من دعائه وطوافه حتى تجمع الحجيج يسألونه ويستقونهم بمعضلات المسائل الشرعية التي لا يقدر على حلّها إلا من كانت لهم صفات بيت النبوة (ع)، فأجابهم على مسائلهم، ثم غادر المكان، وصوت الحق ينطلق من أحد الحجيج يعرفه بأنه نور آل محمد المّشعّ بالعلم، الزكي بعطر الإيمان، الناطق باسم القرآن، هو محمد بن علي الباقر (ع).

وكانت تلك طبيعة حج الإمام الباقر (ع): عبادة، وتقوى، وعلم. كان حجه (ع) إتصلاً بالخالق، وعبادة خالصة لله تعالى، ومدرسة يتعلم منها الناس شتى أحكام الإسلام وأصوله وعقائده، ومثالاً يُحتذى في البساطة وتهذيب النفس.

يومٌ مع الفكر والبلاغة

ومع أن يوماً كاملاً قد لا يستوعب فهم بلاغة الإمام (ع) وفصاحته، لكن دعنا نتصور يوماً مع الإمام الباقر (ع) في عالم الفكر والأدب والبلاغة. فالبلاغة طريقٌ أصيلٌ لإيصال المعلومة الدينية إلى المخاطبين، وتحريك مشاعرهم نحو الإيمان بخالق الوجود، وتنفيذ ما أوصاهم به الله تعالى.

نستلهم ذلك من كلماته البليغة في مناجاة ربه: (اللهم بنورك اهتديت، وبفضلك استغنيت، وفي نعمتك أصبحت وأمسيت، ذنوبي بين

يديك، استغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أسئلك من حلمك لجهلي، ومن فضلك لفاقتي، ومن مغفرتك لخطاياي)⁹².

في تلك الكلمات البليغة نعيش أجواء الإيمان والإدراك والهداية. فعن طريق نوره تعالى اهتدينا، وعن طريق فضله استغنينا عن الخلق، وعلى بساط نعمته أصبحنا وأمسينا، ومع ذلك فإن صحيفة أعمالنا مكشوفة لديه بما فيها ذنوبنا وجهلنا وخطايانا، فيسئل الله بجلمه العظيم غفران ذنوبنا، والصفح عن جهلنا، وتجاوز خطايانا.

ثم يدعو الله تعالى: (اللهم إني أسئلك الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، اللهم اجعلني أخشاك إلى يوم ألقاك حتى كأني أراك، اللهم أوزعني أن أنكرك كي لا أنساك ليلاً ولا نهاراً، ولا صباحاً ولا مساءً...) ⁹³. والإنسان يختبر في حياته الممتدة عبر الزمن بلاءً ورخاءً، ومصاعب ومكاسب، فيسأله تعالى أن يلهمه الصبر عند البلاء، والحمد والشكر عند الرخاء. فما بين الصبر والشكر محطات للتعبد والتفكير في قضاء الخالق وقدره. ويطلب منه تعالى أن يكون معه وكأنه يراه، خصوصاً في أوقات الخشية والتفكير في لحظات الحياة. ويطلب منه أن يتواصل ذلك الذكر في القلب والعقل حتى لا ينساه، لأن الغفلة في الدنيا تؤدي إلى نسيان ذكر الله تعالى، وما يتبعها من خسران وخيبة.

⁹² مهج الدعوات ص 169.

⁹³ مهج الدعوات ص 169.

البلاغة وطريق الوصول:

البلاغةُ في اللغة: الوصول والإنتهاء إلى الشيء، وفي الإصطلاح: حسن البيان، وقوة التأثير، والوصول إلى المعنى بكلامٍ بليغٍ، فالبلاغةُ في الكلام تعني المطابقة للمراد من المعاني مع فصاحة ألفاظه، وحُسن سبكها.

والبلاغة عند الإمام الباقر (ع) تعني وضوح دلالة الألفاظ التي يخاطب بها المكلفين بمعانيها الشرعية الحقيقية، حيث تقوم على أساس فطرة الإمام (ع) في تذوق الألفاظ البليغة، وعلى بصيرته النافذة التي تُحكّم بناء الأفكار الدينية التي يطمئن لها العقل والقلب معاً.

لم يكن الإمام (ع) بليغاً في إختيار الكلمات العربية المعبرة فحسب، بل كان بليغاً في بناء التراكيب اللغوية التي تعطي المعاني ذلك الوضوح والعمق، وهي التي يسميها علماء اللغة بـ"النُظْم". وهذا ما أعتقده الجرجاني (ت 474 هـ) لاحقاً حينما قال: "أن البلاغة والجمال الفني، ليس في الألفاظ والمعاني، بل في التراكيب أو العلاقة القائمة بين الألفاظ في العبارات، وما ينتج من هذه العلاقات من معانٍ أو نظمٍ"⁹⁴.

وكلام الإمام (ع) كان بليغاً لأن ألفاظه كانت فصيحة، غير متوعرة، ولا من الفاظ العامة، ولا متنافرة الحروف، ولا غريبة الإستعمال، ولا خارجة عن السياق.

⁹⁴ دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني ص 51.

كان كلامه (ع) في خطاب الناس: إيجازاً من غير عجز، وإطناباً من غير خَطَلٍ⁹⁵، وذو معانٍ كثيرةٍ في ألفاظٍ قليلةٍ، وقوّةٌ على بيان مع حسن إنتظامٍ، وأصابة المعنى، وقصد الحجة.

جَنِبَةُ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ الْإِمَامِ (ع)

في كلام الإمام الباقر (ع) جوانب بلاغية رائعة، نعرضها في البيان، والمعاني، والبديع. ووضوح عباراته (ع)، وجمالية تركيبها يُغنيننا عن الإسهاب.

في البيان:

يُراد به إيراد المعنى الواحد بطرقٍ مختلفة في وضوح الدلالة عليه. وفيها ألوان من البلاغة، والفصاحة، وثراء المعاني. ومن ذلك قوله (ع): (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، اللهم إنك محسنٌ فأحسن إلي، اللهم إنك رحيمٌ تحب الرحمة فأرحمني، اللهم إنك لطيفٌ تحب اللطف فالطف بي)⁹⁶. فهو يطرح المعنى بطرقٍ مختلفةٍ في وضوح الدلالة عليه في العفو، والإحسان، والرحمة، واللطف بالعبد الضعيف.

⁹⁵ الخَطَلُ: المنطق الفاسد والكلام المضطرب. في حديث علي (ع): (... فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل) النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الأثير ج 2 ص 50.
⁹⁶ مهج الدعوات ص 169.

لاحظ وجوه البيان والبلاغة في وصف أعمال يوم الجمعة، عندما قال (ع) داعياً أحد تلامذته بتلاوة هذا التوسل إلى الله تعالى بعد صلاة ركعتين: (إلهي أجرني من السيئات، واستعملني عملاً بطاعتك، وارفع درجتي برحمتك، وأعزني من نارك وسخطك، اللهم إن قلبي يرجوك لسعة رحمتك، ونفسي تخافك لشدة عقابك، فوفقني لما يؤمنني مكرك، ويعافيني من سخطك، واجعلني من أوليائك، وتفضل عليّ برحمتك ومغفرتك، واسترني بسعة فضلك عن التذلل لعبادك، وارحمني من خيبة الردّ وسفع نار الحرمان)⁹⁷.

فهو بعد أن يستجد ربه بإبعاده عن عمل السيئات، يطلب منه تعالى أن يستعمله في كل ما يرضيه، ويهديه إلى طريق العبادة والخير، ويرفع درجته في الدنيا والآخرة، وأن يعيذه من حرّ جهنم وعذابها. ثم يبين له أن قلبه متأرجح بين الخوف والرجاء أو بين الرهبة والأمل، فهو يرجو من الله الخير لسعة رحمته تعالى ولكنه يخافه لشدة عذابه، ويطلب منه التوفيق بين عدم التمكين من الذنب وبين تجنب غضبه تعالى، وأن يجعله من أوليائه، وأن يستر عليه، ويعفيه من التذلل للناس، لأن أمر تلبية الحاجات والرزق بيده وحده سبحانه، وما الناس إلا وسيلة من وسائل تسليم الرزق للمرزوق.

ثم يقول: (اللهم أنت خير مأتي، وأكرم مزورٍ، وخير من طُلبت إليه الحاجات، وأجود من أعطى، وأرحم من استرحم، وأرأف من عُفي،

⁹⁷ مصباح المتهجد ص 250.

وأعزّ من اعتمد. اللهم وبي إليك فاقه، ولي عندك حاجات، ولك عندي طلبات من ذنوب أنا بها مرتهن، قد أوقرتْ ظهري وأوبقتني، وإلا ترحمني وتغفرها لي أكن من الخاسرين...)⁹⁸.

وجوهر دعائه هو، وكأنه يخاطبك ويقول لك: إن طلبت حاجة، فعليك أن تطلبها من الجواد الرؤوف الرحيم. ولسان الحال هو أنه يخاطب ربه بأنه خير من طلبت منه الحاجات، لأنه هو الجواد المعطي، وهل هناك أرحم منه تعالى وأجود؟ أبدأ، فهو العالم بالحاجات، وهو العالم بمصالح المخلوقات ومديرها. فالعطاء منه تعالى كرمٌ وتدبير، ومصالحةٌ وعلمٌ لذلك العبد الجاهل المحتاج. فهو وإن يطلب من ربه قضاء حاجاتٍ بعينها إلا أن لسان حاله يتكسر ويتعثر لكثرة الذنوب التي قصمت ظهر الداعي! لكن الأمل يبقى متقدماً بأن تلك الذنوب يغفرها قابل التوبة وغافر الذنب، بل هو قادرٌ على محيها من صحيفة السيئات.

ويمكننا تحسس جمال البيان والبلاغة في خطاب الإمام (ع)، حينما ينسب الحكمة إلى رسول الله (ص) فيقول: (ألا أعلمك بكلماتٍ تدعو بهن يذهب الله عنك السقم، وينفي عنك الفقر، تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، توكلتُ على الحيّ الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيراً)⁹⁹.

⁹⁸ مصباح المتهدد ص 250.

⁹⁹ تفسير العياشي ج 2 ص 320.

فرسول الله (ص) يعلم المسلم كلمات وأفكاراً تبعد عنه بلاء الدنيا من مرض أو فقر، وهي:

- 1- لا حركة ولا حيلة إلا بمشيئة الله، ولا حول في دفع شرٍ، ولا قوة في تحقيق خيرٍ إلا بالله. وهذا هو قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
- 2- اعتماد القلب عليه تعالى في جلب المصلحة أو الخير ودفع المفسدة أو الضرر. وهذا هو التوكل على الله، أي ربط الأشياء بمشيئته تعالى. وهو قول: توكلت على الحي الذي لا يموت.
- 3- الثناء على الله بجميل صفاته، وهو قوله: الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وهي الرضا بكل شيء كتبه الله تعالى للإنسان.

وحديث آخر فيه جمالية البيان أيضاً قوله (ع) يرجعه إلى رسول الله (ص) أيضاً: (أربع من كنَّ فيه كان في نور الله الأعظم: من كان عصمة أمره شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: (...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)¹⁰⁰، ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب خطيئة قال: استغفر الله وأتوب إليه)¹⁰¹.
وتفصيلها أن الإنسان يدخل في دائرة نور الله الذي يشرق على الكون وينور جميع المخلوقات، ويكون في كنف الله ورحمته إذا أقرَّ بتلك الكلمات واستقرت في ضميره ووجدانه، وهي:

¹⁰⁰ سورة البقرة: الآية 156.

¹⁰¹ ثواب الأعمال - الشيخ الصدوق ص 198

1- حفظ الله للإنسان في قول الشهادتين وهي قوله: من كان عصمة أمره شهادة التوحيد والنبوة. فالإقرار بالتوحيد والنبوة هو إقرار بوجود الله تعالى ووحدانيته، وهذا أعظم إقرار يريده الدين السماوي من الإنسان، وهو أن يعتقد بوجود الخالق عزوجل ووحدانيته، وأنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وخاتمهم محمد بن عبد الله (ص).

2- الإقرار بأننا ملكٌ لله تعالى، يفعل بنا ما يشاء في الدنيا، ثم نعود إليه في الآخرة، وهذا منطوق التسلية لصاحب المصيبة. لأن صاحب المصيبة يكون في أضعف حالاته بفقدان عزيز أو موت قريب، فالموت دون يقين مسبق يزعزع الإنسان. فتريدي: (... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)¹⁰²، هو تكرار اليقين الذي ينبغي أن نتمتع به أوقات المصائب، خصوصاً الموت.

3- الثناء الجميل على الله إذا أصاب خيراً، قال: الحمد لله. فهو الثناء على الله بجميل صفاته التي تقال لله وحده. وهو شكر الله على نعمه وعطاياه التي لا تتقطع، بل ربما يعطي معنى (الحمد لله): الرضا بكل شيء كتبه الله علينا ولنا. ومنه قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...) ¹⁰³. والتزام الإنسان بالحمد هو تسليمه الكامل لعبودية الله تعالى.

4- الاستغفار والتوبة إذا أصاب خطيئةً وارتكب إثماً. والتوبة النصوح هي التوبة الصادقة التي يغفر الله بموجبها الذنوب، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

¹⁰² سورة البقرة: الآية 156.

¹⁰³ سورة الأنعام: الآية 1.

أَمْنُوا تُؤْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...¹⁰⁴. وتعني الندم على ما مضى من فعلٍ سيءٍ، والعزم الصادق على عدم تكرار الخطيئة.

في المعاني:

يُراد به معرفة أحوال اللفظ العربي التي يطابق مقتضى حال الخطاب. والقطعة التالية ينقلها الإمام الباقر (ع) أيضاً عن رسول الله (ص)، قطعة غاية في الأدب والبلاغة، ثرية في المعاني، غنية في الأفكار والمفاهيم. يقول (ص): (سبق العلم، وجفّ القلم، ومضى القضاء، وتمّ القدر بتحقيق الكتاب، وتصديق الرسل بالسعادة من الله لمن آمن واتقى، وبالشقاء لمن كذب وكفر بالولاية من الله للمؤمنين، وبالبراءة للمشركين...) ¹⁰⁵.

فهذه القطعة الغنية بالمعاني تبين حتمية القضاء الذي أراده الله تعالى للمؤمنين بفوزهم بالسعادة الأبدية، وللمكذبين في إنزال الشقاء الأبدى عليهم، وللمشركين بالإنقطاع عن الرحمة الإلهية. نقرأ معاً تلك المعاني المتعلقة بطبيعة العلاقة بين الإنسان وخالقه تعالى: فالله هو المنعم المدبر الرازق، وقوة الرزق والنعمة من الله تواجهه من قبل الإنسان بنفس القوة من المعصية والجحود. وكأن المخلوق العاصي الضعيف يواجه الخالق

¹⁰⁴ سورة التحريم: الآية 8.

¹⁰⁵ تفسير القمي ج 2 ص 210.

القاهر، وينسى أنه ضعيف ضئيل لا يساوي شيئاً أمام قدرة الله. إذن إرادة الخير دائماً منه تعالى، وإرادة الشر دائماً من قبل العصاة من البشر. وبالإجمال فإن المعاني التي تحملها أقوال رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع) معاني عظيمة تكشف لنا جانباً من طبيعة الخلق والتكوين، والحياة والتكليف، والقوة والضعف، والثواب والعقاب، والطاعة والمعصية.

في البديع:

يُراد به وجوه تحسين الكلام، وتطبيقه على مقتضى حال الخطاب ووضوح دلالاته.

قال الإمام الباقر (ع): (اللهم لك الحمد والشكر، والمنّ والفضل، والطول والنعمة، والعظمة والجبروت، والملك والملكوت، والقهر والفخر، والسؤدد والسلطان، والإمتنان والكرم، والجلال والجبر، والتوحيد والتمجيد، والتلهيل والتكبير، والتقديس والعظمة، والرحمة والمغفرة، والكبرياء، ولك ما زكى وطاب من الثناء الطيب، والمدح الفاخر، والقول الحسن الجميل، الذي ترضى به عن قائله، وترضى به ممن قاله وهو رضى لك)¹⁰⁶.

في دعاء الإمام (ع) هذا من حسن الكلام وجمال اللفظ ما يعجز القلم عن وصفه، فهو يشكر الله عزوجل بطريقة تكشف صفات الخالق في نعمة الخلق، وحسن الرزق، ومنتهى الجبروت، ومطلق الملك، وعظمة السلطان. فهو يشكر الخالق بعظيم صفاته، وبديع أفعاله، وعظيم تدبيره،

¹⁰⁶ بحار الأنوار ج 95 ص 204 - 208.

ومنتهى رحمته، ويتمنى على الله تعالى أن يتقبل ذلك الشكر والثناء الجميل بالرضا منه والرحمة والمغفرة على عبده.

ثم يقول (ع): (فتقبّل حمدي بحمد أول الحامدين، وثنائي بثناء أول المثنين، وتهليلي بتهليل أول المهللين، وتكبيرتي بتكبير أول المكبرين، وقولي الحسن الجميل بقول أول القائلين المجملين المثنين على رب العالمين متصلاً ذلك، كذلك من أول الدهر إلى يوم القيامة بعدد زنة الرمال، والتلال والجبال، وعدد جرع ماء البحار، وعدد قطر الأمطار وورق الأشجار، وعدد النجوم وعدد زنة ذلك، وعدد الثرى والنوا والحصا، وعدد زنة ذر السموات والأرض، وما فيهن وما بينهن، وما تحتهن وما بين ذلك وما فوق ذلك، من لذن العرش إلى قرار الأرض السابعة السفلى، وعدد حروف ألفاظ أهلهنّ، وعدد أزمانهم ودقائقهم، وسكونهم وحركاتهم، وأشعارهم وأبشارهم، وعدد زنة ما عملوا أو لم يعملوا، أو كان منهم أو يكون إلى يوم القيامة...) ¹⁰⁷.

في هذا المقطع يتمنى على الله عزوجل أن يكون حمده على رأس قائمة الشاكرين، الحامدين، المكبرين، فيفوز عندها بمقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ، على رأس قائمة العابدين، المهللين، المثنين على رب العالمين. ويتمنى ويدعو أن يكون حمده بعدد ذرات الرمال، ودقائق ذرات الجبال والتلال، وعدد قطرات ماء البحار، وعدد قطرات الأمطار، وعدد أوراق الأشجار، وعدد النجوم. يتمنى ويطلب من الله تعالى أن يكون له ذلك بعد

¹⁰⁷ بحار الأنوار ج 95 ص 204 - 208.

أن شكر الله في الليل والنهار، والصبح والمساء، وحمده حمداً كثيراً دبر كل صلاة واجبة ونافلة، وعقب كل يوم صام فيه تقرباً إلى الله تعالى. بل يتمنى أن يكون حمده لله تعالى من أول الدهر إلى يوم القيامة (زماناً)، وبعده ذرات السموات والأرض (مكاناً)، بل أعظم من ذلك مسافةً من لُذُن العرش إلى قرار الأرض السابعة السفلى.

يا جاعل الليل سكناً:

وعنه (ع) دعأؤه: (اللهم أنت الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، والشمس والقمر حساباً، ذلك تقدير العزيز العليم، يا غالباً غير مغلوب، ويا شاهداً ولا يغيب، يا قريب يا مجيب، ذلکم الله ربي، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب، أتذلل إليك تذلل الطالبين، وأخضع إليك خضوع الراغبين)¹⁰⁸.

فهو بعد أن يصف الله بما هو أهله، وبما وصف به نفسه في القرآن الكريم، وكونه الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، يأتي إلى تعداد نعمه على هذا الكون بتقدير فلق الصبح، وسكن الليل، ودوران الأرض حول الشمس والقمر، وكونه تعالى الشاهد المطلق الذي لا يغيب عن الكون وعن أخص أحوال الإنسان، وبعد هذا الوصف

¹⁰⁸ مصباح الكفعمي ص 138.

البديع يقول: توكلت عليك يا آلهي، يا من وصف نفسه بنفسه؛ وأتذلل إليك، وأطمع في رحمتك ورضوانك فإنك أهل الرحمة والمغفرة، وأطمع في قربك أنا، أما أنت فإنك أقرب إلي من حبل الوريد، تعلم ما عملته جوارحي وقلبي وضميري، أتذلل وأخضع لك خضوع الراغبين الطالبين.

ثم يقول (ع): (وأسئلك سؤال الفقير المسكين، وأدعوك تضرعاً وخيفةً، إنك لا تحب المعتدين، وأدعوك خوفاً وطمعاً، إن رحمتك قريب من المحسنين، وأتوسل إليك بخيرتك، وصفوتك من العالمين، الذي جاء بالصدق وصدق المرسلين، محمد عبدك، ورسولك النذير المبين، وبوليك وعبدك علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين...) ¹⁰⁹.

ثم يسأله سؤال الفقير المسكين، الذي لا حول له ولا قوة، فالداعي فقير ومسكين، لم يتجاوز على أحد، فيتوسل إليه بمحمد بن عبد الله (ص) رسوله النذير المبين، وبعلي بن أبي طالب (ع) وليه وعبد أن يتجاوز عنه ويثيبه ثواب الصابرين. وهذا التواضع الجمّ أمام الله تعالى من قبل الإمام الباقر (ع) يجعل كلامه أعمق وأمضى من ناحية البديع في اللغة، وتحسين الكلام، وتطبيقه على مقتضى الحال.

وفي دعاء آخر له يقول (ع): (اللهم ربّ الضياء والعظمة، والنور والكبرياء، والسلطان، تجبرت بعظمة بهائك، ومنتنت على عبادك برأفتك

¹⁰⁹ مصباح الكفعمي ص 138.

ورحمتك، ودللتهم على موجود رضاك، وجعلتهم دليلاً يدلّهم على محبتك، ويعلمهم محابتك، ويدلّهم على مشيتك...¹¹⁰.

يفتتح دعاءه (ع) بوصف خالقه بالصفات الالهية العظيمة: رب الضياء والعظمة، والنور والكبرياء، ثم يقول مع أنك جبار بعظمة بهائك، إلا إنك رحيم بمقدار رحمتك. وأنت الذي وضعت لعبادك طرقاً لرضاك، ودلائل لمحبتك إليهم. وتلك إفتتاحية لدعاء طويل يُطلب فيه من ربه الكريم أن يعينه على محن ما بعد الدنيا في القبر، وفي النشر والحشر، وعند الميزان، وعلى الصراط.

البلاغة وحسن تركيب المعاني والكلمات:

البلاغة من الزاوية الفلسفية تعني قوة التعبير العقلي بلغة جميلة فصيحة، بحيث تنتهي بإقناع المخاطب بصحة المدعى. ولا تتم البلاغة إلا عن طريق حسن تركيب الكلمات، وعرض المفاهيم العقلية، وتفسير المبهمات بطريقة توصل المراد إلى المستمع أو المخاطب. وتتطلب البلاغة إستيعاباً كاملاً لمفردات اللغة العربية، وإستيعاباً شاملاً للأفكار والعلل.

مثالٌ على بلاغة الإمام الباقر (ع) هذا القول: (اللهم عظم النور في قلبي، وصغر الدنيا في عيني، وأطلق لساني بذكرك، وأخرس نفسي من

¹¹⁰ المصدر السابق.

الشهوات (...)¹¹¹. فقد لخص هذا القول الثمين منهج الإنسان في عالم الدين والحياة بهذه المواصفات الأربع: تعظيم نور الإيمان في قلبه، وتصغير قيمة الدنيا في عينه، والتفوه بالكلمات النافعة التي تدعو إلى الخير على لسانه، وإخراص الشهوات في نفسه. ذلك القول المختصر منهج حياة وفلسفة فكر.

وإذا رجعنا إلى كلام الإمام الباقر (ع) بشكل عام، لرأيناه يجمع (ع) بين ثلاثة عناصر في الخطاب:

الأول: الوضوح التام في طرح الفكرة:

ونعني به وضوحاً يوصل المعنى إلى المخاطب حتى لو كان فيه تحدياً للوضع السياسي والاجتماعي في زمانه. ومن ذلك معالجته لمشكلة بغض الناس لأهل التقوى في ذلك الزمان. وهو بلاءٌ يؤلم المتقين أكثر من غيرهم، فيُعدُّ إمتحاناً لهم، بل هو تمحيصٌ لثباتهم على معتقدتهم. ففي رسالته (ع) إلى سعد بن عبد الملك¹¹²، يقول فيها: (يا أخي إن الله عزوجل جعل في كل من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من

¹¹¹ مصباح المتهدد ص 250.

¹¹² سعد بن عبد الملك هو من ولد عبد العزيز بن مروان، وكان الإمام (ع) يسميه: سعد الخير. دخل على الإمام (ع) وهو يبكي، فقال (ع) له: وما يبكيك؟ قال: وكيف لا أبكي وأنا من الشجرة الملعونة في القرآن. فقال (ع) له: (لست منهم. أنت أمويٌّ منا أهل البيت. أما سمعت قول الله عزوجل يحكي عن إبراهيم (ع): (...فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي... [سورة إبراهيم: الآية 36] الإختصاص - الشيخ المفيد ص 85.

ضلّ إلى الهدى، ويصبرون معهم على الأذى، يجيبون داعي الله، ويدعون إلى الله، فأبصرهم رحمك الله فإنهم في منزلة رفيعة، وإن أصابتهم في الدنيا وضیعة. إنهم يُحيون بكتاب الله الموتى، ويصرون بنور الله من العمى. كم من قتل لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضالّ قد هدوه، يبذلون دماءهم دون هلكة العباد، وما أحسن أثرهم على العباد؟! وما أقبح آثار العباد عليهم؟!¹¹³ .

يوضح الإمام الباقر (ع) في تلك الرسالة حقيقة تاريخية مهمة صُممت من قبل الله تعالى لإبقاء الجذوة الإيمانية في نفوس الناس، فيقول إن الله تعالى جعل مع كل رسول آثار من أهل العلم، أي دعاة الله ولدينه لا تهمهم الدنيا ولا متعها، بل جلّ همهم هو نشر الإيمان وإرجاع من ضلّ إلى طريق الهدى. فوظيفتهم الذاتية التي جبلوا عليها هو هداية الضالين حتى لو تحملوا الأذى في سبيل ذلك الهدف النبيل، وحتى لو رفضهم الناس بسبب تفانيهم من أجل الدين، فكانوا أن ضيّعوا كثيراً من الفرص الدنيوية، لكنهم وبسبب حبهم لله تعالى لا يخشون ذلك. فكم أحيوا بجهادهم من ماتت ضمائرهم وقلوبهم، وكم أخرجوا من الناس ممن عمى قلبه بعشق الدنيا إلى نور الإيمان والهداية. هؤلاء الأبرار لهم آثار جميلة على الناس، ولكن ما أقبح معاملة الناس لهم، وما أشدها عليهم!

والإمام (ع) يطرح واقع المجتمع كما هو، حيث يتحمل المتقون كراهية الكثير من الناس، وهو القائل: (أنه لا تُنال محبة الله إلا ببغض

¹¹³ الكافي ج 8 ص 52.

كثيرٌ من الناس)¹¹⁴. فبلاغته (ع) لا تضع السامع في عالم خيالي وتزوّق له الوضع خلافاً للحقيقة، بل تنقله إلى الواقع الحقيقي المرّ لوضع الناس في زمانه (ع). وتصوير تلك المرارة لا تتم إلا بسبك الفكرة، وبلاغة اللغة، ووضوح الأسلوب.

الثاني: إختيار المفردات وتركيبها بصورة جميلة:

بمعنى أنه يختار المفردات الجميلة ويركبها مفاهيم غنية بالأفكار، فلا بد من التأمل فيها، كما في النص التالي:

رسالة أخرى كتبها (ع)، يقول فيها: (أما بعد. فإني أوصيك بتقوى الله، فإن فيها السلامة من التلف، والغنيمة في المنقلب، إن الله تعالى يقي بالتقوى عن العبد ما عزب عنه عقله، ويجلي بالتقوى عنه عماه وجهله، وبالتقوى نجا نوح (ع) ومن معه في السفينة، وصالح (ع) ومن معه من الصاعقة، وبالتقوى فاز الصابرون، ونجت تلك العُصَب من المهالك، ولهم إخوان على تلك الطريقة يلتمسون تلك الفضيلة، نبذوا طغيانهم من إلتذاذٍ بالشهوات، لما بلغهم في الكتاب من المثّلات، حمدوا ربهم على ما رزقهم وهو أهل الحمد، وذمّوا أنفسهم على ما فرّطوا وهم أهل الذمّ، وعلموا أن الله تعالى الحليم العليم، إنما غضبه على من لم يقبل منه رضاه، وإنما يمنع

¹¹⁴ الكافي ج 8 ص 52.

من لم يقبل منه عطاءه، وإنما يضلّ من لم يقبل منه هداه، ثمّ أمكن أهل السيئات من التوبة بتبديل الحسنات...¹¹⁵.

فهو (ع)، وبعد أن يوصيه بتقوى الله، يقول له أن التقوى تجلب حفظ الله من شرور الناس في الدنيا، وتقدم الثواب الجزيل في الآخرة. وفي كون التقوى مرتبطة بالله تعالى دلائل منها: أنه سبحانه يُبعد عن المتقي أنواع الشرور والآفات، وعن طريقها يفتح له بصيرته، وينور ذاته بنور الله، ويُغلق له أبواب اللهو والفساد، ويفتح عليه أبواب العلم والمعرفة. وما سلاح نوح (ع) إلا التقوى نجاه الله بها ومن على السفينة. وما سلاح صالح (ع) إلا التقوى نجاه الله بها ومن معه من الصاعقة.

فالتقوى بطاقة جواز لنجاة الصابر، وبطاقة جواز للإفلات من المهالك. ذلك أن المتقي ينبذ الشهوات خوفاً من الله، وهو قادرٌ على فعلها، لكنه قرأ في كتاب الله المجيد حرمتها فارتدع عنها. وتعلم محاسبة نفسه فذمها، فاصبحت سنته في الحياة نقد الذات وجلدها في كل مرة تحيد عن طريق الخير وتسلك طريق الشر.

الثالث: المنحى الاخلاقي في حديثه (ع):

وفي كل جملةٍ أو مقطعٍ يشير إليه (ع) يتضمن منحىً أخلاقياً. هذا هو الدين السماوي في إطاره الاخلاقي، وفحواه في التعامل بين الناس وبين ربهم تعالى. يوضح (ع) ذلك، ويضعها ضمن دلائل، منها:

¹¹⁵ مستدرك الوسائل - المحيّد النوري ج 2 ص 370.

قوله (ع): (مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز، كلما إزدادت على نفسها لَفًا، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمًا)¹¹⁶. هنا يضرب الإمام (ع) مثلاً على البخل في الدنيا، فالمال مثلاً هو وسيلة من وسائل تسهيل أمور الحياة والناس، ولكن بعض الناس يستخدمونه كوسيلة من وسائل الجمع والإدخار، وينسون الإنفاق المأثور في الشريعة. ومثلُ الحريص الجامعُ للمال مثل دودة القز. فتلك الحشرة تظن أنها كلما لَفَت نفسها بالحريص إزدادت مناعتها من تعرض بقية الحشرات لها، لكنها لا تعلم أنها مخطئة، فكما لَفَت على نفسها بخيوط الحماية إزدادت فرص خنقها وحتمية موتها، وكذلك البخيل أو الحريص على الدنيا فهو يتصور أن اكتنازه المال إنما هو لمصلحته، ولكن لا يعلم أن مصير كنهه المال مشابهٌ لمصير لفة دودة القز نفسها بخيوط الحريص حتى تختنق. وهذا مثلٌ اخلاقي يضربه الإمام (ع) لتلك الشريحة من الناس.

وفي موضع اخلاقي آخر يقول: (ما اغرورقت عينٌ بمائها، من خشية الله عزوجل إلا حرّم جسدها على النار، ولا فاضت دمعاً على خدٍ صاحبها، فما رهن وجهه قترٌ، ولا ذلّة يوم القيامة، وما من شيء من أعمال الخير إلا وله وزنٌ وأجرٌ إلا الدمعة من خشية الله، فإن الله يطفئ

¹¹⁶ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر - ابن أبي فراس ج 2 ص 194.

بالقطرة منها بحاراً من نارٍ يوم القيامة، وأن الباكي ليبكي من خشية الله في أمةٍ فيرحم الله تلك الأمة ببكاء ذلك المؤمن فيها)¹¹⁷.

فأهم المناحي الاخلاقية عند الإنسان هي رقة القلب وخشيته وخوفه من الله تعالى، حيث تترجم تلك الخشية بدمعة تسيل على وجه صاحبها، والدمعة تطفئ بحاراً من النار يوم القيامة. يشرق هذا المنحى الاخلاقي في كلام الإمام (ع) على معاني الدين والإلزامات فيجعلها ذات طبيعة مثالية يتمنى أن يتحلى بها الإنسان.

وفي موضوع أخلاقي ثالث، يقول (ع): (أربع من كنّ فيه كمل إسلامه، وأعين على إيمانه، ومُحصت ذنوبه، ولقى ربه وهو عنه راضٍ، ولو كان فيما بين قرنه إلى قدمه ذنوباً حطها الله تعالى عنه. هي: الوفاء بما يجعل الله على نفسه، وصدق اللسان مع الناس، والحياء مما يقبح عند الله والناس، وحسن الخلق مع الأهل والناس...)¹¹⁸.

هنا يقدم الإمام (ع) قاعدة لكمال الدين في معاملات الإنسان مع الله ومع الآخرين من أربع ركائز إجتماعية هي: الوفاء، والصدق، والحياء، وحسن الخلق؛ بمعنى أن يكون وفاقاً لجميع الناس بما أمره الله تعالى، وأن يكون صادق اللسان، وأن يكون متلبساً بالحياء، وأن يكون حسن الخلق معهم. وأفضل الناس هو الوفي، الصادق، ذو الحياء، صاحب الاخلاق الحسنة. تلك الصفات هي أقرب إلى الكمال. وبذلك المنحى الاخلاقي

¹¹⁷ أمالي الشيخ المفيد ص 93.

¹¹⁸ أمالي الشيخ الطوسي ج 1 ص 192.

يعيش الإنسان في سلام وسعادة مع نفسه ومع الآخرين. والإمام (ع) بتلك البلاغة وحُسن تركيب المعاني يقدّم الإسلام ديناً أخلاقياً يهتم بالمناحي الكمالية للمجتمع الإسلامي.

المادة والشكل في البلاغة

وبلاغة الإمام (ع) تعتمد على أمرين: المادة، والشكل.

الأول: المادة

وهي التي تتضمنها أقواله (ع) في العقائد والأحكام، وهي مادة غنية بالمفاهيم والأفكار الدينية. وكل كلام صدر عنه (ع) كان يتضمن حكمة، وأدباً، وفكراً إلزامياً بالوجوب، أو الحرمة، أو الإستحباب، أو الكراهة، أو الإباحة.

مثال ذلك: قوله (ع) لأحد أصحابه: (... استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقل من نفسك كثير الطاعة لله إزاءً على النفس وتعرضاً للعفو. وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم. واستعمل حاضر العلم بخالص العمل. وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ. واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف. واحذر خفي التزيّن بحاضر الحياة. وتوقّ مجازفة الهوى بدلالة العقل (...)¹¹⁹.

¹¹⁹ تحف العقول - ابن شعبة ص 285.

هنا يلخّص الإمام (ع) ثمانية مفاهيم في مقطعٍ واحدٍ: في الرزق والشكر، والطاعة والعفو، ودفع الشر بالعلم، والعلم بالعمل، والعمل بالتيقظ، والتهيؤ بصدق الخوف، وعدم التزين بحاضر الحياة، ومقابلة الهوى بدلالة العقل. بتلك الكلمات القليلة تقع على منجم عظيم من المادة الفكرية، والمعاني العظيمة.

فهو (ع) يفترض إنساناً مثالياً رائعاً. هذا الإنسان المثالي الذي يتصور أن القليل من الرزق هو كثيرٌ في حقه، فيشكر الله كثيراً على نعمة ذلك الرزق القليل.

وهو كثير الطاعة لله تعالى إلا أنه لا يعتبر ذلك كثيراً، بل يتصور أن طاعته قليلة بحق الله، أملاً في أن يعفو الله عن سيئاته، إن وجدت. ويغمر نفسه بطلب العلم والمعرفة حتى يدفع عن نفسه شرور الجهل والغرور، ثم يستعمل ذلك العلم للعمل الصالح.

وينقذ نفسه بالعمل الصالح من الإنغماس بالغفلة، فبعلمه وألوان معارفه متيقظٌ غير غافل. ذلك لأنه يخاف الله تعالى، فشدّة التيقظ عنده كانت دليلاً على مصداقية خوفه من الله تعالى.

ويبتعد عن الدنيا بالإبتعاد عن زينتها، وبهجرها، ويستخدم في ذلك دلالة العقل، وتلك الدلالة تبعده عن هوى النفس وعن مغريات الدنيا ومفاتها.

ومثالٌ ثانٍ هو في تفسير قوله تعالى: (... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ...) ¹²⁰، قال (ع): (قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم، فإن الله تعالى يبغض اللعان، السباب، الطعان على المؤمنين، الفاحش، المتفحش، السائل، الملحف، ويجب الحيي، الحليم، العفيف، المتعفف) ¹²¹.
هنا شخّص الإمام (ع) مشكلة إجتماعية موجودة في كل زمان، وتقسّم الناس إلى فئتين. الأولى: الناس ذوو الحلم والعفة والتعفف والحياء. والثانية: ذوو اللعن والسبّ والطعن على المؤمنين، وأهل الفحش، والسائلين الناس بأيديهم. قال (ع) إن الله يحب الفئة الأولى ويبغض الفئة الثانية. ودور الدين هو تشجيع الناس على الفضائل والاخلاق أي التخلق باخلاق الفئة الأولى التي يحبها الله تعالى في الحلم والعفة والحياء.

ومثالٌ ثالثٌ هو في أهل المعروف قال (ع): (صنایع المعروف تقي مصارع السوء، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة، وأول أهل الجنة دخولاً إلى الجنة أهل المعروف، وأول أهل النار دخولاً إلى النار أهل المنكر) ¹²²، و(عجباً لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار) ¹²³.

¹²⁰ سورة البقرة: الآية 83.

¹²¹ روضة الواعظين - القتال ص 310.

¹²² المصدر السابق.

¹²³ بحار الأنوار ج 62 ص 269.

ففي الحديث الأول يصف أهل المعروف بأعظم الصفات وهي أن الإحسان مشهود لهم في الآخرة كما هو مشهود لهم في الدنيا، وهم أول الناس جزاءً على إحسانهم ومعروفهم. عكسهم في ذلك أهل المنكر، فهم أول الناس دخولاً إلى دائرة العقاب والعذاب.

وفي الحديث الثاني يتعجب كيف يحتمي الناس من الطعام مخافة الداء والأذى ولا يحتمون من الذنوب مخافة العقاب.

في كل تلك الأقوال الشريفة تجد مادة نافعة غنية بالأفكار البليغة، والمفاهيم والحكم الاخلاقية.

الثاني: الشكل:

وهو اللغة البليغة العميقة التي تعطي الثقافة الدينية بُعداً جميلاً ذواقاً. ونعني بالشكل: التركيبية الخارجية للأفكار باستخدام كلمات وإِصطلاحات ذات بلاغة وفصاحة تحاكي ذكاء الإنسان في كل زمان.

مثال ذلك قوله (ع): (من توكل على الله لا يُغلب، ومن إعتصم بالله لا يهزم)¹²⁴، و(أن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض، ولا يعطي دينه إلا من يحب)¹²⁵، و(كن لما لا ترجو أرجأ منك لما ترجو، فإن موسى (ع) خرج ليقتبس ناراً فرجع نبياً مرسلًا)¹²⁶.

¹²⁴ روضة الواعظين ص 249.

¹²⁵ بحار الأنوار ج 73 ص 127.

¹²⁶ بحار الأنوار ج 78 ص 188.

في الحديث الأول يقول (ع): أن التوكل عصمة المؤمن، فمن توكل على الله لا يغلبه أحد لأن الله سبحانه حاميه وحارسه. والتوكل هو ارتباط عقلي بالله عزوجل، فالمتوكل لا يدعُ شيئاً إلا وسأل الله تعالى أن يكفيه شر ما كان ويكون.

وفي الثاني يقول: أن الله اختص دينه بمن أحبّ من المؤمنين، بينما منح الدنيا وخيراتها للجميع من أحب ومن أبغض. فهداية الإنسان إلى الدين هو توفيق من الله تعالى لمن أحبّ. أي أن للمؤمن الحبيب إلى الله تعالى خصوصية عظيمة خافية على الآخرين، وهي هدايته إلى نور الدين وجوهره، مع أن ظاهرها الفقر والمحنة والحاجة، ولكن جوهرها الرحمة والفوز بالثواب العظيم.

وفي الثالث يقول (ع): عوّد نفسك على تقليل توقعاتك أو قلّ ما ترجو في أمور دنياك، فكان موسى يرجو أن يقتبس ناراً، فرجع بأكبر مما كان يرجو وهو النبوة. وتحجيم الرجاء المتوقع أفضل للإنسان، فإذا توقع الإنسان أن يأتيه القليل ثم حصل على ما طمح وفيراً كثيراً كان ذلك أفضل.

ففي تلك الأمثلة الدالة على الشكل والتركيبية الخارجية للأفكار في بلاغة الإمام (ع) نستخلص أفكاراً مهمة، هي: أن التوكل عصمة الله للمتوكل، وأن الدنيا تعطى للجميع بينما يُمنح الدين للنخبة التي أحبها الله وأخلصت له، وأن المؤمن يقيس الرجاء المأمول على أدنى المقاييس أي أن يتوقع الحد الأدنى مما يطمح إليه.

مثال آخر عن الصادق (ع) قال: (كان أبي (ع) يقول في دعائه: رب أصلح لي نفسي، فإنها أهم الأنفس إليّ، رب أصلح لي ذريتي فإنهم يدي وعضدي، رب وأصلح إليّ أهل بيتي فإنهم لحمي ودمي، رب أصلح لي جماعة إخواني وأخواتي ومحبيي، فإن صلاحهم صلاحي)¹²⁷.

يرتب الإمام (ع) الأقرب له في مراتب ويدعو لهم حسب تلك المراتب، ففي المرتبة الأولى هي نفسه فيدعو الله لإصلاح نفسه فهي الأهم، لأن بها يُحاسب ويُثاب، وبها يُسئل عن العلل والمقتضيات، ثم أهل بيته وذريته، ثم الأخوان والأخوات والمحبين. والتفاضل هنا مبني على القرب إلى النفس. والأقربون أولى بالمعروف، وما الدعاء وتبني الخير إلا معروفاً.

وبالإجمال فإن للكلمة البليغة قوة إستثنائية لإيصال المعنى المراد إلى المخاطب. وقد قال تعالى على لسان رسوله (ص): (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...)¹²⁸، فكلام النبي (ص) وأوصيائه (ع) لا يقتصر على الذين عاشوا في زمانهم، بل يتعدى إلى كل من سمع كلامهم (ع) إلى يوم الحساب.

تلحظ في كلام الإمام الباقر (ع) وحدة المحتوى، وقوة التركيب، ورُقِيّ الشكل، بدون فقدان أصل الموضوع. وهذا هو أصل البلاغة. فالفكرة

¹²⁷ قرب الإسناد ص 6.

¹²⁸ سورة الأنعام: الآية 19.

التي لا بلاغة لها، وإن كانت سالحة، لا تستطيع أن تصل إلى عقل الإنسان وقلبه.

أخَرَسَ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَبِإِعْجَازِهِ، بِحَيْثُ تَحْدَاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ تَشَابَهَ الْكِتَابَ الْمَجِيدِ، وَلَمْ يَتِمَّ كُنُوتًا مِنْ ذَلِكَ، وَبَقِيَ التَّحْدِي قَائِمًا لِحَدِّ الْيَوْمِ، وَكَذَلِكَ بَقِيَ عَجْزُهُمْ أَيْضًا: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)¹²⁹. وكان كلامُ رسول الله (ص) إعجازاً في تفسير المفاهيم التي طرحها القرآن الكريم، وهكذا كان كلامُ أهل البيت (ع)، أصالةً في الفكرة، وبلاغةً في المحتوى، وجمالاً في التعبير من زمانهم وحتى اليوم.

الأدب العربي والشعر

على صعيد الأدب كان المجتمع العربي في القرن الأول الهجري يتذوق الأدب ويستحسن الشعر، والشعر من الكلام العذب الذي يوصل الفكرة إلى سامعيها بأفضل التعابير. إذن كان الشعر وسيلة من وسائل نقل الفكرة الدينية أو العقائدية إلى الناس.

كان الشعر مفتاحاً لقلوب البعض من الناس. وليس هذا بغريب فقد أكرم رسول الله (ص) الشاعر كعب بن زهير الذي أعلن توبته عن هجائه (ص)، وأنشده قصيدته: (بانئت سعاد فقلبي اليوم متبول)، وفيها:

إن الرسولَ لسيفٌ يستضاءُ به مهنَّدٌ من سيوفِ الله مسلولٌ

¹²⁹ سورة البقرة: الآية 23.

وهو سيفُ الوحي والمعرفة والعلم، ولا يستضاءُ إلا بالعلم والمعرفة.
وكذلك فعل الإمام الحسين (ع) مع الفرزدق الشاعر، وقال (ع):
(إن خير المال ما وقى العرض)¹³⁰.

وجدَ الإمام الباقر (ع) في شعر الكميت ما يوصل الفكرة الدينية في التوحيد والنبوة والإمامة إلى الأمة بالألفاظ العذبة، والكلمات الجميلة، ولذلك دعا الله عزَّوجلَّ أن يغفر له، ويرحمه، ويسدد رميته التي أراد بها وجهَ الله تعالى، وشفاعة رسوله محمد (ص).

كان الكميت بن زيد الأسدي (ت 126 هـ) من أهل الكوفة، شاعراً، عالماً بأداب العربية وأخبارها وأنسابها، منحازاً إلى الحق، مدافعاً عن بني هاشم، كثير المدح لهم. وُصِفَ بأنه "خطيب بني أسد، وفقه الشيعية، وأول من ناظَرَ في التشيع، حفظ القرآن الكريم. وكان كاتباً حسن الخط وفارساً شجاعاً، ديناً¹³¹.

عاصر الإمام الباقر (ع) وأسمعه شعراً جميلاً. قُتِلَ وهو يدافع عن أهل البيت (ع) بالشعر الجميل والقول الجزيل. قال أبو عكرمة الضبي (ت 250 هـ): لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان¹³²، ولم يكن للبيان لسان¹³³. لكنه (رضوان الله عليه) دفع ثمن ولائه لأهل البيت (ع) بدمه ومحو تاريخه، فُقُتِلَ شر قتلة من قبل بني أمية، وحاولوا دفن تراثه الشعري.

¹³⁰ كشف الغمة ج 2 ص 31.

¹³¹ خزانة الأدب - البغدادي ج 1 ص 99.

¹³² الأعلام - الزركلي ج 5 ص 233.

¹³³ روضات الجنات - الخونساري ج 6 ص 59.

ولم يكن في شعره أي ميلٍ للدعابة أو المجون، بل وجّه شعره إلى مآثر بني هاشم، وأخذ يذيع فضائلهم بأروع إيقاعات الشعر العربي، وبأجمل اللوحات الفنية التي تعكس الفكر والدين والفن.

بعضاً من الشعر بمحضر الإمام (ع):

كان الكميت يبذل من جهده وماله لحضور مجلس الإمام (ع) حتى يُسمعه شعراً جميلاً يعرض فضائل أهل البيت (ع) ومنازلهم. ومن قصائده التي أنشدها بمحضر الإمام الباقر (ع)، نقرأ منتخبات: ففي الهاشميات:

إلى النفرِ البيضِ الذين بحُبِّهم إلى الله فيما نابني أتقربُ
بني هاشمٍ رهطِ النبيِّ فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خَفَضْتُ لهم مني جناحي مودةً إلى كنفِ عِطْفَاهُ أَهْلٌ ومرحِبُ¹³⁴

قرأ شعره هذا على الإمام الباقر (ع)، فقال (ع): (اللهم أرحم الكميت واغفر له)¹³⁵، كما قال رسول الله (ص) لحسان بن ثابت: (ما زلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت)¹³⁶. وفي مناسبة ثانية قال (ع): (والله يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله (ص) لحسان بن ثابت) ثم ذكر ما قاله رسول الله (ص) آنفاً¹³⁷.

¹³⁴ ديوان الكميت بن زيد الأسدي ص 512 - 515.

¹³⁵ مناقب آل أبي طالب ج 3 ص 329.

¹³⁶ قصص العرب ج 2 ص 269. ومروج الذهب - المسعودي ج 2 ص 195.

¹³⁷ الكافي ج 8 ص 102.

وفي الميمية من (الهاشميات):

من لقلبٍ مُتَمِّمٍ مُسْتَهَامٍ
طارقاتٍ ولا اِكْكارِ غوانٍ
بل هَوَايَ الَّذِي أُجِنُّ وَأُبْدِي
للقريبين من ندى والبعيدين
والمُصِيبِينَ بَابَ مَا أَخْطَأَ النَّاسُ
وفيما حلَّ بأهل البيت (ع):

كلامُ النَّبِيِّينَ الْهَدَاةِ كَلَامُنَا
كَأَنَّ حَسِينًا وَالدَّهَالِيلَ حَوْلَهُ
يَخْضَنَ مِنْ آلِ أَحْمَدَ فِي الْوَعْيِ
وَوَغَابَ نَبِيُّ اللَّهِ عَنْهُمْ وَقَدَّهُ
يَصِيبُ بِهِ الرَّامُونَ عَنْ قَوْسٍ غَيْرِهِمْ
وفي العينية من (الهاشميات):

ويَوْمَ النَّوْحِ دَوْحٍ غَدِيرِ حُمٍّ
وَلَكِنَّ الرِّجَالَ تَبَايَعُوهَا
فَلَمْ أَبْلُغْ بِهَا لَعْنًا وَلَكِنْ
وأفعالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَفْعُ
لَأَسْيَافِهِمْ مَا يَخْتَلِي الْمَتَبَلُّ
نَمًا ظَلَّ مِنْهُمْ كَالْبَهِيمِ الْمُحْجَلُّ
عَلَى النَّاسِ رُزَّةً مَا هُنَاكَ مَجَلُّ
فِي آخِرِ سَدَى لَهُ الْعَيْ أَوْلُ¹³⁹

أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أُطِيعَا
فَلَمْ أَرِ مِثْلَهَا خَطَرًا مَبِيعَا
أَسَاءَ بِذَلِكَ أَوْلَهُمْ صَنْيَعَا¹⁴⁰

¹³⁸ ديوان الكميت الأسيدي ص 487 - 504.

¹³⁹ المصدر السابق ص 587 - 603.

¹⁴⁰ ديوان الكميت الأسيدي ص 622 - 625.

يومٌ في نشر العلم

كان الباقر (ع) بلسماً لجراح أمة محمد (ص) في الفكر والدين، فلو عشنا معه يوماً في نشر العلم لرأينا عجباً. فقد عاش في زمن إنتشرت فيه ألوان البدع، والانحرافات الفكرية، والزندقة، وأفكار التصوف والإبتعاد عن الحياة الطبيعية، والأفكار الجديدة البعيدة عن روح الإسلام. وكان سلاحه في محاربة تلك الأفكار المضادة هو العلم الديني، والمنطق، والعقل. ألا ترى أن من ميزة علمه هو قطع حجة الخصم، وإرجاع الفروع إلى أصولها، فلا عجب أن يقال في علمه (ع): "لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين (ع) في علم الدين والآثار والسنة وفنون الآداب ما ظهر من أبي جعفر الباقر (ع)"¹⁴¹.

الأجوبة المفحمة:

روي عنه معالم الدين جمعٌ من الصحابة كجابر بن عبد الله الأنصاري، والتابعين كجابر بن يزيد الجعفي، والفقهاء كالزهري وأبي حنيفة ومالك والشافعي. وسارت بذكر كلامه الأخبار، وانتعشت بفضل علمه الحجج والبراهين.

سأل أبو يوسف (ت 182 هـ) استاذَه أبو حنيفة النعمان (ت 150 هـ): ألقىت محمد بن علي الباقر؟ فقال: نعم وسألته يوماً فقلتُ له: [هل] أراد

¹⁴¹ الإرشاد ص 262.

الله المعاصي؟ فقال (ع): (أفيعصى قهراً؟) قال أبو حنيفة: فما رأيتُ جواباً أفحم منه¹⁴².

وهذا موضوعٌ يُبحث في فلسفة الجبر والتفويض. وهي مسألة كلامية تناقش كيفية صدور أفعال العباد، فهل لهم الإختيار في أفعالهم أم إنهم مجبورون لا حيلة لهم في اختيارها؟! وهذه المسألة مرتبطة بالعدل الالهي.

معنى الجبر هو إجبارُ الله عزوجل عباده على أفعالهم خيراً كان أو شراً، دون أن يكون للإنسان خيار الإمتناع. والتفويض هو أنه ليس لله تعالى دخلٌ في فعل العبد، فالإنسان مستقلٌ في فعله عن الله سبحانه!
جواب الإمام (ع) كان: هل من المعقول أن يجبر الله عباده على معصيته، فيعصونه قهراً، ثم يعذبهم على ذلك؟ وهو جوابٌ مُفحم منطوقاً كما قرأنا، ومفهوماً: كلا لا يجبر الله عباده على معصيته، ثم يحاسبهم على فعلهم! جواب الإمام (ع) اسقط نظرية الجبر والتفويض، ووضعها بحجمها الحقيقي كفكر إنساني قابل للخطأ.

وكان عطاء بن يسار (ت 103 هـ) أحد رواة الحديث يشهد قائلاً:
"ما رأيتُ العلماءَ عند أحدٍ اصغرَ علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيتُ الحكم بن عيينة (وكان عالماً فاضلاً في زمانه) عنده كأنه مغلوب"¹⁴³.

¹⁴² تنكرة الخواص ص 302.

¹⁴³ تنكرة الخواص ص 336.

وما يُثير الإستغراب هو أنه لو كان الأمر كذلك وهو إذعانهم لعلمه (ع)، فلماذا لم يذعنوا لإمامته وعصمته (ع)؟! وكانوا يرجعون إليه (ع)، وهو في صغره، ويستفيدوا من علمه (ع). ومن ذلك أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن مسألة فلم يقف على جوابها، فقال للرجل: "إذهب إلى ذلك الغلام - يقصد الباقر (ع) - فاسأله، وأعلمني بما يُجيبك"¹⁴⁴. وتلك الرواية تُغني عن الإسهاب. فهم "أهل بيتٍ مفهّمون"¹⁴⁵.

العلم الذي لا يخضع للتجارب:

كان علم الإمام (ع) علماً واسعاً يستند على خصائص مهمة: فقد كان حقائق صادقة لم تخضع لتجربة أو اقتباس أو محاكاة، ولها تبرير عقلائي مقبول في كل زمان ومكان، ولم تخرج عن إطار معاني الإيمان والفضيلة، ولم تكن علماً تجزيئياً بل كان علماً تاماً شاملاً في كل ما يتعلق بالدين من شؤون.

ولنضرب مثلاً على قبسة من قبسات علمه (ع) في يومٍ من أيامه (ع) في نشر العلم: كلمات مختصرة تختزل الفكر الإسلامي في جمل قصيرة تُثري المعنى، وتوصل مفاهيم القرآن الكريم إلى السامع بلغة توصيلية ميسرة، يقول (ع): (أوحى الله تبارك وتعالى إلى آدم (ع): يا آدم

¹⁴⁴ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 147.

¹⁴⁵ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 147.

إني أجمع لك الخير في أربع كلمات: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين الناس.
فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً.
وأما التي لك فاجازيك بعملك أحوج ما تكون إليه.
وأما التي بيني وبينك فعليك بالدعاء وعليّ الإجابة.
وأما التي فيما بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك¹⁴⁶.

فقد جمع الله الخير للإنسان في أربع قواعد أو كلمات:
الأولى: خاصة بالخالق عزوجل لا يشركها به أحد، وهي عبادته عبادة خالصة دون شائبة أو رياء أو شريك، لأنه هو الخالق المتفضل على خلقه، رازقهم ومدبرهم، ناظرٌ إلى أعمالهم، وهو أقربُ إليهم من حبل الوريد.
الثانية: هي أحوج ما يكون لها الإنسان، وهو الجزاء الأوفى، إن كان في الدنيا راحة النفس، والطمأنينة، والرزق، والقناعة، وإن كان في الآخرة فهي الجنة العالوية، ورضوان الله تعالى.
الثالثة: على الإنسان الدعاء والطلب منه سبحانه، وعليه عزوجل الإجابة. فهو عقدٌ أخلاقي حاشا لله أن يخلفه، وهو الخالق العظيم الرحيم، وقد قال في كتابه الكريم: (...ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...) ¹⁴⁷.

¹⁴⁶ معاني الأخبار ص 127.

¹⁴⁷ سورة غافر: الآية 60.

الرابعة: العقد الأخلاقي بين الإنسان والناس، فيرضى للناس ما يرضى لنفسه. أي أن يحب الخير للآخرين تماماً كما يحب أن يصيبه ذلك الخير. وفي مجمل خطابه للناس جوانب رائعة. فكان يطرح المعنى بدلالة واضحة، ومنه فكرته في الطلب إلى الله تعالى: (اللهم اكفني طلب ما قدرته لي عندك حتى استغني به عما في أيدي عبادك)¹⁴⁸.

وفي فكرته في الطلب بسلوك الشاكرين، كما في قوله (ع): (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسئلك شكر نعمتك، وأسئلك حسن عبادتك...) ¹⁴⁹. فهو (ع) يطلب من ربه الجليل أن يساعده في سلوك طرق العبادة على الثبات في الإيمان، والتمسك بالهداية، وأساليب شكر النعمة، وكمال العبادة.

وفي نقده لواقع حال المخاطبين، قوله (ع) في جماعة وعظهم، ولكن لَحِظْ أَنَّهُمْ سَاهُونَ لَاهُونَ: (ألا يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح، كأنكم خشبٌ مسندة، وأصنامٌ مريدة، ألا تأخذون الذهب من الحجر، ألا تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر، خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها...) ¹⁵⁰.

¹⁴⁸ مصباح المتهدد ص 250.

¹⁴⁹ مهج الدعوات ص 169.

¹⁵⁰ تحف العقول ص 211.

الجمع بين العلم والعمل:

ولم يكن العلمُ الأمرَ الوحيدَ الذي ميّزه (ع)، وجعله يترك بصمةً أبديةً في ضمير التاريخ، بل كان سلوكه الرفيع مسحةً إضافيةً تزيد في جمال شخصيته (ع) وكمالها. فمع كرمه (ع) وإحسانه إلى الفقراء والمساكين، كان أفضل أهل زمانه زهداً وعقّةً، فقد أعرض عن الدنيا بعلمٍ ورغبةٍ، وكان لباسه ومعيشتها وطعامه مثال البساطة، فقد كان فراشه الحصير، وطعامه أبسط ما يأكله الإنسان من طعام، كما ذكرت الروايات ذلك¹⁵¹. وكان أخف الناس مؤونةً، ولا يشغله من الدنيا إلا ذكر الله تعالى، وحُسن عبادته.

من عنده علم القرآن وتفسيره:

وبالإضافة إلى البلاغة والبيان كان له (ع) منهجاً تفسيرياً للقرآن الكريم استمده من علم رسول الله (ص) وآبائه الطاهرين (ع). وقد أختص أهل البيت (ع) بعلم القرآن، تفسيراً وتأويلاً. عرفوا المحكم من المتشابه، والناسخ من المنسوخ، والظاهر من الباطن، والمقيّد من المطلق، والخاص من العام. ولم يملك هذا العلم الألهي بعد النبي (ص) غيرهم، فهم المخصوصون بعلم القرآن، وإلى ذلك أشار الإمام الباقر (ع): (ما يستطيع أحدٌ أن يدعي أن عنده جميع [علم] القرآن ظاهره وباطنه غير

¹⁵¹ دعائم الإسلام - القاضي النعمان ج 2 ص 158، والكافي ج 2 ص 487.

الأوصياء)¹⁵². والأوصياء في ثقافة آل البيت (ع) هم فاطمة الزهراء (ع) والأئمة الاثنا عشر (ع) من ذرية رسول الله (ص).
هذا ما نعرضه في هذا الفصل، وسوف نبحث علم الإمام الباقر (ع) بصورة مفصلة في الفصول القادمة بإذنه تعالى.

يومٌ أمام الحاكم الظالم

عاش الإمام (ع) في زمنٍ قاسٍ حيث سلطَ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت 86 هـ) على أهل العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95 هـ) والياً فكان يذيق المؤمنين شتى ألوان العذاب والاضطهاد. فهو (ع) وإن لم يسكن العراق، إلا أن محبيه كانوا يذوقون مرارة عذاب الظالم وقسوته هناك. فلم يكن له وسيلة إلا التوجه إلى الله تعالى والدعاء لهم بتخليصهم من ذلك الظالم، فكان (ع) يدعو في قنوته: (اللهم إن عدوي قد استسن في غلوانه، واستمر في عدوانه، وأمن بما شمله من الحلم عاقبة جراته عليك، وتمرد في مباينتك، ولك اللهم لحظاتٍ سخطٍ بياتاً وهم نائمون، ونهاراً وهم غافلون، وجهرت وهم يلعبون، وبغتة وهم ساهون، وأن الخناق قد اشتد، والوثاق قد احتد، والقلوب قد محيت، والعقول قد تنكرت، والصبر قد أودى، وكادت تنقطع حباله، فإنك لبالمرصاد من الظالم، ومشاهدة من الكاظم، لا يجعلك فوت درك، ولا يعجزك احتجاز محتجز، وإنما مهل استنباتاً، وحجتك على الأحوال البالغة الدامغة، وبعبيدك ضعف

¹⁵² الكافي ج 1 ص 228.

البشرية وعجز الإنسانية، ولك سلطان الإلهية ومملكة البرية، وبطشة الأناة،
وعقوبة التأبيد...¹⁵³.

والإمام (ع) يدعو الله تعالى ويشرح له ما في قلبه من أن العدو
أمن العقوبة، وطغى في الأرض، وتمرد على خالقه ظاناً بأن خالقه لا يراه،
لكن كم اخطأ ذلك العدو الذي لم يكن يعلم بأن الله له بالمرصاد، وأن الله
لا تعجله الأمور، ولا يعجزه أخذ الظالم أخذ عزيز مقتدر.

وعندما يكره أمر، كان (ع) يتضرع إلى ربه بشتى ألوان الأدعية
والتوسل والتذلل، فيقول: (يا كائناً قبل كل شيء، ويا مكوئاً كل شيء، ويا
باقياً بعد كل شيء صلّ على محمدٍ وأهل بيته)¹⁵⁴، ثم يطلب تلك الحاجة
التي كانت تجلجل في صدره وتشغل باله.

النصيحة للحاكم:

ومع كل تلك الظروف القاسية التي مرّ بها، لم يغيب الإمام الباقر
(ع) عن المجتمع بل كان حاضراً في الساحة الاجتماعية ينصح حكام
زمانه إذا كانوا أهلاً للنصيحة، ويحذره ويدينهم إذا كانوا محلاً للتحذير
والإدانة.

فقد نصح (ع) عمر بن عبد العزيز (ت 101 هـ) وقال (ع) له:
(أنظر إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين

¹⁵³ مهج الدعوات ص 51.

¹⁵⁴ مهج الدعوات ص 215.

يديك)¹⁵⁵. وقد أدان هشام بن عبد الملك (ت 125 هـ) ومن كان حوله، فقد كانوا يتحिनون الفرص للنيل منه ومن علمه ومن كرامته. فخاطبهم قائلاً: (أيها الناس: أين تذهبون؟ وأين يُراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملكٌ معجل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأننا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين...) ¹⁵⁶.

لقد كان الإمام الباقر (ع) صادقاً في نصحه، فعندما يقول: (إن لنا ملكاً مؤجلاً) صدق في ذلك أعظم الصدق، فقد بقي لهم الملك المؤجل الأبدي وهو هذا الكم الهائل من العلم والمعرفة، وطرق التوسل بالله تعالى، ومصداقية الإمامة الكبرى. أين ملوك الأزمنة الساحقة من تلك السيرة المطهرة لأهل البيت (ع)؟ لقد بقيت فعلاً سيرتهم المطهرة في قلوب من أحب الإسلام وآمن به إلى الأبد.

الواعظ المفوه (ع):

وبعد خروجه في رحلته إلى الشام من بلاط هشام بن عبد الملك سئحت له (ع) الفرصة لوعظ أهلها الذين كانوا يكيلون له السب والشتم، فقام فيهم خطيباً، بعد أن حمد الله: (أيها الناس إجتنبوا أهل الشقاق، وذرية النفاق، وحشو النار، وحبس جهنم عن البدر الزاهر، والبحر الزاخر، والشهاب الثاقب، وشهاب المؤمنين، والصراط المستقيم، من قبل أن نطمس

¹⁵⁵ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 207 - 208.

¹⁵⁶ بحار الأنوار ج 11 ص 75.

وجوهاً فنردّها على أدبارها أو يلعنوا كما لعن أصحاب السبت، وكان أمر
الله مفعولاً...¹⁵⁷.

فهو يرى المجتمع أنذاك وقد وُضع في طبقتين: طبقة الشقاق
والنفاق وحصب جهنم حيث كانت تذيب الناس ويل عذاب الدنيا، وتظلم
الرعيّل الأعظم من فقراء الأمة ومساكينها وأتقيائها، وتغمط حق أهل البيت
(ع) في وظيفتهم ومسؤوليتهم. وطبقة البدر الزاهر، والشهاب الثاقب،
والصراط المستقيم من أهل الأيمان وذرية رسول الله (ص) التي كانت تنشر
العلم والمعرفة، وتهب كل ما كان لديها لمساعدة المعدمين والمساكين من
الأمة المغلوب على أمرها.

ثم عدّد (ع) فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) مبرزاً
علمه، ثم خاطبهم: (أبصنوا رسول الله (ص)¹⁵⁸ تستهزئون؟ أم بيعسوب¹⁵⁹
الدين تلمزون؟ وأي سبيل بعده تسلكون؟ وأي حزن بعده تدفعون؟ هيهات
برز والله بالسبق وفاز بالخصل¹⁶⁰، واستولى على الغاية، وأحرز على
الختار¹⁶¹ فأنحسرت عنه الأبصار، وخضعت دونه الرقاب، وفرع الذروة

¹⁵⁷ مناقب آل طالب ج 4 ص 203 - 204.

¹⁵⁸ يعني الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

¹⁵⁹ اليعسوب: ملكة النحل. ويعسوب القوم: رئيسهم وكبيرهم. ويعسوب الدين: زعيم
الدين وسيدهم بعد خاتم الأنبياء محمد (ص).

¹⁶⁰ الخصل: الهدف .

¹⁶¹ الختار: الغدر.

العليا، فكذب من رام من نفسه السعي، وأعياه الطلب، فأنى لهم التناوش¹⁶²
من مكان بعيد؟!¹⁶³.

وكانت سلاطين بني أمية تتطاول على علي بن أبي طالب (ع)
وصي رسول الله (ص)، وتتجاوز على فضائله في العلم والسبق إلى
الإسلام، والجهاد في سبيل الله ظناً منها أنها إذا تطاولت على قمم رجال
الإسلام، فإن التطاول على من دونهم يكون أيسر وأمضى لكن أعياهم
الطلب، فرفعه الله تعالى درجات لمن عرف فضله ومقامه.

كان ذلك الإستدعاء محاولة من هشام بن عبد الملك للتقليل من
منزلة الإمام (ع) واستنزازه بشتى الطرق. ولكن الإمام (ع) كما عهدناه في
سلوكه الحكيم طرح الحقائق التي كان لابد من طرحها في تثبيت أسس
الإسلام، والولاية الحقة لأهل بيت النبوة (ع).

النتظم إلى الله تعالى:

ولم تكن حكمة الإمام (ع) بمعزل عن الدعاء والتوسل بالله في
جميع الأحوال طالباً من مولاه العظيم الصبر وقرب الفرج: (اللهم إن كان
في المصابرة لحرارة المعان من الظالمين، وكمد من يشاهد من المبدلين
لك، ومثوبة منك فهب لي مزيداً من التأييد، وعوناً من التسديد إلى حين
نفوذ مشيئتك فيمن أسعدته وأشقيته من بريتك. وامنن عليّ بالتسليم

¹⁶² التناوش: التناول.

¹⁶³ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 203 - 204.

لمحتومات أفضيتك، والتجرع لصادرات أقدارك، وهب لي محبة لما أحببت في متقدّم ومتأخّر، ومتعجّل ومتأجّل، والإيثار لما اخترت في مستقرّب ومستبعد، ولا تخلنا مع ذلك من عواطف رحمتك، وحسن كلاءتك¹⁶⁴.

يفتح الإمام (ع) قلبه إلى الله تعالى، ويشكو إليه ظلم الظالمين الذي كان يواجهه بالصبر والمصابرة، ويشكو إليه تألمه للمبذلين الذين كانوا يبذلون دين الله ليتطابق مع اهوائهم ورغباتهم، ويطلب منه التأييد والتسديد حتى تنفذ مشيئته فيهم وفي غيرهم. وهو يريد ويتمنى أن يُمنَّ عليه بالتسليم لقضائه المحتوم، وقدره الصادر، بل يمنُّ عليه ليوافقه في إنجاز كل عملٍ يحبه هو سبحانه. وبالنتيجة فالإمام (ع) يضع نفسه عبداً مطيعاً، تائباً راعياً إلى الله تعالى.

ومثالٌ ثانٍ ينقله الإمام الباقر (ع) عن رسول الله (ص) وهو دعاءٌ عند الخوف، والحزن، والكرب والدخول على الظالم: (بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، يا كاشف الكرب العظيم، يا أرحم الراحمين، اكشف كربى وهمي فإنه لا يكشف الكرب إلا أنت، فقد تعرفتْ حالى، وحاجتى، وفقري، وفاقتى، فاكفني ما أهمني وما غمني من أمر الدنيا والآخرة بجودك وكرمك...

اللهم إني عبدك وابن أمّتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، مجزئٌ في فضلك وعطاؤك، اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو

¹⁶⁴ مهج الدعوات ص 51.

أستأثرت به في علم الغيب عندك، أن تصلي على محمدٍ وآل محمدٍ، وأن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همّي...¹⁶⁵.

هذا الدعاء يكشف عن عمق الظلم الذي كان يتعرض له، فهو يبدأ دعاءه بتلمس رحمة الله: يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، ويخاطب رب العالمين ويقول له آلهي أنك وحدك الذي تكشف الكرب العظيم، وتجيب دعوة المظلومين، وتكشف كرب المهمومين، وأنت الذي تعرفُ حالي وفقري وفاقتي، فإنك أقرب إلي من حبل الوريد، كما قلت في كتابك.

وبعد أن يكشف له ما أضمره قلبه، وما أخفاه ضميره يتوسل إليه بكشف ذلك الظلم واستبداله بالعدالة الواقعية، فيقول له أنت العادل في قضائك، وأنت المجزئ في فضلك. ثم يطلبُ منه عوض ما لحقه من ظلم أن يجازيه بجعل القرآن ربيع قلبه، ونور بصره، وجلاء حزنه، وذهاب همه. فهو لا يطلب انتقاماً من الظالم، فذلك موكولٌ إلى قضاء الله وعدله، لكنه يريد تعويضاً معنوياً يتمثل في جعل القرآن محور حياته، ونسيم شبابه، وجلاءً لحزنه، وذهاباً لغمه.

ثم يقول: (يا مقيل عثرتي، ويا راحم عبرتي، ويا مجيب دعوتي أسألك الخير كله، وأعوذ بك من الشر كلّه ما أحاط به علمك، يا غياث من لا غياث له، ويا ذخر من لا ذخر له، ويا سند من لا سند له، اغفر

¹⁶⁵ مهج الدعوات ص 169.

لي، علمك فيّ، وشهادتك عليّ، فإنك تسميت لسعة رحمتك الرحمن الرحيم (...)¹⁶⁶.

تعامل الإمام (ع) مع الناس بالجلم والهدوء خصوصاً وهو يعيش أيام ظلم السلاطين، وعدم رحمتهم بالناس، وكأنه يتذكر هذه الآية دوماً: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)¹⁶⁷.
كان الجلم قوة للإمام (ع) حيث تعامل مع شتى أصناف الناس من كاره، أو جاهل، أو حاسد، أو ظالم. فكان عليه (ع) أن يتعامل معهم بصبر وأناة، فكان مصداقاً لرحمة رسالة السماء إلى الناس جميعاً.

يوم في الصبر

كان الإمام الباقر (ع) صابراً في الله في جميع أيام حياته، فقد عانى من الظلم في صغره أيام عاشوراء سنة 61 هجرية مع جده الإمام الحسين (ع) وبصحبة أبيه الإمام زين العابدين (ع)، فصبر واستمر صبره طول حياته أيام ملك الأمويين. فالصبر كان سمة من سمات حياته الفاضلة.

والصبر والصلاة هما الوسيلتان اللتان يمكن عن طريقهما مواجهة الحياة على وجه الأرض. فالصبر سلاح عقلي، والصلاة سلاح روحي

¹⁶⁶ مهج الدعوات ص 169.

¹⁶⁷ سورة النحل: الآية 61.

يجهزان الإنسان بقابلية فريدة في معالجة الإبتلاءات التي يبتلّي بها الإنسان في حياته، وقد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)¹⁶⁸. ولنأخذ يوماً في صبر الإمام الباقر (ع).
 في ذلك اليوم توفي له ابنٌ كان يحبه حباً كثيراً، فقال (ع): (إن نجزع¹⁶⁹ ما لم ينزل أمرُ الله، فإذا نزل أمرُ الله فليس لنا إلا التسليم)¹⁷⁰.
 ومعناه إن أمرنا كأمر بقية البشر في الحب والحنان لإبنائنا وبناتنا، ولكن عندما تحلّ المصيبة بنا بموت أحدهم، فإننا لا نجزع من قضاء الله وقدره. كان ذلك أعظم مصاديق القبول بقضاء الله تعالى، والصبر عليه. فما هو الصبر الذي علّمنا القرآن وحثّنا على العمل به ؟

فضيلة الصبر في القرآن الكريم:

الصبر من أعظم المَلَكات الأخلاقية التي مدحها القرآن الكريم. وقد بلغت المواضع التي ذكرها القرآن في الصبر نحواً من سبعين موضعاً، فقال تعالى فيه: (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)¹⁷¹، (... إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)¹⁷². ومعناه: حبس النفس على فعل شيء أو تركه إبتغاء وجه الله تعالى.

¹⁶⁸ سورة البقرة: الآية 153.

¹⁶⁹ إن نجزع: أي إن نحزن، وليس بمعنى عدم القبول بقضاء الله تعالى.

¹⁷⁰ تهذيب الأحكام ج 1 ص 289.

¹⁷¹ سورة فصلت: الآية 35.

¹⁷² سورة الزمر: الآية 10.

دعا الله تعالى المؤمنين إلى الإستعانة بالصبر والصلاة، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)¹⁷³، فكلُّ عزيمةٍ تصغر بالصبر، وكلُّ غشاوةٍ تزول بحلاوة الصلاة وما يتبعها من إيمان. وبالتسلح بالصبر وبالصلاة يستطيع الإنسان أن يواجه الحياة بمصاعبها وإبتلاءاتها مواجهة حكيمة.

والباعث على تحمل الصبر هو وجه الله تعالى، قال: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)¹⁷⁴. وعندما يصبر الإنسان عن الشهوات عامةً فهو عفيف، وعندما يصبر عن شهوة البطن خاصةً فهو شريف، وعندما يصبر عن زينة الحياة الدنيا فهو زاهد، وعندما يصبر على داعي البخل في نفسه فهو جواد كريم، وعندما يصبر عن إجابة داعي العجلة والغضب فهو وقور حلِيم، فالصبر إذن هو مفتاح حياة المؤمن، وقد وَعَدَهُ اللهُ تعالى بثوابٍ عظيمٍ من عنده: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)¹⁷⁵.

الصبر: فضيلة العقل

يُعدُّ الصبر أهم فضيلة من فضائل الدين، والسبب في عدّه فضيلة لأن أغلب الناس تريد تحقيق المكاسب وحل المشاكل بسرعة زمنية فائقة.

¹⁷³ سورة البقرة: الآية 153.

¹⁷⁴ سورة المثر: الآية 7.

¹⁷⁵ سورة الفرقان: الآية 75.

والناس، على الأغلب، تبحث عما يرضيها لا عما يرضي الله تعالى، وتبحث أيضاً عن المال والسعادة المادية دون إنتظار طويل. هنا تتجلى فضيلة الصبر عند الإنسان.

ولكن، لو نظر الإنسان إلى العالم من حوله لرأى أن الزمن بطيء، وأن التغيرات على الإنسان والأشياء تسير ببطء أيضاً، فالطبيعة والحياة تتحلان بالصبر، عدا الإنسان الذي يريد تحقيق أهدافه الذاتية على عجل. فالإنسان يريد، ودون تأني، مالاً وسعادةً وخيراً واسعاً سريع المنال، كما قال تعالى: (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)¹⁷⁶.

والمراد في الآية الشريفة أن الإنسان غالباً ما يتعجل الأمور، من دعاءٍ يتمنى أن يُستجاب، أو ذرية تدوم، أو مكسبٍ يتطلع إلى تحقيقه، فلا يتروى في طلب الشيء خصوصاً إذا تعلق بهواه الشخصي، فيطلبه عاجلاً حتى لو كان فيه شراً، وباطلاً.

وإذا كان الصبرُ صفةً أخلاقيةً لعملية التحمل أو الإنتظار، كان الصبر أعلى رتبةً من عملية التحمل ذاتها أو الانتظار. فلربما يتحمل الإنسان أمراً ما، إلا أنه يشكو ويتظلم إلى الناس. وهذا ليس صبراً. بل الصبر هو الإنتظار أو التحمل بقلبٍ ثابتٍ، ونفسٍ مطمئنةٍ، دون شكوى أو تظلم إلى الناس.

وطالما كان الصبر متنوعاً ومتبايناً، كالصبر على البلاء، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، صارت تلك الخصيصة تشغل

¹⁷⁶ سورة الإسراء: الآية 11.

مساحةً واسعةً من حياة الإنسان، لأن الحياة تتضمن دائماً إبتلاءً، وطاعةً، وإمتحاناً. ومن هنا ارتقى الصبر ذلك السلم العلوي في الفضائل الأخلاقية التي أوصى بها الله عباده.

فالصبر على المصيبة هي حالة عقلية تجعل الصابر يقبل بقضاء الله تعالى بنفسٍ مطمئنةٍ، ويتحمل الأذى أو الحزن في ذلك. ومن ذلك صبر الإمام الباقر (ع) عندما مات ابنه الصبي عبد الله، وكان يحبه حباً جماً، فصبر على ذلك وقال: (إنا ندعو الله فيما يحب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يحب)¹⁷⁷.

والصبر على الطاعة، وهي حالة عقلية تجعل الصابر يتحمل كل المصاعب من أجل طاعة الله تعالى، كالصلاة المستحبة في الليل الطويل حيث تهجع فيه الناس وتأوي إلى فراشها. والإمام الباقر (ع) كان يقضي بحر ليله في الصلاة والمناجاة، والركوع والسجود، والناس حوله نيام، كما ورد في الروايات، وهو صابرٌ يتحمل أثر الجهد والإرهاق.

والصبر عن المعصية، وهي حالة عقلية تجعل الصابر يتحمل مشاق الطاعة ويبتعد عن المعصية. فالصيام في يومٍ قانضٍ من شهر رمضان يتلمظ فيه الصائم من شدة العطش هو طاعةٌ لله تعالى، فالصبر عن الأكل والشرب هو صبرٌ عن معصية الله تعالى وصبرٌ على طاعته.

إذن فالصبر يعني أن الإنسان يقبل بقضاء الله تعالى وقدره بنفسٍ مطمئنةٍ، دون أن يُظهر حزناً أو إنزعاجاً على تقدير الله تعالى وتدبيره.

¹⁷⁷ تاريخ مدينة دمشق ج 51 ص 52.

فالصابر يسعى من أجل رزقه، إن جاءه رضي به، وإن لم يأتِه صَبَرَ. أي أنتظر قضاء الله تعالى برحابة صدرٍ وإيمانٍ بأن ما كتبه سبحانه أو منعه هو تدبيرٌ منه ورحمة.

وبالنتيجة فإن الصبر عند الإمام (ع) حالة ذهنية بالإضافة إلى كونها حالة روحية، أي أنه صمم حياته على الطاعة التامة لله تعالى، وعلى عدم إرتكاب المعصية وإن كان قادراً عليها، وعلى القبول بقضائه تعالى في كل الأحوال.

ولما كان تحمل الصعاب من إبتلاءات أو الآم قضية زمنية تنتهي بإنتهاء تلك الصعاب عند الناس، بات الصبرُ عند الإمام (ع) منهج حياةٍ وميزة متلازمة معه. لأن حالته العقلية لا تنتهي بزمن ما. فالصبر هو صفة التحمل بقلبٍ رحبٍ مطمئنٍ دون تشكّي أو تدمرٍ أو إظهارِ الألم للآخرين. نعم قد يشتكي إلى الله تعالى، وتلك عبادة متميزة، ولكنه لا يشتكي إلى الناس.

وللصبر فائدة عملية أخرى على روحية الإنسان، فما أن استسلم الإنسان لقضاء الله تعالى، أنفتح قلبه نحو العبادة والدعاء والتفكر في الباري عز وجل.

فإذا كان صابراً أصبح خاشعاً: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)¹⁷⁸، ومتقياً: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ

¹⁷⁸ سورة البقرة: الآية 45.

وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ¹⁷⁹،
ومحسناً: (وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)¹⁸⁰.

هل أن الصبر وسيلة للوصول إلى هدف أم أنه غاية بذاته؟ لاشك
أن الصبر وسيلة أخلاقية لتأخير ما يطمح له الإنسان. فإذا كان طموح
الإنسان الوصول إلى الرغبة الجسدية مثلاً، فالصبر هو الوسيلة لترويض
النفس (وهو صبر عن المعصية). وإذا كان طموح الإنسان القرب من الله
أصبح الصبر وسيلة لتحقيق رضا النفس وذلك بحرمانها من لذة الطعام
والشراب ونحوه في الصيام مثلاً (وهو صبر على الطاعة). وإذا كانت
النفس تتألم لفقدان الحبيب، فإن الرضا بقضاء الله تعالى يُهدأ النفس (وهو
صبر على البلاء).

وبالإجمال عُدَّ الصبر، بأنواعه الثلاثة، من أعظم الفضائل
الإنسانية، ولم تغفله الكتب السماوية في جميع الأديان، وإلى ذلك قال
تعالى: (وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ...) ¹⁸¹.

من مصاديق صبر الإمام (ع):

من مصاديق صبر الإمام الباقر (ع) ما ذكرناه من مرض ابنه
الصغير الذي كان يحبه حباً جماً، فزاره جماعة من محبيه في ذلك الوقت،

¹⁷⁹ سورة الأعراف: الآية 128.

¹⁸⁰ سورة هود: الآية 115.

¹⁸¹ سورة النحل: الآية 127.

فأروا منه إهتماماً وغمماً، فظنوا أنه لو مات الصبي لرأوا منه ما يكرهون. فما لبثوا أن سمعوا الصياح عليه من الأهل، فإذا هو قد خرج عليهم منبسط الوجه في غير الحال التي كان عليها، فقالوا له: لقد كنا نخاف موت الصبي أن نرى منك ما يغمنا، فقال لهم: (إنا لنحب أن نعافى فيمن نحب، فإذا جاء أمر الله سلّمنا فيما نحب)¹⁸². وقد روي بأسلوب آخر أنه أجاب بإطمئنان: (إنا ندعو الله فيما يحب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يحب)¹⁸³. وقد ورد سابقاً ما يشابه ذلك من روايات.

وفي مشهد ثانٍ: نُقِلَ ابنُ لجعفر الصادق (ع)، والإمام الباقر (ع) جالساً في ناحية فكان إذا دنا منه إنسان قال: لا تمسه، فإنه إنما يزداد ضعفاً، وأضعف ما يكون في هذه الحالة، ومن مسه على هذه الحال أعان عليه. فلما قضى الغلام أمر به فغمض عيناه وشدّ لحياه، ثم قال لنا: (إن نجزع ما لم ينزل أمرُ الله، فإذا نزل أمرُ الله فليس لنا إلا التسليم). ثم دعا بدهن فأدهن واكتحل ودعا بطعام ... ثم قال: (هذا هو الصبر الجميل)، ثم أمر به فغسل، ثم لبس جبته وعمامته فصلى عليه¹⁸⁴.

وفي مشهد ثالث أنه كان جالساً مع أصحابه إذ سمع صيحة في داره، فأسرع إليه بعض مواليه فأسر إليه بشيء، فقال (ع): (الحمد لله على ما أعطى، وله ما أخذ، إنهم عن البكاء، وخذوا في جهازه، واطلبوا

¹⁸² الكافي ج 3 ص 226.

¹⁸³ تاريخ دمشق ص 51-52. عيون الأخبار - ابن قتيبة ج 3 ص 57.

¹⁸⁴ تهذيب الأحكام ج 1 ص 289.

السكينة، وقولوا لها: لا ضير عليك. أنتِ حرّة لوجه الله لما تداخلك من الروح...¹⁸⁵. ورجع إلى حديثه، فتهيّب القوم سؤاله، ثم أقبل غلامه فقال له: قد جهّزناه، فأمر أصحابه بالقيام معه للصلاة على ولده ودفنه، وأخبر أصحابه بشأنه فقال لهم (ع): (أنه قد سقط من جارية كانت تحمله فمات)¹⁸⁶.

في الروايات الثلاث علّم الإمام الباقر (ع) أصحابه أو ممن حضر عنده درساً في الصبر عند الإبتلاء أو المصيبة. فهو (ع) يتصرف مع أولاده أو مع من تعلق به في غاية المحبة والعناية، حيث قال: (إننا لنحب أن نعافى فيمن نحب...)¹⁸⁷، و(إننا ندعو الله فيما يحب...)¹⁸⁸. أي نطلب من الله تعالى العافية لمن نحب. فنحن كبشر لنا عواطف ومشاعر أبوية. ولكن ما أن يقع أمر الله تعالى حتى نسلّم: (... فإذا نزل أمر الله فليس لنا إلا التسليم)¹⁸⁹، و(هذا هو الصبر الجميل)¹⁹⁰، (... فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يحب)¹⁹¹، و(الحمد لله على ما أعطى، وله ما

¹⁸⁵ عيون الأخبار وفنون الآثار ص 218.

¹⁸⁶ المصدر السابق.

¹⁸⁷ الكافي ج 3 ص 226.

¹⁸⁸ عيون الأخبار - ابن قتيبة ج 3 ص 57.

¹⁸⁹ تهذيب الأحكام ج 1 ص 289.

¹⁹⁰ المصدر السابق.

¹⁹¹ عيون الأخبار ج 3 ص 57.

أخذ...¹⁹². وبالجملة فهو موقنٌ بقضاء الله تعالى. فيكون مصداقاً للآية
الكريمة: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتُهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)¹⁹³.
أظهر الإمام الباقر (ع) الرضا التام لقضاء الله تعالى، ثم رجع إلى
حياته الطبيعية فتطيب، وقال: (هذا هو الصبر الجميل). وهذا في غاية
الكمال في معرفة الله تعالى والإيمان بقضائه. والصبر الجميل هو صبر
المطمئن بقضاء الله تعالى، الواثق بصدق وعده، القابل أشد القبول
بحكمته، المستسلم لما أَرَادَهُ تعالى من أمر. كيف لا وهو القائل في الصبر
الجميل: (ذلك صبرٌ ليس فيه شكوى إلى الناس)¹⁹⁴.

¹⁹² عيون الأخبار وفنون الآثار ص 218.

¹⁹³ سورة البقرة: الآية 156.

¹⁹⁴ الكافي ج 2 ص 93.

الفصل الثاني

التركيبة العلمية

مقدمة. ماهية العلم عند الإمام (ع). آلية
المعرفة. الإمام الباقر (ع): الخصائص العلمية.
الإمام الباقر (ع): الخصائص الشخصية. ارتباط
العلم بالتضحية. التكامل العلمي ونفي المعصية.
التركيبة المذهلة لأئمة أهل البيت (ع). منهجية
التصدي للإفكار المخالفة.

مقدمة

نقصد بتركيبية العلم: الآليات والخصائص التي ميزت علم الإمام الباقر (ع) عن البقية من الذين كان لديهم إلمامٌ بعلوم الدين. فقد كان زمنه مزدحماً بالفقهاء وأصحاب الرأي والحديث. والعلمُ عند الأوصياء (ع) هو أقوى وسيلة من وسائل حفظهم الإسلام حياً نابضاً، ونشره بين الناس. وما يميزهم (ع) عن الآخرين هو حملهم العلم الصحيح المتصل برسول الله (ص)، وترجمته إلى الناس كما أراد الله تعالى منهم ذلك.

ماهية العلم عند الإمام (ع)

العلم هو السلطة النهائية للأنبياء والرسل (ع) ومن إصطفاهم الله تعالى للإمامة. ولا يمكن فصل صفة العلم والمعرفة عن شخصية الإمام (ع)، ولا فصم ارتباطها بالله تعالى. فالعلم يعدُّ أهم خصائص الإمامة الشرعية.

يصفُ الإمام الباقر (ع) علاقة أهل البيت (ع) بالعلم بالقول: (نحن ولادة أمر الله، وخزان علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله...)¹⁹⁵، (ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض)¹⁹⁶. فهم - بموجب هذا الحديث - خزّان علم

¹⁹⁵ الكافي ج 1 ص 175.

¹⁹⁶ الكافي ج 1 ص 192.

الله تعالى الذي حملوه بقلوبهم، وناقحوا من أجل تبليغه للناس، وكانوا مصاديقه بسلوكهم. فما ذلك العلم الذي كانوا يحملونه (ع)؟

العلم: عموماً هو فهمٌ للأشياء كالحقائق، والصفات، والمهارات، والمعلومات. ويتم اكتسابه عبر أحد الوسائل المعرفية التقليدية وهي: إما التعلم، أو الإكتشاف، أو الإبداع الفلسفي.

وإذا افترضنا أن تلك الوسائل المعرفية هي وسائل تقليدية لنقل المعرفة، نتساءل من أين جاء علم الإمام (ع) في أمور الدين؟ فلم يكن للإمام (ع) معلمٌ ينهل منه المعرفة المدرسية، والدين لا يختبر قضايا التجربة والإكتشاف ولا يسمح بذلك، وليس فيه إبداعٌ فلسفي كما هو شأن علم الفلسفة، أصبح لزاماً علينا أن نعتقد بكون جلّ علمه (ع) علماً إلهامياً من الله تعالى، وإكتسابياً عن آبائه الطاهرين (ع) ينقلونه عن رسول الله (ص). فالعلم الجَمّ المختص به (ع) يدفعك للإعتقاد بأن هذا العلم إنما هو نورٌ أوقعه الله تعالى في قلبه (ع)، كما ورد في رواية الإمام الصادق (ع): (... ليس العلم بالتعلم، إنما هو نورٌ يقع في قلب من يُريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإذا أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك)¹⁹⁷.

نعم، أخذ الباقر (ع) من أبيه الإمام السجاد (ع) علوم الدين، ونقل رواياته عن رسول الله (ص)، لكن فهمه للقضايا الدينية والعقائدية كان فهماً

¹⁹⁷ بحار الأنوار ج 1 ص 226.

إستثنائياً، فهم ينطبق على فهم أئمة أهل البيت (ع). وإلا، فإن هناك الكثير من الرواة الذين نقلوا عن النبي (ص) أحاديث كثيرة، إلا أن فهمهم لم يرتقِ إلى الفهم الشامل للإمام الباقر (ع) أبداً.

آلية المعرفة عند الإمام (ع)

وللمعرفة آليات ينبغي أن يدركها العارف تماماً، فهو يتمثل في استيعاب ذلك الكم الهائل من علوم الدين والحياة، بحيث يكون العلم عنده شمولياً لا تجزئياً، وأن يكون على درجة لغوية عالية يستطيع من خلالها نقل ذلك العلم وإيصاله إلى المخاطبين، وأن يكون فهمه للموضوع فهماً موضوعياً واقعياً، بعيداً عن التخمين والإحتمال. إذن، فالمعرفة التي كان يتمتع (ع) بها في علوم الدين كانت تشتمل على ثلاث ركائز:

الأولى: الشمولية في الموضوع:

وهذا يتطلب معرفة تفصيلية بدقائق كل جزئية في قضايا الرسالة السماوية من عقائد، وأحكام شرعية، وأخلاق. وهذا بحرٌ واسعٌ في المعرفة يعجز عن إدراكه معظم الناس، إلا من اصطفاه الله تعالى لذلك الدور الشاق.

ولنأخذ مثلاً جزئياً عن مسألة فقهية واحدة وهي غسل الوجه في الوضوء، فيذكر الإمام (ع) بدقة حدود الوجه، قال: (الوجه الذي قال الله وأمر الله عزوجلّ بغسله الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه - إن زاد عليه لم يؤجر وإن نقص منه أثم - ما دارت عليه الوسطى

والإبهام من قصاص شعر الرأس إلى الذقن وما جرت عليه الأصابع مستديراً فهو من الوجه وما سوى ذلك فليس من الوجه¹⁹⁸.

يحدد الإمام (ع) في هذا النص حدود غسل الوجه. فقد حدده بطريقة تسهل على أي إنسان في كل زمان ومكان أن يعرفه، وهو ما دارت عليه أصابع الوسطى والإبهام عند الإنسان من قصاص شعر الرأس إلى الذقن، وتلك حدود فعلية واقعية لكل إنسان موجود على وجه الأرض. فمع قلة الكلمات واقتضابها إلا أن معناها معنى شمولي. تلاحظ من خلال قراءة تلك الجزئية في حكم الوضوء هذا أن الإمام (ع) واثق من علمه، مدركٌ لجزئيات الموضوع بشكل تام. وهذا يورث المكلف إطمئناناً بصحة المنع الفقهي والعقائدي الذي أخذ منه حكمه الشرعي.

مثالٌ ثانٍ هو مسح القدمين، يقول (ع): (وحدُّ مسح الرجلين أن تضع كَفَيْكَ على أطراف أصابع رجليك وتمدُّهما إلى الكعبين، فتبدأ بالرجل اليمنى في المسح قبل اليسرى، ويكون ذلك بما بقي في اليدين من الندوة من غير أن تجدد له ماءً...) ¹⁹⁹.

ومثالٌ ثالثٌ: يسأله أحد تلامذته عن مسح الرأس، فيقول له: (حدُّ مسح الرأس أن تمسح بثلاث أصابع مضمومة من مقدّم الرأس) ²⁰⁰.

¹⁹⁸ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 44.

¹⁹⁹ المصدر السابق.

²⁰⁰ المصدر السابق.

وفي كل تلك الأمثلة تلحظ الدقة والشمولية في تقديم الحكم الشرعي في جزئيات تعبدية تخصُّ مقدمات الصلاة.

الثانية: طبيعة الإيصال:

أي إيصال العلم إلى المخاطبين بطريقة دقيقة متقنة. فإذا أكتمل العلم، فلا بد من إيصاله إلى المكلفين جميعاً بطريقة تبين أن المخاطب متمكّن من الموضوع، وهدفه إيصال تلك المادة بلغة واضحة لا لبس فيها، ولا غموض، ولا مجاز، بل حقيقة ناصعة هدفها الإفهام والتفهم والإلزام. ولنلحظ المثال التالي لنرى كيفية استثمار الإمام (ع) علمه المودّع فيه في شرح طبيعة حركات الجسم في الصلاة:

عن زرارة، عن أبي جعفر (ع) قال: (إذا قمتَ في الصلاة فلا تلصق قدمك بالأخرى، ودع بينهما فصلاً أصبغاً أقل ذلك إلى شبرٍ أكثره، وأسدل منكبيك، وأرسل يديك ولا تشبك أصابعك، ولتكونا على فخذيك قبالة ركبتيك، وليكن نظرك إلى موضع سجودك.

فإذا ركعتَ فصفتَ في ركوعك بين قدميك، تجعل بينهما قدر شبر، وثمّكن راحتيك من ركبتيك، وتضع يدك اليمنى على ركبتيك اليمنى قبل اليسرى، وبلغ بأطراف أصابعك عين الركبة، وفرّج أصابعك إذا وضعتها على ركبتيك...)²⁰¹.

²⁰¹ تهذيب الأحكام ج 2 ص 83.

هذه اللغة التفصيلية الواضحة الرائعة تعرض أدق التفاصيل المتعلقة بطبيعة حركات الجسم في الصلاة: في الوقوف، والركوع. وهدف عرض تلك التفاصيل بلغة سلسلة بسيطة عميقة هو إيصال العلم الديني للمكلف حتى ينجز التكليف بصورة صحيحة. وتلك وظيفة من وظائف الإمام (ع) في تعليم الناس أحكام دينهم.

الثالثة: فهم العلل الموضوعية:

أي فهم الموضوع بعلمه الواقعية. فقد يحفظ الإنسان العلمَ حفظاً عن ظهر قلب، وقد يكون ذهنه آلة لتخزين المعلومات. ولكن الحفظ لوحده لا يؤدي الوظيفة الدينية للإمام (ع). لكن الإمام الباقر (ع) يدرك علل الأحكام إدراكاً واقعياً ولذلك كان يردُّ على جميع الإشكالات والشبهات والاستفسارات التي تَرِدُ حول تلك الأحكام والعقائد. وهذا الفهم هو الذي يميِّز (خزَّان علم الله تعالى)²⁰²، و(حملة كتاب الله)²⁰³، و(ترجمة وحي الله)²⁰⁴ عن غيرهم.

فكان الإمام (ع) يُسأل عن علل بعض الأحكام الشرعية المختلفة، وكان (ع) يجيب كلَّ في موضوعه. كما في الأمثلة التالية:

²⁰² الكافي ج 1 ص 192.

²⁰³ الكافي ج 1 ص 175.

²⁰⁴ الكافي ج 1 ص 192.

1 - هبة الزوج لزوجته، قال (ع): (لا ينبغي لمن أعطى الله شيئاً أن يرجع فيه، وما لم يعط الله وفي الله، فله أن يرجع فيه، نحلة كانت أو هبة، جيزت أو لم تجز، ولا يرجع الرجل فيما يهب لأمراته، ولا المرأة فيما تهب لزوجها، جيزت أو لم تجز، أليس الله يقول: (... وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ...) ²⁰⁵، وقال تعالى: (وَأَثُوا النَّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا) ²⁰⁶/²⁰⁷.

2- في المحقرات من الذنوب، عن أبي بصير قال سمعتُ الباقر (ع) يقول: (اتقوا المحقرات من الذنوب، فإن لها طالباً، يقول أحدكم: أذنب وأستغفر، إن الله عزوجل يقول: (... وَتَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثَرُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) ²⁰⁸، وقال عزوجل: (...إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) ²⁰⁹/²¹⁰.

3- إحياء النفس هو أخراجها من الكفر إلى الإيمان: قال أحد اصحابه (ع): سألت الإمام الباقر عن قوله تعالى: (... وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا

²⁰⁵ سورة البقرة: الآية 229.

²⁰⁶ سورة النساء: الآية 4.

²⁰⁷ تفسير العياشي ج 1 ص 117.

²⁰⁸ سورة يس: الآية 12.

²⁰⁹ سورة لقمان: الآية 16.

²¹⁰ الكافي ج 2 ص 270.

النَّاسَ جَمِيعًا ...²¹¹، فأجاب (ع): (من استخرجها من الكفر إلى الإيمان)²¹². فالإحياء هو إحياء القلب والروح، وما قيمة حياة الإنسان إذا كانت جسداً بلا روح ولا إيمان ولا عقيدة.

4 - الحفاظ على الفريضة والدوام على النافلة: عن أحد أصحابه (ع) قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)²¹³، أجب: (هي الفريضة). قلت: (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)²¹⁴، أجب: (هي النافلة)²¹⁵.

ومعنى الحفاظ على الفريضة هو التمسك بها والحرص عليها، وقد قال تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)²¹⁶، والحفاظ على الفريضة الواجبة هو رعايتها حق الرعاية. أما المداومة على الصلاة، فهو الذي يقوم بالنافلة بصورة منتظمة، وليس الذي يفعلها زمناً ثم يتراجع عنها زمناً آخر، فذلك منقطع عنها وليس مداوماً عليها.

5 - الحصنان من العذاب: عن الباقر (ع) قال: (كان رسول الله (ص) والإستغفار حصنين لكم من العذاب، فمضى أكبر الحصنين، وبقي

²¹¹ سورة المائدة: الآية 32.

²¹² تفسير العياشي ج 1 ص 313.

²¹³ سورة المؤمنون: الآية 9.

²¹⁴ سورة المعارج: الآية 23.

²¹⁵ تهذيب الأحكام ج 2 ص 240.

²¹⁶ سورة البقرة: الآية 238.

الإستغفار، فاكثروا منه فإنه منجاة للذنوب، وإن شئتم فاقرأوا: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) ²¹⁷(²¹⁸).

6 - من أطاع الناس في معصية الله تعالى: في قول الله تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) ²¹⁹، قال: (والله ما صلوا لهم ولا صاموا، ولكن أطاعوهم في معصية الله) ²²⁰.

كان الإمام الباقر (ع) على إدراك تام بالعلل المتعلقة بالمواضيع الدينية. وفهم العلل الموضوعية هو أحد الميزات التي ميزته (ع) عن بقية الرواة من الذين لا يفقهون علل الأحكام الشرعية أو العقائدية. وفهم علل الأحكام ليس متاحاً لأي إنسان، بل هي خصوصية لترجمان وحي الله (ع) الذي يترجم لنا معاني الأحكام، والعقائد في الدين.

الإمام الباقر (ع): الخصائص العلمية

كانت كل معلومة دينية يقدمها الإمام (ع) للناس تتضمن الخصائص الرئيسية الأربع للمعرفة، وهي: كونها حقيقة صادقة، ولها تبرير عقلائي، وفيها معلم من معالم الإيمان بها، وأنها ليست علماً تجزيئياً. فهنا تفاصيل نشرحها بالترتيب:

²¹⁷ سورة الأنفال: الآية 33.

²¹⁸ تفسير العياشي ج 2 ص 54.

²¹⁹ سورة التوبة: الآية 31.

²²⁰ الكافي ج 1 ص 208.

الأولى: كونها حقيقة صادقة:

وأقصد بكونها حقيقة صادقة أنها ليست محاكاة لأفكار أستاذ آخر، ولا إقتباس لمفكر أو فيلسوف. بل هي حقائق صادقة صادرة عن رسول الله (ص) عن الوحي. وأنها ليست من المعارف التي كانت خاضعة لتجربة ما، أي لا نستطيع أن نضع الحقائق الدينية في المختبر ونفحصها كما نفحص المادة. وبذلك ينبغي أن تكون المعرفة الدينية معرفة يقينية قطعية صادرة إبتداءً من مصدر موثوق غاية الوثوق.

يشير الإمام الباقر (ع) إلى ذلك المعنى، فيقول: (قرأت في كتابٍ لعليّ (ع) أن رسول الله (ص) قال: سيكذب عليّ كاذبٌ، كما كُذِبَ علي من كان قبلي، فما جاءكم عني من حديث وافق كتاب الله فهو حديثي، وما خالف كتاب الله فليس من حديثي)²²¹.

وفي الكتب الروائية: سأل رجلٌ الإمام الباقر (ع) - تهكمًا - عن صلاة الضحى؟ فقال الإمام الباقر (ع): (أول من صلاها قومك إنهم كانوا من الغافلين فيصلّونها، ولم يصلّها رسول الله (ص). إن علياً (ع) مرّ على رجلٍ وهو يصلّيها، فقال علي (ع): ما هذه الصلاة؟ فقال: أدعها يا أمير المؤمنين؟ فقال (ع): أكون أنهى عبداً إذا صلّى؟)²²².

وبيان ذلك: أن صلاة الضحى لم يشرعها الإسلام، ولم يصلّها رسول الله (ص). ومفهومها أن وقت الضحى للعمل وكسب الرزق، والعمل

²²¹ قرب الإسناد ص 44.

²²² من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 566.

عبادة أيضاً، ولكن عبادة من نوعٍ آخر. وتلك حقيقة صادقة عن رسول الله (ص). وعندما استفسر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، مستكراً، عن ذلك الذي كان يصلي صلاةً ابتدئها وقت الضحى، أجابه المصلي: هل أترك الصلاة؟ فأجابه الإمام (ع) جواباً محكماً وضع فيه خطأ واضحاً بين وجوب الصلاة مطلقاً، وبين حرمة استحداث عبادة جديدة لم يأت بها الشرع. فرسول الله (ص) لم يشرع صلاةً وقت الضحى، ولم يصليها (ص). فكان على المكلف هنا أن يأخذ بالعبادة الواجبة، وإن لا يستحدث صلاةً لم يأمر بها رسول الله (ص). فالإمام أمير المؤمنين (ع) وقف على فاصل دقيق بين أن لا ينهى مطلقاً عبداً إذا صلى، وبين حرمة استحداث صلاةً لم يأمر بها الإسلام.

الثانية: لها تبرير عقلائي:

فهي ليست من باب الوهم أو الأسطورة. يقيناً أن الأحكام الشرعية والعقائد الصحيحة متطابقة تماماً مع المنطق السليم. فقد خلق الله تعالى العقل وجعله أداةً للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ. وأغلب الأحكام التي جاءت بها الشريعة مفهومة لدى أغلب الناس، ما لم يتمكن الشك والوهم من السريان إليها. والإسلام حارب الشك في أمرين: العقيدة، والعبادة، ووضع الضوابط الشرعية في التعامل مع الشك في كليهما:

أولاً: عدم الشك في العقيدة: أن النهي عن الكلام في ذات الله تعالى له تبريرٌ عقلائيٌّ، وهو عدم إستيعاب الإنسان لعالم ما وراء الغيب. وعدم الإستيعاب العقلي ذلك يورث الشك، نستدل في ذلك على روايات وأحاديث، منها:

1 - الصراع الفكري يورث الشك، يشير الإمام الباقر (ع) إلى ذلك ويقول: (يا فلان إياك والخصومات [في العقائد]، فإنها تورث الشك، وتُحبط العمل، وتردي صاحبها، وعسى أن يتكلم بالشيء لا يغفر له. يا فلان إنه كان فيما مضى قومٌ تركوا علم ما وكلّوا به، وطلبوا علم ما كفوه، حتى انتهى الكلام بهم إلى الله فتحثروا، فإن كان الرجل ليدعى من بين يديه، فيجيب من خلفه، ومن يدعى من خلفه فيجيب من بين يديه)²²³.

نفهم من قول الإمام الباقر (ع) أن أساس الدين السماوي هو اليقين، وبدون اليقين لا يمكن أن يستقر الإيمان في القلب. والشك هو الذي يزعزع اليقين، وما يُحدث الشك هو الصراع الفكري وما يتبعه من خصومات بين الناس. فتلك التي تورث الشك، وتُحبط العمل. والمرض الفكري الذي يصيب الناس على الأغلب هو ترك العمل فيما أمروا به، والدخول في علمٍ آخر لم يُطلب منهم أن يدخلوا فيه، فينتهي بهم الكلام إلى الخوض في ذات الله عزوجل، فتضيع عليهم الحقائق لأن عقولهم لا تستوعب ما ولجوا فيه.

²²³ المحاسن - البرقي ص 238.

فقد طلب منهم القرآن أن يتعرفوا على صفات الله إثباتاً وثبوتاً، وما خلق من مخلوقات نُشِرَ عليها رحمته، ورزقها رزقاً طيباً. لكن البعض ذهب إلى حقل آخر من المعرفة وهو حقل البحث في ذات الله، وما أن شارفوا على الغرق حتى تشبثوا بأمر وهمية لا تعيها عقولهم، وهو البحث عن آثار ما كانوا يتوهمونه بما يخص الذات الإلهية.

2 - النظر إلى آثار خلق الله لا إلى ذاته، وفيه قوله (ع): (تكلّموا فيما دون العرش ولا تكلّموا فيما فوق العرش، فإن قوماً تكلّموا في الله فتاهوا، حتى كان الرجل ينادى من بين يديه فيجيب من خلفه)²²⁴، و(تكلّموا في خلق الله، ولا تتكلّموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً)²²⁵، و(إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظّمته فانظروا إلى عظيم خلقه)²²⁶، و(تكلّموا في كل شيء ولا تكلّموا في الله)²²⁷، و(اذكروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذكروا ذاته، فإنكم لا تذكرون منه شيئاً إلا وهو أعظم منه)²²⁸.

²²⁴ المحاسن ص 238

²²⁵ الكافي ج 1 ص 92.

²²⁶ الكافي ج 1 ص 93.

²²⁷ التوحيد - الصدوق ص 455.

²²⁸ المصدر السابق.

ففي القول الأول يدعو الإمام (ع) إلى البحث في صفات الخالق (ما دون العرش)، لا في ذاته (ما فوق العرش)، ومن بحث في ذات الله فقد تاه كما أشرنا إلى ذلك آنفاً.

وفي القول الثاني يدعو الإمام (ع) إلى الكلام في إعجاز خلق الله تعالى من إنسان، وشجر، وحيوان، وأرض، وجبال، وما يحيط بالأرض من كواكب ومجرات. وهذا البحث في جمالية خلق الله تعالى يستوعب حياة الإنسان وعقله. أما إذا بحث في ذات الله سبحانه، فذلك لا يزيد الباحث إلا تحيراً وعجزاً.

وفي القول الثالث دعوة من الإمام (ع) للتفكر في عظمة الله تعالى، وعظمة خلقه، ودقة النظام الذي وضعه للمخلوقات جميعاً. وفي القولين الرابع والخامس يصرح الإمام (ع) بجرمة التكلم في ذات الله تعالى، لأنها خارج حدود العقل البشري.

3 - معرفة الوجود عبر معرفة الحد المنطقي: عندما سُئل (ع): أيجوز أن يقال لله أنه موجود؟ قال (ع): (نعم، تخرجه من الحدّين: حدّ الإبطال، وحدّ التشبيه)²²⁹.

ومعنى كلامه (ع) أنه يجوز أن يقول المرء أن الله موجود، بشرط إخراجهِ أو تنزيههِ من حد الإبطال أو التعطيل أو حد التشبيه.

²²⁹ المحاسن ص 238.

وحد الإبطال أو التعطيل هو نفيه وإنكار وجوده، بل تحدي ربوبيته وإبطال صفاته. ومن قال أن العالم معطلٌ قصداً أنه ليس له صانع مدبر. وحد التشبيه هو تشبيهه بخلقه، وإشراكه مع صفاتهم. ومن هنا يُفسر قوله (ع) أن الله موجود، ولكن ليس كبقية الذوات. أي بشرط تنزيهه من الإنكار والتشبيه، ووصفه بمطلق التوحيد.

4- علمه بما سيكون قبل أن يكون: وفي ذلك قوله (ع): (دعوا التفكر في الله، فإن التفكر في الله لا يزيد إلا تيهاً، لأن الله تعالى لا تدركه الأبصار، ولا تبلغه الأخبار)²³⁰، و(كان الله عزوجلّ ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما كونه، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه)²³¹.

في القول الأول شرحنا ذلك فيما مضى، ونزيد بأن قول الإمام (ع): لا تدركه الأبصار ولا تبلغه الأخبار أي أن الله لا تحيط به العقول، ولا ترقى إليه الأفهام ولا يشبه الأنام. والمعنى: أن عقول البشر لا تدرك حقيقته سبحانه وتعالى. والعلم غير الإدراك فنحن نعلم أن الله متصف بجميع صفات الكمال من القدرة والحياة والعلم، ولكن لا ندرك ماهيته. والإدراك شيء يختلف عن العلم بماهية موجد الوجود. فلا مخلوق قادر على إدراك ماهية الخالق عزوجل.

²³⁰ التوحيد ص 457.

²³¹ الكافي ج 1 ص 107.

وفي القول الثاني يقول (ع) أن علم الله تعالى من لوازم ذاته، فهو عالم بما سيكون قبل أن يكون. وقد قيل أن الله أزلي أبدي سرمدي. ومعنى ذلك: أزلي ما لا أول له، وأبدي ما لا آخر له، وسرمدي ما لا أول ولا آخر له. وما لا نهاية له لا بداية له.

وبالإجمال، فإن النهي عن التكلم في ذات الله متطابق مع العقل، لأن البحث في موضوع كهذا لا يزيد الإنسان إلا تيهًا وحيرةً وضلالاً. وهذا ما لا يريده الدين. بل كل ما يريده الدين هو الإيمان والقطع واليقين بوجود الله تعالى، وبصفاته التي وصفها لنا.

ثانياً: عدم الشك في العبادة: فإذا كثر الشك مثلاً في مفردات الأمور التعبدية كالصلاة اضطرب الإنسان، وتزعزت الطمأنينة في قلبه، واهتزَّ البنيان الذي بُني عليه. ولذلك حارب الإسلام الشك والوهم بكل قوة، لأن الأصل في الإيمان والعبادة، هو الإطمئنان القلبي.

ومن أمثلة محاربة الإسلام للشك في العبادة قوله (ع): (إذا كثر عليك السهو، فامض في صلاتك فإنه يوشك أن يدعك إنما هو من الشيطان)²³². فكثرة الشك والسهو هي من الشيطان، يُريد أن يوقع المصلي في مطبات عدم الإطمئنان في العبادة. وقد عُرِفَ الشك بأنه حالة في الإنسان تمنعه عن الثبات والإطمئنان. ذلك أن العبادة مبنية على اليقين.

²³² الكافي ج 3 ص 359.

وحكم المضي في الصلاة يأمر به الدين ويمضيه العقل بالمطابقة. وللشك في العبادة أحكامٌ أخرى سنأتي على شرحها لاحقاً بإذنه تعالى.

الثالثة: فيها معلّمٌ من معالم الإيمان بها:

ولم يكن علمُ الإمام الباقر (ع) ليخرج عن إطار معاني الإيمان أبداً، بل كان هدفه من العلم والتعليم، والمعرفة والتعريف، والبلاغ والتبليغ هو دفع الإنسان نحو طريق الفضيلة في معرفة ربه، وطاعته، وعبادته أثناء الليل، وأطراف النهار، وإدبار النجوم، وإدبار السجود. وفي العبادات الكثير من التيسير، مثال ذلك:

في معنى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)²³³؟ قال (ع): (يعني صلاة الليل). قيل له: (... وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)²³⁴؟ قال (ع): (يعني تطوعٌ بالنهار). قيل له: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ)²³⁵؟ قال (ع): (ركعتان قبل الصبح). قيل: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ السُّجُودِ)²³⁶؟ قال (ع): (ركعتان بعد المغرب)²³⁷.

²³³ سورة الزمر: الآية 9.

²³⁴ سورة طه: الآية 130.

²³⁵ سورة الطور: الآية 49.

²³⁶ سورة ق: الآية 40.

²³⁷ الكافي ج 3 ص 444.

ففي هذا المثال يلخّص الإمام (ع) طبيعة النوافل اليومية، وهي: صلاة الليل، ونوافل النهار، ونافلة الصبح بالخصوص، ونافلة المغرب. ومفهوماً يحثّهم على التواصل مع الله تعالى عبر أداء صلاة التطوع أو أداء النوافل. وبهذا الإسلوب نفهم أن الإمام (ع) كان يعلم الناس معالم الإيمان، ويسهّله عليهم.

وعنه (ع) في حديثٍ عن آدم (ع) يقول تعالى له بعد خلقه: (...). وإنما خلقتُ الجنّ والإنس ليعبدوني، وخلقْتُ الجنّة لمن عبدني وأطاعني منهم واتبع رسلي ولا أبالي، وخلقْتُ النار لمن عصاني ولم يتبع رسلي ولا أبالي، وخلقْتُك وخلقْتُ ذريتك من غير فاقة بي إليك وإليهم، وإنما خلقتُك وخلقْتُهم لأبلوك وأبلوهم أيكم أحسن عملاً في دار الدنيا، في حياتكم وقبل مما تمكم²³⁸.

هنا يشرح (ع) على لسان آدم (ع) علّة الخلق والتكوين. فالأصل في الخلق هو عبادة الله تعالى. وطالما كان الإنسان هو الذي يختار أداء العبادة من عدمها، وهو الذي امتلك ملكة العقل والإدراك أساساً، كانت النتيجة أن هناك حساباً، ثواباً كان أو عقاباً. فالجنة للمطيعين العابدين، والنار للعصاة المتمردين. ولا حاجة للخالق إلى المخلوق، ولكن هندسة الحياة صُممت من قبله عزوجل على أساس الإبتلاء والإمتحان في هذه الدنيا.

²³⁸ الإختصاص ص 332.

ثم يقول (ع): (كذلك خلقت الدنيا والآخرة، والحياة والموت، والطاعة والمعصية، والجنة والنار، وكذلك أردت في تقديري وتدبيرى، ويعلمي النافذ فيهم، خالفت بين صورهم، وأجسامهم، وأعمارهم، وأرزاقهم، وطاعتهم، ومعصيتهم، فجعلت منهم: السعيد، والشقي، والبصير، والأعمى، والقصير، والطويل، والجميل، والقبيح، والعالم، والجاهل، والغني، والفقير، والمطيع، والعاصي، والصحيح، والسقيم، ومن به الزمانة²³⁹، ومن لا علة به فينظر الصحيح إلى ذوي العاهة فيحمدني على ما عافيته، وينظر الذي به العاهة إلى الصحيح فيدعوني، ويسألني العافية، أو يصبر على بلائي، فأتيته جزيل عطائي، وينظر الغني إلى الفقير فيحمدني ويشكرني، وينظر الفقير إلى الغني فيدعوني ويسألني، وينظر المؤمن إلى الكافر فيحمدني على ما هديته، فلذلك خلقتهم لأبلوهم في السراء والضراء، وفيما عافيتهم، وفيما ابتليتهم وفيما أعطيتهم، وفيما منعتهم²⁴⁰).

في هذا المقطع يفسر الإمام (ع) على لسان حديث آدم (ع) طبيعة تصحيح الحياة الإنسانية. فهي مبنية على ثلاثة أمور:
1- الحياة والموت: فالإنسان يولد في هذه الدنيا، ويسعى في حياته ثم يأتيه الأجل المحتوم فيموت، وهو يحمل صحيفة أعماله التي سجلت مسيرته من التكليف وحتى الممات.

²³⁹ الزمانة: العاهة أو المرض.

²⁴⁰ الإختصاص ص 332.

2- الإختلافات التكوينية: وضع الخالق عزوجل الإختلافات التكوينية في صور الإشخاص وأجسامهم وأعمارهم وأرزاقهم. فكلّ له ميزة خاصة ولا يتشابه فردٌ مع آخر. وتلك الفوارق لها ميزة تميزهم، فالمحروم من شيء يتوجه إلى الله تعالى ويدعوه، والمكتمل يشكر الله تعالى على حسن خلقته، وتمام رزقه.

3- آلية الطاعة: ينظر جميع الخلق إلى رحمة الله وشكره على كل النعم التي أنعمها عليهم. ولكن السليم بدأً يشكر الله على سلامته، والمعاق وذو العاهة يدعوه تعالى إلى الرحمة به ويسأله الشفاء، والمبتلى يصبر على بلائه ويدعو الله أن يفرّج عنه، وهكذا تسير الحياة الدنيا بين شكرٍ على نعمة مهداةٍ، وبين صبرٍ على بلائٍ، ودعاءٍ إلى الله برفعه.

ثم ينقل قول الله تعالى: (وأنا الله الملك القادر، ولي أن أمضي جميع ما قدرت على ما دبرت، ولي أن أغيّر من ذلك ما شئت إلى ما شئت، وأقدم من ذلك ما أخرت وأؤخر من ذلك ما قدمت، وأنا الله الفعّال لما أريد، لا أسأل عما أفعل، وأنا أسأل خلقي عما هم فاعلون)²⁴¹.

فهو القادر سبحانه على كل ذلك، وله أن يمضي كل ما قدر من أرزاق، وأعمار، ونيعم، وسلامة أبدان، وله المشيئة في كل ذلك. فهو الفعّال لما يريد. والخلق محاسبون على أفعالهم وأعمالهم.

وفي كل هذا العلم الجَمّ معالمٌ للإيمان، فهي ثقافة دينية موجهة لعبادة الخالق عزّوجلّ، وهداية الإنسان نحو طريق التفكير بالوجود وخالقه.

²⁴¹ الإختصاص ص 332.

الرابعة: أنها ليست علماً تجزيئياً:

فلا ينبغي أن يكون علمُ الإمام (ع) علماً تجزيئياً، أي أنه يعلم في شيء ولا يعلم في شيء آخر. فلا بد أن يكون علمه (ع) علماً شمولياً تاماً في كل ما يتعلق بالدين من أمور. وتلك من أهم خصائص الإمامة الشرعية الحقة.

ذلك أن الإنسان جُبلَ على تعلم العلم بصورة تجزيئية تدريجية، ولذلك نلاحظ أن علماء الطبيعة متجزئون في العلم، أي لديهم إختصاصات معينة. وليس علمهم علماً كلياً تاماً. مثلاً إستحدث الإنسان إختصاصات في علم الطب كالباطنية، والجراحة، والكسور ونحوها. وإستحدث إختصاصات في علم الهندسة كالهندسة المدنية، والميكانيكية، والمعمارية ونحوها. وحاول بناء إختصاصات في العلوم الإنسانية كعلم الإجتماع، وعلم النفس، وعلم التربية، ونحوها.

بينما يكون علم الإمام (ع) علماً شاملاً جامعاً لجميع معارف الدين من عقائد، وأحكام، وأخلاق، ومنهج حياة، ولا سبيل إلى التوسع في إختصاص وترك إختصاص آخر في علوم الدين. بل لابد من الإحاطة بعلم ديني شاملٍ لجميع الجزئيات والمصاديق.

وإذا كانوا هم (الحجة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض)²⁴²، فلا بد أن تكون علومهم (ع) علوماً تامةً كاملةً، وليست علوماً تجزيئيةً تخصصيةً في أمر دون آخر.

²⁴² شرح أصول الكافي - المازندراني ج 5 ص 171.

لاحظ الشمولية والعمق في قول الإمام الباقر (ع) عندما سُئل عن الزهد، فقال (ع) أن الزهد عدة أشياء: (فأعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا. ألا وإن الزهد في آية من كتاب الله عزَّوجلَّ: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...)⁽²⁴³⁾²⁴⁴.

فقد ربط (ع) هنا بين الزهد، والورع، واليقين، والرضا ضمن درجات متفاوتة، ثم أجمل الزهد في آية واحدة، وهي: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...)²⁴⁵، وهو الزهد العقلي عن زينة الحياة الدنيا. والزهد العقلي هو الذي يصنع الورع واليقين والرضا بما قسم الله. أي أننا ندرك أن مفهوم قوله هو أن الزهد الحقيقي هو زهد العقل الإنساني لزينة الدنيا وزخارفها، وإذا رفض العقل المؤمن زينة الدنيا وشهواتها، فإنه قد فتح الباب للورع واليقين والرضا، وعندها يُهدَّب سلوك الإنسان. وتلك شمولية في فهم الدين من قبل الإمام (ع).

ولاشك أن العلم الواقعي هو أمضى سلاح بيد الإمام المعصوم (ع)، ولذلك منحه الله تعالى تلك المَلَكَةَ في إستيعاب العلم، وحسن بثِّه بين الناس، وفضيلة تطبيقه على نفسه بدايةً، وقد قال (ع): (نحن خزنة علم الله، ونحن ولاة أمر الله، بنا فُتِحَ الإسلام، بنا يَختَمه، ومنا تعلموا، فو الله

²⁴³ سورة الحديد: الآية 23.

²⁴⁴ معاني الأخبار ص 252.

²⁴⁵ سورة الحديد: الآية 23.

الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما علمُ الله في أحدٍ إلا فينا، وما يدرك ما عند الله إلا بنا...²⁴⁶.

حتى أن الله تعالى سلبه (ع) في بعض الأحيان السلاح المادي، وحفظ له السلاح العلمي، لأن العلم أقوى سلطة على الأرض، ولم يوفق أبو تمام الشاعر حينما قال:

السيفُ أصدقُ انباءً من الكتبِ في وحده الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ
مع أن قوله فُسِّرَ بأن النصر الذي ظفر به العرب في عمورية سنة 223 هـ يشهد بأن السيف أصدق من كتب المنجمين، إلا أن إطلاق لفظ الكتب في شعره يدلُّ على العلم والمعرفة، وليست بالضرورة علم التنجيم الذي حرّمه الإسلام. وعلى أية حال، فإنّ قوله كان يمثل نصف الحقيقة، وليست الحقيقة كلها. فالحقيقة أن كلمات الإمام (ع) وهي مسطورة في كتب العلم والمعرفة تبقى في العقول والقلوب على مدى الدهور والأجيال. ولا يعمل السيف بالإنسان عمل الكلمات التامات. ولو وصلت كلمات الإمام الباقر (ع) - إفتراضاً - إلى عمورية في ذلك الوقت قبل وصول السيف، لبقى الإسلام وبقيت الكلمات لحد اليوم، ولكنك ترى أن لفعل السيف أمْدٌ محدودٌ، وزمَنٌ منقوصٌ، ولكن لا حدَّ زمنيّ يُنهي الكلمات التامات للأطهار من بيت النبي (ص).

²⁴⁶ بصائر الدرجات - الصفار ص 82.

المنظّم العقلي للأمة:

صرح رسول الله (ص) بأن الله تبارك وتعالى تعهد بحفظ الدين عن طريق كتاب الله المجيد، وإمامة أهل البيت (ع): (فإنهم لا يدخلونكم في باب ضلال، ولا يخرجونكم من باب هدى، فلا تعلّموهم، فإنهم أعلم منكم، وأني سألت ربي إلا يفرّق بينهم وبين الكتاب حتى يردا عليّ الحوض)²⁴⁷.
يأتي الإمام الباقر (ع) بعد حوالي قرن من الزمان ليؤكد ذلك: (والله ما ترك الأرض منذ قبض الله آدم إلا وفيها إمام يُهتدى به إلى الله، وهو حجة الله على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة الله يُهتدى به إلى الله)²⁴⁸، و(أن الأرض لا تبقى إلا ومنا فيها من يعرف الحق، فإذا زاد الناس قال قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال قد نقصوا، ولولا أن ذلك كذلك لم يعرف الحق من الباطل)²⁴⁹.

فتبقى الأرض التي خلقها الله تعالى خصبة بالحق، مزدهرة بالإيمان، قائمة على أعمدة ثلاثة هي: القرآن الكريم بما فيه من إعجاز متجدد على مر الأزمنة، وأهل البيت (ع) بسيرتهم وإمامتهم، والإنسان المؤمن بهما.

وهكذا يكون الإمام (ع) المنظّم العقلي للأمة في قضية الدين، يحفظ سنّة رسول الله (ص)، ويعلم الناس حدود الدين، ويُفسر لهم القرآن

²⁴⁷ الكافي ج 1 ص 209.

²⁴⁸ بصائر الدرجات ص 485.

²⁴⁹ علل الشرائع ج 1 ص 190.

الكريم. فإذا أضاف الناس شيئاً جديداً على الدين، قام بوظيفته (ع) في تعديل المسار، وتصحيح الطريق، وإذا أنقصوا شيئاً من واجباتهم أمرهم بتكليفهم الشرعي. وفي ذلك ينقل الإمام (ع) عن آبائه: أن النبي (ص) قال: (في كلِّ خلفٍ من أمتي عدلاً من أهل بيتي ينفي عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهل، وإن أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من توفدوا في دينكم وصلواتكم)²⁵⁰.

الإمام الباقر (ع): الخصائص الشخصية

ولا تكتمل الصورة العلمية للإمام الباقر (ع) ما لم نعرض مجموعة الخصائص الشخصية التي تجعل الإمام محمد الباقر (ع) أفضل الناس في زمانه، فبناءً الإمامة مكوّن من أربعة أسس:

الأول: الحكم العقلي بأنه أفضل الناس في زمانه، وهذا الحكم مستندٌ على تقييم شخصيته من قبل مجموعة كبيرة من العقلاء. فلا بد من دراسة صفاته العلمية (ع) من زاوية العين الاجتماعية، وعرض ما قيل في تقييم شخصيته من قبل أهل العلم:

ابن أبي الحديد (ت 655 هـ) قال عنه: كان (ع) "سيد فقهاء الحجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه"²⁵¹.

²⁵⁰ قرب الإسناد ص 37.

²⁵¹ شرح نهج البلاغة ج 15 ص 227.

محمد بن طلحة الشافعي (ت 652 هـ) قال عنه: "هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، ومنمق دَرّه وواضعه، صفا قلبه، وزكا علمه، وطهرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله أوقاته، ورسخت في مقام التقوى قدمه، وظهرت عليه سمات الإزدلاف، وطهارة الإجتباء"²⁵².

وابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) قال عنه: "أبو جعفر محمد الباقر، سمي بذلك مِنْ بَقَرِ الأَرْضِ أَي شَقَّهَا، وَأَنَارَ مَخْبَآتِهَا وَمَكَامِنَهَا، فَذَلِكَ هُوَ أَظْهَرَ مِنْ مَخْبَآتِ كُنُوزِ الْمَعَارِفِ، وَحَقَائِقِ الْأَحْكَامِ وَالْحُكْمِ وَاللِّطَائِفِ مَا لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى مَنْظَمِ الْبَصِيرَةِ، أَوْ فَاسِدِ الطَّوِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ، وَمَنْ ثَمَّ قِيلَ فِيهِ هُوَ بَاقِرُ الْعِلْمِ وَجَامِعُهُ، وَشَاهِرُ عِلْمِهِ وَرَافِعُهُ، صَفَا قَلْبَهُ، وَزَكَا عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ، وَطَهَّرَتْ نَفْسَهُ، وَشَرَفَ خَلْقَهُ، وَعَمَرَتْ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَلَهُ مِنَ الرِّسُومِ فِي مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ مَا تَكَلَّى عَنْهُ أَلْسِنَةُ الْوَاصِفِينَ، وَلَهُ كَلِمَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي السُّلُوكِ وَالْمَعَارِفِ"²⁵³.

وإدريس عماد الدين القرشي (ت 872 هـ) قال: "هو أول من حاز شرف الأصلين، وإجتمعت له ولادة الحسن والحسين، ونشأ على الفضل والطهارة، والرياسة والسيادة والعلم. واحتذى سيرة آبائه الطاهرين، ولم يزل في درجات الفضائل منتقلاً، وللمفاخر السامية متوغلاً"²⁵⁴.

²⁵² مطالب السؤول - محمد بن طلحة ص 80.

²⁵³ الصواعق المحرقة - ابن حجر ص 120.

²⁵⁴ عيون الأخبار وفنون الآثار - القرشي ص 218.

وهذا غيـضٌ من فيضٍ فيما قيل في الإمام الباقر (ع)، وقد قرأنا فيما سبق ما قاله معاصروه، وما أفاضوا عليه من المدح والثناء.

الثاني: يجب أن يكون الأفضل أفضل الناس طول حياته، بحيث لو نازعه شخص آخر في مقامه، سقط المنازع، وبقي الأصل في موضعه الصحيح. وقد نازعه الكثير من أصحاب المذاهب الفكرية والسياسية، كلٌّ على طريقته وشاكلته، إلا أنه (ع) نفى عن هذا الدين تحريف المغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجهال، وكان (ع) وفدُ أمته إلى الله تعالى في دينهم وصلاتهم. وإذا كان (العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم)²⁵⁵، كما قال رسول الله (ص)، أفلا يحق للإمام الباقر (ع) أن يكون وريثاً ووصياً لمحمد خاتم الأنبياء (ص)؟

قدح الإمام الباقر (ع) ببعض من معاصريه من الذين ارادوا أن يُظهروا للناس علماً كاذباً خادعاً ليضلوا الناس، فقال عنهم: (أن الحكم بن عتيبة، وسلمة، وكثير النوا، وأبا المقدام، والتمار - يعني سالمًا - أضلوا كثيراً ممن ضلّ من هؤلاء الناس، وإنهم ممن قال الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)²⁵⁶، وإنهم ممن قال الله

²⁵⁵ بصائر الدرجات ص 3.

²⁵⁶ سورة البقرة: الآية 8.

تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّهَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)²⁵⁷ (258).

كان الإمام (ع) أفضل الناس طول حياته، وسقط المنازعون وبقي الأصل في موضعه. ناظرهم الإمام (ع) وكشف عدم صحة معتقداتهم، وبقي الإمام الباقر (ع) الأفضل في الفكر والسلوك طول حياته.

الثالث: ينبغي أن تكون هناك خيارات أخرى يختار منها الإنسان المكلف ما هو أفضل، أي لا يمكن أن يلعب الإكراه دوراً في الإختيار. كان زمن الإمام الباقر (ع) مزدحماً بالعديد من علماء مدرسة الحديث والرأي أمثال: عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والأوزاعي، وأبو حنيفة، وابن جريج، والحسن البصري ونحوهم. وكذلك عبيد بن أبي رافع، ونافع، والزهري، وابن المنكر، والأبرش الكلبي، وعبد الله بن عطاء المكي، وعبد الله بن نافع الأزرق، ونحوهم.

فكان للإنسان في ذلك الزمان مطلق الإختيار، ولكن الناس من الموالين إختارت الإمام الباقر (ع) لأنه امتلك المؤهلات الشرعية للإمامة الكبرى.

²⁵⁷ سورة الأنعام: الآية 109.

²⁵⁸ تفسير العياشي ج 1 ص 326.

الرابع: أن يقترن سلوك الأفضل بالكمال بكل ما للحياة الإنسانية من معانٍ على مستوى العلم، والتقوى، والأخلاق، وطاعة الله عزّوجلّ. فلا يمكن أن يكون متقياً لكنه جاهل في العلم، ولا يمكن أن يكون عالماً لكنه فض قاسي الطباع. بل لابد أن يجمع كل معاني الفضيلة في العلم والتقوى والاخلاق والطاعة. فالأفضلية تلهمنا معاني الكمال في الأفكار والأعمال.

جمع الإمام الباقر (ع) كل تلك الصفات، فقد كان عبداً شكوراً، سلك سلوك الكمال، واقتدى بجده رسول الله (ص)، في علمه وسلوكه.

ارتباط العلم بالتضحية:

والتضحية والمعاناة والابتلاء تصقل عِلْمَ الإنسان. وطالما كان الإنسان أقرب إلى طبيعة النفس البشرية عند المعاناة والألم، كان اكتشافه لطبيعة الصراع بين الخير والشر أكبر في وقت الحرمان والمعاناة. ولإمام (ع) منهج حياة في التضحية: فقد كان يمرّ في مراحل حياته بشظفٍ عيش، أو معاناةٍ مع ظالم، أو إبتلاءٍ مع الناس. وتلك المعاناة جعلته أقرب إلى الواقع الإنساني من إنسان يعيش العلم في حالة من حالات الترف.

شرح الإمام الباقر (ع) طبيعة معاناة أهل البيت (ع) فقال: (إنما مثّلنا في هذه الأمة مثلاً بني إسرائيل، كان يُذبح أبناؤهم وتُستحيا نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا!

وقد زعمت العرب أن لهم فضلاً على العجم، وهو أن محمداً كان عربياً. وزعمت قريش أن لها فضلاً على غيرها من العرب، وهو أن محمداً

كان قرشياً. فإن كان القوم صدقوا، فلأهل البيت (ع) فضلٌ على الناس لأنهم ذرية محمد (ص)، وأهل بيته خاصة وعترته²⁵⁹.

هنا يقع الثقل الأعظم على هؤلاء القادة الأطهار (ع) في هذا المعترك العقائدي، فإن حصتهم من التضحية والمعاناة والقتل أكبر من حصة أي إنسان آخر، لكنهم لن يتخلو (ع) عن وظيفتهم في نشر العلم والفضيلة وقيادة العالم إلى شاطئ الأمان. لم يسكتوا عن الإفصاح عن معاناتهم (ع) مع الناس، بل كانوا ينبهون أصحابهم ومحبيهم بصعوبة الطريق في محبة آل البيت (ع).

يقول له الرجل: والله أني لأحبكم أهل البيت. فقال (ع) له: فاتخذ للبلاء جلباباً، فوالله أنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدو البلاء ثم بكم، وبنا يبدو الرّخاء ثم بكم²⁶⁰.

فلا مكان لضعاف القلوب في هذا المعترك العقائدي، كما يشير (ع): (عجبتُ من قومٍ يتولوننا، ويجعلوننا أئمةً، ويصفون أن طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله (ص) ثم يكسرون حجتهم، ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فينقصونا حقنا، ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حق معرفتنا، والتسليم لأمرنا)²⁶¹.

²⁵⁹ بحار الأنوار ج 46 ص 360.

²⁶⁰ المصدر السابق.

²⁶¹ الكافي ج 1 ص 262.

فالمحبة والتولي لهما ثمن، والمحِبُّ أو الموالِي لهم تقع عليه مسؤولية عظيمة وهي طاعتهم في الله، خصوصاً وأن طاعتهم (ع) مفروضة كطاعة رسول الله (ص)، كما قال. إذن ولاية أهل البيت (ع) لها ثمن بالغ لا يتحمله إلا الصنديد، الشجاع الشريف الذي وطَّن نفسه على تحمل الصعاب وركوب الجبال، وهذا لا يأتي إلا عن إيمان مطلق بصحة ولايتهم (ع) وشرعيتها.

ثم يبين كيفية مقتل أئمة أهل البيت (ع)، فيقول: (إن الله تبارك وتعالى قد كان قدّر ذلك عليهم، وقضاه، وأمضاه، وحتمه على سبيل الإختيار، ثم أجره... وما كان ذلك الذي أصابهم لذنْبِ اقترافه، ولا لعقوبة معصية خالفوا بها الله فيها، ولكن لمنازل، وكرامة من الله أراد أن يبلغوها)²⁶².

وهنا مفتاح الخزانة أو بيت القصيد أو مربط الفرس كما يقول العرب. وهو أن قضاء الله تعالى جرى عليهم في المصاعب والمصائب التي ابتلوا بها لمنازل وكرامة من الله تعالى لهم، لا لذنْبِ اقترافه. كان ذلك القضاء الحتمي مقبولاً من عندهم لأنهم يعلمون أن قضاء الله لا يرد، وأن قدره مضى فيهم لمنزلتهم العالية، وكرامتهم عنده سبحانه.

يسرد الإمام الباقر (ع) جزءاً من تاريخ الصراع، فيقول: (دعا رسول الله (ص) أصحابه بمنى، فقال (ص): يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي،

²⁶² المصدر السابق.

فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)، ثم قال (ص): (يا أيها الناس إنني تاركٌ فيكم حرّات الله: كتاب الله، وعترتي، والكعبة البيت الحرام)، ثم أردف الإمام (ع) قائلاً: (أما كتاب الله فحرّفوا، وأما الكعبة فهدموا، وأما العترة فقتلوا...) ²⁶³.

إذن هي المنازل الأخلاقية والكرامة الآلهية التي أرادها الله تعالى لهم. لا لذنوبٍ اذنبوهم، ولا معصيةٍ ارتكبوها، لكنها الحتمية الآلهية في الإبتلاء والإختبار للصالحين المخبئين الذين اصطفاهم الله تعالى بها.

لِمَ لا وهو القائل: (ما لقينا أهل البيت من ظلم قريش، وتظاهروا علينا، وقتلهم إيانا، وما لقيت شيعةًنا ومحبوينا من الناس إن رسول الله (ص) قبض وقد قام بحقنا، وأمر بطاعتنا، وفرض ولايتنا ومودّتنا، وأخبرهم بأننا أولى الناس بهم من أنفسهم، وأمر أن يبلغ الشاهد الغائب، فتظاهروا على علي (ع) فاحتج عليهم بما قال رسول الله (ص) فيه وما سمعت العامة، فقالوا صدقت قد قال رسول الله (ص)، ولكن قد نسخ، فقال إنا أهل بيتٍ أكرمنا الله عزّوجلّ واصطفانا...) ²⁶⁴. وأين الدليل على النسخ؟! وهل ينسخ النبي (ص) ما كان ثابتاً في آية التطهير والمباهلة وسورة هل أتى؟

تصريح الإمام الباقر (ع) هو تظلمٌ حقيقي ضد قريش، بل كان عملها مخالفاً لوصية رسول الله (ص) التي أمرت المسلمين بطاعتهم

²⁶³ بصائر الدرجات ص 413.

²⁶⁴ كتاب سليم بن قيس ص 108.

(ع)، وفرضت عليهم ولايتهم ومودتهم، لكن قريش تظاهرت على علي بن أبي طالب (ع) ومنعته حقه في الولاية الشرعية. وعلم علي بن أبي طالب (ع) كان دائماً مرتبطاً بتضحيته الفريدة في النفس والمال والولد. إذن فالتضحية تصقل علم الإنسان، وتجعله أقرب إلى جوهر الطينة التي خُلق منها، والسمو الذي جُبِلَ عليه.

التكامل العلمي ونفي المعصية:

لا يتم التكامل العلمي إلا عند زوال المعصية عند الإنسان. وتعبير آخر، إذا كان العالمُ مرتكباً للمعاصي كان علمه باهتاً ناقصاً لا يرقى إلى مستوى الفضيلة. بل لا يكون علمه ملزماً لبقية الناس المكلفين. فالحياة العلمية للعالم تتكامل عندما تزول المعصية من قائمة اهتماماته فضلاً عن سلوكيته. هنا لا يكون للمعصية ذرّة مكانٍ في حياته (ع)، ذلك لأن حياته قائمة على التسديد، والمعرفة، والطاعة المطلقة لله تعالى. والمعصية تخرب أساس الدين، لأن الإرتقاء في الدين مبني على عدم مخالفة الخالق عزوجل فيما يخص الرغبات الجسدية الفانية، وعدم مخالفة الخالق فيما يخص الألوهية والعبودية.

ففيما يخص الذنوب فالناس على ثلاثة أنماط وصفات، كما يشرح الإمام الباقر (ع):

الأول: الذنب مع الاستغفار والتوبة: أي أن هناك من يذنب ثم يستغفر الله تعالى، فيتوب الله عليه. والإيمان غير الإسلام، فصفة الإسلام كما يقول

(ع): (من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله (ص)، وأقرّ بما جاء من عند الله فهو مسلم). وصفة الإيمان أوسع، وهي: (من شهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وأقرّ بما جاء من عند الله، وأقام الصلاة، وأتى الزكاة، وصام شهر رمضان، وحجّ البيت، ولم يلق الله بذنوب أوعده عليه النار ولم يتب عنه)²⁶⁵.

وكلما عاد المؤمن بالإستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وهذا ما كان الإمام (ع) يؤكد عليه في مناسبات: (يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة. أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان). قال تلميذه: فإن عاد بعد التوبة والإستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة؟ قال (ع): (أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه، ويستغفر منه، ويتوب، ثم لا يقبل الله توبته؟). قال التلميذ: فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب، ويستغفر الله. فقال (ع): (كلما عاد المؤمن بالإستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، إن الله غفورٌ رحيمٌ، يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله)²⁶⁶.

وأهل التوفيق من الناس من محى سيئاته بالحسنات، ولم يصر ما فعل في سالف حياته، كما أشار (ع): (ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات)²⁶⁷، وفي قول الله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا

²⁶⁵ معاني الأخبار ص 381.

²⁶⁶ الكافي ج 2 ص 434.

²⁶⁷ الكافي ج 2 ص 458.

فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ²⁶⁸، فقال في شرح الآية: (الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار)²⁶⁹.

الثاني: الذنب مع التوبة وتأدية كل ذي حق حقه: أي من يذنب ويتوب، فلا تقبل توبته إلا أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه، فعن شيخ من النخع قال: قلت للإمام الباقر (ع): إني لم أزل والياً منذ زمن الحجاج إلى يومي هذا، فهل لي من توبة؟ قال: فسكت، ثم أعدت عليه، فقال (ع): (لا حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه)²⁷⁰.

فكيف يتوب القاتل، والسارق، والغاصب وهو لم يؤدِّ حق المجني عليه؟ إذن التوبة في هذا القسم على مرحلتين. الأولى: أداء حق المظلوم أو المغدور كاملاً. والثانية: التوبة إلى الله تعالى. وبهذا الطريق يتحقق العدل بين الناس.

²⁶⁸ سورة آل عمران: الآية 135.

²⁶⁹ الكافي ج 2 ص 288.

²⁷⁰ الكافي ج 2 ص 331.

الثالث: الذين لا يعصون الله أبداً: وهم الأنبياء والرسل وأئمة الهدى (ع) من أهل العصمة، وهؤلاء بعيدون عن ارتكاب الذنوب، وربما فيها روايات ذكرت سابقاً، نعيدها هنا لمحلها من البحث:

يصفُ تقوى النبي إبراهيم بالقول: (أصبح إبراهيم (ع) فرأى في لحيته شعرة بيضاء، فقال: الحمد لله رب العالمين الذي بلغني هذا المبلغ لم اعص الله طرفة عين)²⁷¹، (أن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذة نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذة رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذ إبراهيم خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له الأشياء ... قال له: يا إبراهيم (... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...)²⁷²، فمن عظمها في عين إبراهيم (ع) قال: يارب (... وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)²⁷³²⁷⁴.

وهذا أعظم تدرجٍ لنبي من أنبياء أولي العزم وهو إبراهيم (ع)، فقد اتخذ الله عبداً صالحاً بعد أن امتحنه فوجده مخلصاً في عبادته، ثم اتخذة نبياً على أمة من الناس، ثم اتخذة رسولاً على البشرية في زمانه مع كتاب آلهي، ثم اتخذة خليلاً لصدقه ووفائه وتفانيه مع خالقه، خصوصاً خلال تجاربه مع نمرود والقائه في النار عقوبة له على توحيد الله سبحانه. ثم اتخذة إماماً بما جمع له الأشياء. فالإمامة وهي إمامة البشرية جمعاء، بهذا المعنى هي أعظم درجة بنص القرآن الكريم.

²⁷¹ الكافي ج 8 ص 391.

²⁷² سورة البقرة: الآية 124.

²⁷³ سورة البقرة: الآية 124.

²⁷⁴ الاختصاص ص 23.

وفي تقوى أيوب (ع): (أن أيوب ابتلي من غير ذنب، وإن الأنبياء لا يذنبون، لأنهم معصومون، مطهرون، لا يذنبون، ولا يزيغون، ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً...)

إنما ابتلاه الله عزوجلّ بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس، لئلا يدعوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظام نعمته متى شاهدوه، ليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين: استحقاق واختصاص²⁷⁵، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه، ولا فقيراً لفقره، ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنه يُسقم من يشاء، ويُشفي من يشاء، متى شاء، كيف شاء، بأي سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمن يشاء، وشقاوة لمن يشاء، وسعادة لمن يشاء، وهو في جميع ذلك عدلٌ في قضائه، وحكيم في أفعاله، لا يفعل بعباده إلا الأصلاح لهم، ولا قوة لهم إلا به²⁷⁶.

فقصة أيوب (ع) أنه ابتلي ابتلاءً عظيماً من غير ذنب، حتى يعلم الناس أن الثواب لا يُمنح لشخصٍ بعينه دون إمتحان وابتلاء، وأن الإبتلاء

²⁷⁵ الفرق بين الملك والاختصاص والاستحقاق أن المال إن أضيف إلى من يعقل كانت اللام للملك، وإلا فإن شهدت العادة للمال لمن لا يعقل فهي للاستحقاق كالسرج للدابة، وإن لم يشهد العادة وغيرها بذلك فهي للاختصاص كقولك: هذا ابن لزيد، فإنه ليس من لوازم الإنسان أن يكون له ولد فالملك أخص من الاستحقاق، والاستحقاق أخص من الاختصاص (البحر المحيط ج 2 ص 271، شرح الكوكب المنير ج 1 ص 255).

²⁷⁶ الخصال - الصدوق ص 399 - 400.

يقع على الضعيف والقوي، والمريض والسليم، والمرسل وغير المرسل من الناس. فهو سبحانه يُمرض من يشاء، ويشفي من يشاء، ويرزق من يشاء، وفي كل ذلك هو عادلٌ فيما يفعل مع الجميع، فهو يختار الأصلح لهم، وعلى ذلك يعطي الثواب والمنزلة والقدر العظيم.

والمستفاد من تلك الروايات أن الله عزَّوجلَّ إصطفى مجموعة من الأَطهار رَوَّضوا أنفسهم على عدم إرتكاب المعصية، فهم معصومون، مطهرون، لا يذنبون، وقد قال الله تعالى بشأن الأنبياء (ع): (... إِيَّي جَاعِلِكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...)²⁷⁷، (... قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)²⁷⁸، وبشأنهم (ع): (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)²⁷⁹.

التركيبية المذهلة لأنمة أهل البيت (ع):

ليس هناك من يوازيهم (ع) في العلم والتقوى في زمانهم وما بعد زمانهم، فهم أفضل الناس في العلم والتقوى، والفصاحة والبلاغة، وأفضل الناس في مجمل الفضائل الأخلاقية. نستلهم ذلك من قول الباقر (ع) في أنمة الهدى (ع):

²⁷⁷ سورة البقرة: الآية 124.

²⁷⁸ سورة البقرة: الآية 124.

²⁷⁹ سورة الأحزاب: الآية 33.

(هم ولاية أمر الله، وخزان وحي الله، وورثة كتاب الله، وهم المصطفون بسرّ الله، والأمناء على وحي الله، هؤلاء أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، والمستأنسون بخفق أجنحة الملائكة، من كان يغذوهم جبرئيل من الملك الجليل، بخبر التنزيل وبرهان التأويل، هؤلاء أهل بيت أكرمهم الله بسرّه، وشرفهم بكرامته، وأعزهم بالهدى، وثبتهم بالوحي، وجعلهم أئمة هدى، ونوراً في الظلم للنجاة، واختصهم لدينه، وفضلهم بعلمه، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، وجعلهم عماداً لدينه، ومستودعاً لمكنون سرّه، وأمناءً على وحيه، ونجباء من خلقه، وشهداء على بريته)²⁸⁰.

وهذا وصفٌ عظيمٌ لأئمة أهل البيت (ع)؛ فبعد الأنبياء (ع) لا يرتقي إلى مستواهم بالفضل أحد. فهم ولاية الأمر الذين أوصى بطاعتهم القرآن الكريم، وهم خزان وحي الله الأمناء، وورثة الكتاب السماوي بعلمه، وهم الذين اصطفاهم الله لحفظ الوحي ورسالة السماء، هؤلاء الذين أكرمهم الله بسرّه، وشرفهم بكرامته، وجعلهم عماد الدين والشهداء على بريته، وجعلهم أئمة يهدون الناس إلى منابع الخير وطرق الرشاد، فهم أنوار ساطعة في دياجير الظلمات، وأقمار منيرة تنير للبشر طريق الخير والسعادة. كلمات الإمام (ع) تلك تجمع كل الفضائل الدينية لأهل بيت النبوة (ع) على مدى التاريخ حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم يقول: (اختارهم الله، وحباهم، وخصّهم، واصطفاهم، وفضلهم، وارتضاهم، وانتجبهم، وانتقاهم، وجعلهم للبلاد والعباد عمّاراً، وأدلاءً للأمة

²⁸⁰ بحار الأنوار ج 26 ص 250 - 251.

على الصراط، فهم أئمة الهدى، والدعاة إلى التقوى، وكلمة الله العليا، وحبته العظمى، وهم النجاة والزلفى، هم الخيرة الكرام، الأصفياء الحكام، هم النجوم الأعلام، هم الصراط المستقيم، هم السبيل الأقوم الراغب عنهم مارق، والمقصر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق، نور الله في قلوب المؤمنين، والبحار السائغة للشاربين، آمن لمن إلتجأ إليهم، وأمان لمن تمسك بهم، إلى الله يدعون، وله يسلمون، وبأمره يعملون، وبكتابه يحكمون...²⁸¹.

لازلنا في صفات أهل البيت (ع) على لسان الإمام الباقر (ع) فيقول إن الله اختارهم واصطفاهم وفضلهم على الناس، فجعلهم دليل الأمة على الصراط. وخيرة كرام بتلك المواصفات العظيمة لابد أن لا يتقدم عليهم متقدم، ولا يقصر عنهم مقصر، فهم نور الله في عقول المؤمنين وقلوبهم، وهم الأمان عندما يلتمسهم المقصرون، بل هم أمان لكل من تمسك بهم، لأنهم يدعون إلى الله، وبأمره يعملون، وبكتابه يحكمون.

أيُّ نعمةٍ عظيمةٍ منحها الله تعالى للبشرية عن طريق هؤلاء الأطهار (ع)، أهل الشرف والكرامة، وأهل الإختصاص في الدين، وأهل الإصطفاء والفضل.

وقوله (ع) أيضاً: (نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سرّ الله، ونحن وديعة الله في عباده، ونحن حرم الله الأكبر، ونحن عهد الله،

²⁸¹ بحار الأنوار ج 26 ص 250 - 251.

فمن وفى بدمتنا فقد وفى بذمة الله، ومن وفى بعهدهنا وفى بعهده الله، ومن خفنا فقد خفر ذمة الله وعهده²⁸².

وهذا القول من أعظم الأقوال في حق أهل البيت (ع)، ورغم مرور مئات السنين على صدوره منهم (ع) لم ينازعهم أحد في مصداقيته وأحقيته، فهو يعلن (ع) أمام الملأ صفات العترة الطاهرة: نحن الشجرة المثمرة للنبوة، ونحن بيت الرحمة والمغفرة، وموطن العلم، وموضع الرسالة، ومحط الملائكة، وموضع سر الله. وصفاتٌ بذلك الحجم، وتلك القوة والرفعة لا بد وأن تكون قريبة مما أراد الله لهم، لذلك قال: من وفى بعهدهنا وفى بعهده الله. بمعنى إننا سحقتنا ذواتنا من أجل الله، فنحن ندعو الله، وكلّ ما أعطانا من علمٍ نستخدمه لله، فليس لنا مصلحة في هذه الدنيا إلا خدمة الله تعالى، وحفظ رسالته، وتبليغ ما علمنا الله به إلى الناس. وهذا المقطع هو أعظم وصف لأهل البيت (ع)، فهو محمّل بالمعاني العظيمة التي تكشف معدنهم، وأهميتهم في تبليغ الرسالة السماوية.

وتلك صفاتٌ مذهلةٌ لا يوازيهم فيها شخصٌ أو مجموعة من الناس، ولا يسبقهم أحد في خدمة الدين، والتعريف بصفات الله ورحمته، فهم من سلالة النبوة، وصفاتهم تحكي كمالية سلوكهم، وأهمية دورهم في هذا الوجود.

²⁸² بصائر الدرجات ص 182.

تركيبية آلهية مع تخطيط مسبق:

نقرأ في كتب التاريخ الكثير من قصص المفكرين الذين دخلوا عالم الفكر والمعرفة صدفةً، أو بسبب حاجة مالية، أو بسبب وفاة الأب وبقاء الابن القاصر يتيماً فيدخل المدرسة الدينية ثم يتوفق في نيل مراتب العلم. إلا أن هذا لن يحصل مع أئمة أهل البيت (ع)، فالإمام (ع) لا يمكن أن يكون إماماً بالصدفة أو الحظ أو الحاجة المالية أو بمجرد الوراثة، بل هناك تصميم آلهي لشخصية الإمام من آل البيت (ع)، وغرض معلوم لفكرة الإمامة ذاتها. وفي ذلك شاهدٌ تاريخي، فعندما سأل ابن شهاب الزهري (ت 123 هـ) الإمام السجاد (ع) عن جواز الوصية بالإمامة لأكبر أولاده، قال (ع): (ليست الإمامة بالكبر والصغر، هكذا عهد إلينا رسول الله...)²⁸³.

نفهم ذلك أيضاً من حديثٍ مهمٍّ آخر للإمام الباقر (ع). قال: (لن تخلو الأرض إلا وفيها رجلٌ منا يعرف الحق، فإذا زاد الناس فيه قال قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال قد نقصوا، وإذا جاؤوا به صدقهم، ولو لم يكن ذلك لم يُعرف الحق من الباطل)²⁸⁴، (أن الله لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، وبيّنه لرسوله (ص)، وجعل لكلّ شيءٍ حداً، وجعل عليه دليلاً يدلُّ عليه)²⁸⁵.

²⁸³ بحار الأنوار ج 46 ص 232 حديث 9.

²⁸⁴ كمال الدين - الشيخ الصدوق ص 222.

²⁸⁵ بصائر الدرجات ص 6.

ففي القول الأول يحدد دور أهل البيت (ع) من خلال وجودهم المستمر بين المسلمين، ويقول بأنهم الميزان العقلي الذي يضبط صحة الدين بعد رسول الله (ص). فالناس، خصوصاً أهل الفلسفة والفكر، يحبون أن يزيدوا أو ينقصوا في الدين بما يلائم رغباتهم ومصالحهم. فيكون دور الإمام (ع) من أهل البيت (ع) أن يضبط ذلك بأن يدين الإنحراف أو الزيادة، ويتم النقص. أي أن يُرجع الأصل إلى أصله، ويمنع الزيادة أو النقص في الدين. وتلك وظيفة عظيمة لحفظ الدين إلى ما شاء الله. وفي القول الثاني أن الله تعالى أنزل كل ما تحتاجه الأمة من أحكام، وتشريعات، وقيم أخلاقية إلا بينها، وجعل لها حداً وضابطاً ودليلاً. وأئمة أهل البيت (ع) أعظم دليل على حفظ الكتاب والسنة، كما يقول الإمام الباقر (ع).

ثم قال (ع): (ما كانت الأرض إلا وفيها عالم²⁸⁶)، وأن العلم الذي هبط مع آدم (ع) لم يُرفع، والعلم يتوارث، وأنه لم يمتهن عالم إلا خلف من بعده من يعلم مثله علمه، أو ما شاء الله²⁸⁷.

في هذا القول يؤكد الإمام (ع) على استمرارية نشر العلم بين الناس، عن طريق حفظه من عالم إلى آخر، منذ آدم (ع). والعالم في مصطلح أهل البيت (ع) هو الإمام من ذرية النبي (ص) الذي أوجبت الأحاديث المتضافرة طاعته وعصمته.

²⁸⁶ المحاسن ص 234.

²⁸⁷ المحاسن ص 235.

إذن فالعلم السماوي كالنبي يستمر في تدفقه، وما أن يموت عالمٌ حتى يخلفه عالمٌ آخر من بعده، حتى تستمر البشرية في سعيها، ويستمر التكليف، ويستمر على ضوءه الثواب والعقاب.

لاحظ التصميم الالهي في نبوة عيسى، وزكريا، ويحيى (ع)، عندما سئل الإمام الباقر (ع): أكان عيسى بن مريم (ع) حين تكلم في المهد حجةً لله على أهل زمانه؟ فقال (ع): (كان يؤمّنُ نبياً حجةً لله غير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال: (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)²⁸⁸ (289).

قال السائل: أكان يؤمّنُ حجةً لله على زكريا (ع) في تلك الحالة وهو في المهد؟

فقال (ع): (كان عيسى في تلك الحال آيةً للناس ورحمةً من الله لمريم (ع)، حين تكلم فعبر عنها، وكان نبياً حجةً على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان، وكان زكريا حجةً لله عزّوجلّ على الناس بعد صمت عيسى بسنتين، ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة، وهو صبيٌّ صغيرٌ، أما تسمع لقوله تعالى: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأَنْتِنَاهُ الْكُحْمَ صَبِيًّا)²⁹⁰، فلما بلغ عيسى (ع) سبع

²⁸⁸ سورة مريم: الآية 30 - 31.

²⁸⁹ الكافي ج 1 ص 382.

²⁹⁰ سورة مريم: الآية 12.

سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله تعالى إليه. فكان عيسى الحجة على يحيى، وعلى الناس أجمعين، ولا تبقى الأرض يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم (ع) وأسكنه الأرض²⁹¹.

إجمالاً، فقد اجتمعت للإمام (ع) خصائص ذهنية وعملية منقطعة النظير، وهي: الإدراك الذهني المناسب لوظيفة الإمامة، والسلوك الاخلاقي الفاضل، ومنهج حياة في التضحية والإيثار، وعدم معصية الله أصلاً في حياته، وعدم وجود من يوازيه في العلم والتقوى والزهد، بل وعدم وجود من يوازيه في باقي الفضائل في زمانه. وتصميم إلهي للإمامة كتلك التي وصفناها لا تأتي صدفةً أو عن طريق الحظ، بل تأتي عن طريق تصميم إلهي، وعن قضاءٍ مبرم أراده الخالق عزوجل.

وفي تلك الخصائص تأثير حاسم على الناس، لأنها اجتمعت في إنسان واحد يتحرك معهم، ويتفاعل، ويوجه، ويتعبد، ويعلم، ويدعو. فلا غرابة أن يكون لكلام الإمام (ع) ذلك التأثير الحاسم على مجرى فكر المسلمين وتاريخهم.

منهجية التصدي للفكرة المخالفة:

انتشرت في المجتمع الإسلامي في تلك الفترة الزمنية عقائد باطلة مخالفة لأصول الإسلام وتعاليمه: كالجبر والتفويض، والإرجاء، ونحوها.

²⁹¹ الكافي ج 1 ص 382.

وكانت منهجية الإمام (ع) في محاربة تلك العقائد تتم من خلال

طريقتين:

الأول: رد الشبهات بطريق علمي عبر الاستدلال بآيات القرآن الكريم، وسنة رسول الله (ص)، وقدرة هائلة على عرض الجواب بطريقة منطقية لا تحيد عن مرمى الرامي.

يقول زرارة: سئلت الإمام الباقر (ع) عن [خلق] القرآن، فقال (ع): (لا خالق ولا مخلوق، ولكنه كلام المخلوق)²⁹². هكذا أجاب الإمام (ع) عن فكرة خلق القرآن، بأنها افتعال من الناس. أي أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى. فالقرآن الكريم هو كتاب الله المجيد، وهو كلامه ووحيه. ولا بد للرجوع للقرآن الكريم لمعرفة كيف ورد وصفه في نفس القرآن.

ورد وصف القرآن في القرآن الكريم بالأوصاف التالية:

- 1- الكتاب المصدق: (...وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا...)²⁹³.
- 2- الكتاب العزيز: (... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)²⁹⁴.
- 3- الكتاب المتشابه: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا...)²⁹⁵.
- 4- التنزيل: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)²⁹⁶.

²⁹² تفسير العياشي ج 1 ص 6.

²⁹³ سورة الأحقاف: الآية 12.

²⁹⁴ سورة فصلت: الآية 41.

²⁹⁵ سورة الزمر: الآية 23.

²⁹⁶ سورة فصلت: الآية 42.

- 5- الذكر: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)²⁹⁷.
- 6- موعظة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ...)²⁹⁸.
- 7- هدى ورحمة: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ...)²⁹⁹.
- إذن ليس في القرآن الكريم من وصفٍ يتعلق بصفة خلق القرآن، أو كونه محدثاً.

أجاب الإمام الباقر (ع) بكل وضوح عن هذه المسألة. وكان جوهر كلامه (ع) هو الرجوع إلى القرآن لمعرفة الخالق وطبيعة ما خلق، وأسرار الخلق والوجود، ودور الإنسان ووظيفته في هذا الوجود. ومعرفة أسرار الخلق والوجود في القرآن تُعني عن البحث في فكرة خلق القرآن أو حدوثه. ولم يتوقف الإمام الباقر (ع) عند الجواب على شبهة واحدة، بل كان يُجيب عن جملة أسئلة وشبهات في وقتٍ واحدٍ. ومن ذلك أنه أجاب طاووس اليماني (ت 106 هـ) على أسئلته عن آدم، وإبليس، والجن، والمنافقون، وطور سيناء، وغيرها³⁰⁰.

فعن آدم (ع) عندما سُئل متى هلك ربع الناس؟ قال (ع): يوم قتل هابيل قابيل، كانوا أربعة: آدم، وحواء، وقابيل، وهابيل، فهلك ربعهم. وعن سبب تسمية الجن بهذا الاسم، أجاب (ع): لأنهم استجنوا (أي استتروا) فلم يروا.

²⁹⁷ سورة الحجر: الآية 9.

²⁹⁸ سورة يونس: الآية 57.

²⁹⁹ سورة البقرة: الآية 185.

³⁰⁰ الإحتجاج - الطبرسي ج 2 ص 328 - 330.

وعن المنافقين كونهم شهدوا شهادة الحق وكانوا كاذبين، قالوا لرسول الله (ص): نشهد أنك لرسول الله، فانزل الله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)³⁰¹.

وعن طور سيناء، وهو الجبل الذي نودي منه موسى (ع): أطاره الله تعالى على بني إسرائيل حين أظلمهم بجناح منه، فيه ألوان العذاب، حتى قبلوا التوراة، وذلك قوله تعالى: (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ...)³⁰².

ويُجيب على أسئلة عمرو بن عبيد المعتزلي (ت 144 هـ) في الرتق والفتق والغضب³⁰³. ففي قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...)³⁰⁴. ما هذا الرتق؟ وما هذا الفتق؟ يجيب الإمام (ع): (كانت السماء رتقاً لا تُنزلُ المطر، وكانت الأرض فتقاً لا تُخرجُ النبات، فرتق الله السماء بالقطر، وفتق الأرض بالنبات)³⁰⁵.

³⁰¹ سورة المنافقون: الآية 1.

³⁰² سورة الأعراف: الآية 171.

³⁰³ الإحتجاج ج 2 ص 49.

³⁰⁴ سورة الأنبياء: الآية 30.

³⁰⁵ بحار الأنوار ج 46 ص 290.

وفي قوله تعالى: (... وَمَنْ يَخْلِكْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)³⁰⁶، ما ذلك الغضب؟ أجاب الإمام (ع): (العذاب، وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستغزه، ويغيره عن الحال التي هو بها إلى غيرها، فمن زعم أن الله يغيره الغضب والرضا ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق)³⁰⁷.

فكان (ع) يردُّ على الشبهات بأسلوب علمي محكم، يستند فيه على آيات القرآن الكريم، وسنة نبيه (ص)، ودليل العقل. وسوف نبحت تلك الردود في فصل مستقل بإذنه تعالى.

الثاني: إرجاع الناس إلى المنبع الأساس للفكر الإسلامي وهو القرآن الكريم وأئمة أهل البيت (ع) باعتبارهم حفظة السنة النبوية. ومن ذلك كان يخاطب رؤوس المذاهب المستحدثة ويحاول إرشادهم. فهذا قتادة بن دعامة البصري فقيه أهل البصرة (ت 118 هـ) يخاطبه قائلاً: (ويحك يا قتادة أن الله جلّ وعزّ خلق خلقاً من خلقه، فجعلهم حججاً على خلقه، فهم أوتاد في أرضه، قوامٌ بأمره، نجباءً في علمه، اصطفاهم قبل خلقه، أظلةً عن يمين عرشه)³⁰⁸.

³⁰⁶ سورة طه: الآية 81.

³⁰⁷ الإحتجاج ج 2 ص 49.

³⁰⁸ الكافي ج 6 ص 256.

هنا يخاطب الإمام الباقر (ع) رؤوس المذاهب المستحدثة المختلفة ويذكرهم بدور أهل بيت النبي (ص) في حفظ الدين، وكونهم (ع) أوتاداً في أرضه، والوتد هو ما تقوم عليه الخيمة، فإذا سقط الوتد سقطت الخيمة، وهم القوامون بأمره، اصطفاهم قبل خلقه، وجعلهم نبزاً للمؤمنين، وتلك صفات عظيمة في أهل البيت (ع).

الثالث: مناقشة الأفكار الجديدة التي لا تدخل ضمن السياق الفكري للدين كالقياس والإرجاء والجبر والتفويض، وتنفيذ مزاعمها.

فيجيب أبي الجارود (ت بين 150 - 160 هـ) عندما يسأله عن دينه الذي به يُدين، فيقول له: (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله (ص)، والإقرار بما جاء به من عند الله، والولاية لولينا، والبراءة من أعدائنا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا، والإجتهد والورع)³⁰⁹. تلك أفكار الإمام (ع) حول معتقده الذي يدين به، ودينه الذي جاء به محمد رسول الله (ص).

أما الأفكار المستحدثة لأولئك النفوس فكانت تدور حول قضايا جديدة لم يسبق أن فكر بها المسلمون، منها: كفاية إعتقاد الإنسان بقلبه للدخول في مرضاة الله دون عملٍ من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ! وفي كون الخالق عزّوجلّ جسمٌ ذو أبعادٍ ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً! وإمكانية تطويع أحكام الدين السماوي بالقياس المنطقي! مسائل صعبة،

³⁰⁹ الكافي ج 2 ص 22.

وحلولها بالدليل أصعب علينا. لكن الإمام المعصوم (ع) كان قادراً على تذليلها والإجابة عنها إجابة وافية.

فقد فنّد أئمة أهل البيت (ع) فكرة القياس، وقالوا: (أن دين الله لا يُصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة)³¹⁰، وحذروا أبا حنيفة رائد الفكرة بالقول: (لا تقس، فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقاس بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار، لعرف فضل ما بين النورين)³¹¹.

فكان من من ثمرة موقف أهل البيت (ع) في عدم شرعية القياس في الدين، أن من قال بالقياس عدّل لاحقاً شروط القياس، وجعل له ضوابط جديدة منها: أن يكون الحكم الأولي قد ورد فيه نص في الأصل³¹²، وأن تكون العلة وصفاً جامعاً بين الأصل والفرع. وبذلك قلّت مضار القياس في الاستنباط الديني إلى أدنى حد. ولكن أصل الفكرة لا تزال خروجاً على تعاليم خاتم الأنبياء محمد (ص).

واحتدم الصراع أيضاً بين فكرتي: الجبر والتفويض في تلك الفترة، وقد حارت الناس بينهما، ولم تهتدِ إلى أيهما أصح لولا دور الإمام الباقر (ع) في التوضيح والشرح.

³¹⁰ كمال الدين ص 324.

³¹¹ الكافي ج 1 ص 58.

³¹² المستصفى - الغزالي ج 2 ص 54.

فقد زعمت فكرة الجبر بأن الإنسان لا يملك إرادة الفعل، والأفعال كلها أفعال الله تعالى، وأنكرت إختيار الإنسان لفعله، وأستدلّت بقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)³¹³.

وزعمت فكرة التفويض بأن أفعال الإنسان أفعالاً حقيقيةً إختارها بنفسه دون أن يكون لله تعالى عليه جبر أو إرادة فيها. وأستدلّت بقوله تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ...) ³¹⁴.

استثمرت السلطة الأموية فكرة الجبر، وروجتها لأسباب سياسية تقول بأن حكم المسلمين من قبل بني أمية هي قضية مخلوقة من قبل الله تعالى، ولا خيار للأفراد في تفويضها أو ردّها، خصوصاً وأن الخليفة الأموي هو خليفة الله على الأرض!

قال أئمة أهل البيت (ع) أنه (لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين)³¹⁵، وقال الإمام الباقر (ع) بالخصوص: (أن الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها، والله أعرّ من أن يريد أمراً فلا يكون)³¹⁶.

وكما أطنب الأمويون بمدح فكرة الجبر، هللوا أيضاً لفكرة الإرجاء، بإعتبار أن الإيمان قول بلا عمل، فإذا كنت مؤمناً بالقلب، فلا تضر المعصية، ولا يضر الفساد، ولا الظلم. وقف الإمام الباقر (ع) موقفاً قوياً

³¹³ سورة الصافات: الآية 96.

³¹⁴ سورة الكهف: الآية 29.

³¹⁵ الكافي ج 1 ص 159.

³¹⁶ الكافي ج 1 ص 159.

ضد الإرجاء، وقال (ع) مخاطباً المسلمين جميعاً: (بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة)³¹⁷. بمعنى علموا أولادكم أصول الدين وهم صغار قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فيأخذهم الجهل إلى ظلمات الشك والفكر المنحرف.

وقد آمن المجسمة بأن الله تعالى جسمٌ من طول وعرض وارتفاع تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد أولوا الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الأعضاء كالوجه، والساق، واليد، وجعلوها صفةً لله عزّوجلّ. فقالوا أن الخالق عزّوجلّ يضع رجله بالنار يوم القيامة تأويلاً لقوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)³¹⁸، وإنما هي تعني جذّة الأمر يوم القيامة ولا علاقة لها بالساق. وزعموا بأن وجه الله تعالى هو ذاته، في قوله تعالى: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)³¹⁹، ووجه الله يعني دينه كما ورد عن الإمام الباقر (ع)³²⁰، وقالوا في قوله تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)³²¹، أن الكرسي والعرش هما موضع قدم الله، تعالى الله عن ذلك. بينما معنى الكرسي والعرش هو التدبير الألهي للكون والموجودات.

³¹⁷ الكافي ج 6 ص 47.

³¹⁸ سورة القلم: الآية 42.

³¹⁹ سورة الرحمن: الآية 27.

³²⁰ الدمعة الساكبة - البهبهاني ج 7 ص 154.

³²¹ سورة البقرة: الآية 255.

ردّ الإمام الباقر (ع) على المجسمة بأقوالٍ كثيرةٍ، منها: (أن الله تبارك وتعالى خلّو من خلقه، وخلقه خلّو منه)³²²، و(أن ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون...)³²³، و(أن الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيهه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلّ عن أوهام المتوهمين)³²⁴.

³²² التوحيد ص 105.

³²³ الكافي ج 1 ص 88.

³²⁴ التوحيد ص 179.

الفصل الثالث

المدرسة الإجتماعية

مقدمة. في مخاطبة الناس. الدعوة إلى الاعتدال
والوسطية. المعاني الإجتماعية في خطبة الجمعة. الإنسان
في حديث الإمام الباقر (ع). الأخلاق الإجتماعية
الفاضلة. الكرم والجود من وسائل بناء المجتمع.

مقدمة

نعني بالمدرسة الإجتماعية عند الإمام الباقر (ع) طبيعة التعاليم والإرشادات الدينية التي تخص المجتمع والعلاقات الإنسانية، خصوصاً في بناء الإنسان الفاضل ذو الأخلاق الراقية، الذي يهتم بالآخرين من ذوي الحاجة والعوز، فيرفدهم مما أعطاه الله تعالى من النعم العظيمة الممنوحة، وهو بذلك يفهم المغزى العميق من الخلق والتكوين، ويعرف خالقه وبارئه، فيعبده بشتى الصور الفردية والإجتماعية.

في مخاطبة الناس

مخاطبة الناس هو التحدث إليهم وجهاً لوجه، والتأثير عليهم عن طريق نقل الأفكار والكلمات، وإيصال الأوامر والنواهي الواردة في رسالة الدين. والهدف من تلك المخاطبة هو التعليم، والإقناع، وتصحيح ما هو خاطئ، والإلتزام بما حدده الملزم. فوظيفة الخطابة من قبل الإمام (ع) هو التأثير على العقول والقلوب بما ينسجم مع وظيفة الدين. ولاشك أن للخطاب درجات، فربما وجَّه الخطاب إلى عموم الناس عبر وعظهم، وربما وجَّه الخطاب إلى الأعداء لهدايتهم إلى طريق الحق والخير، وربما وجَّه الخطاب إلى الأمة الغافلة التي تحتاج إلى تذكرة، ووخزة ضمير للإنتباه على وضعها الراكد.

قام الإمام الباقر (ع) بمخاطبة جميع مستويات الناس، فما أن يعظ العموم بفناء الدنيا وضرورة العمل للأخرة، يتوجه نحو مخاطبة الأمة اللاهية التي لا تستمع لداعي الله ولا تستجيب له، ثم يتوجه إلى مخاطبة

من احتاج إلى الهداية كحاشية الخليفة الأموي، والناس المغرر بهم الذين لا يعرفون رسالة الدين، ثم يدافع عن بطل الإسلام الخالد الإمام أمير المؤمنين (ع) الذي حاولت بنو أمية تشويه منهجه الناصع، وأخيراً وليس آخراً يخاطب عمر بن عبد العزيز ويرشده إلى ما فيه صلاح سيرته. ولنبدأ بدراسة خطاب الإمام (ع) الناس ووعظهم، ثم مخاطبته الأمة اللاهية، ثم مخاطبته لمن هو بحاجة إلى الهداية والإرشاد.

1- مخاطبة عموم الناس ووعظهم:

قال (ع) في وصف الدنيا الفانية التي قوامها الحياة والموت، مذكراً الناس بمصيرهم المحتوم: (أيها الناس أنكم في هذه الدنيا أغراض تنتضل³²⁵ فيكم المنايا، لن يستقبل أحد منكم يوماً جديداً من عمره إلا بإنقضاء آخر من أجله، فأية أكلة ليس فيها غصص؟! أم أي شربة ليس فيها شرق؟! استصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه، فإن اليوم غنيمة وغداً لا تدري لمن هو. أهل الدنيا في سفر يحلون عقد رحالهم في غيرها. قد خلت منا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد أصله؟ أين الذين كانوا أطول أعماراً منكم وأبعد آمالاً؟ أتيك يابن آدم ما لا ترده، وذهب عنك ما لا يعود، فلا تعدن عيشاً منصرفاً، عيشاً ما لك منه إلا لذة تزدفك إلى

³²⁵ أغراضٌ تنتضل: الأغراض جمع غَرَض هو ما يُنصب هدفاً للترامي. تنتضل

فيكم: أي تترامي إليكم، والمنايا جمع منية وهو الموت.

حمامك³²⁶، وتقربك من أجلك، فكأنك قد صرت الحبيب المفقود، والسواد المخترم، فعليك بذات نفسك، ودع ما سواها، واستعن بالله يعنك³²⁷.

في هذا المقطع يشرح الإمام (ع) طبيعة الحياة والموت، ويحذّر الناس من أنهم عرضة لسهام الموت، فما يدري شخص متى يأتيه سهم الموت وكيف يجهّز نفسه لتلك اللحظة الرهيبة، فالسهم جاهز، والرامي شاخص، والهدف هو الإنسان. والحياة سجلّ مكون من صحف، كل يوم تطوى صفحة، وتُفتح صفحة جديدة أخرى. فما أن ينقضي يوم الإنسان في الدنيا، حتى يأتي يوم آخر يبشر بنقصان عمره، وقربه من دنو الأجل. والحياة الدنيا ليس فيها كمال، ففي كل أكلة غصة، وفي كل شربة شرقة، بمعنى أن الإنسان لا يهنأ بالمعيشة في هذه الدنيا، فما أن يجني مكسباً مادياً أو يبتهج لسعادةٍ أكتسبها حتى تداهمه مشكلة في نفسه، أو في جسده، أو في أهله. وإنما خلقت الدنيا للاعتبار، فلو افترضنا أن الدنيا شجرة أصولها أبائنا وأجدادنا ونحن فروعها، ما قيمة الفروع تجاه الأصل؟ فقد ذهب الأصل وهم أبائنا وأجدادنا وماتوا، وما بقيت إلا الفروع، وهي نحن. ونحن ننتظر دورنا في الرحيل.

³²⁶ الحمام: الموت.

³²⁷ بحار الأنوار ج 75 ص 179.

2- مخاطبة الأمة اللاهية:

خاطبَ (ع) جماعة، فوعظهم وحذّهم، لكنه لاحظَ أنهم ساهون لاهون، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه إليهم، فقال (ع): (... ألا يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح، كأنكم خشبٌ مسنّدة، وأصنامٌ مريدة، ألا تأخذون الذهب من الحجر، ألا تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر، خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها، وإن لم يعمل بها، فإن الله تعالى يقول: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)⁽³²⁸⁾ .³²⁹

عندما وعظ الإمام (ع) تلك الجماعة اللاهية من الناس، فوجدهم لا يكثرثون للموعظة، خاطبهم بلغة التأنيب والتأديب، والتحذير، ووصفهم بأنهم أشباحاً بلا أرواح، وما قيمة الإنسان إذا كان جسداً بلا روح، أو كان هيكلاً بلا عقل، بل كانوا كالأخشاب التي لا تدبّ فيها الحياة ولا تتحرك، فهم كيانات مادية بدون عقول تفكر، وبدون أرواح تتحرك نحو خالقها وتتفاعل، طلبَ (ع) منهم أن يأخذوا الكلمة الطيبة من قائلها، وأن يستخرجوا الذهب من منجمه، وأن يستخرجوا اللؤلؤ من أصداف البحر كنايةً عن أن وعظه لهم كان كلمات من ذهب وأفكاراً من لئالي، لكن بصيرتهم كانت عمياء لا ترى تلك الجواهر ولا تحس بها.

³²⁸ سورة الزمر: الآية 18.

³²⁹ تحف العقول ص 211.

لاحظ أن الإمام الباقر (ع) كان يخاطب الناس ويرشدهم بطريقة صريحة لا لبس فيها للالفاظ، ولا تزويق، فإذا وجد فيهم خللاً أو منكراً ذكّره فيهم وأدانهم عليه، وهذا عكس حديث أهل السياسة الذين يزوقون الخطاب وهم يعلمون أنهم لا يكشفون حقيقة ما يرون. وهذا هو أحد الفوارق بين القائد الديني ورجال السياسة البعيون عن الدين.

3- مخاطبة من احتاج إلى الهداية:

عاش الإمام الباقر (ع) في زمن كان يقتضي توجيه دفة المجتمع نحو منابع الإسلام الأصيلة، فكان شجاعاً مقداماً لا يخاف في الله لومة لائم، فينتصر للحق، ويدافع عن الصدق، ولو كلفه ذلك حياته، ومن ذلك:

أ- مخاطبة حاشية هشام بن عبد الملك (ت 125 هـ) بعد أن نالت من الإمام (ع) فقال: (أيها الناس: أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملكٌ معجل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأننا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين...)³³⁰.

فبعد ان حرّض هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموي، حاشيته على النيل من الإمام (ع)، وتكلموا بما أرادوا، أجابهم (ع) بهذا الخطاب القصير، قائلاً لهم أنكم أتخذتم طريقاً غير الطريق الذي صممه الله سبحانه لأمته، فعن طريق رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) هدى الله الناس جميعاً،

³³⁰ بحار الأنوار ج 11 ص 75.

لكنكم اتخذتم طريقاً مخالفاً، والله تعالى لا يعجزه شيء فأين تذهبون من سؤال الله ومحاسبته لكم؟

وإن تصورتكم بأن الملك المادي الذي تنتعمون به الآن باقٍ فإنكم مخطئون، فسوف يزول حتماً، وتزول متعكم، وتتقلب عليكم تصوراتكم. ولكن الملك الحقيقي الباقي هو ملك القلوب، وهو الملك المؤجل لأهل بيت النبي (ص). ومصدق ذلك هو أننا وبعد أربعة عشر قرناً نعيش ملك أئمة أهل البيت (ع) الباقي إلى آخر الدهر.

ب- مخاطبة أهل الشام ووعظهم: (أيها الناس إجتنبوا أهل الشقاق، وذرية النفاق، وحشو النار، وحصب جهنم عن البدر الزاهر، والبحر الزاخر، والشهاب الثاقب، وشهاب المؤمنين، والصراط المستقيم، من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها، أو يلعنوا كما لعن أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولاً...) ³³¹.

خاطب الإمام الباقر (ع) أهل الشام من مناصري الحكم الأموي،

وقال لهم إن الناس على قسمين:

القسم الأول: الذين يحبون شق وحدة الأمة، وشق عصا الطاعة، الذين لا يعملون بما أنزل الله تعالى على نبيه المصطفى (ص)، فواجبكم عدم طاعتهم ولا مناصرتهم، لأنهم حشو النار، وحصب جهنم.

³³¹ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 203 - 204.

القسم الثاني: الذين يحملون نور الله، وعلم رسالته، فهم البدر الزاهر بالنور، والبحر الزاخر بالعلم، وهم الصراط المستقيم الذي يهدي الناس إلى طريق الحق، وطاعة الله تعالى ورسوله (ص) ، فعليكم طاعتهم، والالتفاف حولهم ومساندتهم، كي يكونوا لكم ذخراً يوم القيامة.

ولاشك أن وظيفة الإمام من أهل البيت (ع) أن يدعو الناس، ويوضح لهم طريق الهدى، ويجنبهم طريق الضلالة، وأن يشرح لهم بكل ما أوتي من قوة لغوية معاني حب أهل البيت (ع) وطاعتهم. فإن استجابوا فذلك من توفيقهم، وإن رفضوا فقد أدى الإمام (ع) وظيفته في التبليغ.

ج- الدفاع عن أمير المؤمنين علي (ع): ثم قال (ع) مدافعاً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ومبرزاً فضله: (أبصنو رسول الله (ص)³³² تستهزئون؟ أم بيعسوب³³³ الدين تلمزون؟ وأي سبيل بعده تسلكون؟ وأي حزن بعده تدفعون؟ هيهات برز والله بالسبق وفاز بالخصل³³⁴، واستولى على الغاية، وأحرز على الختار³³⁵ فانحسرت عنه

³³² صنو رسول الله (ص): يعني الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

ومعنى صنو رسول الله (ص) أي أن أصلهما واحد.

³³³ اليعسوب: ملكة النحل. ويعسوب القوم: رئيسهم وكبيرهم. ويعسوب الدين: زعيم الدين وسيدهم بعد خاتم الأنبياء محمد (ص).

³³⁴ الخصل: الهدف .

³³⁵ الختار: الغدر.

الأبصار، وخضعت دونه الرقاب، وفرع الذروة العليا، فكذب من رام من نفسه السعي، وأعياه الطلب، فأنى لهم التناوش³³⁶ من مكان بعيد؟! فأنى يسدّ ثلثة أخي رسول الله (ص) إذ شفعوا، وشقيقه إذ نسبوا، ونِدِ يده³³⁷ إذ قتلوا، وذي قرين³³⁸ كنزها إذ فتحوا، ومصلي القبلتين إذ تحرفوا، والمشهود له بالإيمان إذ كفروا، والمدعي لنبذ عهد المشركين إذ نكلوا، والخليفة على المهاد ليلة الحصار إذ جزعوا، والمستودع الأسرار ساعة الوداع...³³⁹.

والمشهور في أحاديث النبي (ص) وأهل البيت (ع) أن علياً (ع) كان صنو رسول الله (ص) أي أن أصلهما واحد، مع اختلاف النبوة والإمامة. وهو يدل على علو شخصية علي (ع) في العلم والعبادة والجهاد والحلم، وارتباطها برسول الله (ص). فيخاطبهم الإمام (ع) ويتسائل (ع) كيف تستهزئون بشخصية عظيمة كشخصية علي بن أبي طالب (ع)؟ وهل هذا التطاول عليه (ع) إلا تطاولٌ على النبي (ص)؟ كيف تسمح لكم أنفسكم التطاول على يعسوب الدين، وهو في المقام الثاني بعد رسول الله (ص)؟ لقد ظلمتم علياً (ع) بطلبكم السلطة الدنيوية والخلافة الأرضية،

³³⁶ التناوش: التناول.

³³⁷ نِدِ يده: كلمة نِدِ: صفة مشبهة تدلّ على الثبوت. فيكون معناها: ساعده الثابت في ولائه حتى النهاية.

³³⁸ ذي قرين: معنى القرين: صاحب والملازم، والقرين هو المقرون به.

³³⁹ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 203 - 204.

وكيف تصلون إلى مستوى علي (ع) في الحكمة والعبادة والشجاعة، وهل يصل الإنسان إلى الثريا وهو على الثرى!

كيف يُمسَخ تاريخ علي بن أبي طالب (ع) الذي قام الإسلام على كتفه وكتف رسول الله (ص)، وهو أول المسلمين اسلاماً، وأول من صلى القبلتين، وأول من آزر رسول الله (ص) في صراعه مع قريش، وعانى من حصار شعب مكة مع رسول الله (ص) وبني هاشم، وبات على فراشه (ص) مستقبلاً سيوف المشركين من قريش، وهاجر وقاتل في سبيل الله. والإمام الباقر (ع) واضح في إدانتهم على فعلهم، وكأن لسان حاله (ع) يقول: كان علي (ع) أرفع وأسمى مما تقولون، كان يبتغي في جهاده وعلمه (ع) وجه الله ومرضاته، وأنتم تصفونه بتلك الصفات!؟

د- مخاطبة عمر بن عبد العزيز: قال له الإمام (ع) ينصحه: (إنما الدنيا سوق من الأسواق يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرهم، وكم من قوم إبتاعوا ما ضرهم، فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت، فخرجوا من الدنيا ملومين ما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة، فُسِّمَ ما جمعوا لمن لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم.

فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها، فكفَّ عنها وأتق الله، واجعل في نفسك اثنتين: أنظر إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك، وأنظر إلى ما تكره أن يكون معك إذا قدمت على ربك فأرمه وراءك، ولا ترغبين في سلعةٍ بارت

على من كان قبلك، فترجو أن يجوز عنك، وافتح الأبواب، وسهّل الحجاب، وانصف المظلوم، وردّ الظالم.

ثلاثة من كنّ فيه أستكمل: الإيمان بالله من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له...³⁴⁰.

يقدم الإمام (ع) نصيحة قيّمة لذلك الخليفة الأموي الذي اختلفت سياسته عن سياسة سالفه، فيقول له: تصور أن الدنيا سوقاً تباع فيه الأشياء وتشتري، وكلُّ زبونٍ يفضّل أن يضفر ببضاعة مناسبة من ناحية الجودة والثمن، ثم يخرج بالبضاعة المُشتراة من السوق إلى أهله. والحياة الدنيا بالنسبة لأجر الآخرة تشبه السوق، بصخره وبيعته وشرائه، إلا أن الأجر الديني يأتي بعد الموت وبعد انقضاء الدنيا. فاجعل نفسك في موضع من دخل سوقاً، وتبضع ببضائع يعتقد أنها ذات جودة. ضع الآخرة في ذهنك، كما وضعت السوق تنتقي منه الحاجات، فانتقي لسوق الآخرة الحاجات التي تتفعلك عند الله. فالبضائع في سوق الدنيا هي الأعمال صالحها وطالحها.

ثم يقول له: تمسك بما تحب أن يكون معك أمام الله في الآخرة، وأهم ما يحب الإنسان أن يكون معه في الآخرة صحيفة أعمال ناصعة فيها التقوى والعمل الصالح والإحسان، ولا يحب أن تكون صحيفة أعماله مملوءة بالظلم والفجور والعصيان.

³⁴⁰ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 207 - 208.

وعليك بعدم الدخول في الباطل عند الرضا، وعدم الخروج من الحق عند الغضب، وعدم حيازة ما ليس لك عند الإقتدار. وتلك نصائح موجزة غاية الإيجاز، إلا أنها عظيمة للغاية في المعاني والمفاهيم.

إثبات الدعوى:

إن من أولويات مخاطبة الناس هو إثبات الدعوى أولاً. فما هي الدعوى التي حاول أهل البيت (ع) إثباتها؟
لو رجعنا إلى قول الإمام الباقر (ع) في وصف أئمة أهل البيت (ع): (... نحن صفوة الله، ونحن خيرة الله، ونحن مستودع مواريث الأنبياء، ونحن أمناء الله، ونحن حجة الله، ونحن العلم المرفوع للخلق)³⁴¹، لرأينا أنه إدعاء أثبتوا صحته بسلوكهم ومعرفتهم الله تعالى. ولو كان الأمر خلاف ذلك لظهر للناس. خصوصاً وأن الناس، من الموالين والأعداء على حدٍ سواء، أجمعوا على علمهم وطهارتهم من الذنوب. ومن شدّ في ذلك فإنما خالف سنة رسول الله (ص) ووصيته القاضية بإتباعهم (ع).

الدعوة الى الاعتدال والوسطية:

لاشك أن للإنتماء الديني ضريبة ينبغي أن تُدفع من قبل المؤمن به، وربما تتراوح شدة تلك الضريبة بحجم الإنتماء. وبموازاة ذلك أراد أئمة أهل البيت (ع) من المسلمين ممن عرفوا فضلهم (ع)، أن يكونوا مثال

³⁴¹ بحار الأنوار ج 26 ص 248.

العلم والتقوى، فلم يقبلوا منهم الوصف فقط، بل أرادوا منهم الوصف والعمل، أي أرادوهم أن يكونوا أمةً متعلمةً عالمةً عابدةً، ملتزمة بأهداب الدين، أخلاقيةً في سلوكها ومنهجها، فالوصف والعمل هما ضريبة الإنتماء لأهل البيت (ع).

قال الباقر (ع): (أيكفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ والله ما شيعتنا إلا من أتقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون إلا بالتواضع والتخضع والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، وبر الوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين، والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائريهم)³⁴².

فالتشيع لأهل البيت (ع) ليس مجرد إنتماء بلا مادة، بل لا بد في صدق الإنتماء لتلك العترة الطاهرة من شروط ومبادئ أهمها طاعة الله وتجنب معاصيه، والتواضع مع الناس، والخشوع لله تعالى، والأمانة التامة في كل مناحي الحياة. بل أيضاً بكثرة العبادات من صيام، وصلاة، وتلاوة قرآن، وصدق حديث، وسمو أخلاق في حفظ آداب الجيرة، ومساعدة فقراء وغارمين وأيتام، وكفّ ألسن عن الغيبة والنميمة. بحيث يُعرف بها الإنسان ويسمو، ويكون ذلك السلوك الديني المتكامل متلازماً مع حبهم (ع) وإظهار الولاء لهم.

³⁴² الكافي ج 2 ص 74.

خاطبهم (ع) وأراد منهم أن يكونوا مجتمعاً فاضلاً تسوده الرحمة والمحبة، وطاعة الله، والتواضع في الله، والتعاهد الإجتماعي في مساعدة الفقراء والمحرومين، وصدق الحديث.

ولم يتوقف الإمام الباقر (ع) عند شروط الإنتماء لأهل البيت (ع)، بل وضع حدوداً حمراء لا ينبغي لأحدٍ من الموالين أن يتجاوزها، ألا وهي المعصية. فمما أوصى جابر بن يزيد، عندما أراد توديعه بعد أن أمضى عنده ثمانية عشرة سنة في تحصيل العلم، بنقل كلامه (ع) إلى محبيه: (... إعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله عزّوجلّ، ولا يتقرب إليه تعالى إلا بالطاعة له، يا جابر من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا)³⁴³.

هنا جعل المقياس في الولاء لآل البيت (ع) طاعة الله تعالى. فلا قيمة للولاء دون تلك الطاعة المشروطة، فلا قرابة بينهم (ع) وبين الله تعالى. فمن أراد الثواب والآخرة عليه أن يتقرب إلى الله بالعمل الصالح، وحب آل البيت (ع) معاً. وعبادة الله وحب أهل البيت (ع) مترابطان، بل لا ينفصلان عن قائمة التكليف الديني أبداً.

وتلك الوصية الصادرة منه (ع) لشيعته لم تكن مجرد كلمات، بل كانت تعليمات صادرة عن ولي الأمر. فالباقر (ع) من ولاة الأمر الذين ذكرتهم الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

³⁴³ أمالي الشيخ الطوسي ج 1 ص 302.

الأمرِ مِنْكُمْ...³⁴⁴، الذين وصفهم (ع) بأنهم: (المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون، ولا يعصون الله، وهم المؤيدون الموفقون، المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر بلاده، وبهم ينزل القطر من السماء)³⁴⁵.

وهم حفظة الدين الذين كلّفهم الله تعالى بحفظ دينه، كما شرح ذلك بلسانه (ع): (أن الأرض لا تبقى إلا ومنا فيها من يعرف الحق. فإذا زاد الناس قال قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال قد نقصوا، ولولا أن ذلك كذلك لم يُعرف الحق من الباطل)³⁴⁶.

وبالإجمال، فإن حب أئمة أهل البيت (ع)، كما يقول الإمام الباقر (ع) ينبغي أن يكون معادلة من طرفين متوازيين:

الطرف الأول: وجود ولاء أمرٍ معصومون، مطهرون، لا يذنبون، ولا يعصون الله أبداً، يوزنون الدين بأحكامه وعقائده بين الناس كما يوزن الصائغ وزن الذهب بالقيراط. فإذا زاد الناس في دينهم أرجعهم إلى أصل الدين، وإذا انقصوا أرجعهم إلى الأصل أيضاً.

الطرف الثاني: المؤمنون الذين يتقربون إلى الله بالعمل الصالح وحب أهل البيت (ع) معاً. فهم يطبقون موازين الرسالة السماوية بدقة، في نفس الوقت الذي يعلنون فيه حبهم وولاءهم.

³⁴⁴ سورة النساء: الآية 59.

³⁴⁵ علل الشرائع ج 1 ص 133.

³⁴⁶ المصدر السابق ج 1 ص 190.

وبدون تلك المعادلة لا يمكن لفكرة الدين والولاية أن تستقيم، فالدين يحتاج دائماً إلى قائدٍ له تخويل منصوص كي يحفظه من تحريف المحرّفين، ويصونه من عبث العابثين.

الدنيا ظلٌّ مؤقت:

عندما تعلم أن الدنيا ظلٌّ زائلٌ، ووسيلةٌ نقلٍ استخدمتها في منامك ثم استيقظت، أيقنت أنها ليست لك. فعليك أن لا تعمل لنفسك فقط بل أن تعمل لغيرك أيضاً حتى يرضى الله عنك. ساعد من احتاج إلى مساعدتك، واشبع ثغراً فاغراً، واروي فماً عطشى. فما أروع هذه الوصية على نطاق بناء العلاقات الإجتماعية.

كانت وصيته إلى جابر تحوي على معانٍ كثيرة، قال (ع): (من أطاع الله وأحبنا فهو وليّنا، ومن عصى الله لم ينفعه حبّنا. من هذا الذي يسأل الله فلم يعطه؟ أو توكل عليه فلم يكفه؟ أو وثق به فلم ينجّه؟ أنزل الدنيا كمنزلٍ نزلته، تريد التحويل عنه، وهل الدنيا إلا دابةً ركبتها في منامك فاستيقظت، وأنت على فراشك غير راكب ولا أخذ بعنانها؟ أو كثوبٍ لبسته؟ الدنيا عند ذوي الألباب كفى الضلال، لا إله إلا الله عزّارٌ لأهل دعوته، الصلاة تثبّت الإخلاص، وتنزيه الكبر، والزكاة تزيد في الرزق، والصيام والحج تسكين القلوب، والقصاص والحدود حقن الدماء، وحبنا أهل

البيت نظام الدين، جعلنا الله وإياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون³⁴⁷.

يعرض الإمام الباقر (ع) أحد الأمثلة التي لها علاقة بحياتنا الإجتماعية فمثل الدنيا كمثل الشاخص الذي كان سببه وقوف ذلك الشخص تحت أشعة الشمس. فالظل لا يعبر عن حقيقة الشخص، بل هو وجود وهمي لشخصٍ ظلله نور الشمس. وما الدنيا إلا ظلٌ لوجودنا في عالم كبير نعيش فيه كعالم الشمس في الوجود. والحياة على هذه الأرض هي ظلٌ سرعان ما يزول. فليكن عوض ذلك الزوال تكافلاً إجتماعياً يساعد الغني فيه الفقير، ويمدّ القوي يد المساعدة إلى الضعيف.

والأصل الباقي دوماً هو الإيمان بالواحد الأحد الذي عبّر عنه بالإقرار بلا إله إلا الله. وما يتبع التوحيد من أعمال كالصلاة والزكاة والصيام والحج والتكافل الإجتماعي كلها آثار تصبُّ في أصل التوحيد. ولا يمكن للدين السماوي أن يقوم بتوضيح المعالم ما لم يكن له نظام، وضبط، وتفاعل يقوم على أساس الولاء للمعتقدات. فعن طريق المحبة والولاء ينتظم النظام الديني ويستقيم، وعن طريق حبنا لأهل البيت (ع) نطيع الدين، وكل ما يمثله من مبادئ وقيم. أعلمنا الإمام الباقر (ع) أن الدنيا ظلٌّ زائلٌ، ومعبرٌ إلى عالمٍ آخرٍ أبدي، فلا بد من التجهز للعبور المفجح لذلك العالم.

³⁴⁷ آمالي الشيخ الطوسي ج 1 ص 302.

المعاني الإجتماعية في خطبة الجمعة

أورد محمد بن يعقوب الكليني بإسناده إلى محمد بن مسلم عن الإمام الباقر (ع) حديثاً مفصلاً في خطبة صلاة الجمعة، علّم فيها أصحابه طريقة تلك الخطبة، بعد أن شرح لهم طبيعة صلاتها، وفيها دلائل العبادة الخالصة لله تعالى، والدعوة إلى التماسك الإجتماعي. فهو بعد أن يحمد الله تعالى ويستعينه ويستغفره، ويعلن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله يبدأ الخطبة بأخذ العبر من الدنيا الفانية.

وخطبة الجمعة من الموارد الثقافية التي يربي بها الحاكم الشرعي المسلمين على طاعة الله وعبادته، وعلى أخذ العبر من هذه الحياة الفانية، والتركيز على التكافل الإجتماعي، ومؤازرة المؤمنين، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والتلبس بلباس التقوى والفضيلة.

العبرة من الدنيا الفانية:

أن يعرف الإنسان حقيقة الدنيا وما تؤول إليه، فذاك علم قائم بذاته، لأن تلك المعرفة تحتاج إلى صحة ضمير، وبُعدٍ تظر، لا يصل إليها إلا النادر من أهل المعرفة والإيمان. ولذلك كانت تلك المواعظ في طبيعة هذه الحياة، وما تخفي من أسرار وعبر في غاية البلاغة. يقول (ع): (أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأخوفكم من عقابه، فإن الله ينجي من إتقاه بمفازتهم، لا يمسهم سوء ولا هم يحزنون، ويكرم من خافه، يقيهم شر ما خافوا ويلقيهم نضرةً وسروراً، وأرغبكم في كرامة الله الدائمة وأخوفكم عقابه، الذي لا انقطاع له ولا نجاة لمن استوجبه، فلا تغرنكم الدنيا ولا

تركنوا إليها، فإنها دار غرور، كتب الله عليها وعلى أهلها الفناء، فتزودوا منها الذي أكرمكم الله به من التقوى، والعمل الصالح، فإنه لا يصل إلى الله من أعمال العباد إلا ما خالص منها، ولا يقبل الله إلا من المتقين.

قد أخبركم الله عن منازل من آمن وعمل صالحاً، وعن منازل من كفر وعمل في غير سبيله وقال: (...دَلِكْ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَدَلِكْ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ³⁴⁸)³⁴⁹.

يوصي الإمام (ع) عباد الله باتقاء معصيته ويحذرهم من عقابه. فالناس على صنفين. الصنف الأول: وهم من خاف الله تعالى واتقاه، فينجبهم من عقابه الذي لا ينقطع. والدنيا تغرُّ الإنسان فعلى العاقل أن لا يركن إليها، لأنها دارُ فناء. بل عليه أن يسعى إلى الآخرة كي يسعد فيها. والصنف الثاني: هم من كفر وعمل في غير سبيله تعالى، فهم يرون الدنيا دار بقاء يكتزون فيها ثرواتهم ولا ينفقونها، لكنهم كانوا يتغافلون عن تلك الحقيقة الناصعة وهي أن الدنيا دار فناء، إنما يكتز فيها الإنسان لغيره. فيصبح شقيماً لا ينفعه ما جمع وكنز.

³⁴⁸ سورة هود: الآية 103 - 107.

³⁴⁹ الكافي ج 3 ص 422.

ثم يقول (ع): (نسأل الله الذي جمعنا لهذا الجمع أن يبارك لنا في يومنا هذا وأن يرحمنا جميعاً إنه على كل شيء قدير، إن كتاب الله أصدق الحديث وأحسن القصص، وقال الله عزَّوجلَّ: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)³⁵⁰. فاسمعوا طاعة الله وأنصتوا إبتغاء رحمته)³⁵¹.
ثم يُرشد (ع) أصحابه إلى قراءة سورة من القرآن، والإقرار بالتوحيد، والصلاة على النبي (ص)، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، ثم الجلوس قدر الإمكان هنيهة، ثم يقوم، فيقول في الخطبة الثانية:

(الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وجعله رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى)³⁵².

هذا المقطع حمدٌ وتمجيدٌ لله تعالى في الخطبة الثانية، فهو بعد أن يحمده يتشهدُ بالشهادتين، ويذكر محمداً (ص) بأعظم الصفات وهو رسول الله

³⁵⁰ سورة الأعراف: الآية 204.

³⁵¹ الكافي ج 3 ص 422.

³⁵² الكافي ج 3 ص 422.

وعبده الذي أرسله بالهدى ودين الحق، وجعله رحمة للعالمين، ويدعوهم إلى طاعة الله تعالى ورسوله (ص).

معالم الطريق إلى الآخرة:

ثم يستمر في خطبته ويقول: (أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ينفع بطاعته من أطاعه، والذي يضرُّ بمعصيته من عصاه، الذي إليه معادكم وعليه حسابكم، فإن التقوى وصية الله فيكم وفي الذين من قبلكم، قال الله عزَّوجلَّ: (... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا)³⁵³، انتفعوا بموعظة الله، وألزموا كتابه، فإنه أبلغ الموعظة وخير الأمور في المعاد عاقبةً، ولقد إتخذ الله الحجة، فلا يهلك من هلك إلا عن بيِّنة، ولا يحيى من حيى إلا عن بيِّنة)³⁵⁴.

يشرح الإمام الباقر (ع) الفكرة الأساسية للدين السماوي، فالإنسان لا يستطيع اجتياز الحياة الدنيا إلا بطاعة الله تعالى، وبدون تلك الطاعة فلا أمل في عاقبة حسنة. وكما أن الأمل معقود على رحمته تعالى، فإن صحيفة أعمال الإنسان تكون مؤشراً على مصيره، فإما الهلاك الأبدى، وإما الحياة الأبدية والنعيم الذي يلازمها. وفي كل ذلك، فإن الحساب في الآخرة

³⁵³ سورة النساء: الآية 131.

³⁵⁴ الكافي ج 3 ص 422.

لا يكتمل إلا بتبليغ واضح بين في الدنيا، حتى لا يحتج الإنسان على عدم علمه بالأمر.

ثم يقول (ع): (قد بلغ رسول الله (ص) الذي أرسل به، فألزموا وصيته وما ترك فيكم من بعده، من الثقلين كتاب الله وأهل بيته الذين لا يضلُّ من تمسك بهما ولا يهتدي من تركهما. اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك، سيد المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين) ³⁵⁵.

ثم يدعو من كان يستمع إليه، ويقول لهم قولوا: (اللهم صلِّ على أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين، ثم سمي الأئمة حتى تنتهي إلى صاحبك ³⁵⁶ ثم تقول: إفتح له فتحاً يسيراً وانصره نصراً عزيزاً، اللهم أظهر به دينك، وسنة نبيك حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافة أحدٍ من الخلق، اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزُّ بها الإسلام وأهله، وتذلُّ بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة في سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة، اللهم ما حملتنا من الحق فعرّفناه وما قصرنا عنه فعلمناه) ³⁵⁷.

يتضمن هذا المقطع من خطبة صلاة الجمعة التحية والصلاة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وذريته من أبناء فاطمة الزهراء (ع) ابتداءً من الإمام الحسن بن علي (ع) وإنهاءً بالإمام محمد بن الحسن

³⁵⁵ الكافي ج 3 ص 422.

³⁵⁶ صاحبك: يقصد به الإمام المهدي عليه السلام، وعدم التصريح باسمه يدل على إتيانه من عيون السلطة آنذاك.

³⁵⁷ الكافي ج 3 ص 422.

المهدي (ع). ثم يتوجه بالدعاء الكامل للإمام المهدي (ع)، فيطلب من الله تعالى أن ينصره نصراً عزيزاً، ويقوي بظهوره دينه السماوي، حتى يتوضح الحق من الباطل في دولة كريمة عزيزة يرأسها، فيكون الجميع في طاعة الله، وفيها كرامة الدنيا والآخرة.

وهذا الدعاء من قبل الإمام الباقر (ع) بخصوص المهدي (ع) الذي يظهر آخر الزمان قبل حوالي قرنين من الزمان قبل مولده، فيه دلالة على أنهم كانوا يعلمون يقيناً أسماء من يأتي من بعدهم من أئمة أهل البيت (ع) واحداً تلو الآخر. وفي ذلك ما يدعوننا إلى القطع بصحة ما قالوه (ع) في بعضهم البعض مدة قرنين ونصف من الزمان، وكل قول يعضد الآخر ويصدقه.

وفي الختام يدعو الله ويسأل لنفسه وأصحابه، ثم يرفعون أيديهم فيسألون الله حوائجهم، كلها حتى إذا فرغ من ذلك قال: (اللهم استجب لنا، ويكون آخر كلامه أن يقول: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)³⁵⁸. ثم يقول: اللهم اجعلنا ممن تذكر فتتفعه الذكرى، ثم ينزل)³⁵⁹.

دلالات الخطبة البليغة:

في تلك الخطبة البليغة موارد مهمة لا بد من ذكرها هنا، وهي:

³⁵⁸ سورة النحل: الآية 90.

³⁵⁹ الكافي ج 3 ص 422.

1 - تبين الرواية أنه (ع) أورد خطبة صلاة الجمعة، كوسيلة تعليمية لأصحابه وتلامذته، وذكر أنها متضمنة لخطبتين: الخطبة الأولى: في التذكير بتقوى الله تعالى، وعرض فكرة دينية لها علاقة بوظيفة المسلم وعقيدته، فكانت: مقارنة بين منازل المؤمنين العاملين للصالحات، وبين الكافرين المصرحين بكفرهم. ثم دعوة الله عزوجل بمباركة جماعة المؤمنين.

الخطبة الثانية: في حمد الله، والإقرار بالشهادتين، ووصيته (ع) بتقوى الله تعالى وطاعته. ثم ذكر سيرة النبي (ص) والأئمة الإثنا عشر (ع)، والدعاء للإمام القائم (ع) آخر أئمة أهل البيت (ع) بتحقيق ما نصبه الله تعالى له من دولة كريمة عادلة، ومجتمع صالح عابد.

2 - وهو (ع) وإن لم يُقم الجمعة إلا أنه ذكرها بتفصيلها. وصلاة الجمعة مشروطة بوجود السلطان العادل المبسوط اليد، الذي يُقيم الحدود، لا السلطان الظالم الذي ينبغي أن يُقام عليه الحد! وكان رسول الله (ص)، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أيام خلافته يقيمان الجمعة، لأنهما سلطانين عادلين. ولكن، وما أن تسلط الآخرون على دفة أمور الدولة، وبسطوا فيها حكمهم، لم يُقم أئمة أهل البيت (ع) الجمعة، بل صلّوها في أحيانٍ قليلةٍ تقيّةً.

3- دور صلاة الجمعة في المجتمع هو أنها تربي الناس على الأخلاق الفاضلة، وتذكرهم بجنتية فناء هذه الحياة، وما وظيفة الإنسان فيها إلا وظيفة العابر المكلف بتكاليف تعبدية وأخلاقية ينبغي أن تؤدي بأفضل صورة. والأهم فيها التوصية بتقوى الله ومخافته، والتوسل إليه طمعاً في

مغفرته ورحمته. فرسالة الجمعة رسالة أخلاقية إجتماعية هدفها حفظ التماسك الإجتماعي بين المسلمين على اختلاف منازلهم وطبقاتهم.

الإِنسان في حديث الإمام الباقر (ع)

تكشف المقاطع التالية من أحاديث الإمام (ع) ألواناً جمة من الإرشاد الهادف لتهديب سلوك الناس وتربيتهم على الفضائل. فهو يركز على بناء الإنسان المدرك لمضامين الحياة، وطبيعة التكليف، وعمق التوجيه. فمع بلاغته (ع) ودقة تصويره للمراد نلحظ عمق المعاني التي حملتها تلك النصوص، في قضايا الأخلاق، والطاعة، وحسن التعامل مع الناس، والولاية، والتمسك بكتاب الله، والنفس الإنسانية.

الوصايا الإجتماعية الخمس:

فيها يوصي الإمام الباقر (ع) أحد تلامذته وهو جابر بن يزيد الجعفي، ويقول:

(... أوصيك بخمسٍ: إن ظُلمتَ فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كُذبتَ فلا تغضب، وإن مُدحتَ فلا تفرح، وإن دُمتَ فلا تجزع. وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك، فسقوطك من عين الله جلّ وعزّ عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفتَ من سقوطك

من أعين الناس. وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثوابٌ اكتسبته من غير أن يتعب بدنك³⁶⁰.

هنا يتناول الإمام (ع) خمسة أمراض إجتماعية ويعالجها، وهي: الظلم، والخيانة، والتكذيب، والمدح، والذم. وهي أمراض يمارسها الناس بعضهم ضد الآخر. فربما يظلمك الناس بجرم لم ترتكبه، ويخونوك في وقت تستحق فيه الوفاء، ويكذبوك بقولٍ لم تقله، وربما يمدحونك حيناً ويذمونك حيناً آخر. فكيف تتصرف في تلك المواقف والأحوال؟

يرشدنا الإمام (ع) إلى الحل، ويقول: لا تواجه الظلمَ بظلمٍ آخر، فيسقط حقك وتصبح ظالماً. والناس عموماً تنسى من بدأ الظلم وتتذكر من ختم المسرح بظلمٍ آخر. ولا تواجه الخيانة المرتكبة من حبيبٍ لك بخيانة موجعة، وعندها تفقد مظلوميته وحقك. وإن كذبتك الناس وأنت على حق فلا يسرعن الغضب إلى نفسك فتتصرف دون تحكيم عقلك. وفي كل ذلك يكون الحكمُ عليك في خاتمة المطاف، حيث تترقب الناس ما كنتَ فاعله! فإن جاوزتَ الظلم بعدالةً لمن ظلمك، وجاوزتَ الخيانة بالوفاء لمن خانك، وجاوزتَ التكذيب بالتعقل، فإن كلَّ ذلك يُحسب لك فضلاً.

وما المدح والذم إلا صورة من صور الإحتكاك مع المجتمع، بسلبٍ أو بإيجابٍ. فإننا كبشر نطرب للمدح ونتألم للذم، فيرشدنا الإمام (ع) إلى عدم الإبتهاج للمدح وعدم الجزع للذم. ذلك أن المدح والذم صورة من صور إنعكاس تصور الناس عنا وعن شخصياتنا وسلوكنا، فهما لا يغيّران

³⁶⁰ تحف العقول ص 284 - 286.

من جوهر شخصياتنا، ولا يغيران واقعنا الداخلي. فربما كان المدح رياءً، وكان الذم حسداً. وكلاهما يقع خارج دائرة الواقع الذي سنحاسب عليه يوماً ما عند الله سبحانه وتعالى. فالعاقل من لا يطرب للمدح ولا يجزع للذم. بل يرى نفسه بمرآة الله عزوجل، فهي المرآة التي تعكس واقع الإنسان.

عَرَضُ النَفْسِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ:

الأصل في ميزان النفس هو عرضها على الأحكام الأخلاقية والتعبدية في القرآن الكريم. فإن كان سلوكها مطابقاً لما أمر به القرآن، كانت النفس أقرب إلى الله تعالى من أي وقت مضى.

يقول (ع): (واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً: حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوءٍ لم يحزنك ذلك. ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك. ولكن إعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فاثبت وأبشر، فإنه لا يضرّك ما قيل فيك. وإن كنت مابيناً للقرآن فماذا الذي يغرك من نفسك: إن المؤمن معنيّ بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرةً يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله، ومرةً تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله، ويقيل الله عثرته فيتذكر، ويفزع إلى التوبة والمخافة، فيزداد بصيرةً ومعرفةً لما زُيدَ فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)³⁶¹ (362).

³⁶¹ سورة الأعراف: الآية 201.

هنا يعرض الإمام (ع) نظرية في تربية الإنسان مفادها أن الإنسان يجب أن يكون مستقلاً قوياً بعقله، لا تزعزعه آراء الناس أو رغباتهم أو استحساناتهم، بل الأصل أن يعرض نفسه على القرآن المجيد، فإن كان مطبقاً تعاليمه، خائفاً من وعيده، فإنه على خير وإلى خير. لأن كلام الناس لا يغير صحيفة أعمالك، ولا يبدل موازين حسناتك وسيئاتك. وإذا كان سلوكك مغايراً لما أراده القرآن فإنك في وضعٍ أسوأ مما يقوله الناس عنك. فعليك بمجاهدة نفسك لتتغلب على هواك. والنفوس الأمارة بالسوء صعبة المراس إذا جاهدتها، مرةً تغلبك ومرةً تغلبها، وكلما صارت نفسك الإمامة بالسوء إزدادت بصيرةً ومعرفةً بالله، وتجلت لك فطرتك التي احتضنت رغباتك ومطالبك.

فالمقياس كما يقول الإمام (ع) أن الإنسان مكلفٌ بعرض نفسه على كتاب الله تعالى، ويجعله قاضياً يقضي بصحة سلوكها أو سقمها. ومعنى ذلك أن يكون القرآن الكريم له منار هداية، وآلة تصحيح لمساره في الحياة. فالمقياس في التقييم الفردي هو المواصفات القرآنية وليس كلام الناس. فكلام الناس ليس له وزن في المعيار النهائي للحساب.

³⁶² تحف العقول ص 284 - 286.

استكثار الرزق حتى لو كان قليلاً:

الرزقُ مقسومٌ ومرسومٌ، وما على الإنسان إلا أن يسعى في طلبه. ولكن السعي في الطلب لا يضمن كثرة الرزق أو سعته. ولكن الذي يضمن بركة الرزق هو القناعة بما يأتي منه قليلاً كان أو كثيراً.

يقول (ع): (استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقل من نفسك كثير الطاعة لله إزاءً على النفس وتعرضاً للعفو. وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل. وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ. واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف. واحذر خفي التزيين بحاضر الحياة، وتوق مجازفة الهوى بدلالة العقل. وقف عند غلبة التقوى باسترشاد العلم. واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء. وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص. وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة)³⁶³.

يستمر الإمام الباقر (ع) في بناء الإنسان فيقول له كن قنوعاً بقليل الرزق، وكلما كان الرزق قليلاً كان الإنسان قادراً على شكر الله على ذلك القليل. فربما زاد الرزق فكبر الطمع وقلّ الشكر، وهنا يقع التكر للنعمة والتصل عن شكر الله. وكلما أطعت الله عزوجل كثيراً عليك أن تفكر بأنك مقصرٌ بحقه، فإن شكر الله لا يكتمل مهما عظم، لأنه هو المتفضل الأكبر على جميع النعم التي نتمتع بها. وتمرن على العلم والعمل، فإن العلم يدفع الشر ويرفعه. ذلك لأن الجهل يؤدي إلى التقاعس والخمول، والتقاعس هو

³⁶³ تحف العقول ص 284 - 286.

الشُرُّ بعينه. وعندما تغوص بالعلم تنفتح لك أبواب الخير والمعرفة والتواضع والقناعة. والمؤمن المتيقظ العالم يخاف الله أكثر من الغافل الجاهل، لأن اليقين بوجود الله وحسابه يبعث الخوف في النفس. وقد قال (ع) في موضع آخر: (اللهم اجعلني أخشاك إلى يوم ألقاك حتى كأني أراك)³⁶⁴.

الرجاء الكاذب يوقع في الخوف الصادق:

معرفة النفس هي المحطة الأولى لمعرفة الله عزوجل، فإذا عرف الإنسان نفسه سهّل عليه معرفة ربه وخالقه. وأول مرحلة في معرفة النفس هو تفويض الأمر إلى الله تعالى، ومعرفة ما يريده. يقول (ع): (واستجلب حلاوة الزّهادة بقصر الأمل. واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس. وسدّ سبيل العُجب بمعرفة النفس. وتخلّص إلى راحة النفس بصحة التفويض. واطلب راحة البدن بإجمام القلب³⁶⁵. وتخلّص إلى إجمام القلب بقلّة الخطأ. وتعرّض لرقّة القلب بكثرة الذّكر في الخلوات. واستجلب نور القلب بدوام الحزن. وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق.

³⁶⁴ مهج الدعوات ص 169.

³⁶⁵ إجمام القلب: ترويح القلب. وعن أمير المؤمنين علي (ع): (أجمُوا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدان) ربيع الأبرار - الزمخشري ج 1 ص 1.

وإياك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق. وتزيّن الله عزّوجلّ بالصدق في الأعمال. وتحبّب إليه بتعجيل الإنتقال)³⁶⁶.

يدخل الإمام (ع) في فكرة بناء الإنسان، فيدعوه بالقول: حبيب إليك الزهد ورغبته إلى نفسك حتى تكره الطمع والعُجب. لأن في الزهد راحة النفس والبال، وصحة الأمر والمآل. وليس الزهد أن تنتقع عن الطعام والشراب، بل معنى الزهد هو أن تكون الدنيا مجرد رحلة عابرة، أو حلم مؤقت، فترغب عنها، ولا تتمسك بها، فلا بأس بطرائف الحكمة لأن القلوب تملّ أحياناً كما تملّ الأبدان. والأصل، عليك بقلة الخطأ في هذه الحياة، لأن أخطاء الدنيا باهظة التكاليف. كن شاكراً إذا أتاك الرزق ولا تكن فرحاً فرح الناسي لذكر الله، بل تحرّز من الشيطان بذكر الله تعالى والخوف الصادق منه، وإياك والرجاء الكاذب بخلود الدنيا فإنه يوقعك لا محالة في الخوف الصادق من فواتها بعد فوات الأوان. والخوف الصادق هو الخوف الحقيقي من عقاب الله، حيث كنت لا تشعر به في الإيام الخالية من تلك الدنيا الفانية.

الحُرم الأخلاقية الثلاث:

ثلاث حزم أخلاقية يطلقها الإمام الباقر (ع) ويهدف من خلالها بناء الإنسان المتدين المتخلق بإخلاق الإسلام.

³⁶⁶ تحف العقول ص 284 - 286.

يقول (ع): (وإياك والتسويق فإنه بحرٌ يغرق فيه الهلكى، وإياك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب. وإياك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون. واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار. وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء... واطلب بقاء العزِّ بإماتة الطمع. وادفع ذل الطمع بعزِّ اليأس، واستجلب عزَّ اليأس ببعد الهمة. وتزود من الدنيا بقصر الأمل. وبادر بانتهاز البُغية عند إمكان الفرصة ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحة الأبدان. وإياك والثقة بغير المأمون فإن للشر ضراوة كضراوة الغذاء)³⁶⁷.

في هذا المقطع المهم يذكر الإمام (ع) جملة أمور أخلاقية لا بد من التأمل فيها ملياً، وهي ثلاث حزم. الأولى: حزمة الأمور التي يجب تجنبها. والثانية: حزمة معالجة الذنوب. والثالثة: حزمة التعامل مع الدنيا.

الحزمة الأولى: حزمة الأمور الواجب تجنبها في قضايا التكاليف الدينية والواجبات، وهي:

1- عدم التسويف: والتسويف هو تأجيل الأعمال التعبدية والواجبات إلى وقت آخر. فالإمام (ع) ينهى عن التسويف في العبادات. ومن التسويف تأخير الصلاة عن أوقاتها بدون عذر شرعي. ومن التسويف أيضاً تأجيل

³⁶⁷ تحف العقول ص 284 - 286.

المعاملات الحياتية أو التجارية ونحوها بالمماطلة، وإنزال الأذى بالناس والمجتمع.

2- عدم الغفلة: والغفلة تعني غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له. وأيضاً تعني السهو والنسيان. وأخطر ما يبئلي به الإنسان هو أنه يغفل عن ذكر الله. فكأنه يركب مركباً بسيطاً يطفو على ماء جاري، وينسى أنه مستقرٌ على مركبٍ يطفو على الماء، ويتصور أنه جالسٌ على أرض ثابتة لا تهتز صعوداً أو نزولاً. فيغفل وينسى حقيقة أنه ربما يغرق في أي لحظة. وهكذا الغفلة عن ذكر الله، فإنها نسيان وإنصراف عن قضية عقلية ينبغي أن تملأ العقل، وتستوعب الوجدان.

3- عدم التواني: والتواني هو التقصير في العمل وعدم الإهتمام به. والناس تتوانى عن أداء الواجبات، فتتراكم عليها، ثم تعجز عن الإتيان بها أو تعويض ما فات منها. فلا تتوانى وتقصّر في عملك إن كان واجباً مع الله تعالى، أو كان واجباً مع الناس. ومن ذلك التواني في أداء ديون الناس، فتتراكم عليه الديون ويعجز عن أدائها، أو التواني في أداء أعمال عبادية فاتته لمرضٍ أو عدم قدرة، فيتراكم عليه قضاء العبادات ثم يعجز عن أدائها وقت الصحة والعافية.

هذه الحزمة الأولى تعالج بكلماتٍ قليلةٍ مشكلة من أهم مشاكل الإنسان التعبدية والاجتماعية، وهي المشكلة النفسية في التسوية والغفلة والتواني، وكلها تؤدي إلى عدم إكمال العمل المطلوب.

الحزمة الثانية: حزمة معالجة الذنوب، وهي تتم عبر:

- 1- شدة الندم على ما فات من الذنوب، والندم على الذنب يعدُّ توبةً إذا وعدَّ العبد ربه بعدم تكراره.
- 2- كثرة الاستغفار: وكثرة الاستغفار تعني المصادقية في شدة الندم على ما اقترفه العبد من ذنوب. وطبيعة الدين تحبب كثرة الاستغفار، ويتمثل بذكر الله والتوبة إليه، وصدق الوعد بعدم العودة إلى الذنب مرة أخرى. وهو ما يسمى بالتوبة النصوح.
- 3- حسن مراجعة الذنب بخالص الدعاء، فكلما راجع الإنسان نفسه تبينت له مقدمات الذنب ونتائجه، فيتوب بالوعد الصادق بعدم تكرار تلك المقدمات. فلا مناص من أن يتوجه بالدعاء لخالقه وبارئه بالمغفرة والتوبة.

الحزمة الثالثة: ما يخص كيفية التعامل مع الدنيا، فلا بد من فعل الخصال التالية:

- 1- إماتة الطمع، فالطمع هو النظر لما في أيدي الناس وعكسه القناعة. فإماتة الطمع في الدنيا أهم شروط الزهد والقناعة. ولا شك أن القناعة بوابة كل خير، والطمع بوابة كل شر. والطامع لا يقتنع بما حاز من منافع في ملكيته، بل يحاول حيازة ما عند غيره أيضاً حتى لو كان حراماً.
- 2- اليأس من الدنيا، فالدنيا حلمٌ زائلٌ، ومحطة ينتظر راكبها المغادرة، فكيف يبني الإنسان بنيانه في محطةٍ هو تاركها غداً، ولا يأخذ من كنوزها شيئاً.

3- قصر الأمل، ومعناه أن الإنسان يُفترض به أن يفكر بقصر الدنيا، وسرعة زوالها، وما الموت إلا نهاية الأمل، فليكن الأمل قصيراً في الدنيا حتى يتهيأ الإنسان لحساب نفسه، وتقدير أعماله.

4- الشباب قبل الهرم: فالإمام (ع) ينصح بأن نستفيد في العبادة في شبابنا قبل هرمنا، لأن الشاب، وبفعل حيويته ونشاطه يستطيع أن ينجز ما لم يقدر الشيخ الكبير على إنجازه. وأغلب الواجبات تقتضي جهداً عقلياً أو جسدياً يستطيع الشاب أن يفعله أكثر من الشيخ المسنّ. وفي إنجاز الأعمال ثواب وحسن مآب، فليؤدي الشاب القوي تكليفه قبل فوات الأوان.

5- الثقة بالمأمون: وهذه قاعدة عظيمة، فعلياً أن نثق بالمأمون الذي نأتمنه على أموالنا وشؤوننا الحياتية، ولا نثق بغيره. فالإنسان المأمون لا يغدر ولا يخون.

معرفة النفس أهم المعارف:

نرجع إلى معرفة النفس، لأن عن طريق فهمها تنحل الكثير من المعضلات. فعن طريق النفس الإنسانية وتهذيبها نستطيع أن نخالف الهوى، ونعالج القلب، ونتمسك باليقين، ونستصغر الدنيا، ونقصر الأمل، ونثبت الإنصاف والعدل بين الناس.

يقول (ع): (واعلم أنه لا علم كطلب السلامة. ولا سلامة كسلامة القلب. ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء معين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك الدنيا، ولا معرفة ك معرفتك بنفسك،

ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالحزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها. ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كردّ الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذلّ كذلّ الطمع. وإياك والتقريط عند إمكان الفرصة، فإنه ميدانٌ يجري لأهله بالخسران)³⁶⁸.

في هذا الحديث والأحاديث التي سبقته يوصينا الإمام (ع) وصايا أخلاقية في أمورٍ ثلاثة متعلقة بالإنسان، وهي: النفس، والعقل، والجسد. فعلى صعيد النفس الإنسانية يدعونا إلى مجاهدة أنفسنا، ومخالفة أهوائنا، ويدعونا إلى الاعتدال في طلب الرزق، والإكثار من طاعة الله تعالى، والمداومة على استصغار الدنيا، وعلى كثرة الإستغفار، ويلخصه بمفهوم جامع مانع، وهو: غنى النفس. وعلى صعيد العقل يدعونا إلى تحكيم كتاب الله تعالى، وإلى سلوك هديه، وإلى عدم الإنزلاق في الهوى، وإلى تقليل فرص الخطأ، وإلى عدم التسويف والغفلة، بل إلى المنافسة في درجات التقوى، والإجتهاد بأن يكون لنا نوراً عقلياً يمثله بنور اليقين في الله تعالى.

³⁶⁸ تحف العقول ص 284 - 286.

وعلى صعيد الجسد، يدعونا إلى طلب راحة البدن بترويح القلب،
ودفع ذل الطمع في الدنيا، واستثمار صحة البدن وقت الشباب بالإشتغال
بطاعة الله تعالى قبل أن تصيبنا الشيخوخة وكثرة الأمراض والعلل.

الإستنتاج:

أحاديث الإمام الباقر (ع) كلها تبني الإنسان المسلم، وتجعله
إنساناً صالحاً، مؤمناً، محباً للخير، كارهاً للشر. فهو يعالج المشاكل
الإجتماعية المزمنة التي تتمثل في الظلم، والخيانة، والتكذيب، والمدح
الزائف، والذم، ويعطي الحلول المثلثى لعلاجها فلا بد من مقابلة الظلم
بالصفح، والخيانة بالوفاء، والتكذيب بعدم الإكتراث، والمدح والذم بالنظر
إلى مرآة أنفسنا إن كانت مطابقة لتعاليم القرآن الكريم.

وطالما آمنا بأن القرآن الكريم كتابٌ هدايةٍ وإرشادٍ، فقد جعلناه
ميزاناً توزن به الحسنات والسيئات، فالإمام (ع) يدعونا إلى عرض أنفسنا
على كتاب الله، فالقرآن يهذب النفس الإجتماعية، ويجعلها نفساً مثاليةً
أخلاقيةً تلتزم بأوامر الله ونواهيه.

ويدعونا الإمام (ع) أيضاً إلى تهذيب أنفسنا عن طريق القبول
بالقليل من الرزق، وطالما وُجدت القناعة وُجِدَ الشكر على الرزق القليل.
ويحذرننا بأن لا نعيش برجاء كاذب، ذلك أن الرجاء الكاذب يوقعنا دائماً في
عقاب الله من حيث لا نشعر.

ولعل أهم تهذيب للنفس الإجتماعية هو الإلتزام بما قاله الإمام (ع)
في الإلزامات بعدم التسويف، وعدم الغفلة، وعدم التواني. وفي معالجة

الذنوب بشدة الندم على الذنب، وكثرة الاستغفار، وحسن المراجعة. وفي كيفية التعامل مع الدنيا بإماتة الطمع، واليأس من الدنيا كحلٍ زائلٍ، وقصر الأمل، واستعجال الفتوة والشباب قبل الهرم والشيخوخة. وأهم المعارف على النطاق الإجتماعي هو معرفة النفس، كما يقول (ع)، فلا بد من مجاهدة النفس، ومخالفة هواها، والاعتدال في طلب الرزق، والدوام على طاعة الله، وترويح البدن، واستثمار الحياة استثماراً لائقاً بكرامة الإنسان، وحتمية وفادته على الله سبحانه وتعالى.

الاخلاق الإجتماعية الفاضلة

انتشرت كلمات الباقر (ع) بين الناس انتشاراً واسعاً. فكما كانت تتناول قضايا التوحيد والنبوة والإمامة، كانت تحثّ الناس على الأخلاق الإجتماعية الفاضلة، وعلى حسن التعامل بينهم، وعلى بناء الإنسان الفاضل المتحلي بأخلاق النبي (ص) وأهل بيته (ع). نعرض شذرات من أقوال الإمام (ع) في الاخلاق الإجتماعية الفاضلة. ففي صفة المؤمن قال (ع): (مَنْ صَدَّقَ لِسَانَهُ زَكَا عَمَلُهُ، وَحَسُنَتْ نِيَّتُهُ، وَزُيِّدَ فِي رِزْقِهِ، وَمَنْ حَسَنَ بَرُّهُ بِأَهْلِهِ زُيِّدَ فِي عَمْرِهِ)³⁶⁹. وفي مكارم الدنيا والآخرة: (ثَلَاثَةٌ مِنْ مَكَارِمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلَ مِنْ قَطْعِكَ، وَتَحَلَّمَ إِذَا جُهِلَ عَلَيْكَ)³⁷⁰. وفي الفضائل: (إن

³⁶⁹ تحف العقول ص 292.

³⁷⁰ بحار الأنوار ج 78 ص 73.

استطعت ألا تعامل أحداً إلا ولك الفضل عليه فافعل³⁷¹. وفي تربية النفس، قال (ع): (أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدٌ وَصَفَ عَدْلًا ثُمَّ خَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ)³⁷²، و(مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظًا فَإِنَّ مَوَاعِظَ النَّاسِ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُ شَيْئاً)³⁷³.

في تلك الأقوال قواعد أساسية في صفة المؤمن، وطبيعة تعامله مع الناس، وهي:

1- صدق اللسان: فاللسان الصادق يطهر أدران الدنيا، ويزرع الثقة بين الناس. والصادق محبوب من قبل الجميع، يأتيه الرزق وهو لا يتوقعه، على عكس الكذاب المخادع. لذلك ورد في صدق اللسان الكثير من الروايات التي تحث على الإتصاف بتلك الفضيلة.

2- العفو عن الظلم: وهي من الصفات التي يصعب تطبيقها عند الكثير من الناس لأنهم عموماً يحبون الإنتقام من الظالم. وكان أئمة أهل البيت (ع) يعفون عن ظلمهم، ويقبلون توبة من تاب، وما مثال الحر بن يزيد الرياحي في واقعة الطف إلا مثلاً ناصعاً من أمثلة عفو أهل البيت (ع) عن ظلمهم.

3- التفضل على الناس: فالإمام (ع) يدعو: كن صاحب الفضل على الناس، أي كن صاحب المبادرة الأولى في الإحسان على الآخرين، ولا

³⁷¹ تحف العقول ص 292.

³⁷² تحف العقول ص 292.

³⁷³ بحار الأنوار ج 67 ص 70.

تنتظر من الناس أن ينعموا عليك بأرزاقهم، لذلك قال (ع): (إن استطعت ألا تعامل أحداً إلا ولك الفضل عليه فافعل).

4- لا تصفُ عدلاً ثم تخالفه: وهذا من أعظم مساوئ الإنسان أن يصف عدلاً للناس ثم يعمل بخلافه، فتلك هي الغفلة والنفاق والجهل بعينه. فليكن الإنسان أول من يطبق العمل الصالح على نفسه، ثم يدعو غيره إلى ذلك.

العلم والحلم والرفق في المجتمع:

وفي العلم والحلم قال (ع) يرسله عن النبي (ص): (نعم وزير الإيمان العلم، ونعم وزير العلم الحلم، ونعم وزير الحلم الرفق، ونعم وزير الرفق اللين)³⁷⁴، وعن استحباب إرتياد المساجد، قال (ع) ينقله عن الإمام الحسن بن علي (ع): (سمعتُ رسول الله (ص) يقول: من أدمن الاختلاف إلى المساجد أصاب أخاً مستقاداً في الله عزّوجلّ، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدلّه على هدى، أو أخرى تصرفه عن الردى، أو رحمةً منتظرةً، أو ترك الذنب حياءً وخشيةً)³⁷⁵، وفي طلب العلم قال (ع) عن النبي (ص): (العالم والمتعلم شريكان في الأجر. للعالم أجران وللمتعلم أجر، ولا خير في سوى ذلك)³⁷⁶.

³⁷⁴ قرب الإسناد ص 32.

³⁷⁵ الخصال ج 2 ص 40.

³⁷⁶ بصائر الدرجات ص 4.

في هذا المقطع ينقل الإمام الباقر (ع) أفكاراً إضافية في بناء الإنسان، وهي:

1- من العلم إلى الرفق واللين: يبدأ بالعلم ويجعله مرتبطاً بسلوك إجتماعي يؤدي إلى الحلم ثم ذاك يؤدي إلى الرفق ثم إلى اللين. فالعالم هو أكثر الناس حلماً ورفقاً بالناس، فهو لين العريكة، وهو حلیم كريم، ورفیق تظمنن له النفوس. على عكس الجاهل الذي يتعامل مع الناس بالخشونة ويؤدي بهم إلى التصادم.

2- منافع التواجد بالمساجد: فالمسجد له منافع بالإضافة إلى أداء العبادة، فهو وسيلة إلى الرحمة المنتظرة، وهو الطريق إلى ترك الذنب ولو حياءً من الناس، وهو المنبع العلمي لعلوم الدين، وهو المنبع الإجتماعي لإيجاد الأخوان والأصدقاء. فالتواجد في المساجد هو تفاعل إجتماعي في مراكز العلم، والمعرفة، والإيمان، والإصلاح، والتكافل، ومساعدة المحرومين.

3- الشراكة في الأجر: العالم والمتعلم شريكان في الأجر. وهذا قولٌ شريفٌ يحثُّ على طلب العلم من طرف، وعلى بذله من طرف آخر. فلا بد للعلم من أن ينتشر ويثبت بين الناس. والكل مشتركون في الأجر بنسبٍ عادلةٍ مع جهدهم وبذل وقتهم.

وبكلمة مختصرة، كانت تلك الكلمات المؤثرة من الإمام الباقر (ع) مصدرَ إثراء العلم والمعرفة في المجتمع الإسلامي، وهكذا كان المجتمع الإسلامي بحاجة إلى علمه في كل وقت، وكان وجوده في مدينة رسول الله (ص) ملهماً لأهل العلم كي ينهلوا من عذيب كلامه (ع)، ويستفيدوا من غزارة علمه، ويتأثروا بجميل سلوكه.

الإشتغال بعيوب النفس من صفات أهل التقى:

لاشك أن أصعب الجهود التي يبذلها المؤمن هو الإشتغال بعيوب نفسه وإصلاحها، فيفتش عن العيوب التي بداخله قبل أن ينظر إلى عيوب الناس، وشخصٌ بتلك المواصفات هو مثالُ التقوى. وتحت هذا العنوان العديد من الروايات، نبدأ بصفات أهل التقوى.

فمن كلامٍ له في الموعظة والحكمة قال (ع): (أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم معونة، إن نسيته ذكرك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله)³⁷⁷. ومنه (ع): (أنزل الدنيا كمنزلٍ نزلته وارتحلت عنه، أو كمالٍ أصبته في منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء)³⁷⁸.

في الحديث الأول يتناول (ع) بعضاً من صفات المتقين الذين يخافون الله تعالى ولا يعصونه، هم الطاقة التي تمنح الناس الخير، ولا تأخذ بالمقابل شيئاً، فهم يذكرونك بالله تعالى إن نسيته، وهم الذين يعينونك ويشجعونك على العمل حتى لا تشعر بالوحدة والغربة في هذا العالم الصاخب الجشع، وأكثر ما تسمع منهم هو ذكر الله، وحب التعاون والتأخي، ونشر الطمأنينة بين الناس.

وفي الحديث الثاني يقول الإمام (ع) إجعل الدنيا وزخارفها وثرواتها كحلْمٍ رأبته في منامك، فما بقي منه إلا الصور الذهنية، ويدك فارغة من

³⁷⁷ شذرات الذهب- ابن العماد دمشقي ص 462.

³⁷⁸ المصدر السابق.

كل ثروة حملتها في منامك أو حلمك. فهل تستحق هذه الدنيا كل تلك المزاحمة والصراع والتنافس من أجل الطمع وجمع المال وتكديسه؟ فما الحياة الدنيا إلا صوراً ذهنية نتركها ونترك كل ما كسبناه من ثروات وراء ظهورنا عند الممات.

وفي قولٍ آخر له (ع)، وهو يشير إلى كلام رسول الله (ص) في أمور الدنيا، يقول (ص): (ما لي أرى حب الدنيا قد غلب على كثير من الناس، حتى كأنّ الموت في هذه الدنيا على غيرهم كُتِب، وكأنّ الحق في هذه الدنيا على غيرهم وجب، وحتى كأنّ لم يسمعوا ويروا من خبر الأموات قبلهم، سبيلهم سبيل قوم سُقِرَ عما قليل إليهم راجعون، بيوتهم أجداتهم، ويأكلون تراثهم، فيظنّون أنهم مخلّدون بعدهم، هيهات هيهات، أما يتعظّ آخرهم بأولهم)³⁷⁹.

في هذا الحديث ينقل (ع) قول النبي (ص) في شراة الناس لحيازة المال وجمعه، وكأنهم خالدون في هذه الحياة الدنيا، وهم يرون الموت بأعينهم كل يوم. لكنهم لا يفكرون بالموت، بل يفكرون بالحياة وما كسبوه من منافع وثروة، مع أنهم يدفنون كل يوم من يموت من أحبائهم وأرحامهم. ولكن ما هي إلا لحظات يحزنون فيها بموت من أحبوا، ثم ترجع عجلة المال والثروة تدور من جديد، فلا يتعظون بأخبارهم، وقد صدق أمير المؤمنين (ع) عندما قال فيهم: (ما أكثر العبر وأقل الاعتبار)³⁸⁰.

³⁷⁹ الكافي ج 8 ص 168.

³⁸⁰ نهج البلاغة - الخطبة 106، الحكمة 297.

ثم يقول (ع): (لقد جهلوا ونسوا كلّ واعظٍ في كتاب الله، وأمنوا شرّ كل عاقبة سوء، ولم يخافوا نزول فادحة، وبوائق حادثة، طوبى لمن شغله خوف الله عزّوجلّ عن خوف الناس، طوبى لمن منعه عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه، طوبى لمن تواضع لله عزّ ذكره، وزهد فيما أحلّ الله له من غير رغبة عن سيرتي، ورفض زهرة الدنيا من غير تحوّل عن سنتي)³⁸¹.

فالنتيجة أنهم لما نسوا ذكر الله، وغرتهم الدنيا بأموالها وزينتها ولذاتها، عندئذٍ نسوا قدرة الله على إنزال الفواحش والبوائق بهم. وهذا الاستهتار بقدرة الله تعالى جعلهم في غاية الطغيان. هذا جانب الذين غرتهم الحياة الدنيا فانزلقوا في مفاتها.

أما المؤمنون الذين شغلهم الخوف من الله تعالى عن أي خوفٍ آخر، ونظروا إلى عيوبهم وحاولوا إصلاحها، فلم يلتفتوا إلى عيوب الآخرين، وتواضعوا لله وزهدوا في الدنيا باعتدالٍ، رغبةً في الله تعالى، وطمعاً في رضوانه، أولئك هم المفلحون في الآخرة حقاً وصدقاً.

ثم يقول (ع) على لسان النبي (ص): (إتبع الأخيار من عترتي من بعدي، وجانب أهل الخيلاء والتفاخر والرغبة في الدنيا، المبتدعين خلاف سنتي، العاملين بغير سيرتي، طوبى لمن اكتسب من المؤمنين مالاً من غير معصية، فأنفقه في غير معصية، وعاد به على أهل المسكنة، طوبى لمن حسن مع الناس خلقه، وبذل لهم معونته، وعدل عنهم شرّه،

³⁸¹ الكافي ج 8 ص 168.

طوبى لمن أنفق القصد، وبذل الفضل، وأمسك قوله عن الفضول وقبيح الفعل³⁸².

يكشف النبي محمد (ص) للحاضرين من المسلمين في ذلك الوقت أن عليهم أن ينظروا إلى العالم من زاويتين: الزاوية الأولى: الأخيار من أهل البيت (ع) من العترة الطاهرة، ومحبيهم واتباعهم، فهم الذين يسرون على السنة المحمدية ويعملون بها، طوبى لهؤلاء من اكتسب مالاً من غير معصية، وأنفقه في وجوه البر والصلاح، وساعد به الفقراء، وكان خلوقاً مع الناس، يبذل الفضل على كل من احتاج له.

الزاوية الثانية: أهل الدنيا من الذين لا يهتمهم الدين، ولا رسالة الإسلام الرحيمة، بل كل همهم هو التفاخر والرغبة في ملذات الدنيا بشبهاتها وحرامها، يخالفون السنة النبوية، ويعملون المعاصي. فالإبتعاد عن هؤلاء الذين غرّتهم الأمانى الكاذبة أولى وأرحم. كن مع الأخيار من أهل البيت (ع) فلعله يشغلك الخوف من الله تعالى عن أي خوفٍ آخر.

مجتمع التقوى نموذج المجتمع المتماسك:

لو افترضنا وجود مجتمع فاضل يضم جميع الإنبياء والرسل (ع)، لكان ذلك أكثر المجتمعات تماسكاً في التاريخ، لأنه مجتمع قائم على

³⁸² الكافي ج 8 ص 168.

الخوف من الله والزهد في الدنيا، فهو مجتمع التقى. ولكن لو نزلنا إلى مجتمع الأهواء والرغبات، مجتمع البشر، لكانت لنا قصة أخرى.

يحزن الإمام (ع) لمجتمع الأهواء والرغبات الدنيوية. ويقول (ع) في حديثه: (أصبحتُ والله محزوناً مشغول القلب... حزن هم الآخرة. من دخل قلبه خالص حقيقة الإيمان شُغل عما في الدنيا من زينتها. إن زينة زهرة الدنيا إنما هي لعب ولهو وإن الدار الآخرة لهي الحيوان. إن المؤمن لا ينبغي له أن يركن ويطمئن إلى زهرة الحياة الدنيا. واعلم أنّ أبناء الدنيا هم أهل غفلة وغرور وجهالة، وأنّ أبناء الآخرة هم المؤمنون العاملون الزاهدون أهل العلم والفقهاء، وأهل فكرة واعتبار واختبار لا يملّون من ذكر الله)³⁸³.

والإمام (ع) يحزن كما يحزن بقية المؤمنين عندما يرى الناس تترك الدين، وتلهو بزينة الدنيا وزخارفها، وتركن إليها نفوسهم، وتهفو لها أرواحهم، فتلك هي الغفلة والجهل والغرور. بينما من عرف الآخرة وعمل لها عملها فاولئك هم الفائزون، لأن الإيمان بحقيقته قد دخل قلوبهم فشغلهم عن غرور تلك الدنيا. فهم المؤمنون العاملون الزاهدون من أهل العلم والفقهاء والمعرفة، هم الذين يداومون على ذكر الله، ولا يملّون العيش في أجواء الدين ومراكز العبادة.

ثم يقول (ع): (واعلم أنّ أهل التقوى هم الأغنياء، أغناهم القليل من الدنيا، فمؤونتهم يسيرة، إن نسيت الخير نكروك، وإن عملت به أعانوك.

³⁸³ تحف العقول ص 284 - 287.

أخروا شهواتهم ولذاتهم خلفهم، وقدموا طاعة ربهم أمامهم، ونظروا إلى سبيل الخير وإلى ولاية أحبّاء الله فأحبّوهم، وتولّوهم واتبعوهم³⁸⁴. وإذا نظرنا إلى الغنى والفقر الواقعي، فالمنتقون هم الأغنياء واقعاً، لأنهم لا يطلبون من الدنيا إلا القليل، فقد اغتتموا فرص نجاحهم بذكر الله والتفكير فيه، فزادهم ذلك فلاحاً أكبر، وراحةً أعظم. كلُّ همهم الطاعة والعبادة، وما يتفكروا به هو عالم ما بعد المادة، عالم الملكوت، عالم الرحمة والسعادة، وما أن تلتحق بهم حتى يغمرك السرور بمعاشرتهم، فقد أحبوا كل من شاركهم عبادتهم ومناجاتهم، فهم من أصحاب السلوك والعرفان.

ثم يقول (ع): (احفظ ما أستودعك من دين الله وحكمته. وانصح لنفسك وانظر ما عند الله عندك في حياتك، فكذاك يكون لك العهد عنده في مرجعك. وانظر فإن تكن الدنيا عندك على غير ما وصفت لك فتحول عنها إلى دار المستعتب اليوم، فربّ حريص على أمرٍ من أمور الدنيا قد ناله، فلما ناله كان عليه وبالاً وشقي به، ولربّ كارهٍ لأمرٍ من أمور الآخرة قد ناله فسعد به)³⁸⁵.

بيان: في هذا الحديث يتحدث الإمام (ع) عن التقوى، ويفرّق (ع) بين المحبين للدنيا من الناس، والعاملين على الآخرة منهم.

³⁸⁴ تحف العقول ص 284 - 287.

³⁸⁵ المصدر السابق.

فالعامل على الدنيا تبهره اللذات والرغبات، وتشغله زينتها عنه تعالى. فهو في لهو، ولعب، وغفلة، وغرور، وجهالة. لكنه يتجاهل أنها مجرد محطة توقف، ويغادر بعدها إلى مكان آخر.

أما العامل على الآخرة، فهو الزاهد من أهل العلم والفقہ والإيمان، من أهل الإعتبار والإختبار، لا يملّ من ذكر الله، قليل ما في يده لكنه غنيّ بالله ويتقواه، قدّم طاعة ربه على لذاته وشهوته، فهو سعيدٌ وغنيٌّ بما استودعه الله تعالى فيه من دينه وحكمته.

صفات أهل التقوى:

لا يستطيع المؤمن أن يعيش في مجتمع الأنبياء والصالحين، وأهل العلم والمعرفة، ما لم يتحلّى بصفات فاضلة ترتقي به إلى مستوى الفضل والسمو والتميز، ومن تلك الصفات:

الأولى: صدق الحديث: قال الإمام الباقر (ع): (إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث)³⁸⁶. وقد ذكرنا في حديث سابق للإمام (ع) عن صفة المؤمن أن يكون صادق اللسان.

تلك علامة مهمة فاصلة من علامات الإيمان والتقوى، وهي: صدق الحديث. فالصادق يخاف الله عزّوجل من معصيته بالكذب. فالصدق إذن صفة من صفات التقوى. وتلك معلومة جديدة لأهل زمانه،

³⁸⁶ بحار الأنوار ج 67 ص 282.

لأن أغلب الناس كانوا يعتقدون بأن التقوى هي في كثرة القيام والصيام. ولكن الفكرة الصحيحة أن الصدق من التقوى أيضاً. والصادق، إن كان من رواة الحديث أو لم يكن، تكون صفته صفة أهل التقوى.

ولاشك أن الصدق في نقل حديث رسول الله (ص) يعدُّ من أعلى درجات التقوى، فبعض الناس تزوّق الإفتراء على النبي (ص) لطموح دنيوي، أو رغبة شخصية في مالٍ أو جاهٍ. إلا إن الصدق في نقل الحديث من أسمى الأخلاق الدينية. إذن فالصادق من الرواة هو من ينقل حديث رسول الله (ص) كما سمعه، بصدق، فيكون تقياً، بلا أدنى شك.

الثانية: حساسة الدنيا في عين الإنسان: قال (ع): (كان لي أخٌ في عيني عظيماً، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عيني)³⁸⁷.

يتحدث الإمام (ع) عن أخٍ إفتراضي له يُقدّر فيه خصلة فهم الحياة الدنيا كمعبرٍ إلى الحياة الآخرة. فالدنيا في عينه صغيرة وليس لها شأنٌ إلا عبادة الله وطلب رضاه. وذلك النظر يجعله لا يعصي الله تعالى، لأن الحياة الدنيا لا تستحق المعصية، ولأن الله تعالى يستحق الطاعة المطلقة. وتلك صفة من صفات التقوى أيضاً.

الثالثة: الاستغناء عن الناس: أورد عبد الله بن أسعد اليافعي (ت 768 هـ) بعضاً من أحاديث الإمام الباقر (ع): "قال (ع): (الغنى والعز يجولان في

³⁸⁷ مرآة الجنان - اليافعي ج 1 ص 247-248.

قلب المؤمن فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل استوطناه). قلتُ: يعني وإن لم يجدا فيه توكلأ رحلا عنه، وفي معنى ذلك قلتُ:

يجول الغنا والعز في قلب مؤمنٍ
أقاما فأمسى العبد بالله ذا غنى
عزيراً وإن لم يلقياه ترحلاً³⁸⁸
يذكر الإمام (ع) فكرتين: الغنى، والعز.

الأولى: إستغناء الإنسان عن الناس، أي لا يسألهم مالاً أو جاهاً أو منصباً أو منزلةً، لأن المتقي غني عن ذلك. وغناه نابع من اتصاله بالله تعالى على مستوى الفكر والعبادة. وقد قال (ع) في موضع آخر: (إن أهل التقوى الأغنياء، أغناهم القليل من الدنيا، فمؤونتهم يسيرة)³⁸⁹. فالغنى الحقيقي هو الغنى عن الناس، والطلب من الله تعالى، والقناعة فيما يسره له الله. وتلك طاعة لله تعالى، واتقاء من معصيته.

الثانية: العز، وهو عزة النفس، كما قال عزوجل: (...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...)³⁹⁰. وعزة النفس هو أن لا يطلب من أحد غير الله تعالى. والطلب منه وحده هو فهم لمعنى الخالقية، وإدراك لمعنى التدبير، فهو طاعة لله، وبالتالي فهي لون من ألوان التقوى.

³⁸⁸ شرح أصول الكافي ج 8 ص 208.

³⁸⁹ تحف العقول ص 287.

³⁹⁰ سورة المنافقون: الآية 8.

الرابعة: عدم الإشتغال بما فات: (لا تشعروا قلوبكم بالإشتغال بما قد فات، فتشغلوا أذهانكم عن الإستعداد لما لم يأت)³⁹¹.

يفتح الإمام (ع) صفحة مشرقة لمستقبل الإنسان، وذلك بالإستغفار ونسيان الماضي، والإهتمام بالمستقبل. لأن ما فات فات، ولا يمكن معالجة الماضي إلا بالإستغفار، والنظر إلى المستقبل على نهج عدم معصية الله سبحانه مرة أخرى.

الإستنتاج:

الأخلاق الإجتماعية الفاضلة لا تكتمل عند الناس إلا ببناء الإنسان، فلا بد من بناء الإنسان لبنة لبنة. يقوم الإمام الباقر (ع) ببناء الإنسان عبر الصفات الخاصة، مثل: صدق اللسان، والعفو عن الظلم، والمبادرة في التفضل على الناس، وعدم النفاق أي أن لا يصف الإنسان عدلاً ثم يخالفه.

وأن يكون بناء الإنسان مستنداً على العلم، لأن البناء بالعلم يتحقق فيه بناء الحلم أو الحكمة ثم الرفق في المجتمع. فإذا انتشرت المعارف الأخلاقية بين الناس انتشر الحلم واللين، وذهب العنف وولت الخشونة. فيصبح المجتمع متحضراً، لتيّناً، سهلاً، لا تسوده العصبية ولا الانفعال ولا العنف. وإذا اشتغل الإنسان بعيوب نفسه انشغل أو تشاغل عن عيوب الناس، وعندها يصبح المجمع مجتمع خير، وسماحة، وتعاون على البر،

³⁹¹ الكافي ج 2 ص 316.

بل مجتمع يعتبرُ منه الإنسان، ويصبح أقرب إلى التواضع والزهّد، والرغبة في الله تعالى لا الرغبة عما في أيدي الناس. وهذا يعطي المجتمع تماسكاً وسعادةً وغبناً.

ولا يرتقي المجتمع إلى درجة الفضيلة إلا بتغليب لهجة الصدق بين الأفراد، والنظر إلى الدنيا باعتبارها أمراً خسيماً لا يستحق كل هذا الصراع، والاستغناء عن الناس، والقناعة بالقليل، والطلب من الله تعالى، وعدم الاشتغال بما قد فات، بل الاستعداد لما يأتي.

الكرم والجود من وسائل بناء المجتمع

الجود من أعظم الفضائل التي يحيى بها المجتمع ويتماسك، بل هو أعظم الوسائل في بناء الإنسان الصالح الكريم الذي يشعر بمعاونة الآخرين والأمهم. وقد أكد الإسلام على ذلك، ووصف عطاء الإنسان لآخر محتاج شبيهة له في الخلق عطاءً لله تعالى. والكرم: ضد اللؤم، كرم كرامةً وكرماً، فهو كريمٌ وكريمةٌ، وكرم فلان: أعطى بسهولة وجاد³⁹².

والجود والسخاء: "الجود: المطر الغزير، وجاد الرجل بماله يجودُ جُوداً، فهو جوادٌ"³⁹³. وقيل: الجواد هو الذي يعطي بلا مسألة، صيانةً

³⁹² جمهرة اللغة - ابن دريد ج 2 ص 798.

³⁹³ الصحاح - الجوهري ج 2 ص 461.

للاخذ من ذلّ السؤال³⁹⁴. و"السخاء: هيئة للإنسان داعية إلى بذل المقتضيات، حصل معه البذل أو لم يحصل، وذلك خلُق"³⁹⁵.

الكرم في القرآن الكريم:

الكرم أو الجود من الصفات الشريفة، فقد وصف الله سبحانه نفسه بالكرم، الوهّاب. ففي صفة الوهّاب، قال تعالى: (... وَهَبْنَا لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)³⁹⁶، (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)³⁹⁷، وفي صفة الكرم، قال تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)³⁹⁸، وهو الذي يفوق عطاؤه عطاء ما سواه، ويعطي لا عن إستحقاق، بل بتدبير منه سبحانه.

ووصف أهل الكرم بأعظم الصفات وهي صفة الفلاح بالآخرة، فقال: (... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)³⁹⁹. وأطلق تعالى صفة الكرم على إبراهيم (ع) عندما أكرم الملائكة الذين دخلوا عليه ليبشروه هو وزوجه ثم ليبلغوه إهلاكهم قوم لوط: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ بْنِ إِسْرَائِيلَ الْمَكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ

³⁹⁴ تاج العروس - الزبيدي ج 7 ص 527.

³⁹⁵ الذريعة إلى مكارم الشريعة - الراغب الأصفهاني ص 286.

³⁹⁶ سورة آل عمران: الآية 8.

³⁹⁷ سورة ص: الآية 9.

³⁹⁸ سورة العلق: الآية 3.

³⁹⁹ سورة الحشر: الآية 9.

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ⁴⁰⁰، فأكرمهم وذبح لهم عجباً واستسمنه، ولم يعلمهم بذلك، وتلطّف في إكرامهم، وعرض عليهم الطعام وهو يحسبهم بشراً.

وقال تعالى مادحاً مجموعة من المؤمنين: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)⁴⁰¹، أي الذين ينفقون في سبيل الله في الغنى والفقير، أو في اليسر والعسر، أو في الرخاء والشدة. وإذا وُصفَ اللهُ بالكرم فهو اسمٌ لإحسانه وإنعامه، مثل قوله تعالى: (... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي عَنِّي كَرِيمٌ)⁴⁰². وإذا وُصفَ به الإنسان فهو اسمٌ للأخلاق والأفعال المحمودة منه، قال تعالى: (... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...)⁴⁰³.

الكريم في المجتمع:

تعني صفة الكرم عند الإنسان أن يفكر الكريم بالآخرين قبل تفكيره بنفسه. وهو تفكيرٌ عقلائي بلحاظ الفضائل والأخلاق الحميدة، وبذلك يناقض الكريم شعوره بالأنأنا، ويخالف إحساسه بالأنانية التي تزين للإنسان نفسه وذاته بعيداً عن الآخرين. أي أن الأناني يفكر بنفسه هو، لا غير.

والناس بفطرتهم يحتاجون غيرهم، في كل الأزمان والأماكن، فهم بطبيعتهم كائنات إجتماعية متباينة التوفيق في الرزق والعطاء، ومختلفة في

⁴⁰⁰ سورة الذاريات: الآية 24 - 25.

⁴⁰¹ سورة آل عمران: الآية 134.

⁴⁰² سورة النمل: الآية 40.

⁴⁰³ سورة الحجرات: الآية 13.

القدرة والكسب. فالجود أو الكرم أو السخاء خصلة تعكس الإهتمام بالآخرين من ذوي الحاجات، وإعطائهم من قبل الكريم، سألوا أو لم يسألوا. وتلك الصفة الفاضلة تعتمد بالدرجة الأولى على أخلاقية الإنسان في العطاء، وعلى نيته في إثثار مصالح الناس على مصلحته الخاصة. لكن قضية الكرم أو الجود تصطدم دائماً بمشكلة البخل والأنانية أو حب الأنا. وهنا يُثار الإشكال التالي: ما هي المسافة الفاصلة بين الجود والأنانية؟ وما هي المسافة الفاصلة بين التفكير بالآخرين وإسعادهم وبين التفكير بالنفس فقط وإسعادها؟

لا يمكن للإنسان، وبسبب طبيعته، أن يقف في المنتصف أو على الحياد بين الإيثار والأنانية، أو بين الجود والأنا. لابد أن يميل إلى أحد الطرفين، فإما أن يكون كريماً جواداً ينظر إلى حاجات الآخرين فيمنحهم ما تيسر تفضلاً منه، وإما أن يكون بخيلاً أنانياً ينظر لنفسه فقط، ولا ينظر لغيره من ذوي الحاجة خصوصاً وهو يملك ما يكفيه ويفيض عن حاجته. والبخل رذيلة من الرذائل، فلا يمكن أن تكون من صفات الإمام (ع) أبداً. ولكن يمكن أن تكون من صفات الخليفة الأموي مثلاً. كان سليمان بن عبد الملك (ت 99 هـ) بخيلاً، بحيث سُمِّيَ بِرُشْحِ الْحِجَارَةِ" لبخله، فقد كان قاسياً في جمع الخراج، وكان شعاره: "أحلب الدرّ⁴⁰⁴ حتى ينقطع، وأحلب الدم حتى ينصرم"⁴⁰⁵، وعندما قدم عليه أحد الجبابرة قائلاً له:

⁴⁰⁴ الدرُّ: اللّبن، أو الكثير منه.

⁴⁰⁵ تاريخ دمشق ج 5 ص 80.

"إني ما جنتك حتى نُهكتُ الرعية وجُهدتُ، فإن رأيت أن ترفق بها وترفّه عليها، وتحفّف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل". فقال له سليمان: "هبلتكَ أمك، إحلب الدرّ فإذا انقطع فاحلب الدم"⁴⁰⁶!

شروط الكرم عند الإمام (ع):

للكرم شروطاً عند الإمام الباقر (ع)، وبدونها لا يمكن أن نعدّه كريماً. ومن شروط صحة فعل الكرم شرعاً الأمور التالية:

أولاً: طيبة نفس الكريم: فالجود لا يعتبر جوداً أو كريماً ما لم يقترن بطيبة نفس الكريم، فلا يمكن للمحسن أن يكون محسناً بدون الشعور بطيبة النفس خلال عملية الإعطاء، وإلا أصبحت عملية الإعطاء غصباً من لون ما. وقد ورد في المأثور: "المأخوذ حياءً كالمأخوذ غصباً"⁴⁰⁷. والظالم وإن أعطى، فعطاؤه لا يعتبر جوداً لأنه خلط ذلك العطاء بالظلم، فيفتقد الآخذ طيبة النفس المشروطة في حسن العطاء. يؤكد الإمام الباقر (ع) على هذه المسألة، ويوصي أهله في حسن التعامل مع السائلين من الفقراء، ويقول:

⁴⁰⁶ تاريخ دمشق ج 5 ص 80.

⁴⁰⁷ مقالات الأصول - الشيخ ضياء الدين العراقي ج 2 ص 166.

(لا تقولوا: يا سائل خذ هذا، بل قولوا: يا عبد الله بورك فيك، وسَمُّوه بأحسنِ أسمائه)⁴⁰⁸، وفي ذلك دلالة على طيبة نفس الكريم (ع).

ثانياً: أن يكون دافع العطاء هو الله تعالى: بمعنى أن يكون المحرك لعطاء الكريم هو الله تعالى، فالنية الصادقة في الكرم والجدود دون مقابل تُثبت أن الكرم كان إبتغاءً لوجه الله سبحانه، وتلك أرقى درجات الفضيلة. وهذا يعني أن الكريم يعطي ما عنده إلى محتاجٍ حتى لو كان هو بأمرٍ الحاجة إليه. وفي ذلك إيثار مخصوص لوجه الله تعالى.

وقد وصف الله تعالى الأطهار من أهل البيت (ع) ممن أطمعوا الفقراء وباتوا جوعاً، فقال معبراً عن لسان حالهم: (إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)⁴⁰⁹.

ثالثاً: أن يكون المعطى له محتاجاً: وإلا فإن الكرم مع الأغنياء، وعمل الولائم لهم، وترك الفقراء من ذوي الحاجة يتضورون جوعاً ليس بكرمٍ، ولا هدفه مرضاة الله، بل غايته دنيا يصيبها البازل. وما أكثر الهدايا التي يستلمها السلطان من الرعية! هل تعتبرها كرمًا من فقراء الرعية إلى السلطان؟ أم تعتبرها خوفاً من بطشه؟ أم تعتبرها تزلفاً لتحقيق هدف ما؟ بالتأكيد ليست كرمًا بل عطاءات ذليلة ومنح لها حسابات سياسية!

⁴⁰⁸ البيان والتبيين ص 158.

⁴⁰⁹ سورة الإنسان: الآية 9.

في كرم أهل البيت (ع) قال الكميّ (ت 126 هـ):
والغيوث الليوث إن أمحلّ الناس فمأوى حواضن الأيتام⁴¹⁰

رابعاً: عدم المنّ على الفقير: فالكرم شفاءً نفسي للفقير. والعطاء مع المنّ والأذى لا يعتبر جوداً، وقد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...)⁴¹¹. إذا حذفنا المنّ من صفة الكرم، وأكدنا على طيبة نفس الكريم، أصبح الكرم والجود وسيلة من وسائل الراحة النفسية للفقير أو المحتاج. فالعطاء هنا لم يقتصر على منح العين أو المال للفقير، بل تجاوز إلى ترويح عن نفسيته.

وربما يكون الجود بالكلمة الطيبة أفضل من إعطاء العين بالمن والأذى، كما قال تعالى: (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)⁴¹².

ولاشك أن الهدف النهائي لكرم الإمام (ع) هو تطيب نفس المؤمن، وإشعاره بأنه (ع) معه في محنة الحاجة والفقر. وذلك التطيب أحياناً يعادل ما يعطيه الكريم من أشياء عينية. فالكرم أو الجود يُشعر الإنسان بالسعادة والغبطة. ولذلك كان (ع) يحمل ما قدّر عليه للفقراء

⁴¹⁰ ديوان الكميّ الأسدي ص 488.

⁴¹¹ سورة البقرة: الآية 264.

⁴¹² سورة البقرة: الآية 263.

ويقول (ع) لهم: [لقد] هيأناها لكم من أول السنة⁴¹³، ومفهوم قوله (ع) هو أنكم في عقولنا وقلوبنا نفكر بحالكم، ونلتاع لمشاقتكم. وبالإجمال، فإن الكريم (ع) كان يفضّل مصالح الناس على نفسه، ويعطيهم ما يحتاجون، ويترك لنفسه القليل، أو ربما لا يترك لنفسه شيئاً. وهذا أعظم تهذيب للأنا أو النفس الشحيحة التي تتحكم غالباً بالإنسان. وفي النتيجة أن الكرم والجود يَشَدُّ أوأصرَ المجتمع، ويجعل الفقراء إخواناً للأغنياء، والمحرومين رفقاء الميسورين. وفي ذلك بناءٌ للعلاقات الإنسانية لا يقوم بها إلا العطاء والبيذل.

المصاديق الإجتماعية لكرم الإمام (ع):

يلخص كرمه (ع) تضافرُ الفضائل الأخلاقية مع الواجبات الدينية في مساعدة أهل الحاجة والمسكنة. فقد عرّفه الناس بأكرمهم في عصره، وأكثرهم سخاء، فكان ينفق ما عنده ولا يُبقي له شيئاً. وبذلك كان يقتدي بسيرة النبي محمد (ص)، وسيرة أمير المؤمنين (ع)، وفاطمة الزهراء والحسين (ع)، وسيرة أبيه السجاد (ع).

وفي أهل البيت (ع)، قال الشاعر:

لو كان يوجد عَرَفَ مجدِّ قبلهم	لوجدته منهم على أميال
إن جئتهم أبصرت بين بيوتهم	كرماً يقيك مواقف التسأل
نور النبوة والمكارم فيهم	متوقِّدٌ في الشيب والأطفال ⁴¹⁴

⁴¹³ الإرشاد ص 229.

وفيه قال الفرزدق (ت 110 هـ) ، وهو يقصد بالخصوص الإمام زين العابدين (ع):

إذا رأته قریش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم⁴¹⁵
يقول الشيخ المفيد (ت 413 هـ) في وصف الإمام الباقر (ع) أنه كان "ظاهر الجود في الخاصة والعامة، مشهور الكرم في الكافة، معروفاً بالفضل والإحسان، مع كثرة عياله وتوسط حاله"⁴¹⁶.

كان (ع) سخياً من طرفين:

الأول: سخيٌّ عما في يد غيره، أي أنه متورعٌ عن مال غيره، لا ينظر إلى ما في أيدي الناس. قيل أن رجلاً أقبل إليه (ع)، وقال: رحمك الله أقبض هذه الخمسمائة درهم فضعها في موضعها، فإنها زكاة مالي، فقال (ع): (بل خذها أنت فضعها في جيرانك، والأيتام، والمساكين، وفي إخوانك من المسلمين...) ⁴¹⁷.

وكان (ع) يوجّه الناس نحو التعاون والسخاء فيما بينهم، ويقول لهم: (يا فلان كيف تواسيكم؟). قالوا: صالح يا أبا جعفر! قال (ع): (أيدخل أحدكم يده في كيس أخيه فيأخذ حاجته إذا احتاج إليه؟). أجابوا: أما هذا فلا! فقال (ع): (أما لو فعلتم [ذلك] ما أحتجتم)⁴¹⁸.

⁴¹⁴ سير أعلام النبلاء - الذهبي ج 4 ص 404.

⁴¹⁵ سير أعلام النبلاء ج 4 ص 398.

⁴¹⁶ الإرشاد ص 249.

⁴¹⁷ علل الشرائع ج 1 ص 155.

⁴¹⁸ كشف الغمة ج 2 ص 121.

الثاني: سخّي عما في يده، وهو أن يكون بماله متبرعاً سخياً. قال الإمام علي بن أبي طالب (ع): (السخاء ما كان منه ابتداءً، فأما ما كان عن مسألة فحياءً وتكريم⁴¹⁹)، و(إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تُفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى)⁴²⁰، والمعنى أن الدنيا إذا أقبلت عليك بنعمها وثروتها، فأنفق في سبيل الله، فالإنفاق لا يقلل من رأس المال. وأما إذا أدبرت الدنيا عنك فأنفق ما عندك، فإن وضعك المالي لا يبقى هكذا شحيحاً، بل بفضل الإنفاق يرزقك الله من حيث لا تحتسب.

والى أمير المؤمنين (ع) يُنسب:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلةٌ فليس ينقصها التبذيرُ والسرفُ
وإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خلفُ

وكان (ع) مؤمناً بأن التعامل مع الفقير لا يتم عن طريق المال فحسب بل عن طريق الأخلاق الحسنة، وقد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...)⁴²¹. وقد عهد الإمام الباقر (ع) كما ذكرنا سابقاً إلى أهله "إذا قصدهم سائل أن لا يقولوا له: يا سائل خذ هذا، وإنما يقولون له: يا عبد الله بورك فيك⁴²²، وأوصاهم (ع) بالقول: (سمّوهم بأحسن أسمائهم)⁴²³.

⁴¹⁹ كنز العمال ج 18 ص 695.

⁴²⁰ العقد الفريد - ابن عبد ربه ج 1 ص 64.

⁴²¹ سورة البقرة: الآية 264.

⁴²² عيون الأخبار - الدنيوري ج 3 ص 208.

⁴²³ البيان والتبيين ص 158.

وكان (ع) باراً بفقراء المدينة المنورة، وقد أحصيت صدقاته عليهم فبلغت ثمانية آلاف دينار⁴²⁴ في دفعة واحدة، كما يقول الصادق (ع): (دخلتُ على أبي يوماً وهو يتصدق على فقراء أهل المدينة بثمانية آلاف دينار، وأعتق أهل بيتٍ بلغوا أحد عشر)⁴²⁵، مع أن الموارد المالية التي كانت تحت يده قليلة. فقد كان أقلَّ أهل بيته مالاً وأعظمهم مؤونة.

شواهد أخرى لكرم الإمام الباقر (ع):

وفي جوده وكرمه (ع) شواهد أخرى، منها:

الأول: منح المال لذي الحاجة والمسكنة: روى سليمان بن قرم، قائلاً: "كان أبو جعفر يجيزنا الخمسمائة درهم إلى الستمئة درهم إلى الألف، وكان لا يملّ من صلة الإخوان وقاصديه وراجيه"⁴²⁶، وكان (ع) يحبو⁴²⁷ قوماً يغشون مجلسه من المائة إلى الألف [درهم]، وكان يحب مجالستهم، منهم عمرو بن دينار، وعبد الله بن عبيد، وكان يحمل إليهم الصلة والكسوة...⁴²⁸.

الثاني: أهمية الصلة في الغنى والفقير: قال الحسن بن كثير: شكوتُ إلى أبي جعفر محمد بن علي (ع) الحاجة وجفاء الإخوان، فتأثر (ع) وقال:

⁴²⁴ شرح شافية أبي فراس ج 2 ص 176.

⁴²⁵ بحار الأنوار ج 46 ص 302.

⁴²⁶ الإرشاد ص 299.

⁴²⁷ يحبو: من حبا أي أعطى، أغدق، وهب.

⁴²⁸ عيون الأخبار وفنون الآثار ص 217. الإرشاد ص 229.

(بئس الأخ يرعاك غنياً، ويقطعك فقيراً)، ثم أمر غلامه فأخرج كيساً فيه سبعمائة درهم، وقال: (استتفق هذه فإذا نفذت فأعلمني)⁴²⁹.

الثالث: إكساء الأخوان وإطعامهم: روت مولاته سلمى فقالت: "كان يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب، ويلبسهم الثياب الحسنة، ويهب لهم الدراهم..."⁴³⁰. وكان (ع) يقول: (ما حسنت الدنيا إلا صلة الإخوان والمعارف)⁴³¹.

الرابع: السخاء فرغ من اليقين: قال (ع): (من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة)⁴³²، ونقل (ع) عن رسول الله (ص) قوله: (السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار)⁴³³، وعنه (ع) يرسله عن رسول الله (ص) أيضاً: (ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع. وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع، ينظر الله إليهم يوم القيامة)⁴³⁴.

الخامس: الكرم هو السلطة العليا: قال (ع): (من خالطت فإن استطعت أن تكون يدك العليا عليه فافعل)⁴³⁵. أي كُن صاحب المبادرة في البذل

⁴²⁹ صفة الصفوة ج 2 ص 63.

⁴³⁰ صفة الصفوة ج 2 ص 63.

⁴³¹ المصدر السابق.

⁴³² الاختصاص ص 30.

⁴³³ بحار الأنوار ج 73 ص 308.

⁴³⁴ الكافي ج 2 ص 668.

⁴³⁵ المصدر السابق.

والعطاء. فالسبق في الكرم والجود، وعدم إنتظار الرد بالمقابل من صفات أهل الدين والتقوى.

بين الجود على الناس والزهد على نفسه (ع):

ومع كرمه (ع) كان أفضل زهاد أهل زمانه، فقد أعرض عن الدنيا ولم تُعرض الدنيا عنه (ع)، ولم يتخذ الرياش⁴³⁶ في داره، وإنما كان يفرش في مجلسه حصيراً⁴³⁷.

قال (ع) لجابر بن يزيد الجعفي: (إني لمحزون، وإني لمشتغل القلب)، فيسأله: وما حزنك؟ فيقول (ع): (إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله عما سواه. ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون؟ هل هي إلا مركب ركبته؟ أو ثوب لبسته؟)⁴³⁸.

وقال (ع): (جاء رجلٌ إلى النبي (ص) فقال: يا محمد أخبرني بعمل يحبني الله عليه، قال (ص): يا أعرابي ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدي الناس تحبك الناس)⁴³⁹.

زَهْدَ الباقِر (ع) في طعامه، ينقل لنا التاريخ وجهاً من وجوه زهده في الطعام: يقول أحدهم: "دخلتُ على أبي جعفر (ع) وهو يأكل خلاً وزيتاً في قصعة ... فأمرني أن ادنو، فدنوتُ فأكلتُ معه، ثم حسا من

⁴³⁶ الرياش: أثاث البيت أو المجلس.

⁴³⁷ دعائم الإسلام ج 2 ص 158.

⁴³⁸ البداية والنهاية - ابن كثير ج 9 ص 310.

⁴³⁹ أمالي الشيخ الطوسي ج 1 ص 204.

الماء ثلاث حسيات حين لم يبق من الخبز شيء، ثم ناولني فحسوتُ
البقية»⁴⁴⁰.

فهو (ع) مع كرمه وجوده مع الناس، إلا أنه كان زاهداً في حياته،
وطعامه أبسط الطعام، وفرشه أبسط الفراش وأخشنه، وكان أخفّ الناس
مؤونةً، ولا يشغله من الدنيا إلا ذكر الله تعالى، وحسن عبادته.
تلك صفاتٌ في الكرم والجود تبني المجتمع، وتقرب قلوب الناس
إلى بعضهم البعض، فالفقير لا يتبغى بفقره، والمحروم لا يكتوي بالحرمان،
والغني يستشعر راحة الضمير. فالإنفاق مع الكرم من أفضل عوامل تماسك
المجتمع، ومنه يتشكل الإحساس بوحدة المصير الإنساني، يوم تتوجه
البشرية بفقرائها وأغنيائها نحو خالقها العظيم تاركَةً الأرض وراء ظهرها يوم
القيامة.

⁴⁴⁰ الكافي ج 2 ص 487.

الفصل الرابع

المدرسة الفقهية

بين المدرستين الفكرية والفقهية. مباني المدرسة الفقهية.
تأثير الإفتاء بالرأي. خصائص المدرسة الفقهية. المدرسة
الفقهية وأهل البيت (ع). ميزات المدرسة الفقهية
للإمام (ع). الدقة في المدرسة الفقهية.
النظام المعرفي الفقهي.

بين المدرستين الفكرية والفقهية

يَرِدُ في هذا الفصل مصطلحان هما: المدرسة الفكرية والمدرسة الفقهية، فلا مفرَّ من فهم معنييهما وتمييز الفرق بينهما. ذلك أن الفكر في حقلٍ من الحقول ينبغي أن ينتظم ضمن بناء واحد تشيِّده مجموعة مفكرين، أو ربما يشيِّده شخص واحد له مواصفات الجميع في آنٍ واحدٍ. وإذا شُيِّدت المدرسة الفكرية على أسس سليمة، فإنها ستقاوم المنعطفات والانحرافات، وستكون صخرة قوية تتكسر عليها الأباطيل، وتبقى ثابتة كالأصل.

المدرسة الفكرية: يُطلق لفظ "المدرسة الفكرية" عموماً على آراء مجموعة من العلماء أو المفكرين الذين يشتركون في فكرة متضافرة أو فلسفة معينة. فيُحسب لهم وكأنهم في صفٍ واحدٍ يطرحون آراءهم وهي تساند بعضها البعض. مثلاً هناك مفكرون يرون أن العقل وحده قادرٌ على استنباط الحقيقة من الأفكار النقية غير الملوثة بمطامع الناس! ويعتقدون بأن قانوني العلية والرياضيات قادران لوحدهما على إكتشاف الحقيقة اليقينية. وتلك آراء بعض فلاسفة أوروبا أمثال : ديكارت، وكانت، ولايبنز الذين يشكلون ما سُمي بالمدرسة الفلسفية المثالية.

وهناك مدارس فكرية عديدة في التاريخ كمدرسة الرأي في القرن الأول الهجري التي قالت بجواز التفسير بالرأي "إعتماداً على ما نقل عن النبي (ص) وأصحابه، وأن يكون [المفسر بالرأي] عارفاً بقوانين اللغة،

خبيراً بأساليبها...⁴⁴¹، ومدرسة الاعتزال التي قالت بأن العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بصورة تلقائية، بعد تأويل النصوص الشرعية!

المدرسة الفقهية: نطلق على الأوامر والنواهي والمستحبات والمكروهات والمباحات التي وردت في أحاديث الإمام الباقر (ع) بالمدرسة الفقهية. فهي مجموعة متضافرة من الأحكام الشرعية والعقائدية المنسجمة التي لا تتعارض مع بعضها البعض، حيث نقلها الإمام (ع) عن رسول الله (ص) بواسطة آبائه الطاهرين (ع).

وبمجملها تمثل نظاماً فقهياً دقيقاً محكماً، يقينياً في طبيعته، لا يعتريه شك مطلقاً. وللمدرسة الفقهية عند الإمام الباقر (ع) مباني قائمة على أساس علمي. ونقصد بالمباني الفقهية: البناء الصلب المتين لأحكام الفقه الإسلامي. والمبنى في اللغة: أسمٌ جمعه مبانٍ. والبيت المتين مبنيٌّ في أركانه بالحجارة الصلبة القوية. تعتمد مدرسة الإمام الباقر (ع) الفقهية على اليقين، والعلم القطعي، والشمولية، والإحاطة.

مباني المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر (ع)

نُمثل للمدرسة الفقهية بالبيت المحكم المؤسس على أساس المباني الواضحة القوية. فهو يحمي أفرادَه من تعديات الزمان، وتدخلات الدخلاء،

⁴⁴¹ مناهل العرفان - الزرقاني ج 2 ص 43.

ولنقل أن المدرسة الفقهية للإمام (ع) كانت البيت العلمي الذي يأوي إليه أتباع أهل البيت (ع)، فيما يخص فقه الأحكام الشرعية. ومن أساسيات تلك المدرسة:

1 - النظام العلمي: تحولت، بفضل علم الإمام (ع)، الروايات العديدة المتناثرة إلى نظام علمي في الفقه له أقسام وأبواب، وتصانيف تجمع المواضيع تحت عناوين محددة كأحكام الطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والخمس، والحج. وأصبح لعلم الفقه إصطلاحات تتعامل مع قواعد معالجة الشك، وضرورة اليقين في أداء العمل العبادي، وعدم إشتغال الذمة بعد الفراغ من أداء العمل، ونحوها.

وبفضل العطاء العلمي للإمام الباقر (ع) أيضاً تحولت وسائل المعرفة الأساسية كالسؤال والجواب، والإنكار والإمضاء، والتوضيح والإستدلال، والمناظرات إلى نظام علمي معرفي له أصول وأسس. وبعد أن أسس الإمام الباقر (ع) للمدرسة الفقهية دعى كل من كان له إحساس بالواجب الشرعي إلى التفقه في الدين، فقال: (تفقهوا في الحلال والحرام، وإلا فأنتم أعراب)⁴⁴²، و(متفقه في الدين أشد على الشيطان من عبادة ألف عابد)⁴⁴³، و(الكمال كل الكمال: التفقه في الدين،

⁴⁴² المحاسن ص 227.

⁴⁴³ بصائر الدرجات ص 7.

والصبر على النائبة، وتقدير المعيشة)⁴⁴⁴. وهذا الأساس مستتبّ من قوله تعالى: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)⁴⁴⁵.

ثم حاول (ع) إرساء نظام معرفي ديني له مشخصات واضحة،

منها:

أ - أن لكل شيء حداً: قال (ع) مخاطباً من اعتقد بالتشبيه ونحوه: (الحمد لله الذي جعل لكل شيء حداً ينتهي إليه...)⁴⁴⁶. وبهذا الحديث وضع (ع) قاعدة كلية لحدود العلم الديني في العقائد، وهذا الحد الذي يشتمل على صفاته عزوجل وأوامره ونواهيه هو الحد النهائي الذي يستطيع الإنسان الخوض فيه. وما بعد هذا الحد، فلا يجوز للإنسان مهما كان أن يتجاوزه. هنا منع الإمام (ع) الخوض في ذات الله، واقتصر على البحث في صفاته. وفي الأحكام منع الإمام (ع) إستحداث أحكام جديدة خارج القواعد الشرعية المعمول بها في الدين.

ب - الوصف والفعل: والمراد به الترجمة العملية للتكاليف الشرعية. قال (ع): (ما أكثر الوصف وأقلّ الفعل، إن أهل الفعل قليل، ألا وإنا لنعرف أهل الفعل والوصف معاً...)⁴⁴⁷.

⁴⁴⁴ الكافي ج 1 ص 32.

⁴⁴⁵ سورة التوبة: الآية 122.

⁴⁴⁶ رجال الكشي ص 191 - 192.

⁴⁴⁷ الكافي ج 8 ص 227 - 228.

هنا أراد الإمام (ع) أن يكون العلم أداة للعمل، لا لمجرد الترف الفكري. وعبر عنه بالوصف والفعل. فالدين منهج عملي للعقائد والعبادات والمعاملات. فهو ليس نظرية فكرية تعيش في أذهان الناس فقط، بل هو منهج حياة للعمل في كل يوم وليلة.

ج- حصر علوم القرآن بالأوصياء (ع): قال (ع): (ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع [علم] القرآن ظاهره وباطنه غير الأوصياء)⁴⁴⁸.
وطالما حصر الإمام (ع) علم القرآن بالأوصياء (ع)، وهم أهل بيت النبي (ص)، فقد أقصى جميع من ادعى علم تفسير القرآن الكريم وكشف أسراره. وفي ذلك مبدأ مهم وهو أن دلالات الكتاب الآلهي لا تؤخذ إلا من هؤلاء الأطهار (ع) الذين تلقوا العلم مباشرة من رسول الله (ص)، فلا ينازعهم في ذلك أي منازع.

2 - معاني الزمن: ويمثل لها بالفارق بين نور الشمس وظل الغيمة. فنحن نعلم أن الشمس إذا غابت واختفت الحمرة المشرقية مثلاً فقد حلت صلاة المغرب، وهذا ثابت لا يتغير في كل زمان ومكان. بينما ترمز الغيمة في مثالنا هنا إلى التغير فقط، فقد تمر الغيمة على سمائنا اليوم، ولكننا لا ندري هل ستمر غداً أو لا! فمن حكمة الخالق عزوجل ارتبطت الصلاة اليومية بزوال الشمس وغروبها وشروقها، ولم ترتبط بمرور الغيم من عدمه

⁴⁴⁸ الكافي ج 1 ص 228.

مثلاً. والمكف يريد أن يعرف النظام الفقهي كما يعرف دوران الأرض حول الشمس، واضحة ثابتة المعالم، لا كالغيمة التي لا يُعلم إقبالها من إدبارها! ولتوضيح دقة الوقت في الإسلام نعرض المثال التالي: سئل الإمام الباقر (ع) عن وقت الظهر؟ فقال (ع): (ذراع من زوال الشمس، ووقت العصر ذراعان من وقت الظهر)، ثم قال: (إنَّ حائط مسجد رسول الله (ص) كان قائمة، وكان إذا مضى منه ذراع [من الظل] صلى الظهر، وإذا مضى منه ذراعان صلى العصر)⁴⁴⁹.

و(كان رسول الله (ص) لا يصلي من النهار شيئاً حتى تزول الشمس، فإذا زالت صلى ثماني ركعات وهي صلاة الأوابين... فإذا فاء الفياء ذراعاً صلى الظهر أربعاً، وصلى بعد الظهر ركعتين، ثم صلى ركعتين أخراوين، ثم صلى العصر أربعاً إذا فاء الفياء ذراعاً.

ثم لا يصلي بعد العصر شيئاً حتى تَووب الشمس، فإذا آبت وهو أن تغيب صلى المغرب ثلاثاً، وبعد المغرب أربعاً. ثم لا يصلي شيئاً حتى يسقط الشفق، فإذا سقط الشفق صلى العشاء. ثم آوى رسول الله (ص) إلى فراشه ولم يصل شيئاً حتى يزول نصف الليل.

فإذا زال نصف الليل صلى ثماني ركعات، وأوتر في الربع الأخير من الليل... ويصلي ركعتي الفجر قبيل الفجر، وعنده، وبُعَيْدَه، ثم يصلي

⁴⁴⁹ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 217.

ركعتي الصبح وهو الفجر، إذا اعترض الفجر وأضاء حسناً، فهذه صلاة رسول الله (ص) التي قبضه الله عزَّوجلَّ عليها⁴⁵⁰.

نتعلم من تلك الرواية دقة الإسلام في رصد الزمن، ودقته أيضاً في وضوح أحكام دخول الوقت، ووجوب الصلاة أو استحبابها. فمحور قياس اليوم هو الشمس بطلوعها، ومغيبها، وانتصافها وقت الزوال (الظهر)، وحساب منتصف الوقت في الليل بين الغروب والشروق. ومحور قياس الشهر هو القمر بولادته واكتماله واختفائه، وأثر ذلك على الصيام، والحج، ومناسبات إسلامية أخرى.

3 - علاقات الأحكام الشرعية بعضها ببعض: أن سير الأحكام الشرعية مع بعضها البعض بالتوازي يعطينا الفرصة للإطمئنان إلى عدم حدوث تصادم فيما بينها. فلا يمكن للحكم الشرعي أن يكون واجباً ومحرمًا في نفس الوقت مثلاً. ولا يمكن أبداً أن تجتمع صلاة الفجر مع صلاة المغرب مثلاً. وهذا ما نقصده بالتوازي في الأحكام الشرعية. ولاشك أن التضاد في الأحكام ينفي وجودها، فلا تضاداً في الأحكام بل هي خطوط متوازية لا تقاطع فيها، وترتيبٌ منطقي لا يسبق فيها حكمٌ ثانوي حكماً أولياً، فلا صلاة إلا بطهور⁴⁵¹، والطهور هو الماء بالدرجة الأولى. ولكن إذا فُقد الماء كان التراب مطهراً بالدرجة الثانية. وعدة الطلاق إلى النساء، كما

⁴⁵⁰ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 227.

⁴⁵¹ المصدر السابق ج 1 ص 33.

يقول (ع)⁴⁵²، والطلاق هو إيقاعٌ من طرف واحد، في الأغلب يكون من الرجل إلا أن عدّة الطلاق تكون بيد المرأة لا الرجل.

ومثالٌ في العقيدة، في فكرة الجبر، قال (ع): (أن الله أرحمُ بخلقه من أن يحبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها، واللهُ أَعزُّ من أن يريد أمراً فلا يكون)⁴⁵³. والمعنى أن من قال بفكرة الجبر جعل الأحكام الدينية تتصادم مع بعضها البعض، بمعنى أن فكرة جبر الإنسان على العمل من قبل الله تعالى تصطدم بفكرة العقاب عليه، وحاشا لله أن يفعل ذلك.

فلا يمكن أن يكون الجبر الألهي على الإنسان متلازماً مع العقاب الألهي. بل أن العلاقة الصحيحة هو أن الله تعالى أعطى الإنسان الإختيار في فعل الخير أو الشر، وحذره من أن هناك ثواباً أو عقاباً على فعله. وهذا هو الترتيب المنطقي: اختيارٌ على الفعل في المرحلة الأولى، ثم حسابٌ عليه في المرحلة الثانية.

تلك أحكام شرعية مترابطة بعضها ببعض، ولا تقبل إنفكاً ولا تفكياً، إن كانت في الأحوال الشخصية (الطلاق والزواج)، أو كانت في العقائد. وهذا التوازي وعدم التقاطع من أعظم صفات الأوامر والنواهي في الإسلام.

⁴⁵² تهذيب الأحكام ج 1 ص 398.

⁴⁵³ الكافي ج 1 ص 159.

4 - فكرة الأحكام الشرعية بالوصف والإستدلال: طرح الإمام الباقر (ع) الأحكام الشرعية بطريقة وصفية واضحة، مُرجعاً العلم إلى مصادره الأولية. فهو (ع) لم يتوقف عند حد إعطاء الحكم الشرعي فحسب، بل تعدى إلى كشف طريقة الإستدلال عليه أيضاً.

وفي ذلك ما ورد عن زرارة قال قلت للإمام الباقر (ع): ألا تخبرني من أين علمت وقلت: أن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ قال: يا زرارة قاله رسول الله (ص) ونزل به الكتاب من الله، لأنّ الله عزّوجلّ يقول: (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...) ⁴⁵⁴ فعرفنا أن الوجه كله ينبغي أن يُغسل ثم قال: (وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ...)، ثم فَصَلَ بين الكلام، فقال: (وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ...) فعرفنا حين قال (بِرُءُوسِكُمْ) أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه، فقال: (... وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) فعرفنا حين وصلها بالرأس أن المسح على بعضها.

ثم فسّر ذلك رسول الله (ص) للناس فضيعوه، ثم قال: (... فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ...) ⁴⁵⁵، فلما وضع الوضوء، إن لم تجدوا الماء، أثبت بعض الغسل مسحاً لأنه قال: (بِوُجُوهِكُمْ) ثم وصل بها (وَأَيْدِيكُمْ) ثم قال (مِنْهُ) أي من ذلك التيمم، لأنه عَلِمَ أن ذلك أجمع لم يجر على الوجه لأنه يعلق من ذلك الصعيد ببعض الكف ولا يعلق ببعضها، ثم قال: (... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ

⁴⁵⁴ سورة المائدة: الآية 6.

⁴⁵⁵ سورة المائدة: الآية 6.

حَرَجَ...⁴⁵⁶ والحرَج الضيق)⁴⁵⁷. والرواية توحى بأن الإمام (ع) أراد تعليم أصحابه أو تلامذته على طريقة الفهم والإستدلال.

5 - محاربة الشك في العبادة والإعتقاد: والشك إما أن يكون في العبادة أي في طريقة الوضوء أو الصلاة ونحوها، أو أن يكون في العقيدة. ومن الطبيعي، فالشك يعدُّ من أهم عوائق الفكر الديني إن كان في المعتقد أو كان في التعبد، ذلك لأن عدم اليقين يزعزع الطمأنينة القلبية والعقلية التي أكد عليها الإسلام في أغلب المسائل الفقهية والإعتقادية. وطالما كان الشك يعمل في المساحة المخصصة لعقل الإنسان، أضحى الدليل العقلي السلاح الفعّال لمحاربته والتخلص منه. ومن مصاديق محاربة الشك في العمل العبادي:

أ - الشك في تأدية العبادة: ومنها الشك في طريقة الوضوء، أو الغسل، أو الصلاة ونحوها. وفي ذلك روايات:

الأول: (في الشك مطلقاً) قال الإمام الباقر (ع): (إذا كنتَ قاعداً على وضوء، ولم تدرِ أغسلتَ ذراعك أم لا، فأعدْ عليها وعلى جميع ما شككتَ فيه أنك لم تغسله أو تمسحه مما سمى الله ما دمتَ في حال الوضوء.

⁴⁵⁶ سورة المائدة: الآية 6.

⁴⁵⁷ الكافي ج 3 ص 30.

فإذا قمتَ من الوضوء وفرغتَ فقد صرتَ في حال أخرى، في صلاةٍ أو غير صلاة، فشككتَ في بعض ما سمى الله مما أوجب الله تعالى عليك فيه وضوءاً، فلا شيء عليك...⁴⁵⁸.

وتبسيط ذلك أن الشك خلال وقت العبادة يقتضي الإعادة. أما إذا خرج الوقت وشك الإنسان في عبادةٍ مضى وقتها، فليس عليه إعادتها. الثاني: (في اليقين) قال (ع): (تابع بين الوضوء كما قال الله عزوجلّ إبدأ بالوجه ثم باليدين ثم امسح الرأس والرجلين ولا تقدمنَّ شيئاً بين يدي شيء تخالف ما أمرت به، وإن غسلت الذراع قبل الوجه فإبدأ بالوجه وأعد على الذراع، وإن مسحت الرجل قبل الرأس فامسح على الرأس قبل الرجل، ثم أعد على الرجل، إبدأ بما بدأ الله به)⁴⁵⁹.

هنا ينبغي اليقين في ترتيب العمل العبادي، وهو الوضوء في هذه الحالة، بالطريقة الترتيبية التي أمرنا بها الشرع. نبدأ بغسل الوجه ثم اليدين، ثم مسح الرأس والقدمين. وأي اختلال في أداء تلك الطريقة ينبغي أن يُصحح حتى نحرز اليقين في أداء العمل الصحيح.

ب - الشك بعد الإنتهاء من العبادة: والخروج من وقت العبادة هو خروج من الشك، فإن الشك وقت أداء العمل العبادي له حكم، وللشك بعد إنتهاء

⁴⁵⁸ الكافي ج 3 ص 33.

⁴⁵⁹ الكافي ج 3 ص 34.

زمن العمل العبادي حكمٌ آخر. بمعنى أن الشك حالة زمنية طارئة تحدث على الإنسان وقت أدائه العمل، فعليه أن يعالج مشكلة الشك حينئذٍ. قال (ع): (من شكَّ في وضوئه بعد فراغه، فلا شكَّ عليه)⁴⁶⁰. وقد ذكرنا هذا النوع من الشك، وهو الشك بعد انتهاء وقت العبادة، فلا شيء عليه.

وينطبق هذا الأمر على الشك بعد إنتهاء الصلاة، فلا قيمة لشكه حينئذٍ، وما قاله (ع) في الشك بعد خروج وقت الصلاة، هو: (متى ما استيقنت أو شككت في وقت صلاة إنك لم تصلها، أو في وقت فوتها صلّيتها، فإن شككت بعدما خرج وقت الفوت فقد دخل حائلٌ، فلا إعادة عليك من شكٍ حتى تستيقن، فإن استيقنت [بعدم الصلاة] فعليك إعادة أن تصلّيها في أي حالٍ كنت)⁴⁶¹.

ج- اليقين من دخول وقت العبادة: وهو الإطمئنان من دخول وقت الصلاة في تأديتها، قال (ع): (لأن أصلي بعدما يمضي الوقت أحبُّ إليّ من أن أصلي وأنا في شكٍ من الوقت وقبل الوقت)⁴⁶². هنا ينبغي، كما يقول الإمام (ع)، ملاحظة اليقين في دخول وقت الصلاة، وإلا فإن عدم اليقين بدخول الوقت، يُبطل ذلك العمل العبادي.

⁴⁶⁰ الأشعثيات - إسماعيل بن موسى ص 20.

⁴⁶¹ تهذيب الأحكام ج 2 ص 276.

⁴⁶² من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 223.

تأثير الإفتاء بالرأي

لو فتشنا عن جذور عدم اليقين في العقائد، أو في الأحكام لرأينا أن الإفتاء بالرأي الشخصي لعب دوراً في ذلك. وطالما كان الإفتاء بالرأي هو إفتاءً بعدم يقين، أو بخطأ في المقدمات، إزدادت نسبة الشك في ذلك الحكم المستند على الرأي. والرأي الشخصي على كل حال هو إنزال أحكام الدين السماوي إلى مستوى الرأي البشري دون الرجوع إلى الأصول التي شرعها الله تعالى. وكأن الدين يتحول من رسالة سماوية إلى رسالة وضعية.

وضع الإمام الباقر (ع) أسساً موضوعيةً لمعالجة تلك المشكلة، ندرسها في النقاط التالية:

1 - تحريم فكرة الرأي في إصدار الأحكام: أي حرمة إفتاء الناس بكل ما تعلق بأحكام الإسلام، أو الوقوف فيما لا يعلمون من دين الله تعالى. قال الراغب الأصفهاني (ت 450 هـ): "والرأي: اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة الظن"⁴⁶³، وقال ابن القيم الجوزية (ت 751 هـ): "وحيقيقته ما يراه القلب بعد فِكر وتأمل، وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات، فلا يُقال في الأمر الذي لا تختلف فيه العقول، ولا تتعارض فيه الأمارات: إنه رأي"⁴⁶⁴.

⁴⁶³ مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الاصفهاني ص 209.

⁴⁶⁴ إعلام الموقعين - ابن قيم الجوزية ج 1 ص 66.

لكن الإمام الباقر (ع) كان قد أدان الإفتاء بالرأي، مهما كان مصدره، لأنه يعدُّ تحدياً صريحاً لحكم الله تعالى، فقال: (من أفتى الناس برأيه فقد دانَ الله بما لا يعلم، ومن دانَ الله بما لا يعلم فقد ضادَّ الله حيثُ أحلَّ وحرّمَ فيما لا يعلم)⁴⁶⁵، وعندما سُئِلَ (ع): ما حق الله على العباد؟ قال (ع): (أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون)⁴⁶⁶، و(مَنْ أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ولحقه ووزر من عمل بفتياه)⁴⁶⁷.

ولاشك أن الإطمئنان إلى المصدر الصحيح هو الذي يؤدي بالإنسان إلى القطع واليقين. وطالما أمانا بأنهم هم الصادقون الذين نطمئن لقطعية أقوالهم (ع)، جنّبنا ذلك الإطمئنان الشك في أقوالهم (ع) في قضايا الأحكام والعقائد.

2 - التشديد على فكرة القطع أو اليقين في فهم الدين وما يتبعه من أحكام شرعية وعقائد. وقد تمّ ذلك عبر:

أ - تأكيد الإمام (ع) بأن ما ينقله لهم مرسلأ هو عن أبيه (ع)، عن جده (ع)، عن رسول الله (ص)، وهذا يورث القطع بصحة المتن والإسناد. روي عنه (ع) أنه سُئِلَ عن الحديث ترسله ولا تسنده، فقال: (إذا حدّثُ الحديث

⁴⁶⁵ الكافي ج 1 ص 57.

⁴⁶⁶ الكافي ج 1 ص 23. وأمالى الشيخ الصدوق ص 252.

⁴⁶⁷ الكافي ج 1 ص 42.

فلم أسنده فسندي فيه أبي، عن جدي، عن أبيه، عن جده رسول الله (ص) عن جبرئيل، عن الله عزوجل⁴⁶⁸.

ب - تأكيد النبي (ص) نفسه على دور الإمام محمد بن علي الباقر (ع) في بقر العلم، ونشره بين الناس. وقد ذكرنا حديث جابر بن عبد الله الأنصاري عن تنبؤ رسول الله (ص) في الباقر (ع).

ج - تأكيد فكرة الإمامة بمعناها الشرعي التي تقتضي وجود حيثيات العلم والتقوى في الإمام (ع). أي لابد للإمام (ع) أن يكون معصوماً عن الجهل، وأن يكون أتقى الناس في زمانه. وهذا يورث في حد ذاته الإطمئنان واليقين.

3- تشخيص القائلين بالرأي: وبعد أن بين الإمام الباقر (ع) أن أهل البيت (ع) لا يصدرن أحكاماً دينيةً من عندهم، قال: (لو أننا حدثنا برأينا ضللنا كما ضلَّ من كان قبلنا، ولكنَّا حدثنا ببينةٍ من ربنا بيَّنها لنبيه (ص) فبيَّنها لنا)⁴⁶⁹.

هذا في الوقت الذي أدان (ع) فيه، وبلغه صريحة من قال بالرأي الشخصي أمثال الحسن البصري⁴⁷⁰، وقتادة بن دعامة البصري⁴⁷¹، ومحمد بن المنكدر، وعمرو بن عبيد، وغيرهم.

⁴⁶⁸ الإرشاد ص 257.

⁴⁶⁹ إعلام الوری - الطبرسي ص 264 - 265.

⁴⁷⁰ الإحتجاج ج 2 ص 184.

⁴⁷¹ بحار الأنوار ج 46 ص 357.

خصائص المدرسة الفقهية

يعبّر النظام الفقهي عن نظامٍ أعظم وهو النظام الكوني، ودقة نظام الوجود. فالله سبحانه وتعالى جعل الحياة مبنيةً على النظام، والدقة بما فيها الحياة الفقهية والحقوقية.

وما يدعو إليه الإسلام هو أحكامٌ وعقائدٌ مبنيةٌ على نظامٍ علميٍّ يطمئن له القلب والعقل، حتى يُعبد الله بعلمٍ ويقينٍ، وخشوعٍ وخضوعٍ. وتلك قضية أساسية، ولذلك كان تركيز الإمام الباقر (ع) على الإمامة الشرعية، وحثّ المسلمين على الإلتزام بها إلتزاماً حرفياً، لأن الإنسان يحقق بها الهدف من وجوده في الحياة.

ولا يمكن للمدرسة أن تعطي ثمارها ما لم تتسلح بخصائص واضحة تجذب العقل، وتهذب الروح، وتدفع الإنسان نحو العبادة بقلبٍ مطمئنٍ. ومن تلك الخصائص في مدرسة الإمام (ع) الفقهية:

1 - ترتيب العلة: وهو أن يسير التعليل على خطٍ ترتيبيٍّ ضمن إطار الفكرة الشرعية، فإذا كان هناك تراحمٌ بين الإستحباب والوجوب مثلاً، يُقدّم الوجوب على الإستحباب. وإذا دخلت السنّة في الفريضة، فُدمت الفريضة على السنّة. فإن الأصل وهو الوجوب لا يتأثر بالفرع وهو الإستحباب، كما نلاحظ في الأمثلة التالية:

سُئل الإمام (ع) عن الرجل يتزين قبل الوضوء بأخذ الظفر وقص الشعر قليلاً، هل ينقض ذلك الوضوء؟ فقال: (يا زرارة كلّ هذا سنّة والوضوء فريضة، وليس شيء من السنّة ينقض الفريضة، وإنّ ذلك ليزيده

تطهيراً⁴⁷². وسئل (ع) عن رجل نسي الأذان والإقامة حتى دخل في الصلاة، قال: (فليمض في صلاته فإنما الأذان سنّة)⁴⁷³. وفي الثالثة سئل عن جلد الميتة يلبس في الصلاة إذا دُبغ؟ فقال: (لا وإن دُبغ سبعين مرة)⁴⁷⁴.

فتلك الأمثلة تبين لنا أن هناك ترتيباً منطقياً لقواعد العلل الدينية، فالمستحب لا ينقض الواجب، ولا السنّة المستحبة تنقض الفريضة، والميتة نجسة لا يطهرها علاج إلا الإستحالة إلى شيء آخر، والدباغة ليست من الإستحالة. ومع أن الإمام (ع) يعطي الحكم الشرعي في هذه الأمثلة، إلا أنه يوضح التعليل ويضعه في ترتيبه المنطقي.

2 - ميزان الحكم على الأشياء: نحن نحكم على صحة الأشياء من خلال الإطمئنان إلى دقة مصادرها. والأحكام توضع أمام الناس بميزانها الشرعي الصحيح، حيث يتميز الواجب واقعاً عن المتوهم أو ما يصطلح عليه بالبدعة، وتتميز التعابير الشرعية الدقيقة عن غيرها لغوياً، وفي ذلك أمثلة: قال (ع): (الوضوء بعد الغسل بدعة)⁴⁷⁵. في هذا المثال يقطع الإمام الباقر (ع) بعدم صحة وجوب الوضوء بعد غسل الجنابة، فهو لم

⁴⁷² من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 63.

⁴⁷³ تهذيب الأحكام ج 2 ص 285

⁴⁷⁴ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 247.

⁴⁷⁵ تهذيب الأحكام ج 1 ص 140.

ينفِ صحة الحكم فحسب، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك واعتبره (ع) حكماً دخيلاً على الدين.

سُئِلَ عن الصلاة في السفر: كيف هي؟ وكم هي؟ فقال: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: (وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...)⁴⁷⁶، فصَارَ التَّقْصِيرُ فِي السَّفَرِ وَاجِباً كَوَجُوبِ التَّمَامِ فِي الْحَضَرِ). فقيل له: إنما قال الله عزَّوجلَّ (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) ولم يقل: افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟

فقال (ع): أو ليس قد قال الله عزَّوجلَّ في الصفا والمروة: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...)⁴⁷⁷، ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض، لأن الله عزَّوجلَّ ذكره في كتابه وصنعه نبيه (ص)، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي (ص) وذكره الله تعالى في كتابه)⁴⁷⁸.

مثال آخر سئل الإمام الباقر (ع): كيف صارت عِدَّةُ الْمَطْلُوقَةِ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ أَوْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَصَارَتْ عِدَّةُ الْمَتَوَفَى عَنْهَا زَوْجِهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا؟ فقال (ع): (أما عِدَّةُ الْمَطْلُوقَةِ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، فَلِأَجْلِ إِسْتِبْرَاءِ الرَّحْمِ مِنَ الْوَلَدِ. وَإِذَا عِدَّةُ الْمَتَوَفَى عَنْهَا زَوْجِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَطَ لِلنِّسَاءِ شَرْطاً، وَشَرَطَ عَلَيْهِنَ شَرْطاً، فَلَمْ يَجْرِ فِيهَا شَرْطاً لِهِنَّ، وَلَمْ يَجْرِ فِيهَا شَرْطاً عَلَيْهِنَ).

⁴⁷⁶ سورة النساء: الآية 101.

⁴⁷⁷ سورة البقرة: الآية 158.

⁴⁷⁸ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 434.

أما ما شرط لهنّ ففي الإيلاء أربعة أشهر، إذ يقول: (اللَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ...) ⁴⁷⁹، فلن يجوز لأحد أكثر من أربعة أشهر من الإيلاء لعلمه تبارك وتعالى إنها غاية صبر المرأة من الرجل، وأما ما شرط عليهن فإنه أمرها أن تعتدّ إذا مات زوجها أربعة أشهر وعشراً، فأخذ له منها عند موته ما أخذ لها منه في حياته ⁴⁸⁰.

هنا يشرح الإمام (ع) الفرق بين عدّة المطلقّة وعدّة المتوفى عنها زوجها، ويربطه بميزان دقيق عادل بين الرجل والمرأة. والإيلاء هو حلف الزوج بالله تعالى على ترك وطئ زوجته أربعة أشهر أو أكثر. فإن رجع وفاء قبل مرور الأربعة أشهر حنث في يمينه وعليه كفارة يمين. فإن أصرّ على تركها يمهل أربعة أشهر ويرجع لها ويكفر عن يمينه، وإلا يطلقها رفعا للضرر عليها.

3 - فهم المعاني: حيث تشترك المصطلحات الفقهية مع المصطلحات اللغوية في معانٍ معينة، وقد تختلف معها أحيانا أخرى. فالكعب مثلاً نموذج في الإختلاف بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي. في هذه الحالة لا بد لنا من فهم المعنى الشرعي، لأن به معرفة التكليف من وجوب أو حرمة.

⁴⁷⁹ سورة البقرة: الآية 226.

⁴⁸⁰ تفسير العياشي ج 1 ص 122.

قال الشريف المرتضى (ت 436 هـ): "والكعبان هما العظام
النائتان في ظهر القدم عند معقد الشراك"⁴⁸¹، وأشار الأصمعي (ت 216
هـ) إلى أن الكعب "عظم مستدير تحت عظم الساق حيث مفصل الساق
والقدم"⁴⁸²، وهو قول فقهاء آل البيت (ع). بينما يختلف المعنى اللغوي عن
ذلك، حيث قال اللغويون: "الكعب هو العظم الناتئ عند ملتقى الساق
والقدم، وفي كل قدم كعبان عن يمينها وعن يسرتها، والعامّة تسمي العقب
كعباً"⁴⁸³. و"أنكر الأصمعي قول الناس أن الكعب في ظهر القدم"⁴⁸⁴.
عندما سُئل عن الكعبين؟ قال الإمام الباقر (ع): (ههنا، يعني
المفصل دون عظم الساق... هذا من عظم الساق، والكعب أسفل من
ذلك)⁴⁸⁵.

وفي فقه الوضوء أيضاً نحتاج إلى فهم حدود الوجه، واليدين،
والمرفقين، وحدود الذراع، كما نلاحظ عندما سُئل عن وضوء رسول الله
(ص) فشرح: (... ليس للمرء أن يدع شيئاً من وجهه إلاّ غسله، وأمر
بغسل اليدين إلى المرفقين، فليس له أن يدع شيئاً من يديه إلى المرفقين إلاّ
غسله لأنّ الله يقول: (... فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ)⁴⁸⁶ ثم قال:

⁴⁸¹ الإنتصار - الشريف المرتضى ص 115.

⁴⁸² مراعاة المفاتيح - المباركفوري ج 3 ص 335.

⁴⁸³ المعجم الوسيط - مادة (كعب). وتاج العروس ج 1 ص 456.

⁴⁸⁴ المعجم الوسيط - مادة (كعب).

⁴⁸⁵ الكافي ج 3 ص 25.

⁴⁸⁶ سورة المائدة: الآية 6.

(... وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبِينَ)⁴⁸⁷ فإذا مسح شيئاً من رأسه أو بشيء من قدميه ما بين الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزأه)⁴⁸⁸.

4 - أصالة مصدر المعلومة الفقهية: لا بد من الإطمئنان إلى مصدر الحكم الشرعي. وكان الإمام (ع) في زمانه نهاية العلم في تصحيح ما أُفتري على رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) من أفكار غريبة، وما أختلط على الناس من ناسخٍ ومنسوخٍ. وكان يعطي في كل واقعة أو رد تحليلاً وافياً شافياً. وفي ذلك شواهد:

ففي كيفية اختلاف أصحاب النبي (ص) في المسح على الخفين، قال: (كان الرجل منهم يسمع من النبي (ص) الحديث فيغيب عن الناسخ ولا يعرفه، فإذا أنكر ما يخالف في يديه كبير عليه تركه، وقد كان الشيء ينزل على رسول الله (ص) فيعمل به زماناً، ثم يؤمر بغيره فيأمر به أصحابه وأمته، حتى قال أناس: يا رسول الله (ص) إنك تأمرنا بالشيء حتى إذا اعتدناه وجرينا عليه أمرتنا بغيره، فسكت النبي (ص) عنهم فأنزل الله عليه: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)^{489/490}.

⁴⁸⁷ سورة المائدة: الآية 6.

⁴⁸⁸ الكافي ج 3 ص 25.

⁴⁸⁹ سورة الأحقاف: الآية 9.

⁴⁹⁰ المحاسن ص 299.

وقيل للباقر (ع): إنّ أهل الكوفة يروون عن علي (ع) أنه كان يأمر بالوضوء قبل الغسل من الجنابة، قال (ع): (كذبوا على عليّ (ع)، قال الله تعالى: (... وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ...)⁽⁴⁹¹⁾⁴⁹². وفيما سُئِلَ أن حيواناً قارضاً وقع في خابية فيها سمن أو زيت فقال (ع) للسائل: (لا تأكله). فقال له الرجل: ذلك الحيوان الميت أهون عليّ من أن أترك طعامي من أجلها! فقال الإمام (ع): إنك لم تستخف به، وإنما استخففت بدينك. إنّ الله حرّم الميتة من كل شيء⁴⁹³.

5 - الصراحة في العلم الديني: تطرح شتى المواضيع العامة والخاصة، تحت عنوان شامل وهو: لا حياء في تعلم المسائل الشرعية. فهو يتحدث عن آداب الخلاء، والنظافة الشخصية، والتطهير من النجاسة، والعلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، ونحوها. ومن ذلك: قوله (ع) فيما ينقض الوضوء: (ما خرج من طرفيك الأسفلين الذكر والدبر من غائط، أو بول، أو مني، أو ریح، والنوم حتى يذهب العقل. ولا ينقض الوضوء ما سوى ذلك من القيء، والقلس⁴⁹⁴، والرعا⁴⁹⁵، والحجامة، والدمامل، والجروح، والقروح...)⁴⁹⁶.

⁴⁹¹ سورة المائدة: الآية 6.

⁴⁹² تهذيب الأحكام ج 1 ص 139.

⁴⁹³ تهذيب الأحكام ج 1 ص 369.

⁴⁹⁴ القلس: القيء.

⁴⁹⁵ الرعا⁴⁹⁵: الدم يخرج من الأنف.

ونقل حديثاً عن أمير المؤمنين علي (ع) أنه قال في شخص
اختلى بزوجته: (إذا التقى الختانان فقد وجب عليه الغسل...) ⁴⁹⁷.
فالصراحة في العلم الديني هي أقرب الطرق لتوصيل المعنى
الحقيقي إلى الإنسان المأمور بفعل الواجبات، وترك المحرمات. فاللغة
المجازية هنا لا تتماشى مع وضوح الأوامر والنواهي، خصوصاً وأن الدين
قد نزل بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ.

المدرسة الفقهية وأهل البيت (ع)

كيف نستطيع أن نفهم الأحكام الفقهية، ونطمئن إلى صحة أداء
عباداتنا ومعاملاتنا؟ وكيف نفترض أن الجواب على أسئلتنا يكون صائباً،
خصوصاً إذا وردنا الجواب من أفراد لا نعلم درجة علمهم؟ جاء الجواب من
رسول الله (ص) عندما أوصى برموز علمية تعرف الله تعالى، وتعلم
رسالته، قاموا بأداء كل واجبٍ ولم يرتكبوا محرماً في حياتهم، أسماهم (ص)
بأهل البيت (ع). فأمرنا بالأخذ منهم. لكن أئمة أهل البيت (ع) واجهوا
مشاكل كثيرة من قبل الناس، أقلها مشكلة الجهل بمقامهم، والتزوير
لأحاديثهم، والقول بشأنهم من غلو، أو كراهية، أو عداوةٍ ونحوها.
وأهم مشكلة واجهها الإمام الباقر (ع) في المجتمع الإسلامي في
القرن الثاني الهجري هي مشكلة الجهل العام بالأحكام الفقهية الذي ساد

⁴⁹⁶ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 61.

⁴⁹⁷ تهذيب الأحكام ج 1 ص 122.

المجتمع بسبب إنهماك السلاطين بتثبيت حكمهم وإشباع ملاذاتهم، وعدم الإكتراث بتعليم الناس، إلى درجة أن ابن عباس (ت 68 هـ) "خطب في آخر شهر رمضان على منبر البصرة، فقال: أخرجوا صدقة صومكم. فكان الناس لا يعلمون معنى صدقة الفطر. فقال: مَنْ هنا مِنْ أهل المدينة؟ قوموا إلى إخوانكم فعلموهم، فإنهم لا يعلمون مِنْ زكاة الفطرة الواجبة شيئاً" 498.

وكانت الناس قبل زمن الباقر (ع) قليلوا العلم بمناسك حجهم، وأحكام عباداتهم، حتى جاء زمنه (ع) فبيّن لهم مناسك حجهم، وحلالهم، وحرامهم.

أئمة أهل البيت (ع) والمسلمون:

هناك أربعة أسئلة ينبغي الإجابة عليها قبل الدخول في طبيعة الأحكام الشرعية، وهي: من هم أئمة أهل البيت (ع)؟ ومن نحن الذين أمرنا الله تعالى بإتباعهم (ع)؟ وما هي طبيعة التكاليف المنوطة بالقادرين على إدائها؟ وما هي طبيعة المكلفين الذين وجب عليهم الأخذ بها؟ يجيب أهل البيت (ع) على الأسئلة الأربعة الأساسية التي تهّم كل مسلم، ومعظم الأجوبة وردت عن الإمام الباقر (ع)، كما يلي:

498 مرعاة المفاتيح ج 6 ص 203.

1 - من هم أئمة أهل البيت (ع)؟

قال الإمام (ع): (... نحن أهل بيت الرحمة، وشجرة النبوة، ومعدن الحكمة، وموضع الملائكة، ومهبط الوحي)⁴⁹⁹، و(نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض)⁵⁰⁰، (إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالاً)⁵⁰¹.

عرّف الإمام الباقر (ع) أهل بيت النبي محمد (ص)، وأعطاهم خمس صفات أساسية لا توجد في غيرهم، وهي:

أولاً: هم أهل بيت واحدٍ يجمعهم التوحيد، ويربطهم العلم الالهي، اتصلوا نسباً بالنبي (ص)، يرحمُ الله بهم العباد، على رأسهم رسول الله محمد (ص)، وآخرهم مهدي هذه الأمة صاحب الزمان (ع).

ثانياً: هم من شجرةٍ واحدةٍ وهي شجرة النبوة، فكما أن الشجرة بساقها، وفروعها، وأغصانها، وجذورها مكوّنٌ واحدٌ، فهم في التقوى ومعرفة الله تعالى بالعلم كالشجرة الواحدة، يجري فيهم غذاء العلم كما يجري الماء في أجزاء الشجرة الواحدة.

⁴⁹⁹ الإرشاد ص 284.

⁵⁰⁰ الكافي ج 1 ص 192.

⁵⁰¹ الكافي ج 1 ص 180.

ثالثاً: هم معدن الحكمة، أي أصل الحكمة. والمعدن: هو مكان كل شيء فيه أصله ومركزه، وهو موضع استخراج الجواهر من ذهب وغيره.

رابعاً: كان بيتهم محطةً لملائكة الرحمن. لا نعرف كثيراً عن تفاصيل ذلك، لكننا نعرف أن للملائكة القدرة على التلبس بلباس الإنسان، حيث أنهم جاءوا إلى إبراهيم (ع) على هيئة رجالٍ من الأنس. قال تعالى على لسان إبراهيم (ع): (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ)⁵⁰²، فالملائكة منزهون عن الأكل والشرب، لكنهم لهم القدرة على الوصول إلى الإنسان.

خامساً: مهبط الوحي، حيث كان جبرئيل ينزل إلى الأرض في بيوتهم ليبلغ رسول الله (ص) الوحي. ثم يضيف (ع) في الحديث الثاني ثلاثة صفات مهمة أخرى، وهي:

سادساً: أنهم خزّان علم الله، وعلى الخازن أن يكون أميناً على ما أوتمن فيه من علم. فهم الأمناء على ذلك العلم الألهي المكنون فيهم، ولعلك تلمس أيها الكريم في ثنايا هذا الكتاب جزءاً من العلم المكنون في كل واحدٍ منهم (ع).

سابعاً: أنهم يفسرون القرآن، ويشرحون معاني الدين بصورة لا يستطيع فيها غيرهم أن يفسره أو أن يشرحه.

⁵⁰² سورة هود: الآية 70.

ثامناً: هم الحجة البالغة على جميع البشر، فعن طريقهم يُعلم الحلال من الحرام، وعن طريق حفظهم لكتاب الله تعالى حُفظ القرآن الكريم من كل يدٍ أرادت إنزال الأذى به.

وإذا جُمعت تلك الصفات الثمانية، فسوف تنتهي إلى أن معرفة الله تعالى، وفهم أسلوب عبادته عملياً يتم عن طريق هؤلاء الأَطهار (ع). ولا يبيطُ الإمام (ع) عندما يسأله السائل عن معرفة الله تعالى؟ أن يجيبه بالقول: (تصديق الله عزّوجلّ، وتصديق رسوله (ص)، وموالاته علي (ع)، والإلتئام به، وبأئمة الهدى (ع)، والبراءة إلى الله عزّوجلّ من عدوّهم. هكذا يُعرف الله عزّوجلّ)⁵⁰³.

وعندما استفهم السائل: لأي شيء يُحتاج إلى النبي (ص)؟ قال (ع): (لبقاء العالم على صلاحه، ذلك أن الله عزّوجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام، قال الله عزّوجلّ: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...)⁵⁰⁴، وقال النبي (ص): النجوم أمانٌ لأهل السماء، وأهل بيتي أمانٌ لأهل الأرض. فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون. يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عزّوجلّ طاعتهم بطاعته، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...)⁵⁰⁵، وهم

⁵⁰³ الكافي ج 1 ص 180.

⁵⁰⁴ سورة الأنفال: الآية 33.

⁵⁰⁵ سورة النساء: الآية 59.

المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون، ولا يعصون، وهم المؤيدون الموفقون المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر بلاده، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم يُخرج بركات الأرض، وبهم يُمهّل أهل المعاصي، ولا يُعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، لا يفارقهم روح القدس ولا يفارقونه، ولا يفارقون القرآن ولا يفارقهم، صلوات الله عليهم أجمعين⁵⁰⁶.

وفحوى الحديث هنا هو أن أهل بيت النبي (ص) هم أمانٌ لأهل الأرض، كما أن النجوم أمانٌ لأهل السماء. ونحن لا نعلم تفصيلاً فيمن يسكن السماء ومن يعيش عليها، لكننا نعلمُ ظاهراً من يسكن الأرض ومن يعيش عليها. كيف ارتقى أهل البيت (ع) إلى تلك الدرجة العظيمة؟

لقد ارتقوا لأنهم أتقياء، مطهرون، لا يذنبون، ولا يعصون الله طرفة عينٍ أبداً، وبسبب طاعتهم المطلقة وتقواهم يستجيب الله لهم بكل ما سألوه من إنزال المطر من السماء، وإخراج بركات الأرض وخيراتها، وبهم يعطي الله العصاة فرصة ثانية للتكفير عن ذنوبهم، لأن هؤلاء الأطهار (ع) ينظرون للناس من منظار الرحمة، ويتمنون على العصاة أن يتوبوا حتى ينعموا بمغفرة الله ورضوانه.

قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...) ⁵⁰⁷، فإذا كان تعالى يستجيب للمؤمنين إذا دعوه، كان الأولى أن يستجيب سبحانه دعاء هؤلاء الأطهار (ع) بحق من أذنب وعصى.

⁵⁰⁶ علل الشرائع ج 1 ص 338.

⁵⁰⁷ سورة غافر: الآية 60.

العلمُ الشامل لأهل البيت (ع):

وعندما سُئل (ع): إذا مضى عالمكم أهل البيت بأي شيء يُعرف الذي يجيء من بعده؟ قال (ع): (بالهداية، والإطراق، وإقرار آل محمد (ص) بالفضل، ولا يُسأل عن شيء مما بين دفتين إلا أجاب عنه)⁵⁰⁸.
في هذا الحديث أعطى الإمام الباقر (ع) أعظم صفات أهل البيت (ع)، ولخصها بأربع، وهي: الهداية: حيث ينشرون هدى الله وإنما حلّوا. والإطراق: وهو الحياء والتعفف، وعدم النظر إلى ما في أيدي الناس. والإقرار: وهو الاعتراف لمحمد (ص) وآله بالفضل والمنزلة. والعلم الشامل: فهم محيطون بعلم شاملٍ لشؤون رسالته تعالى، خصوصاً علم القرآن الكريم وتفسيره.

وقال (ع): (أيها الناس إنّ أهل بيت نبيكم شرفهم الله بكرامته، واستحفظهم لسره، واستودعهم علمه، فهم عماد دينه، شهداء علمه، برأهم الله قبل خلقه، وأظلم تحت عرشه، واصطفاهم فجعلهم علّم عباده، ودلّهم على صراطه، فهم الأئمة المهديّة، والقادة البررة، والأمة الوسطى، عصمة لمن لجأ اليهم، ونجاة لمن اعتمد عليهم)⁵⁰⁹.

خاطب الإمام الباقر (ع) الناس بفكرة مفادها أن أهل بيت النبي (ع) قد رفعهم الله تعالى بثلاث خصال، هي: كرامة الله التي شرفهم بها، وسره الذي جعلهم يحفظونه، والعلم الذي أودعه عندهم. والكرامة، والسره،

⁵⁰⁸ بصائر الدرجات ص 489.

⁵⁰⁹ بشارة المصطفى - عماد الدين الطبري ص 198.

والعلم أعمدة عظيمة في البناء الديني تبين منزلتهم وطهارتهم عنده تعالى. فهم عماد الدين، أي بدونهم لا يمكن للدين أن يحيا، فهم المفسرون لدين الله، وهم الحاملون لرسالته، يضحون بأنفسهم ومهجهم من أجل إبقاء الدين حياً ناشطاً. وهم الذين هداهم الله على صراطه يوم زلت الكثير من الأقدام، واصطفاهم، وجعلهم القادة والأمة الوسطى التي يقتدي بها الناس في كل مكان.

وبالإجمال، فأنمة أهل البيت (ع) هم المعصومون الذين لا يذنبون، وهم المتصلون برسول الله (ص)، وهم أهل العلم الذين إذا سُئلوا ما بين الدفتين أجابوا، فلا يفارقهم القرآن طول حياتهم ولا يفارقونه.

2 - من نحن الذين أمرنا الله تعالى باتباعهم؟

يشير الإمام الباقر (ع) إلى محنة الناس مع الأوصياء (ع): (بلية الناس علينا عظيمة إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا)⁵¹⁰، ولكن تلك المحنة لها آثار عظيمة: (قال رسول الله (ص): ما نظر الله عزَّوجلَّ إلى وليِّ له يجهد نفسه بالطاعة لإمامه والنصيحة إلا كان معنا في الرفيق الأعلى)⁵¹¹.

وهذا هو وصفهم: (إنما شيعة علي (ع)، الشاحبون، الناحلون، الذابلون، ذابلة شفاههم من القيام، خميصة بطونهم، مصفرة ألوانهم، متغيرة

⁵¹⁰ الإرشاد ص 266.

⁵¹¹ الكافي ج 1 ص 404.

وجوههم، إذا جنّهم الليل أتخذوا الأرض فراشاً، واستقبلوها بجباههم، باكية عيونهم، كثيرة دموعهم، صلاتهم كثيرة، ودعاؤهم كثير، تلاوتهم كتاب الله، يُفرحون الناس وهم يحزنون⁵¹².

يضيف الإمام (ع) على الموالين المحبين لأهل البيت (ع) أجمل صفات المتقين، فهم الصائمون الذين خصت بطونهم من الجوع، القائمون بالليل الذين ذبلت شفاههم من كثرة ذكر الله وتسبيحه، الخائفون من الله عزوجل فشحبت ألوانهم، الذين لا يملكون إلا القليل فيتخذونه فراشاً، لأنهم لا يعيرون للدنيا أهمية ولا يعطونها قيمة فأصبحوا من طبقة الفقراء الذين لا يملكون إلا تراب أقدامهم، يكون كثيراً ويدعون الله كثيراً، أولئك هم شيعة علي (ع)، أولئك هم المؤمنون حقاً.

وبالإجمال، فأتباع أهل البيت (ع) هم المؤمنون الصادقون حقاً: الناحلون، الذابلون من أثر العبادة والخشوع والخوف من ربهم، الذين لا تلهيهم الدنيا عن التوجه إلى ربهم بعبادته، وتلاوة كتابه المجيد.

الولاية التي لا تُنال إلا بالعمل والورع:

ويتساءل الإمام (ع): (أيكتفي من أتخذ التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله واطاعه، وما كانوا يُعرفون إلا بالتواضع والتخشع، وأداء الأمانة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين، والأيتام،

⁵¹² صفات الشيعة - الشيخ الصدوق ص 52.

وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائهم في الأشياء)⁵¹³.

قال السائل: يا بن رسول الله ما نعرف أحداً بهذه الصفة! قال (ع): (لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحب علياً (ع) وأتولاه. فلو قال إني أحب رسول الله (ص)، ورسول الله خير من عليّ (ع) ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً. فاتقوا الله، واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله وأكرمهم عليه أتقاهم له وأعملهم بطاعته. يا فلان ما يتقرب العبد إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، ما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد منكم حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، ولا تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع)⁵¹⁴.

يعيد الإمام (ع) هنا صفات المؤمنين من أتباع أهل البيت (ع) ويضفي عليهم أجمل الصفات أيضاً، فيجعل الأصل في المحبة والموالاتة: تقوى الله وطاعته، أي الاستقامة على شرع الإسلام، والتواضع والخشوع، وأداء الأمانة، وكثرة العبادات، وبر الوالدين، ورعاية الجار، ومساعدة الفقراء والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن. تلك هي الموالاتة الحقيقية: العمل بما أمر الله به أن يُعمل وحب أهل البيت (ع)، فبدونهما لا يرتقي

⁵¹³ صفات الشيعة ص 53.

⁵¹⁴ المصدر السابق.

الإنسان إلى درجة المحب الموالي، لأن تلك الدرجة إنما هي درجة عظيمة لا يفوز بها إلا القلة النادرة من خيار الناس.

وكان (ع) يحسُّ بأمراض المجتمع الإنساني، فيلتمس المخاطبين بأن يكونوا مثال الأخلاق الإسلامية، والقدوة الحسنة، فيقول لهم: (عظّموا أصحابكم ووقروهم، ولا يتجهم بعضكم بعضاً، ولا تضارّوا، ولا تحاسدوا، وإياكم والبخل كونوا عباد الله المخلصين)⁵¹⁵.

إذن فالتكاليف التي أوصلوها إلينا هي التكاليف الشرعية الإسلامية في ذكر الله تعالى، والصلاة، والصوم، والحج، والبر بالوالدين، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن. وأكدوا على أن طاعة الله تعالى هي الأصل في موضوع الولاية. وطاعتهم هي طاعة الله تعالى، لأن وظيفتهم (ع) أنهم يوصلوا الإنسان إلى طاعته تعالى بالعلم، والمعرفة، والعمل الصالح.

3 - طبيعة التكاليف التي أمروا أن يوصلوها إلينا:

أمروا أن يوصلوا لنا دين الله تعالى عبر وسائل أولها: شرح أحكام الدين وعقائده بتفصيل يفهمه الناس. وثانيها: الطاعة لهم، وثالثها: التكافل الاجتماعي، كما قال (ع): (الطاعة للإمام بعد معرفته. إن الله تبارك وتعالى يقول: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)⁵¹⁶).

⁵¹⁵ الكافي ج 2 ص 173.

⁵¹⁶ سورة النساء: الآية 80.

ولما قضت مجموعة من الشيعة مناسكهم، دخلوا على الإمام الباقر (ع)، وقالوا له أوصنا يا ابن رسول الله (ص)، فقال (ع): (ليعن قويمكم ضعيفكم، وليعطف غنيكم على فقيركم، ولينصح الرجل أخاه النصيحة لنفسه، واكتموا أسرارنا ولا تحملوا الناس على أعناقنا، وانظروا أمرنا وما جاءكم عنا فإن وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به، وإن لم تجدوه موافقاً فردّوه، وإن اشتبه الأمر عليكم فيه فقفوا عنده، وردّوه إلينا حتى نشرح لكم من ذلك ما شُرح لنا)⁵¹⁸.

يقول الإمام (ع) أن مفتاح الإمامة الكبرى ونجاحها هو طاعة الله تعالى، ثم طاعة رسول الله (ص)، ثم طاعة الإمام الواجب الطاعة من قبل المؤمنين. وبدون تلك الطاعة لا يستطيع أن يقوم بدوره (ع) في توجيه الأمة وإمامتها.

ثم يأتي بعد ذلك التكافل الاجتماعي لمجموعة المؤمنين، فالقوي يعين الضعيف بالمال ووسائل الحياة، والغني يساعد الفقير، والعالم ينصح المتعلم، وأن يكون القرآن الكريم محور حياتهم، بحيث يكون هو الأصل في مطابقة الأحاديث التي تتوافد عليهم من كل حذب وصوب، فإن طابقت القرآن أخذوا بها، وإن لم تطابق القرآن الكريم تركوها وعملوا بالقرآن المجيد.

⁵¹⁷ الكافي ج 1 ص 185.

⁵¹⁸ بشارة المصطفى ص 137.

4 - طبيعة المكلفين في الأخذ بالولاية:

الظاهر أن الإيمان بولاية أهل البيت (ع) هي أصعب درجات الإيمان وأشقها. فقد حصر الإمام الباقر (ع) مباني الإسلام في قسمين. الأول: ما له رخصة بإقامة الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام. فمن كانت له رخصة شرعية تخفف عنه هذا التكليف، استعملها وخُفِّفَ التكليف عنه. الثاني: ما ليس فيه ترخيص، وهو وجوب الإيمان به في كل الحالات، وهي الولاية لأهل البيت (ع). يقول (ع): (بُنِيَ الإسلام على خمسٍ: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصوم شهر رمضان، والولاية لنا أهل البيت. فجعل في اربع منها رخصة، ولم يجعل في الولاية رخصة. من لم يكن له مال لم يكن عليه الزكاة، ومن لم يكن عنده مال فليس عليه حج، ومن كان مريضاً صلى قاعداً وأفطر شهر رمضان، والولاية صحيحاً كان أو مريضاً أو ذا مال له فهي لازمة واجبة)⁵¹⁹.

ولعل في هذا الحديث أهمية خطيرة، فالإمام (ع) يشرح ما بُني عليه الإسلام في العبادات والعقائد وهي: الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والولاية. ويقول (ع) أن أحكام العبادات لها رخصة إذا عجز الإنسان المكلف عن القيام بها، فالمريض يستطيع أن يصلي قاعداً إذا أضره القيام في الصلاة، والزكاة تسقط عن الإنسان إذا لم يكن له مال بل يحق له أن يأخذ الزكاة بدل دفعها، والحج لا يتم إلا بالاستطاعة المالية والجسدية، والصوم لا يتم إلا بالقدرة عليه من الناحية الجسدية. أما العقائد،

⁵¹⁹ الخصال ص 277.

فبعد الإقرار بالتوحيد والنبوة تأتي الولاية لأهل البيت (ع)، ولأنها اعتقادٌ قلبي فهي واجبة ولا عذر فيها لأي إنسان بالتخلف عنها.

هنا ينتبه السائل فيسأله: جعلتُ فذاك إن الشيعة عندنا كثير؟ فقال (ع): (فهل يعطف الغني على الفقير؟ وهل يتجاوز المحسن عن المسيء؟ ويتواسون؟). قال: لا. فقال (ع): (ليس هؤلاء شيعة. الشيعة من يفعل هذا)⁵²⁰.

ويسألهم (ع): (أيجبُ أحدكم إلى أخيه، فيدخل يده في كيسه، فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟). أجاب السائل: ما أعرف ذلك فينا. فقال (ع): (فلا شيء إذن). علّق السائل: فالهلاك إذن. فقال (ع): (إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد)⁵²¹، و(من حق المؤمن على أخيه المؤمن، أن يشبع جوعته، ويواري عورته، ويفرّج عنه كربته، ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده)⁵²².

يضع الإمام (ع) شرطاً آخر في صفة المؤمنين الموالين، وهو الإحساس بصيغة الترابط الاجتماعي، فالإنسان مهما كان مؤمناً لا يستطيع أن يعيش بمفرده في الحياة دون أن يساعد الآخرين بالمال والعطاء، وأن يتجاوز عنهم سيئاتهم وخطيئاتهم، وينسجم معهم في المحن والمصاعب ويواسيهم في الإبتلاءات الكثيرة التي يتعرضون لها، وبالإجمال فإن الإمام

⁵²⁰ الكافي ج 2 ص 173.

⁵²¹ الكافي ج 2 ص 173.

⁵²² الكافي ج 2 ص 169.

(ع) يريد من شيعته أن يكونوا يداً واحدةً متضافرةً في شتى مجالات الحياة، جنباً إلى جنب مع تضافرهم في حب أهل البيت (ع) وطاعتهم. وبذلك ينطبق عليهم لقب الموالين الحقيقيين، المتقين المؤمنين المطيعين لله تعالى ولرسوله (ص) وأهل بيته (ع).

إذن، فتكليف الفرد بالإيمان بالولاية لا علاقة له بالمال أو بالقدرة الجسدية، بل هو متعلقٌ بالقدرة العقلية والقلبية. وما العاقل المكلف إلا محطة نشاط الإمام (ع) من باب إرشاده إلى الدين، وتكليفه بالعبادات، وحثه على الفضائل الأخلاقية في حسن الإجتماع، ومساعدة الناس.

مميزات المدرسة الفقهية للإمام (ع)

أسس الإسلام مدرسة علمية مبنية على أساس القرآن الكريم وسنة رسول الله (ص). فكان الدليل العلمي هو أساس تلك المدرسة، وكان طلبة أهل البيت (ع) يستفيدون من ذلك العمق، وتلك الشمولية في فهم الدين، ذلك لأن مدرستهم كانت مبنية على المعرفة الالهية. وتتميز مدرسة الإمام الباقر (ع) بثلاث ميزات:

الأولى: الشمولية: ونعني بها تكامل المنهج المعرفي، بحيث أن تلميذ الإمام (ع) لا يحتاج إلى أن يذهب إلى مصدر آخر ليستقي معلوماته. وفي ذلك أمثلة:

الأول: عندما شرح لهم وضوء رسول الله (ص): (ألا أحكي لكم وضوء رسول الله (ص)؟ فقلنا: بلى. فدعا بقعب⁵²³ فيه شيء من ماء ثم وضعه بين يديه ثم حسر عن ذراعيه، ثم غمس فيه كفه اليمنى، ثم قال: هكذا إذا كانت الكفّ طاهرة، ثمّ غرف فملأها ماء فوضعها على جبينه، ثم قال: بسم الله. وسدّله على أطراف لحيته. ثم أمرّ يده على وجهه وظاهر جبينه مرّة واحدة.

ثمّ غمس يده اليسرى فغرف بها ملاًها، ثمّ وضعه على مرفقه اليمنى وأمرّ كفه على ساعده حتى جرى الماء على أطراف أصابعه، ثمّ غرف بيمينه ملاًها فوضعه على مرفقه اليسرى وأمرّ كفه على ساعده، حتى جرى الماء على أطراف أصابعه ومسح مقدّم رأسه وظهر قدميه ببلة يساره وبقيّة بلة يميناه⁵²⁴.

الثاني: الصدوق بإسناده، قال أبو جعفر (ع): (كان رسول الله (ص) لا يصلي من النهار شيئاً حتى تزول الشمس، فإذا زالت صلى ثماني ركعات وهي صلاة الأوابين، تفتح في تلك الساعة أبواب السماء، ويستجاب الدعاء، وتهبّ الرياح، وينظر الله إلى خلقه، فإذا فاء الفيء ذراعاً صلى الظهر أربعاً، وصلى بعد الظهر ركعتين، ثم صلى ركعتين أخروين، ثم صلى العصر أربعاً إذا فاء الفيء ذراعاً.

⁵²³ قَعْبُ: قدحٌ ضخمٌ غليظ.

⁵²⁴ الكافي ج 3 ص 25.

ثم لا يصلي بعد العصر شيئاً حتى تَوُوب الشمس، فإذا آبت وهو أن تغيب صَلَّى المغرب ثلاثاً، وبعد المغرب أربعاً. ثم لا يصلي شيئاً حتى يسقط الشفق، فإذا سقط الشفق صلى العشاء.

ثم آوى رسول الله (ص) إلى فراشه ولم يصل شيئاً حتى يزول نصف الليل، فإذا زال نصف الليل صَلَّى ثماني ركعات وأوتر في الربع الأخير من الليل بثلاث ركعات. فقرأ فيهن فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد، ويفصل بين الثلاث بتسليمة، ويتكلم، ويأمر بالحاجة، ولا يخرج من مصلاه حتى يصلي الثالثة التي يوتر فيها ويقنت فيها قبل الركوع ثم يسلم. ويصلي ركعتي الفجر قبيل الفجر، وعنده، وبُعَيْده⁵²⁵، ثم يصلي ركعتي الصبح وهو الفجر إذا اعترض الفجر وأضاء حسناً، فهذه صلاة رسول الله (ص) التي قبضه الله عزَّوجلَّ عليها⁵²⁶.

الثانية: الهدفية: بمعنى أنّ هناك هدفاً وتصميماً لهذا النظام العلمي الذي يطرحه الإسلام، وهو أن يكون العابدُ عالمًا، والعالمُ عابدًا. فأفضل العبادة هي عبادةُ الله تعالى بسلوك معرفة المعبود عزَّوجلَّ.

وهنا يشرح لنا خصال العقل المؤمن بالله: (قال رسول الله (ص): لم يُعبد الله عزَّوجلَّ لشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال: الخيرُ منه مأمول، والشَّرُّ منه مأمون، يستكثر

⁵²⁵ وتلك نافلة الفجر .

⁵²⁶ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 227.

قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمره، ولا يتبرّم بطلاب الحوائج قبّله، الذلُّ أحبُّ إليه من العزِّ، والفقْرُ أحبُّ إليه من الغنى، نصيبه من الدنيا القوت، والعاشره وما العاشره لا يرى أحداً إلا قال هو خيرٌ مني وأتقى.

إنما الناس رجلان: فرجلٌ هو خيرٌ منه وأتقى، وآخر هو شرٌّ منه وأدنى. فإذا رأى من هو خيرٌ منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شرٌّ منه وأدنى، قال: عسى خيرٌ هذا باطنٌ وشرّه ظاهر، وعسى أن يختم له بخير. فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وساد أهل زمانه⁵²⁷.

فالإمام (ع) ينقل قول رسول الله (ص) في أفضلية العقل عند الإنسان، خصوصاً إذا تجرد من الغريزة الحيوانية، ويحدد له عشر خصال تعمل كهدف للعقل المؤمن في إثراء الإنسان، وتلك الخصال هي:

أولاً: يدعو العقل إلى الخير، ويحفظ الجسد لفعل الخير.

ثانياً: ينهى العقل ارتكاب الشر، لأن الميزان الراجح عنده هو فعل الخير. والعقل غير النفس التي ألهمها الله سبحانه فجورها وتقواها، كما جاء في الذكر الحكيم.

ثالثاً: الخير القليل المُقدّم من الآخرين عند العقلاء هو خيرٌ كثير، فالعقل يستكثر قليل الخير ويعتبره كثيراً.

رابعاً: والخير الكثير المُقدّم للآخرين يعتبره العقلاء قليلاً حتى لو كان كثيراً.

⁵²⁷ الخصال ص 433.

خامساً: يعدُّ العقل ماكنةً لطلب العلم، فهو لا يسأم من طلب العلم في مختلف ظروف الإنسان حتى وفاته.

سادساً: وباعتبار أن العقل هو صوت الاعتدال والفهم، فهو لا يتضجر ممن يطلب الحاجة، ولا يتأفف ممن يصرح بعوزه وفقره.

سابعاً: العقل يحبُّ الذل في الله على العزِّ في غيره، لأنه يعلم أن الله هو الخالق المنعم المجمل على الإنسان.

ثامناً: وباعتبار أن العقل له ميزان معنوي غير مادي، فهو يفضل الفقر مع القناعة على الغنى مع البطر.

تاسعاً: ومع أن الجسد يتمتع بالملذات المادية في الحياة، إلا أن العقل يلتذ بالقليل بما يقوّت الجسد بأدنى المتطلبات. فالعقل نصيبه من الدنيا ما يقوّت به نفسه.

عاشراً: وباعتبار كمال العقل ونفوذه فهو لا يرى مؤمناً عاقلاً إلا وقال هو خيرٌ مني وأتقى. والعاقل هو الذي يوزن الأمور بميزان الحق، فعندما يرى رجلاً خيراً يقول هذا أفضل مني وأخير. وإذا رأى شريراً قال هذا شرُّ ظاهر وخيرُه باطن، فعسى أن يختم له ربه بالخير.

في هذا الحديث نلمح هدفية النظام العلمي الذي يستخدم العقل في رسم ملامح عبودية الإنسان لله تعالى.

الثالثة: الوسيلة أو الآلية: ونعني بها الطرق التي تستثمرها المدرسة الفقهية في المجتمع، وأهمها طلب العلم، وآدابه، وجودة فهمه واستيعابه. فالعلم الديني لا بد أن يُطلب من مضانه، والعلمُ السليم يبني أفراد المجتمع،

وينشر بينهم المحبة والتعاون. يشرح (ع) طبيعة العقل المتحرك الذي أوصى به النبي (ص): (قال رسول الله (ص): رأس العقل بعد الدين: التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كلِّ برِّ وفاجر)⁵²⁸، و(العالم بين الجهال كالحى بين الأموات، وإن طالب العلم ليستغفر له كل شيء، حتى حيتان البحر، وهوام الأرض، وسباع البرِّ وأنعامه، فاطلبوا العلم فإنه السبب بينكم وبين الله عزَّوجلَّ، وأن طلب العلم فريضةً على كلِّ مسلم)⁵²⁹.

يقول (ع) في هذا الحديث الشريف أن الدين يسلك بالإنسان إلى

طريقين:

الأول: معرفة الله تعالى وعبادته، عن طريق العقل.

والثاني: التعامل مع الناس بالتودد إليهم، ونشر الخير بين جميع

أفرادهم من الأبرار والفجار، فلعل من الفجار من يرتدع ويهتدي إلى الصواب، ومن الأبرار من يرى في الإحسان إليه عاملاً في دفعه إلى الثبات والتمسك بالدين.

والعلم هو الحياة، لأن به يعرف الخالق عزوجل، وبه تُسعد الحياة، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، لذلك كان طلب العلم فريضة عقلية على الناس.

وعنه (ع): (إذا جلست إلى عالم فكن على أن تسمع أحرص منك

على أن تقول، وتعلم حسن الإستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على

⁵²⁸ بحار الأنوار ج 74 ص 400.

⁵²⁹ أمالي الشيخ المفيد ص 25.

أحد حديثه⁵³⁰، و(العالم كمن معه شمعة تُضيء للناس، فكلّ من أبصر بشمعه دعا بخير، كذلك العالم معه شمعة تزيل ظلمة الجهل والحيرة، فكلّ من أضاءت له فخرج بها من حيرة أو نجا بها من جهل فهو من عتقائه من النار، والله يعوضه عن ذلك بكل شعيرة لمن أعتقه ما هو أفضل له من الصدقة بمائة ألف قنطار على الوجه الذي أمر الله عزّوجلّ به، بل تلك الصدقة وبالّ على صاحبها، لكن يعطيه الله ما هو أفضل من مائة ألف ركعة يصلّيها من بين يدي الكعبة)⁵³¹.

وفي صفات العلماء وفضلهم على الناس بالفكر والمعرفة ذكرنا أنفأ حديثان:

الحديث الأول: في آداب التعلم، فيقول (ع) أن من آداب التعلم هو أن تسمع أكثر مما تتكلم، أي افتح ذهنك لطلب العلم والمعرفة، ولا تحرك لسانك، ولا تدلي برأيك، حتى تكتمل لديك حلقة العلم. وهذه إشارة أساسية في التعلم، فهناك من الناس من إذا تعلم جملة واحدة حتى أخذ بمناقشة استأذه ومناقشة الآخرين من أهل العلم، وهو لا يرى أنه لا يزال في بداية الطريق الطويل.

الحديث الثاني: في ذكر فضل العالم وهو أن نوره كنور الشمعة المشتعلة التي تحرق نفسها من أجل إزالة ظلمة الجهل والحيرة. وكل من

⁵³⁰ الإختصاص ص 245.

⁵³¹ الإحتجاج ج 1 ص 8.

أضاءت له المعرفة نوراً يخرج بها من ظلمات الجهل والمعصية حتى كتب الله لذلك العالم عطاءً عظيماً لأنه فتح عقل إنسان آخر إلى نور الهداية. فالآلية المعرفية هنا هو طلب العلم وتحصيله، فتكون العبادة حينئذ عبادةً عالمٍ، لها ميزانٌ يختلف عن ميزان عبادة الجاهل. فعبادة العالم كلها خير، ينتقي فيها الطمعَ فيما أيدي الناس، إلى درجة أن العلم يرتقي بالعالم إلى ما هو أبعد، وهو رحمة الله تعالى، فليس هناك رغبةً دنيويةً بل هو إينارٌ وبذل، ونورٌ يشعُّ على قلب الإنسان وعقله.

الدقة في المدرسة الفقهية

كلُّ من يقرأ الأحكام الشرعية بتدبر يلمس أن هناك دقة متناهية، فكلُّ مسألة لها حدٌّ، وتعريفٌ، وحكمٌ نهِّيٌّ فيه أو وجوب. والله سبحانه أنزل الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأخلاق بمقادير وموازين محسوبة. وفي ذلك نقاط فكرية متعلقة بالدقة في المدرسة الفقهية:

أولاً: النظام المعلوماتي: ليست الأحكام الفقهية كمّاً متفرقاً من المعلومات، بل هي نظامٌ للمعلومات، وأقصد بالنظام أن المعلومات مرتبة ضمن رُتب وتصانيف تخصُّ عبادات الإنسان، ومعاملاته، وحاجاته، ومتطلباته في الحياة. يؤيده قول الباقر (ع): (وجدنا في كتاب علي بن الحسين (ع): في قوله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)⁵³²، قال:

⁵³² سورة يونس: الآية 62.

إذا أدوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله (ص) تورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورجبوا فيما عند الله، واكتسبوا الطيب من رزق الله، لا يريدون به التفاخر والتكاثر، ثم انفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويثابون على ما قدموا لآخرتهم⁵³³.

لخص الإمام (ع) منهج حياة المؤمن الذي عدّه من أولياء الله تعالى، بكل دقة، ووضعها ضمن الرتب التالية:

- 1- الرتبة الأولى: تأدية الفرائض من الواجبات، وتجنب النواهي من المحرمات.
- 2- الرتبة الثانية: الأخذ بسنة رسول الله (ص) في المستحبات والنوافل، فإذا تم الأخذ بالسنة، كان التورع عن محارم الله تعالى.
- 3- الرتبة الثالثة: الزهد في الدنيا وزخرفها.
- 4- الرتبة الرابعة: الرغبة فيما عند الله من حسن الثواب، والجزاء الأوفى.
- 5- الرتبة الخامسة: الكسب الطيب الحلال.
- 6- الرتبة السادسة: عدم التفاخر بما تجلبه الدنيا من أرزاق.
- 7- الرتبة السابعة: الإنفاق فيما أمره الله تعالى من حقوق واجبة.

فهنا ذكر واجبات أولياء الله مرتبة ترتيباً منهجياً كنظام، فبدأ بالفرائض (الواجبات)، والسنن (المستحبات)، والورع عن محارم الله تعالى،

⁵³³ تفسير العياشي ج 2 ص 124.

والرزق الحلال، والإنفاق، وكلها مترابطة، ومتعاضدة، ومنسجمة مع بعضها البعض.

ثانياً: التفسير المتعاقد: تفسر الأحكام الفقهية بعضها بعضاً إذا جُمعت ضمن تركيبة علمية متعاضدة، كتلك التي شرحها الإمام (ع) في طلاق السنّة وطلاق العدة مثلاً، قال (ع): (كلّ طلاق لا يكون على السنّة أو طلاق على العدة، فليس بشيء). فقيل له: فسّر لنا طلاق السنّة، وطلاق العدة؟ قال (ع): (أما طلاق السنّة: فإذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، فلينتظر بها حتى طمئت وتطهر، فإذا خرجت من طمئتها طلقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين على ذلك. ثم يدعها حتى طمئت طمئتين فتتقضي عدتها بثلاث حيض، وقد بانّت منه، ويكون خاطباً من الخطاب، إن شاءت تزوجته، وإن شاءت لم تتزوج، وعليه نفقتها والسكنى ما دامت في عدتها، وهما يتوارثان حتى تتقضي العدة).

وأما طلاق العدة الذي قال الله عزّوجلّ: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...)⁵³⁴، فإذا أراد الرجل منكم أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض، وتخرج من حيضها، ثم يطلقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين عدل، ويراجعها من يومه ذاك إن أحب، أو بعد ذلك بأيام، أو قبل أن تحيض، ويُشهد على رجعتها، ويواقعها، ويكون معها حتى تحيض.

⁵³⁴ سورة الطلاق: الآية 1.

فإذا حاضت وخرجت من حيضها طَلَّقها تطليقة أخرى من غير جماع، ويُشهد على ذلك، ثم يراجعها أيضاً متى شاء قبل أن تحيض، ويشهد على رجعتها ويواقعها، وتكون معه إلى أن تحيض الحيضة الثالثة، فإذا خرجت من حيضتها الثالثة طَلَّقها التطليقة الثالثة بغير جماع، ويُشهد على ذلك، فإذا فعل ذلك فقد بانَّت منه ولا تصل له حتى تنكح زوجاً غيره⁵³⁵.

أوجب الإسلام أن يكون الطلاق إما طلاق سنَّة أو طلاق عدَّة:

معنى طلاق السنَّة: يُفترض أن شخصاً تزوج بامرأة ثم أراد طلاقها لسببٍ من الأسباب، فعليه أن يطلقها طلاقاً رجعيّاً وهي طاهرة من المحيض، ويُشهد على ذلك شاهدين. وبعد ذلك تبدأ عدَّة المطلقة وهي ثلاثة قروء. وعلى الزوج نفقتها ما دامت في عدتها، وهما يتوارثان حتى تنتهي عدَّة الطلاق. فإن شاء وقد عادت الأمور إلى مجاريها بينهما أن يخطبها ويعقد عليها، فتكون زوجته مرة أخرى. وإن شاء تركا بعضهما البعض، حيث يحقُّ لها أن تتزوج رجلاً آخر.

معنى طلاق العدَّة: وهو الطلاق ثلاث مرات. فالطلاق الأول يتم وهي في طهر ويُشهد عليه شاهدي عدل، ثم يراجعها وهي طاهرة ويُشهد على رجعتها. ولنفترض أن المشاكل المسيّبة للطلاق الأول رجعت مرة أخرى.

⁵³⁵ الكافي ج 6 ص 65.

فتبدأ المرحلة الثانية (الطلاق الثاني) وهو عندما تحيض وتطهر، فيطلقها ويُشهد على ذلك، ثم يتبدل رأيهما ويرجعا إلى عش الزوجية ويُشهد على رجعتها. ثم لسوء الحظ تبدأ مشاكلهما مرة ثالثة، فينتظر حتى يبدأ القراء الثالث (الطلاق الثالث) فعندما تطهر يطلقها بغير جماع، ويُشهد على ذلك. فتلك ثلاث تطليقات تكون قد بانّت منه حينئذٍ، ولا تصل له حتى تتكح زوجاً غيره.

فالمدار في الطلاق هنا هو القروء الثلاثة، ونتيجتها طهارة الأرحام من إختلاط الأنساب، وكذلك تسهيل إرجاع الزوجية وقت العدة إذا رغب الزوجان في ذلك. ولكن إذا ثبت أن الزوجية أصبحت أقرب إلى التلاعب بحرمتها، وذلك بالتطبيق ثم الرجوع ثلاث مرات، كان عليها أن تتزوج زوجاً آخر كي ترجع له في المرة الرابعة. فالخط المشترك بين طلاق السنّة وطلاق العدة هو أن في كليهما إمكانية الرجوع إلى الزوجة. والخط الفارق بينهما هو أن الزوج لا يستطيع أن يرجع إلى زوجته بعد الطلاق الثالث (في طلاق العدة) إلا أن تتزوج رجلاً آخر.

ثالثاً: التوازي في الأحكام: الأحكام الفقهية متوازية ولا تضارب فيها، أي أن كل حكم يساند الحكم الآخر، وليس هناك تناقض في أي منها، مع الأخذ بالإعتبار سعة محيطها وتناولها جوانب عديدة من الحياة. وقد بحثنا هذا الموضوع سابقاً، إلا أننا نعرضه من زاوية أخرى هنا. وفي ذلك شواهد:

سئل (ع) عن الرجل ينسى تكبيرة الإفتتاح [في الصلاة]؟ قال: (يُعيد)⁵³⁶، لأن تكبيرة الإفتتاح أو الإحرام من أركان الصلاة، فتبطل الصلاة عند عدم أدائها.

وفي مثال آخر عن الصيام وهو الإمتناع عن الطعام والشراب وليس الإمتناع عن التزين. سئل الباقر (ع) عن: الصائم يكتحل؟ قال (ع): (لا بأس به، ليس بطعامٍ ولا شرابٍ)⁵³⁷.

وفي مثالٍ ثالثٍ قول الله تعالى: (...وَأَتُوا النُّبُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...) ⁵³⁸، قال (ع): (يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور كان)⁵³⁹.

ففي المثال الأول وجوب أداء العبادة بصورة تامة دون شك أو نسيان أو إهمال. ومن ذلك نسيان تكبيرة الإفتتاح في الصلاة، فالواجب أن تعاد الصلاة. وهذا ما نقصده بتوازي الأحكام الشرعية وعدم تقاطعها، أي أن عدم إتيان ركن من أركان الصلاة يؤدي إلى بطلان العمل، فلا بد من الإعادة.

وفي المثال الثاني إذا كان العمل خارجاً عن الموضوع، فلا يضر إن جاء به الإنسان، كما في إكتحال الصائم، وكان ذلك متعارفاً في زمن

⁵³⁶ تهذيب الأحكام ج 2 ص 143.

⁵³⁷ تهذيب الأحكام ج 4 ص 258.

⁵³⁸ سورة البقرة: الآية 189.

⁵³⁹ المحاسن ص 224.

النص. فهو خارج عن أحكام الصيام، باعتبار أن الصوم هو الإمتناع عن الطعام والشراب، والكحل ليس منه.

وفي الحديث الثالث في تفسير قوله تعالى: (...وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...) ⁵⁴⁰، ومع أن الآية بحسب المعنى: (عامّة)، ولكن بحسب مورد النزول: هي (خاصة)، كما قال المفسرون. والدخول إلى البيوت كقاعدة هو من طريق الأبواب. ولكن بالمعنى العام أن لكل أمراً مدخلاً صحيحاً، فلا بد للإنسان أن يؤدي التكليف من وجهه الصحيح، فلكل أمرٍ بابٌ أو مدخلٌ يُدخل إليه، كما قال الإمام (ع).

إذن نستنتج من تلك الأمثلة أن أحكام الصلاة والصيام متوازية، أي ليس هناك تقاطع ولا تضاربٌ بينها. فنسيان تكبيرة الصلاة، التي هي مفتاح الدخول في الصلاة، حكمها الإعادة. والصيام الذي هو الإمتناع عن الطعام والشراب، لا دخل للإكتحال فيه. وهكذا في المثال الأخير حيث أن الأصل في الأشياء إتيانها من وجهها. وهكذا بقية الأحكام، فهي تجري مجرى إنسيابياً، تسهياً على الإنسان مع تقدير قدرته على الأداء.

رابعاً: **التركيبية المنسجمة**: صُممت الأحكام الشرعية في تركيب منسجم مع الوجود في قضايا العلية، والحكمة، والقدرة. ولنا في ذلك أدلة منقولة من أحاديث الإمام الباقر (ع):

⁵⁴⁰ سورة البقرة: الآية 189.

ففي دخول وقت الصلاة هناك تفصيل عنه (ع): (إذا زالت الشمس دخل الوقتان الظهر والعصر، فإذا غابت الشمس دخل الوقتان المغرب والعشاء الآخرة)⁵⁴¹.

وعما فرض الله عزوجل من الصلاة، قال (ع): (خمس صلوات في الليل والنهار... قال الله تعالى لنبيه (ص): (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ...)⁵⁴²، ودلوكها زوالها، وفيما بين ذلوك الشمس إلى غسق الليل أربع صلوات سماهن الله، وبينهنّ، ووقتهنّ، وغسق الليل هو انتصافه. ثم قال تبارك وتعالى: (... وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)⁵⁴³، فهذه الخامسة.

وقال الله تعالى في ذلك: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ...)⁵⁴⁴، وطرفاه المغرب والغداة، (...وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ...)⁵⁴⁵، وهي صلاة العشاء الآخرة. وقال تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)⁵⁴⁶ وهي صلاة الظهر، وهي أول صلاة صلاحها رسول الله (ص)،

⁵⁴¹ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 216.

⁵⁴² سورة الإسراء: الآية 78.

⁵⁴³ سورة الإسراء: الآية 78.

⁵⁴⁴ سورة هود: الآية 114.

⁵⁴⁵ سورة هود: الآية 114.

⁵⁴⁶ سورة البقرة: الآية 238.

وهي وسط النهار، ووسط الصلاتين بالنهار: صلاة الغداة، وصلاة العصر⁵⁴⁷.

فأحكام الصلاة وأوقاتها منسجمٌ مع تركيبه الكون والوجود، ودوران الأرض حول الشمس، وكون اليوم مقسّمٌ إلى زوال ظل الشمس، وغروبها، وشروقها. وفي كل حالة من تلك الحالات هناك صلاة لله تعالى. فالعبادة مرتبطة بالزمن، وهذا التيسير في العبادات يقع ضمن تصميم الخالق عزّوجلّ للوجود والإنسان.

خامساً: الحقيقة في التعبير الفقهي: عدم استخدام المجاز في التعبير الفقهي على عكس التعبير العقائدي، ذلك لأن الفقه أحكام محددة يتعين على المكلف الأخذ بها. فلا بد له أن يفهمها فهماً واضحاً. ولذلك فإنّ التعبير الفقهي تعبير حقيقي، لا يلعب فيه المجاز دوراً. أي ليس هناك تعبير مشترك بين الوجوب والحرمة مثلاً.

نذكر مثلاً، دُكر سابقاً، إلا أن مورده هنا يختلف فلذلك نناقشه مرة أخرى. ما ورد في القرآن الكريم مثل: (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ)⁵⁴⁸ فهذا يعني الوجوب. عندما سُئل (ع): ما تقول في الصلاة في السفر؟ كيف هي وكَم هي؟ قال (ع): (إن الله عزّوجلّ يقول: (وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ

⁵⁴⁷ الكافي ج 3 ص 271.

⁵⁴⁸ سورة النساء: الآية 101.

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...⁵⁴⁹، فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر). وعندما اعترض السائل وقال: إنما قال الله عزَّوجلَّ: (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ)⁵⁵⁰، ولم يقل: افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟

قال (ع) له: (أو ليس قد قال الله عزَّوجلَّ في الصفا والمرورة: (فَمَنْ حَجَّ النَّبْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...)⁵⁵¹، ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض، لأن الله عزَّوجلَّ ذكره في كتابه، وصنعه نبيه (ص)، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي (ص)، وذكره الله تعالى في كتابه)⁵⁵².

هنا استخدم القرآن الكريم لفظة (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ)⁵⁵³ بمعنى الوجوب، وهذه اللغة القرآنية يتحتم على المكلف أن يفهمها على مبنى الحقيقة لا المجاز.

ومثال آخر في إقامة الصلاة في اللغة تعني تأديتها على الوجه الصحيح، وفي الفقه: إقامة الصلاة لا تعني مجرد تأديتها ركوعاً وسجوداً فحسب، وإنما تعني إقامة الصلاة بشروطها من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتنهى عن معصية الله تعالى.

⁵⁴⁹ سورة النساء: الآية 101.

⁵⁵⁰ سورة النساء: الآية 101.

⁵⁵¹ سورة البقرة: الآية 158.

⁵⁵² من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 434.

⁵⁵³ سورة النساء: الآية 101.

عن الإمام الباقر (ع) قال: (أن الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة، فقال: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)⁵⁵⁴، فمن أقام الصلاة ولم يؤتِ الزكاة فكأنه لم يقم الصلاة)⁵⁵⁵. هنا في هذا القول قرّن الإمام (ع) بين الصلاة والزكاة، وجعل وجوبهما متضافراً ومتكاملاً. فمن صلى ولم يؤدِ حق الله في المال، وكأنه لم يؤدِ الصلاة بصورة تامة.

النظام المعرفي الفقهي

ساهم الإمام الباقر (ع) ضمن أئمة أهل البيت (ع) في عرض نظام معرفي فقهي، بحيث تؤخذ فيه المفردات الفقهية على مبنى اليقين والقطع. ولم يكن الأمر سهلاً في ظروف تواجد قوى فكرية وسياسية اجتمعت للتأسيس لمبدأ الشك في الأفكار الثابتة كالتوحيد والإمامة وأحكام العبادات والمعاملات.

كان من السهل في ذلك الزمان إفتراء رواية كاذبة عن النبي (ص) وجعلها أساساً للعمل بين الناس. ونضرب مثلاً في ذلك رواية: "عن قيس بن الربيع، قال: سألت أبا إسحاق عن المسح، فقال: أدركت الناس يمسحون [على الخفين] حتى لقيت رجلاً من بني هاشم لم أر مثله قط: محمد بن علي بن الحسين (ع) فسألته عن المسح على الخفين، فنهاني عنه. وقال: (لم يكن أمير المؤمنين علي (ع) يمسح عليها). وكان يقول: (سبق

⁵⁵⁴ سورة البقرة: الآية 43.

⁵⁵⁵ من لا يحضره الفقيه ج 2 ص 10.

الكتاب المسح على الخفين). قال أبو إسحاق: فما مسحتُ مذ نهاني عنه⁵⁵⁶.

وقف الإمام الباقر (ع) جداراً صلباً متماسكاً أمام محاولات وضْع الأحاديث المَكذوبة بما يناسب توجهات السلطان ذلك الزمان. والنتيجة، أن المؤمنين إلتزموا بمنهج الإمام (ع) في عرض الحديث الصادق عن رسول الله (ص). وبعد قرون مديدة فتحنا أعيننا لنرى كيف حفظ الإمام الباقر (ع) دينَ محمدٍ (ص) من غبار الآراء الغريبة عن الدين السماوي.

عناصر النظام المعرفي الفقهي:

لو حللنا العناصر التي تكونها المدرسة الفقهية للإمام الباقر (ع) لوجدناها تصل إلى خمسة عناصر:

أولاً: الإطار الفكري: وهي أن المدرسة مبنية أساساً على مصدرين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والأصل فيها طاعة الله تعالى، وإتباع أحكامه. وهذا هو إطار الدين السماوي.

فالدين جامع مانع، قال (ع): (أن الله لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، وبيّنه لرسوله (ص)، جعل لكل شيء حداً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه)⁵⁵⁷. وهو يعني أن الدين، في

⁵⁵⁶ الإرشاد ص 281.

⁵⁵⁷ بصائر الدرجات ص 6.

قضايا الاخلاق والعبادات والمعاملات، قد اكتمل في رسالة محمد (ص)، فلا حاجة إلى إضافات أو استحسنات من أي نوع.

والمقياس فيه تقوى الله، كما قال (ع): (قام رسول الله (ص) على الصفا، فقال (ص): يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب: إني رسول الله إليكم، وإني شفيقٌ عليكم، وإن لي عملي ولكل رجلٍ منكم عمله، لا تقولوا إن محمداً منا وسندخل مدخله، فلا والله ما أوليائي منكم، ولا من غيركم يا بني عبد المطلب إلا المتقون. ألا فلا أعرفكم يوم القيامة تأتون تحملون الدنيا على ظهوركم، ويأتون الناس يحملون الآخرة، إلا إني قد أعدت إليكم فيما بيني وبينكم، وفيما بيني وبين الله عزّوجلّ فيكم)⁵⁵⁸.

ولا نخوة الجاهلية بعد اليوم، قال (ع): (لما كان يوم فتح مكة قام رسول الله (ص) في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال (ص): أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب إن الله تبارك وتعالى قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، والتفاخر بأبائها وعشائرها. أيها الناس إنكم من آدم، وآدم من طين، ألا وإن خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له، ألا وإن العربية ليست بأبٍ والدٍ ولكنها لسانٌ ناطقٌ، فمن طعن بينكم وعلم أنه يبلغه رضوان الله حسبه، ألا وإن كل دم أو مظلمة أو إحنة⁵⁵⁹ كانت في الجاهلية فهي مَطْلٌ⁵⁶⁰ تحت قدمي إلى يوم القيامة)⁵⁶¹.

⁵⁵⁸ الكافي ج 8 ص 182.

⁵⁵⁹ إحنة: حقد وضغن.

⁵⁶⁰ مَطْلٌ: تماطل وتسويف بالوفاء بين الناس.

⁵⁶¹ بحار الأنوار ج 21 ص 138.

فالفكرة الأساسية أن الدين له تكاليف وواجبات، ولا يحابي أحداً، فكل إنسان هو مؤسسة وكيان مستقل يعمل في الدنيا، ويُحاسب على عمله في الآخرة، وليس للقرابة نصيب في ميزان الأعمال، ما لم تكن الأعمال نفسها صالحة وخيرة. فكل إنسان يُثقل ظهره الوزر الذي يحمله، وكلّ يحمل صحيفة أعماله معلقة في رقبته فتصبح جزءاً من شخصيته أينما حلّ في الآخرة.

وعندما جاء الإسلام ألغى نخوة الجاهلية، وهي النخوة التي كانت تفضل الظالم على المظلوم بسبب القرابة أو العشيرة، كان التفاخر بالأباء مقياس التفاضل، ألغى الإسلام كل ذلك وجعل العمل الصالح أساس تفاضل الناس فيما بينهم وبين ربهم تعالى.

وفي السباق نحو العلم والتعلم، قال (ع): (سارعوا في طلب العلم، فولذي نفسي بيده لحديث واحد في حلال وحرام، تأخذه عن صادقٍ خيرٍ من الدنيا وما حملت من ذهب وفضّة، وذلك أن الله تعالى يقول: (... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)⁵⁶²).

والأصل في الإطار الفكري هو أن الأحكام الشرعية إنما جاءت لتُطاع من قبل المكلفين. فطاعة الله تعالى هي العنصر الأساسي في تشريع الأحكام، كما يقول تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

⁵⁶² سورة الحشر: الآية 7.

⁵⁶³ المحاسن ص 227.

لِيَعْبُدُونَ⁵⁶⁴. والطاعة لله تعالى تعني التقوى، أي إتقاء معصيته وإتقاء عقابه.

ثانياً: الإطار الزمني: يعني أن الأحكام الفقهية في العبادات لها إطار زمني محدد. فالصلاة مثلاً مرتبطة بشروق الشمس وزوالها وغروبها. وهذا لا يتغير مهما تقدم الزمن، ومهما تبدل المكان. وأشهر الحج مبنية على حساب الأشهر القمرية، وهذا لن يتغير أيضاً، وكذلك الصوم في شهر رمضان، ونحوها. وقد مرّ بحث هذا الموضوع آنفاً.

ثالثاً: تنظيم السيطرة على المعلومات: ونعني به السيطرة على تفسير المعلومات. وما يبدل الدين إلا التفسير الخاطئ للمعلومات الدينية، حيث يحرف المبادئ عن جادتها، ويغير مسيرة الناس عن طريقهم المرسوم. وفي ذلك روايات، منها:

1 - عن أبي بصير، قال: كنت عند أبي جعفر (ع)، فقال له سلام: إن خيثمة بن أبي خيثمة حدثنا أنه سألك عن الإسلام، فقلت له: (إن الإسلام من استقبل قبلتنا، وشهد شهادتنا، ونسك نسكنا، ووالى ولينا، وعادى عدونا، فهو مسلم). قال (ع): (صدق). وسألك عن الإيمان، فقلت:

⁵⁶⁴سورة الذاريات: الآية 56.

(الإيمان بالله، والتصديق بكتابه، وأن أحبّ في الله وأبغض في الله). فقال
(ص): (صدق خيثمة)⁵⁶⁵.

والفارق هنا بين الإسلام والإيمان هو أن الإسلام قولٌ وعملٌ
مطابق، والإيمان هو بالإضافة إلى القول والعمل، إنما هو تصديقٌ قلبي
بما قيل وعُمل.

2 - عن محمد بن مسلم، قال: سألت أبا جعفر (ع) عن الإيمان؟ فقال (ع):
(الإيمان ما كان في القلب، والإسلام ما كان عليه المناكح، والموازيث،
وتحقن به الدماء، والإيمان ليشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيمان)⁵⁶⁶.

3 - عنه (ع) قال: (قال رسول الله (ص): ألا أنبئكم بالمؤمن؟ المؤمن من
اتّمنه المؤمنون على أموالهم وأمورهم، والمسلم من سلم المسلمون من
لسانه ويده، والمهاجر من هجر السيئات، وترك ما حرّمه الله عليه)⁵⁶⁷.

4 - عنه (ع) قال: (إن أناساً أتوا رسول الله (ص) بعد ما أسلموا، فقالوا:
يا رسول الله أيؤخذ الرجل منا بما عمل في الجاهلية بعد إسلامه؟ فقال
(ص): مَنْ حَسَنَ إِسْلَامُهُ، وَصَحَّ يَقِينِ إِيمَانِهِ، لَمْ يَأْخُذْهُ اللَّهُ بِمَا عَمِلَ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ سَخَفَ إِسْلَامُهُ وَلَمْ يَصِحَّ يَقِينِ إِيمَانِهِ أَخَذَهُ اللَّهُ بِالْأَوَّلِ
وَالْآخِرِ)⁵⁶⁸.

⁵⁶⁵ المحاسن ص 284.

⁵⁶⁶ المحاسن ص 285.

⁵⁶⁷ المصدر السابق.

⁵⁶⁸ المحاسن ص 250.

5 - في رواية تقول: دخل شخص يُقال له أبو أيمن على الإمام الباقر (ع)، فقال: يا أبا جعفر يغرون الناس، ويقولون: شفاعة محمد! فغضب أبو جعفر (ع)، ثم قال: (ويحك يا أبا أيمن أغرّك إن عفت بطنك وفرجك، أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد (ص). ويحك، فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار. ما أحد من الأولين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد (ص) يوم القيامة).

ثم قال (ع): (إن لرسول الله (ص) الشفاعة في أمته، ولنا الشفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا الشفاعة في أهاليهم). ثم قال (ع): (وإن المؤمن من ليشفع في مثل ربيعة ومضر، فإن المؤمن ليشفع حتى لخادمه، ويقول: يا ربّ حقّ خدمتي، كان يقيني الحرّ والبرد)⁵⁶⁹.

يميّز الإمام (ع) هنا بين الإسلام والإيمان، فطالما قام المرجئة والقديرون بتشويشٍ على تلك الأفكار الأساسية في الإسلام. ويقمّ لنا تعاريف لهذه المصطلحات الأساسية:

الإسلام: هو الإقرار بالتوحيد والنبوة، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأداء الواجبات التعبدية من صلاة، وصيام، وزكاة، وموالة أهل البيت (ع)، والمعاملات، والموراث. وفي الإسلام حقنٌ للدماء، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. والإسلام يجبُ ما قبله من الأعمال المنافية للدين.

⁵⁶⁹ تفسير القمي ج 2 ص 202.

الإيمان: هو ما استقر في القلب، بالإضافة إلى القول والعمل، والمؤمن هو من ائتمنه المؤمنون على أموالهم وشؤونهم.

الهجرة: وهو أن المهاجر من هجر السيئات وترك الحرام، وهو معنى مرادف للهجرة من بيوت الكفر والوثنية كمكة مثلاً إلى مدن الإيمان والتوحيد، حيث الدين والإسلام كالمدينة مثلاً.

شفاعة أهل البيت (ع): معنى الشفاعة هو طلب النبي أو الولي من الله تعالى التجاوز عن ذنوب شخص ودفع الضرر عنه، ودليله قوله تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)⁵⁷⁰، والمقام المحمود هو شفاعته (ص) عند الحساب. وهو أن النبي (ص) يشفع في أمته، ويشفع أهل البيت (ع) في محبيهم ، وإلى ذلك قال تعالى: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)⁵⁷¹، فسرت أنها الشفاعة الكبرى لرسول الله (ص).

سلك الإمام الباقر (ع) كمنظّم للسيطرة على المعلومات الدينية، فقد صدّق ما نُسب إليه من قبل خيثة، وفرّق بين الإيمان والإسلام وشرح ذلك الفرق، وأوضح معنى الشفاعة، وأدانَ ذلك الذي استخف بفكرة الشفاعة لجهله بها وبأحوال يوم القيامة. فكان غضب الإمام (ع) لله تعالى.

⁵⁷⁰ سورة الإسراء: الآية 79.

⁵⁷¹ سورة الضحى: الآية 5.

رابعاً: **الإنفتاح على العقل**: أن من أهم أصول الإجتهد في الدين هو الإنفتاح على العقل. وطالما كان الفقه يمسّ الحياة اليومية للإنسان فلا بد له من تحصيل الدليل العقلي، ومواكبة التغيرات في الحياة. ولا نعني بذلك تدخل العقل في الأحكام الشرعية، بل أن العقل يساعد الإنسان على عبادة ربه بالصورة الواقعية التي أرادها الله تعالى. فالعابد العالم أفضل من العابد الجاهل.

يسانده تلك الفكرة قول عن الإمام الباقر (ع): (قال رسول الله (ص): لم يُعبد الله عزّوجلّ لشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال: الخَيْرُ منه مأمول، والشَّرُّ منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمره، ولا يتبرّم بطلاب الحوائج قبّله، الذلُّ أحبّ إليه من العزّ، والفقْرُ أحبّ إليه من الغنى، نصيبه من الدنيا القوت، والعاشرة وما العاشرة لا يرى أحداً إلا قال هو خيرٌ مني وأتقى)⁵⁷².
ربط هذا النص العقل المؤمن بحسن السلوك، وحسن التحصيل، وجدية البحث عن الحقائق. وقد شرحنا هذا النص آنفاً.

خامساً: الإنسان هو محور النظام الفقهي: أن محور النظام الفقهي هو الإنسان المكلف بتكاليف الدين، وكلّ شيء مخلوقٌ في خدمته وتسهيل

⁵⁷² الخصال ص 433.

حياته. فالإنسان لديه عقلٌ وروحٌ وجسدٌ، والفقهاء يتعامل مع تلك العوامل بصورة متضافرة.

يشير الإمام (ع) إلى أن الإنسان هو محور الدعوة إلى الله تعالى: (إنما المؤمن الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرج منه سخطه من قول الحق، والذي إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدي إلى ما ليس له بحق)⁵⁷³، (سئل النبي (ص) عن خيار العباد؟ فقال (ص): الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤوا استغفروا، وإذا أعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا)⁵⁷⁴. وقال النبي (ص): أن خياركم أولوا النهي. قيل: يا رسول الله ومن أولوا النهي؟ قال (ص): هم أولوا الأخلاق الحسنة والأحلام الرزينة، وصلة الأرحام، والبررة بالأمهات والآباء، والمتعاهدين للفقراء، والجيران، واليتامى، ويطعمون الطعام، ويفشون السلام في العالم، ويصلون والناس نيام غافلون)⁵⁷⁵.

في الحديث الأول يطرح الإمام الباقر (ع) التوازن والإستقرار في شخصية المؤمن، فالمؤمن لا يختل عنده ميزان الحق برضا أو سخط، ولا يحيد عن قول الحق لمنفعة أو ضرر يمسّه، بل يجعل الله بين عينيه في تصرفاته، سلباً تعاملت معه الحياة أو إيجاباً.

⁵⁷³ الكافي ج 2 ص 234.

⁵⁷⁴ الكافي ج 2 ص 240.

⁵⁷⁵ المصدر السابق.

وفي الحديث الثاني يطرح التوازن في شخصية المؤمن من زاوية ثانية، وهي الزاوية النفسية، ويلخصها بالسرور وقت العطاء، والاستغفار وقت الإساءة، والشكر وقت الأخذ، والصبر وقت الابتلاء، والعفو وقت الغضب. وفي ذلك توازنٌ دقيقٌ في شخصية المؤمن بين الجانب النفسي والجانب الروحي.

وفي الحديث الثالث يطرح التوازن في شخصية المؤمن من زاوية ثالثة، وهي زاوية العمل الصالح، ويلخصها بصلة الأرحام، وبر الوالدين، ومساعدة الفقراء واليتامى، ونشر السلم الإجتماعي، وقيام الليل. ففي كل تلك الأحاديث الشريفة بناء لشخصية الإنسان المسلم، وصقله بالأخلاقية الدينية الشريفة.

النموذج الأخلاقي:

يشير إلى صلابة المؤمن، فيقول (ع): (المؤمن أصلب من الجبل، الجبل يُستقل منه، والمؤمن لا يُستقل من دينه شيء)⁵⁷⁶، و(لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان، حتى يكون فيه ثلاث خصال: حتى يكون الموت أحب إليه من الحياة، والفقر أحب إليه من الغنى، والمرض أحب إليه من الصحة)⁵⁷⁷، و(أن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا

⁵⁷⁶ الكافي ج 2 ص 241.

⁵⁷⁷ معاني الأخبار ص 189.

في دينه، والفلح في الآخرة، والمهابة في صدور العالمين)⁵⁷⁸، ثم قرأ (ع):
 (...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...) ⁵⁷⁹، وقرأ (ع): (الَّذِينَ هُمْ فِي
 صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
 فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الْعَادُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ. أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ)⁵⁸⁰.

وتلك أحاديث تجمعها الصفات الأخلاقية للمؤمن:

ففي الحديث الأول يشير إلى صلابة المؤمن في دينه، فلا يهتز
 للأعاصير الفكرية وكأنه الجبل الأشم الشامخ.
 وفي الحديث الثاني يعرض ثلاث خصال في شخصيته،
 بخصوص الموت والفقر والمرض. بمعنى أن هذا الإنسان ارتقى إلى منازل
 في معرفة الله تعالى بحيث أصبح الموت أحب إليه من الحياة لأن الموت
 يوصله إلى الله عزوجل وهو في أحسن حال. والفقر أحب إليه من الغنى،
 لأن في الفقر خفة في الحساب، وعدم تحمل أوزار المال الحرام ولا سلب
 حقوق الناس. والمرض أحب إليه من الصحة. لأن في المرض معاناة

⁵⁷⁸ الخصال ص 138، و 152.

⁵⁷⁹ سورة المنافقون: الآية 8.

⁵⁸⁰ سورة المؤمنون: الآية 1 - 11.

يعدُّها تخفيفاً لذنوبه وسيئاته، وفي كل ذلك فهو أقرب إلى الله تعالى في تلك الحالات مما لو كان يأمل بالحياة الطويلة البعيدة عن مرمى الآخرة.

قال (ع) أيضاً: (أجب أحاكم المسلم، وأحبب له ما تحب لنفسك وأكره له ما تكرهه لنفسك، إذا احتجت فاسأله، وإذا سألك فاعطه، ولا تدخر عنه خيراً فإنه لا يدخره عنك، كن له ظهراً فإنه لك ظهراً، إن غاب فاحفظه في غيبته، وإن شهد فزده وأجله وأكرمه فإنه منك وأنت منه، وإن كان عليك عاتباً فلا تفارقه، حتى تسلّ سخيمته⁵⁸¹ وما في نفسه، وإذا أصابه خير فاحمد الله عليه، وإن أبتلي فاعضده وتحلّ عقدة له⁵⁸²).

في هذا الحديث فيضٌ من الفضائل الأخلاقية الإجتماعية، فالإمام (ع) يريد من المسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يزيل الحواجز التي تمنع المؤمن من الإتصال بأخيه فإذا احتجت مالا أو أمراً فاسأله، وإذا سألك فاعطه، بل احفظه في غيبته، ولا تستغيبه ولا تذكر مساوئه للناس، ولا تنفر منه إذا عاتبك على تقصير منك، وإن كان غاضباً عليك فحاول أن تنزع فتيل غضبه بتوضيح الحقائق، وإن رزق بأمرٍ من أمور الدنيا فافرح لفرحته، وإذا أبتلي فكن له أخاً عضداً يسانده في المحن والمهمات. هكذا يريد الإسلام من الإنسان أن يكون محور النظام الفقهي، وأن يكون المحرك الرئيسي في تحريك المشاعر الأخوية، وتوزيع الثروة

⁵⁸¹ تسلّ سخيمته: السخيمة معناها الحقد والضغينة. وتسلّ سخيمته تعني تنتزع حقه وضغينته.

⁵⁸² روضة الواعظين - الفثال النيسابوري ص 322.

الإجتماعية بالعدل بين الناس، وأن يكون راقياً، مؤثراً غيره على نفسه،
يسمو فوق مشاعر حب الذات والأنانية.

الفصل الخامس

المنهج العلمي

مقدمة. عناصر المنهج العلمي. معالم المنهج العلمي.
طرق المنهج العلمي: أ- في تفسير القرآن. ب- في الأخذ بالحديث.
مسالك العلم عند الإمام الباقر (ع). نماذج في المنهج العلمي. وظائف
الإمامة الكبرى وحقوقها. مشخّصات الإمامة الكبرى.

مقدمة

المنهج العلمي هو الطريقة العلمية المستقرّة من كلام الإمام الباقر (ع)، حيث كان يعرض الأدلة والحجج لموضوع ما، فنتج عنه معرفة جديدة صحيحة، أو يصحح معرفة خاطئة سابقة.

وطالما كان الإنسان بطبيعته باحثاً عن الحقيقة، وساعياً لكشف الأفكار العلمية التي توصله إلى معرفة دينه وموقعه في هذا العالم المضطرب بالإتجاهات الفكرية، والإجتهاادات الخاطئة أحياناً، فإنّ المنهج العلمي الصحيح يوصله إلى منبع المعرفة الحقيقية. فالإنسان يلحظ الفكرة، فتتبادر في ذهنه أسئلة متعلقة بها، ويكون إفتراضاً معيناً إلى أن يأتيه الجواب السديد من مصدرٍ يطمئن إليه، فيذعن عقله، وتطمئن روحه إلى الحقيقة التي عرفها للتو.

عاش الإمام الباقر (ع) خلال الدولة الأموية، ولمس إفلاسها، وتنبأ بإنحلالها وأفولها، لكنه استطاع بناء كيان فكري عند المسلم قوامه القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأسّس مدرسة علمية ضمت أعداداً من الفقهاء والمفسرين وعلماء عقائد، وبذلك أسس للإسلام أن يحتلّ قلوب الناس في زمن غرق بفوضى الأفكار والمفاهيم الخاطئة. وكانت الساحة الفكرية مزدحمة بكلّ من كان يذلو بدلوه في الآراء، والمذاهب، والحلال والحرام. فكان وجود الإمام (ع) منار هداية لعرض الإسلام الأصيل الذي جاء به سيد المرسلين محمد (ص)، نقيّاً من الأفكار الدخيلة.

وعندما يؤمن الإنسان بديانة سماوية، فإنه لا يمكنه القبول بآراء أفرادٍ يطلون له الأحكام ويحرّمونها، لمجرد الإستحسان، أو الرأي

الشخصي، حتى لو إكتسب هؤلاء مقداراً من العلم. بل يريد أن يعتمد في إيمانه على معلومات قطعية، ومعرفة ربانية ممضاة من قبل رسول الله (ص)، والوحي.

فالعلم الديني مبني على الحقائق، وليس مبنياً على الآراء أو الأهواء. ولذلك فإن العلم الحق يتحدى كل الأفكار الباطلة ويهزمها. ولا يمكن للفرضية أن تصبح نظرية قطعية ما لم يتم التحقق منها، ويتم التأكد من منبعها الصحيح. فلا بد هنا من مرجع علمي ذو كمالية في علم الدين نرجع إليه.

ومن خلال دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية نجد أن المعين الذي لا ينضب، والذي نستمد منه علومنا الدينية بعد رسول الله (ص) إلى يومنا هذا هو علم الإمام من آل البيت (ع).

عناصر المنهج العلمي

هناك ثلاثة عناصر للمنهج العلمي، وهي بمجملها تبين طبيعة سعي الإنسان في البحث عن العلم، ودور آل البيت (ع) في كشف ذلك العلم ورفده بالمفردات الحقيقية. وتلك العناصر تُمثل بمراحل هي: مرحلة الإستفهام، ومرحلة الإفتراض، ومرحلة التحليل والإستنتاج.

الأول: مرحلة الإستفهام: فالناس عموماً تتحرى الحقائق، وعندما تبحث عن مظانها في العلم تبدأ بالسؤال. فهي بعد أن تعيها التفاسير والتعليقات

البشرية للأشياء والظواهر تأتي وتساءل. فالسؤال هو مفتاح طلب العلم، وهو الخطوة الأولى في المنهج العلمي.

ولو وضعنا نوايا السائلين جانباً ونظرنا إلى السؤال بما هو سؤال لرأينا أن الأسئلة في جوهرها علامات تعيش في أجواء البحث عن الجواب. فبسبب طموح الإنسان نحو النزوع للعلم ومعرفة حقائق الأشياء، فهو يخلق جواً من الإستفهام للوصول إلى حقل المعرفة. كما يسأل السائل: ما هو [الله]؟⁵⁸³ ، أو يسأل نافع بن الأزرق: أخبرني عن الله عزّوجلّ متى كان؟⁵⁸⁴ ، أو يسأل أحد الخوارج: يا أبا جعفر أيُّ شيء تعبد؟⁵⁸⁵

الثاني: مرحلة الافتراض: يفترض الناس أموراً من خلال سعيهم في الحياة. والافتراض الفكري هو تقديم تفسير عقلي نسبي محدود لظاهرة معينة أو حكم معين.

وقد يكون الافتراض خاطئاً، كمن يفترض أن الله تعالى يحكمه حيّر الزمان والمكان. فيسأل: ما هو؟ كيف هو؟ أين هو؟⁵⁸⁶ وآخر يفترض أن الخالق عزّوجلّ لا بد أن تراه عيون البشر، ويقصد العيون لا القلوب!⁵⁸⁷

⁵⁸³ الإحتجاج ج 2 ص 48.

⁵⁸⁴ المصدر السابق.

⁵⁸⁵ المصدر السابق.

⁵⁸⁶ المصدر السابق.

⁵⁸⁷ المصدر السابق.

وثالث يسأله إستفهاماً: أأراد الله المعاصي؟⁵⁸⁸ وظاهره إفتراض أن الناس مجبورون على الأفعال. فيجيبهم (ع) على كل تلك الأسئلة، ويفهمهم بها. وقد يكون الإفتراض صحيحاً، كمن يسأله عن قومٍ شهدوا الحق وكانوا كاذبين؟ فيجيب الإمام (ع): (المنافقون حين قالوا لرسول الله (ص): نشهد أنك لرسول الله، فأنزل الله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)⁵⁸⁹(590).

وكمن يسأله (ع) عن روح من الله في قوله تعالى: (... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ (...)⁵⁹¹، فيجيب (ع): (هي مخلوقة خلقها الله بحكمته في آدم وعيسى)⁵⁹²، ولم يزد (ع) على ذلك. لأن الروح مرتبطة بالله تعالى فلا يخوض فيها، كما قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)⁵⁹³.

وطالما كانت الأفكار الدينية لا تخضع للتجارب العملية كالكيمياء والفيزياء، صار لزاماً علينا الأخذ من المصدر الصحيح. لأن الخطأ في

⁵⁸⁸ تنكرة الخواص ص 302.

⁵⁸⁹ سورة المنافقون: الآية 1.

⁵⁹⁰ الإحتجاج ج 2 ص 57.

⁵⁹¹ سورة النساء: الآية 171.

⁵⁹² الإحتجاج ج 2 ص 50.

⁵⁹³ سورة الإسراء: الآية 85.

إختيار المصدر سيؤدي إلى خلل في المنهج العلمي، فيدفعنا نحو سلوك الطريق الخاطئ. فلا بد في فحصها إذن من مصدر موثوق كنبي أو وصي نبي.

الثالث: مرحلة التحليل والنتيجة: في هذه المرحلة يتعين أن يكون هناك إستنتاج فكري نابع من تحليلٍ عقليٍّ ذو معطيات. فالعقل يستطيع أن يفكك الأجزاء العلمية، ثم يُعيد تركيبها بصيغة ثانية أكثر قبولاً للإنسان. وهذا هو التحليل، حيث يبدأ الإنسان في هضم الحقيقة العلمية الأولية، ثم يعيد تجميعها بما يناسب إدراكه وفهمه. خصوصاً إذا لاحظنا أن الإسلام أعطى فسحة للعقل بالتحرك والتفكير والتحليل والمطابقة.

كان الإمام (ع) يعطي الفكرة، ويترك للعقل البشري إستنتاج قيمتها وأهميتها. فما أن نسمع جوابه (ع) حتى نبقي مشدودين للنسيج الفكري الإسلامي الذي يطرحه (ع)، ومنسجمين مع الرابط الذي يوصله (ع) برسول الله (ص).

وبذلك يكون الإمام الباقر (ع) قد رفع عنا غطاء الجهل، وأوصلنا إلى معرفة المجهول من الأحكام والعقائد. فكما يكتشف الفيزيائي قوانين الجاذبية والحرارة وهو يراقب العالم الطبيعي، فإن طالب العلم يكتشف الحقائق الكامنة في الدين عن طريق سماع الإمام (ع) وهو يشرح الأحكام الشرعية، ويعلل عقائد التوحيد والنبوة والإمامة. ولذلك تعلم التلاميذ من استاذهم (ع) الطريق العلمي لمعرفة الدين.

ولذلك عندما قال (ع) لهم أن النبي (ص) نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال. قالوا له: أين هذا في كتاب الله؟ فقد أوردوا أن يعرفوا الطريق العلمي لفهم الدين. فقال لهم أنها في سورة النساء الآية 114، وسورة النساء الآية 5، وسورة المائدة الآية 101⁵⁹⁴.

وعندما أفترض أهل السؤال مختلف الإفتراضات عن الخالق عزوجل في الماهية والكيفية والأين، كان الله سبحانه وتعالى في كلام الإمام (ع) هو: (المليك القادر الأوحد، لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)⁵⁹⁵. فقد وصف الخالق عزوجل بأجمل صفاته، لكنه لم يتطرق إلى ذاته أو جوهره سبحانه. وهذا ما كان يدعو له في كل الأحيان.

معالم المنهج العلمي عند الإمام (ع)

إنّ أهم خصيصة في أي علم هو المنهج الذي يسير عليه. فعلم التفسير مثلاً ليس مجرد مجموعة أفكار وكلمات، بل هو علمٌ منهجيٌّ في إطار المعرفة السماوية في السياق، وأسباب النزول، وحجية الظهور ونحوها. والمنهجية تتضمن القواعد التي يمكن أن يسير عليها ذلك العلم الشريف. ونفس الأمر ينطبق على علم الحديث النبوي.

⁵⁹⁴ الإحتجاج ج 2 ص 49.

⁵⁹⁵ المصدر السابق ج 2 ص 48.

فالإمام (ع) ومن أجل أن ينقل لنا المعلومة الشرعية الصادقة، صمّم وصفاً للحقائق الدينية تشرح لنا الأحكام الشرعية، ووصفاً للخالق عزّوجلّ بما وصف به نفسه، وعرضاً للأخلاق الدينية. وبذلك وَصَحَ للأمة منهجاً علمياً تسير عليه إلى ما شاء الله.

والقضية العلمية في الإسلام بدأت حيث بدأ القرآن الكريم، وحيث بدأت سنّة النبي (ص)، وبإكتمالهما إكتملت لدينا كمية هائلة من المعلومات تحتاج إلى منهج في التفسير، ومنهج في تطبيق المفاهيم على المصاديق. فكان المنهج العلمي للإمام الباقر (ع).

معالم المنهج العلمي:

يتطلب المنهج العلمي أموراً ومعالمَ أساسية، نستطيع أن نقدرها بستة معالم، وهي: الإستدلال التام، والثبوت في المنهج وعدم تغييره، وعرض الحقائق الدينية وتفسيرها، وكمالية الإجابة، ومفاتيح البحث، وصلاحية المعرفة الدينية.

1 - الإستدلال التام: ومعناه الدقة المتناهية في وضع الأمور في مواضعها. فالسؤال والجواب هما منظومة معرفية لتحديد موضوع الحكم الشرعي والبناء عليه في الاحكام. فإذا كان السؤال حلقة من حلقات البحث عن الحقيقة، يكون الجواب الصحيح عليه إشفاءً لغليل السائل في طلب المعرفة. ولكن إذا استبطن السؤال توجيهاً نحو فكرة خاطئة، كان على الإمام (ع) التعامل مع السؤال، وإعادة توجيهه الوجهة الصحيحة.

لنأخذ مثلاً، عندما يفسر الإمام (ع): الغضب الالهي في آية (...)
وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى⁵⁹⁶،
فإنه يعرفه بإرادة العقوبة الالهية. هنا يرفع الإمام (ع) معنى التجسيم العالق
في إذهان الناس إلى معنى الإرادة الالهية في العقوبة، وينزه الخالق
عز وجل من أفكار التجسيم والتشبيه. فأصبح المسلم يفهم الآية بإنسجام
وتوازٍ مع آيات الكتاب السماوي الأخرى التي تنزه الخالق عن التشبه
بالمخلوقات. وتلك وسيلة من وسائل الاستدلال التام.

وينضرب مثلاً آخر، وهو قوله (ع): (إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ: وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...) ⁵⁹⁷ يعني عدلاً، (... لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...) ⁵⁹⁸، قال (ع): (ولا يكون شهداء على
الناس إلا الأئمة والرسول (ع). فأما الأمة فإنه غير جائز أن يستشهدها الله
تعالى على الناس، وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة
بقل) ⁵⁹⁹.

**2 - الثبوت على المنهج وعدم تغييره: فالدين - وبالخصوص علمي
التفسير والحديث الشريف - ليس علماً تجريبياً يتغير بثبوت نتائج التجربة
أو عدم ثبوتها. بمعنى أن الإمام (ع) إذا شرح لنا تفسيراً لآية مثلاً، فذلك**

⁵⁹⁶ سورة طه: الآية 81.

⁵⁹⁷ سورة البقرة: الآية 143.

⁵⁹⁸ سورة البقرة: الآية 143.

⁵⁹⁹ مناقب آل أبي طالب ج 1 ص 272.

تفسير ثابت لا يستطيع أحد أن يفنّده أو يغيّره بدعوى الإستحسان، أو الرأي الشخصي.

وعندما ينقل الإمام (ع) لنا حديثاً عن النبي (ص)، فإن فحوى الحديث ثابت، والحكم المتعلق به ثابت لا يتغير، وكذلك المنهج في الأخذ بالحديث فإنه ثابت أيضاً. أي ثبوت معايير الأخذ بصحة الحديث هي نفسها من زمن الإمام الباقر (ع) ولحد اليوم ثابتة ولن تتغير.

قال (ع): (لو أننا حدّثنا برأينا ضللنا كما ضلّ من كان قبلنا، ولكنّا حدّثنا ببينّة من ربنا بيّنها لنبيه (ص) فبينها لنا)⁶⁰⁰.

3 - عرض الحقائق الدينية: وعرض الحقائق وتفسيرها من وظيفة الإمام (ع)، فهو يقوم بإعطاء الحكم الشرعي فيما يخص العبادات والمعاملات، ويقوم بشرح حقائق العقائد في التوحيد والنبوة والإمامة. وما يميّز جواب الإمام المعصوم (ع) عن غيره هو أنّ جوابه لسؤال ما يتكئ على:

أ - مطابقته للحقيقة: فجواب الإمام (ع) جواب يطابق الحقيقة الشرعية الواقعية، بينما قد يكون جواب الباحث صحيحاً، وربما غير صحيح لعدم تطابق المقدمات مع النتيجة، أو لنقص في المعرفة الخاصة بالسؤال.

⁶⁰⁰ إعلام الوري ص 264 - 265.

ب - سرعة البديهة: فقد يستغرق جوابه (ع) لحظة كما في المناظرات، بينما يستغرق معرفة الجواب لعالمٍ من سائر العلماء مثلاً وقتاً أطول، وجهداً أعظم.

ج - العلم الإلهامي: علم الباحث علمً إكتسابي فقط، وعلم الإمام (ع) علمً إكتسابي من آبائه (ع)، وإلهامي مسدداً من قبل الله تعالى. فيكون محصل العلم عنده (ع): يجمع بين الإلهام من الله تعالى، والإكتساب عن رسول الله (ص).

ولا نجدُ تفسيراً لجرأة بعض علماء المذاهب وغيرهم في الوقوف إمام الإمام الباقر (ع) في القضايا العلمية، ومناظرته مناظرة الند للند!!

4 - كمالية الجواب: أن القيمة العلمية للموضوع يُحدّد بدقة الجواب وتكامله، لا بصعوبة السؤال وشدته. فقد كان العديد من أصحاب الإستفسارات والأسئلة، أمثال: هشام بن عبد الملك، ونافع مولى عمر بن الخطاب، والحسن البصري، وعمرو بن عبيد وغيرهم يحاولون نصب فخٍّ للإمام (ع) حتى يقع في جوابٍ مفاده: لا أعلم.

لكن الإمام (ع) بسبب علمه الإكتسابي والإلهامي كان يُجيب على جميع أسئلتهم الطبيعية غالباً، والغريبة أحياناً، ولم يذكر لنا التاريخ ولا لمرة واحدة أنه قال: لا أعلم، أو لا أدري، أو أتركوني فترة من الزمن أبحث عن الجواب. وفي ذلك دلالة عظيمة على عصمته (ع) من الخطأ، والجهل، والسهو، والنسيان. وكان (ع) فوق ذلك مسدداً من قبل الله تعالى. ذلك أن

علم الدين ينبغي عقلاً أن يأتي، بعد النبي (ص)، من إنسانٍ معصومٍ عن الخطأ، في علمه وسلوكه.

وهذا هو الفرق بين العلم الديني والعلوم التجريبية كالفيزياء والهندسة مثلاً، ففي العلوم التجريبية يستطيع العالم التجريبي أن يغير ويصحح حتى يصل النتيجة، ولا يستطيع الإنسان فعل ذلك في الدين السماوي. فينبغي أن يكون مصدره صحيحاً من البداية، كما أشرنا سابقاً.

مقدار العلم في جملة (لا أدري):

ولكن، وللمقارنة العلمية أن مالك بن أنس (ت 179 هـ) صاحب المذهب المالكي، قال: "من فقه العالم أن يقول لا أعلم"⁶⁰¹، وقال: "إنما أنا بشرٌ أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"⁶⁰². وقال الشعبي (ت 103 هـ): "لا أدري نصف العلم"⁶⁰³. بينما كان أئمة أهل البيت (ع) يؤكدون أنهم (عيبة علم الله)⁶⁰⁴ أي الخزينة التي يوضع فيها العلم الألهي، و(نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله)⁶⁰⁵.

⁶⁰¹ سير أعلام النبلاء ج 8 ص 69، 77.

⁶⁰² جامع بيان العلم وفضله - ابن عبد البر ج 2 ص 32.

⁶⁰³ الآداب الشرعية - محمد بن مفلح ج 2 ص 58.

⁶⁰⁴ الكافي ج 1 ص 193.

⁶⁰⁵ بحار الأنوار ج 23 ص 199.

وقد قيل في مدرسة الحديث والرأي أنه: "من قال لا أعلم أو لا أدري فقد أفنى"⁶⁰⁶، وربما أُريد منه أن السائل يعلم أن المسؤول لا يملك العلم، فليسأل غيره. وأتفق الفقهاء من مختلف المذاهب بأن المسلم لا يجوز له أن يقول في دين الله ما لا يعلم. قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)⁶⁰⁷. وفي الحديث الشريف: (... من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)⁶⁰⁸. وقال أمير المؤمنين علي (ع): (لا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم)⁶⁰⁹، منطوقاً: هو الإقرار بعدم العلم، وهو إنذارٌ للذين كانوا يفتنون بغير علم، ومفهوماً: إرجاعهم إلى أئمة أهل البيت (ع)، أهل العلم والذكر والمعرفة.

ذكر ابن الجوزي (ت 597 هـ) قصة لمالك (ت 179 هـ) "حين سأله رجل عن مسألة، فقال: لا أدري. فقال الرجل وهو ينكر جوابه: قد سافرت البلدان إليك! فأجابه: إرجع إلى بلدك وقل: سألتُ مالكا، فقال: لا أدري"⁶¹⁰.

والحادثة وإن تُذكر على نحو تمجيد مالك بن أنس وعرض تقواه في الفتوى، إلا أنها تقدح في أعلميته أيضاً بوجود أئمة الهدى كالإمام

⁶⁰⁶ الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ج 1 ص 279.

⁶⁰⁷ سورة النحل: الآية 116.

⁶⁰⁸ مسند أحمد بن حنبل ج 4 ص 245.

⁶⁰⁹ سير أعلام النبلاء ج 2 ص 191.

⁶¹⁰ صيد الخاطر - ابن الجوزي ص 81.

الباقر (ع) والإمام الصادق (ع) في زمانه. ولسانُ أئمة أهل البيت (ع) كان يصدق: (نحن أمناء الله، نحن مستودع مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال الله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)⁶¹¹612.

وربما لا تكتمل المعاني الحقيقية في علمٍ إكتسابي مجرد - في الدين - لأغلب المحصلين من أهل العلم. فلا يصل المكتسب إلى اليقين في إبتغاء المطالب! ولا تكتمل عنده المعاني الحقيقية. وما إختلاف تقاسيرهم إلا شاهد صدقٍ على عدم وصولهم اليقين في المعرفة الدينية، كالزمخشري (ت 538 هـ)، والرازي (ت 605 هـ)، والسيوطي (ت 911 هـ) لم يفتوا بقولٍ واحدٍ، بل أفتوا بأراءٍ متعددةٍ، وقالوا: (يحتمل)، و(أعترض عليه)، و(يمكن)، و(ها هنا بحثٌ وفيه شيء)، وأحياناً ينقض بعضهم بعضاً.

5 - مفاتيح البحث: لو درسنا مفاتيح البحث في أقوال الإمام (ع) لرأيناها تصل إلى أربعة مفاتيح:

⁶¹¹ سورة الأنعام: الآية 153.

⁶¹² بصائر الدرجات ص 62.

الأول: تعريف الموضوع. فالإمام (ع) يبدأ في أجوبته، بتعريف الموضوع قبل الإجابة عليه. فإذا تم تعريف الموضوع تحددت معالمه عند السامع. مثلاً: عرّف (غضب الله) في قوله تعالى: (... وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَخْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ)⁶¹³ بالعذاب. أو بصورة أدق: إرادة العقوبة الإلهية. وعرّف (اليد) في قوله تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي...)⁶¹⁴ بالقوة والمنعة، وعرّف (وجه الله) في قوله تعالى: (لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...)⁶¹⁵ بدين الله تعالى. وتحديد الموضوع هو البداية للفهم الحقيقي للجواب مورد النظر.

الثاني: تصميم الموضوع. فالإمام (ع) يُصمّم طبيعة الدخول في الموضوع وطبيعة الخروج منه. ففي قضية (الغضب الإلهي)، صمّم الموضوع بهذا الشكل: (... فمن زعم أن الله يغيّره الغضب والرضا ويزول عن هذا، فقد وضعه بصفة المخلوق)⁶¹⁶. وفي قضية (اليد)، صمّم الموضوع: (... ويقال لفلان عنده أيادٍ كثيرة أي فواضل وإحسان، وله عندي يد بيضاء أي نعمة)⁶¹⁷.

⁶¹³ سورة طه: الآية 81.

⁶¹⁴ سورة ص: الآية 75.

⁶¹⁵ سورة القصص: الآية 88.

⁶¹⁶ الإحتجاج ج 2 ص 49.

وفي قضية (وجه الله)، صَمَّ الموضوع: (... الله أعظم من أن يوصف، ولكن معناها كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا دينه، نحن وجه الله الذي يؤتى الله منه...) ⁶¹⁸. وإذا كان معنى وجه الله تعالى هو دينه، فهم (ع) يمثلون الدين في المبدأ والمصداق معاً بقوله (ع): (نحن وجه الله...). بمعنى أن لديهم علماً في الدين على صعيد النظرية، ويطبقونه تطبيقاً تاماً على أنفسهم على صعيد المصداق، ولا يُنقصون من ذلك شيئاً أبداً ولا يزيدون.

الثالث: إنتخاب العناوين الفرعية. ينتخب الإمام (ع) العناوين الفرعية المتعلقة بصلب الموضوع. وتلك لها رابطة في إحكام النسيج العلمي للقضية موضع البحث. مثلاً في (الغضب)، كان العنوان الفرعي هو إمتلاك المخلوق صفات الغضب، وتغير حاله من حال الرضا والسعادة إلى حال الغضب والإستفزاز. وتلك صفة المخلوق الضعيف. ولا يمكن أن تنطبق تلك الصفة على صفات الخالق المطلق الذي لا تعتريه تلك الصفة إطلاقاً. بينما كان العنوان الرئيسي هو نفي التجسيم والتشبيه عن الخالق جلّ وعلاً.

وفي موضوع (اليد)، كان العنوان الفرعي هو إمتلاك العبد للعضو المخصوص على نحو الحقيقة. أما على نحو المجاز فاليد هي القوة

⁶¹⁷ بحار الأنوار ج 46 ص 288.

⁶¹⁸ بصائر الدرجات ص 71.

والمنعة. بينما كان العنوان الرئيسي هو نفي التجسيم والتشبيه عن الخالق عزّوجلّ أيضاً.

وفي موضوع (وجه الله)، كان العنوان الفرعي هو العضو المخصوص على نحو الحقيقة. أما على نحو المجاز، وهو مراد الآية، فالوجه هو الدين. بينما كان العنوان الرئيسي هو عدم فناء الدين، لأنه مرتبطٌ بالله تعالى.

الرابع: النتيجة النهائية من الموضوع. فالجواب عند الإمام (ع) له هدفٌ منطقي محددٌ وهو إعطاء النتيجة النهائية، فإذا كان السؤال عن صفات الله تعالى، فلا بد أن تصل من الجواب إلى نتيجة مفادها نفي التجسيم والتشبيه. وبتعبيرٍ آخر نفي الإمام الباقر (ع) بتلك المصاديق القرآنية التجسيم بصورة نهائية في جميع أركان المعرفة الإسلامية. فالله عزّوجلّ لا يُعرف بالقياس، ولا يُدرك بالحواس، ولا يُشبه بالناس.

وبتلك الطريقة قام الإمام (ع) بفتح مغاليق البحث في أغلب المواضيع الدينية التي سُئل عنها (ع). وبذلك أعطى للمواضيع الدينية المغلقة وضوحاً وعللاً شرعية ومنطقية. ولذلك كان مناوئوه يخشون من علمه (ع) لأنه كان يكشف جهلهم، وعدم إحاطتهم بالشرعية من حيث زعموا بأنهم محيطون بها.

6 - صلاحية المعرفة الدينية: تعني صلاحية المعرفة مدى مطابقتها قول الإمام (ع) للحقيقة الدينية التي تضمنها كتاب الله المجيد، وسنة رسول الله

(ص). كان الإمام (ع) يؤكد على قضية الإمامة الشرعية لأهل البيت (ع)، وضرورة الإيمان بها: (نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سر الله...)⁶¹⁹، و(نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، نحن الحجة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض)⁶²⁰. وإذا تم الإيمان بالولاية الشرعية لأهل البيت (ع) ثبتت عند المكلف الصلاحية العقلية والشرعية لمضمون كلامهم (ع) من أوامر ونواهي ومستحبات ومكروهات ومباحات. وكانت المشكلة عبر التاريخ ولا تزال هي محاولة أعدائهم (ع) تجريد هؤلاء الأطهار (ع) من تلك الصلاحية الدينية الممنوحة لهم من قبل رسول الله (ص)، لنبث الحكم الشرعي الصحيح بين الناس.

طرق المنهج العلمي عند الإمام (ع)

وللمنهج العلمي طرق لا بد من سلكها، كالطريق الوصفي، والنوعي، والبلاغي. بمعنى أن العلم قوة عظيمة لا بد من حملها على مركب قوي لا تهزّه رياح الشك، ولا تزعزعه الأمواج العاتية للمغالطين. وإستخدام تلك الطرق يؤدي إلى تثبيت الكليات، وتصحيح الأخطاء، وتقوية المعاني بالبلاغة والفصاحة. نبحت فيما يلي ثلاثة طرق في المنهج العلمي للإمام (ع):

⁶¹⁹ بحار الأنوار ج 26 ص 245.

⁶²⁰ بحار الأنوار ج 26 ص 105.

1- **الطريق الوصفي:** وهو الطريق الذي يمكن تطبيقه من خلال حديثٍ في موضوع واحد على مواضيع متعددة. مثل: تعريف الإمام (ع) لليد على أنها القدرة، ومنها يُستنتج نفي التجسيم، وهي تنطبق على أشياء أخرى متعلقة بالموضوع مثل: الساق (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)⁶²¹ وهو كناية عن جدية الأمر، والوجه (لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ...) ⁶²² يعني دين الله، وهي أيضاً تنفي التجسيم والتشبيه.

2 - **الطريق النوعي:** ونعني به تصحيح الإمام (ع) للأخطاء الشرعية التي كان يروجها، بعلمٍ أو دون علم، أرباب المذاهب والتيارات الفكرية المضادة. وهي على نوعين:

أ - **أخطاء عشوائية:** وهي أخطاء يمكن أن تصدر من أشخاص لديهم مقدار من العلم، إلا أن نيتهم ربما لم تكن نية سوء، بل لمجرد إستحداث مجدٍ إجتماعي، والظهور أمام أتباعهم بمظهر المقتدرين في العلم. ونلخصه بتعبير الإفتاء بغير علم. أمثال الحسن البصري، وعمرو بن عبيد ونحوهم.

⁶²¹ سورة القلم: الآية 42.

⁶²² سورة القصص: الآية 88.

وقد حرّم الإسلامُ الإفتاءَ بغير علم، كما ورد عن الباقر (ع) قوله: (من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه)⁶²³.

ب - **أخطاء منهجية:** وهي أخطاء شرعية لها نظريات ومنهجية يؤخذ بها، ومن ذلك نظرية التجسيم والتشبيه، ونظرية القياس، ونظرية المصالح المرسلّة، ونظرية الإستحسان، ونحوها.

فقوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)⁶²⁴، كلامٌ موجّهٌ إلى المكذّبين الذين لم يسجدوا لله في الدنيا، فيشتد الأمر عليهم، ويتفاقم في الآخرة، فيدعون إلى السجود لله خضوعاً يوم القيامة ولكن لا يستطيعون لإستقرار ملكة التكبر والجحود في سرائرهم. في كتاب (صحيح البخاري) أورد حديثاً عن النبي (ص) يقول فيه: "يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة"⁶²⁵، وعن أبي هريرة قال أن رسول الله (ص) قال في قوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)⁶²⁶: يكشف الله عن ساقه⁶²⁷.

⁶²³ الكافي ج 1 ص 42.

⁶²⁴ سورة القلم: الآية 42.

⁶²⁵ صحيح البخاري ج 6 ص 159.

⁶²⁶ سورة القلم: الآية 42.

⁶²⁷ تفسير عبد الرزاق ج 2 ص 310.

والصحيح هو أن "معنى: (يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ...)، يوم يشتد الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة. ولا يد ثم ولا غلّ، وإنما هو مثلٌ في البخل"⁶²⁸.

والكثير من الروايات عن الإمام الباقر (ع) ذمّت القياس، منها أنه قال: (أن علياً عليه السلام قال: من نصب نفسه للقياس لم يزل في دهره في التباس، ومن دان الله بالرأي لم يزل في دهره في ارتماس)⁶²⁹، و(أن السنّة لا تقاس، وكيف تقاس السنّة والحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟)⁶³⁰.

وكلا النوعين من تلك الأخطاء الشرعية تقود إلى إستنتاج خاطئ، وحكم شرعي جديد مخالف للحكم الشرعي الأصلي الذي أنزله الله تعالى في القرآن الكريم وقاله رسول الله (ص)، أو فعله، أو أمضاه.

وقف الإمام الباقر (ع) بمنهجه الشرعي يكافح ويجاهد من أجل تثبيت الحكم الصحيح في أمة محمد (ص). وكانت النقطة الأساسية في منهجه العلمي (ع) التي ذكرناها ونكررها لأهميتها، هي أن الدين لا يحتمل تجارب مختبرية على أفكاره إذا صح التعبير. بمعنى أن الذي أقحم نظرية القياس في الأحكام الشرعية لا يمكن له أن يعتذر ويقول بأن نظريتي كانت خاطئة، فعليكم التبديل إلى نظرية أخرى جديدة، ثم يثبت خطأ

⁶²⁸ تفسير الكشاف - الزمخشري ج 4 ص 598.

⁶²⁹ الكافي ج 1 ص 57.

⁶³⁰ المحاسن ص 214.

النظرية الجديدة، ويذهب إلى نظرية ثالثة. ربما هذا مقبول في العلم التجريبي، لكنه غير مقبول في العلم الديني. نحتاج في العلم الديني إلى شخص علمي أمضاه رسول الله (ص) مباشرة يطرح علينا الأحكام والعقائد، فتطمئن لها قلوبنا وعقولنا.

3 - الطريق البلاغي: وهو الطريق الذي يحمل الحقيقة العلمية على جناحي اللغة الفصحى والمنطق. فالبلاغة في اللغة أمر مهم في توصيل المعلومات إلى الناس. ولا يمكن لإمام الأمة أن يخاطب الناس بلغة ركيكة، وعندها لا يستطيع توصيل المعلومة الشرعية إلى المكلفين. أما المنطق، فهو أن تكون أفكار الحكم الشرعي منسجمة ومتعاضدة مع الأفكار الأخرى في الإسلام. نتناول فيما يلي المنهج البلاغي للإمام (ع) في تفسير القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف:

أ - منهج الإمام الباقر (ع) في التفسير:

وضع الإمام (ع) منهجاً رئيسياً لتفسير كتاب الله المجيد، عبر المبادئ الثلاثة التالية:

1- إرادة المعنى الصحيح دون إرادة اللفظ: المعنى هو الأصل في فهم القرآن الكريم، وقد يُستخدم المجاز اللفظي في بعض الآيات القرآنية، وقد يُراد المُحكّم دون المتشابه، وقد يُراد الظاهر دون الباطن أو العكس. والتدبر في القرآن الكريم الذي أكد عليه رسول الله (ص) هو فهم المعاني على

حقيقتها. ولا يتم ذلك إلا من مصدرٍ نطمئن إلى سلامته وإرتباطه برسول الله (ص) كما قلنا آنفاً. وبذلك كان منهج الإمام (ع) إرجاع فهم آيات القرآن الكريم إلى المعاني الأصلية التي نزل من أجلها الكتاب السماوي، في إظهار صفات الخالق عزَّوجلَّ كالقدرة، والعدالة، والرحمة، والجبروت ونحوها، ونفي الصفات الدخيلة.

وفي ذلك شواهد، فعندما سُئِلَ (ع) عن قوله تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا...)⁶³¹؟ قال (ع): (إلهام)⁶³². وفي قوله عزَّوجلَّ: (...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...)⁶³³: قال (ع): (من قدرتي)⁶³⁴. وفي قوله تعالى: (... وَأَتُوا النُّبُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)⁶³⁵، قال (ع): (يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور كان)⁶³⁶.

2- التفسير بالأثر الصحيح: أي عدم جواز تفسير آيات القرآن الكريم إلا بالأثر الصحيح عن النبي (ص) وخلفائه من أهل البيت (ع). فما يرويه الباقر (ع) إنما يرويه عن زين العابدين، وعن الحسين الشهيد، وعن الحسن المجتبي، وعن علي بن أبي طالب (ع)، عن رسول الله (ص).

⁶³¹ سورة الأنفال: الآية 12.

⁶³² تفسير العياشي ج 2 ص 50.

⁶³³ سورة الحجر: الآية 29.

⁶³⁴ التوحيد ص 172.

⁶³⁵ سورة البقرة: الآية 189.

⁶³⁶ المحاسن ص 224.

وفي ذلك شواهد، منها في وصف أولياء الله تعالى قوله (ع):
(وجدنا في كتاب علي بن الحسين (ع): (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)⁶³⁷، قال: إذا أدوا فرائض الله تعالى، وأخذوا بسنن رسول
الله (ص)، وتورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورجبوا
فيما عند الله، واكتسبوا الطيب من رزق الله، لا يريدون به التفاخر والتكاثر،
ثم انفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الذين بارك الله لهم فيما
اكتسبوا، ويثابون على ما قدموا لأخرتهم)⁶³⁸.

ومنها: (كان رسول الله (ص) يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم،
ويرفع صوته بها، فإذا سمعها المشركون ولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى:
(... وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)⁶³⁹ (640).

3- تفسير القرآن بالقرآن في جملة من الموارد، منها: في قوله تعالى:
(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ...)⁶⁴¹، قال (ع): (اليدُ
في كلام العرب: القوة والمنعة، قال تعالى: (... وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا

⁶³⁷ سورة يونس: الآية 62.

⁶³⁸ تفسير العياشي ج 2 ص 124.

⁶³⁹ سورة الأسراء: الآية 46.

⁶⁴⁰ تفسير العياشي ج 1 ص 20.

⁶⁴¹ سورة ص: الآية 75.

الأيد...⁶⁴²، (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)⁶⁴³، أي بقوة...⁶⁴⁴.
فاستدل هنا بآيات القرآن في تفسير القرآن الكريم.

وفي جزاء أهل الورع قال (ع): (أعينونا بالورع، فإنه من لقي الله عزَّوجلَّ منكم بالورع، كان له عند الله فرجاً، وإن الله عزَّوجلَّ يقول: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)⁶⁴⁵ ⁶⁴⁶).

وفي عدم الرجوع فيما وهب الزوجين لأحدهما، قال (ع): (لا يرجع الرجل فيما يهب لامرأته، ولا امرأة فيما تهب لزوجها، حازا أو لم يحازا، أليس الله تعالى يقول: (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا...)⁶⁴⁷، وقال تعالى: (وَأْتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا)⁶⁴⁸، وهذا يدخل في الصداق والهبة⁶⁴⁹).

⁶⁴² سورة ص: الآية 17.

⁶⁴³ الذاريات: الآية 47.

⁶⁴⁴ بحار الأنوار ج 46 ص 288.

⁶⁴⁵ سورة النساء: الآية 69.

⁶⁴⁶ الكافي ج 2 ص 78.

⁶⁴⁷ سورة البقرة: الآية 229.

⁶⁴⁸ سورة النساء: الآية 4.

⁶⁴⁹ تهذيب الأحكام ج 7 ص 463.

ب - منهج الإمام (ع) في الأخذ بالحديث:

لم يكن الحديث النبوي الشريف أقلّ عنايةً عند أهل البيت (ع) من القرآن الكريم، فقد أعتنى (ع) بالحديث الشريف كما أعتنى بالقرآن الكريم، ووضع منهجاً واضحاً في العناية به، والتمييز بين صحيحه وضعيفه، فكانت القواعد الفقهية لعلاج تعارض الأخبار وتضاربها، أو تعارض موقف المكلف من الأحكام حسب الزمان، ومصالحة المكلف، ونحوها. ونبحت فيما يلي القواعد الفقهية، والقواعد العلاجية:

أولاً: القواعد الفقهية: من القواعد الفقهية التي ساهم في وضع أسسها الإمام الباقر (ع)، نعرض نماذج مختصرة، ومنها:

1 - قاعدة لا تعاد: وهي قاعدة تقول بأن الصلاة لا تُعاد إلا من خمسة أمور. قال (ع) لزرارة: (لا تعاد الصلاة إلا من خمسة: الطهور، والوقت، والقبلة، والركوع، والسجود)⁶⁵⁰. وقال (ع) في إشارة أخرى لتلك القاعدة: (إذا صليت على غير القبلة، فاستبان لك قبل أن تصبح أنك صليت على غير القبلة، فأعد صلاتك)⁶⁵¹.

⁶⁵⁰ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 279.

⁶⁵¹ تهذيب الأحكام ج 2 ص 48.

2 - قاعدة الفراغ: وهي قاعدة تبحث في الحكم على صحة الفعل فيما لو شك في صحته بعد الفراغ منه. استفيدت هذه القاعدة من قوله (ع): (كلما شككت فيه بعدما تفرغ من صلاتك فامض ولا تعد)⁶⁵².

3 - قاعدة التجاوز: وهي قاعدة تبحث في الحكم بوجود الشيء المشكوك بعد الدخول في غيره مما هو مترتب عليه. استفيدت هذه القاعدة من قوله (ع): (متى ما استيقنت أو شككت في وقت صلاة إنك لم تصلها، أو في وقت فوتها صليتها، فإن شككت بعدما خرج وقت الفوت فقد دخل حائل فلا إعادة عليك من شك حتى تستيقن، فإن استيقنت فعليك إعادة أن تصلها في أي حال كنت)⁶⁵³.

4 - قاعدة المؤمنون عند شروطهم: وهي الوفاء بالشروط الشرعي، عن الباقر (ع) قال: (أن علي بن أبي طالب (ع) كان يقول: من شرط لأمراته شرطاً فليف لها به، فإن المسلمين عند شروطهم، إلا شرط حرم حلالاً، أو أحل حراماً)⁶⁵⁴.

⁶⁵² تهذيب الأحكام ج 2 ص 352.

⁶⁵³ تهذيب الأحكام ج 2 ص 276.

⁶⁵⁴ تهذيب الأحكام ج 7 ص 467.

5 - في قضايا الشك: قال (ع) بخصوص عدم التأكد من دخول الوقت: (لأن أصلي بعدما يمضي الوقت أحب إلي من أن أصلي وأنا في شك من الوقت، وقبل الوقت)⁶⁵⁵.

6 - في القطع واليقين: وهو الأخذ بحالة اليقين في شيء، مثلاً جلد الميتة نجس ولا تجوز الصلاة فيه في كل الاحوال. سئل (ع) عن جلد الميتة يلبس في الصلاة إذا دُبغ؟ فقال (ع): (لا، وإن دُبغ سبعين مرة)⁶⁵⁶.

ثانياً: القواعد العلاجية: وهي قواعد إضافية لعلاج الأخذ بالروايات، نوردها هنا من باب النماذج المختصرة، من علم الإمام الباقر (ع):

1- موافقة الكتاب والسنة: وهي أن تُعرض الأخبار على القرآن والسنة النبوية فما وافقها أخذ، وما خالفها ترك. قال (ع): (لا تصدق علينا إلا بما يوافق كتاب الله وسنة نبيه (ص))⁶⁵⁷، و(إن الله لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، وبيّنه لرسوله (ص)، وجعل لكل شيء حداً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه)⁶⁵⁸. ويقصد بالسنة: السنة النبوية الصحيحة، كما ذكرنا ذلك سابقاً، لا الأحاديث الموضوعية.

⁶⁵⁵ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 223.

⁶⁵⁶ من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 247.

⁶⁵⁷ بحار الأنوار ج 96 ص 262.

⁶⁵⁸ بصائر الدرجات ص 6.

2- الشهرة: وهي الأخذ بالرواية المشهورة عند ورود خبرين متعارضين. والقاعدة: (خذ بما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر)⁶⁵⁹.

قال زرارة بن أعين سألت الباقر (ع): جعلتُ فداك يأتي عنكم الخبران أو الحديثان المتعارضان، فبأيهما آخذ؟ فقال (ع): (يا زرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذ النادر).

فقلتُ: سيدي، إنهما معاً مشهوران مرويان مأثوران عنكم؟ فقال (ع): (خذ بقول أعدلهما عندك، وأوثقهما في نفسك).

فقلتُ: إنهما معاً عدلان مرضيان موثقان. فقال (ع): (أنظر ما وافق منهما مذهب العامة فأتركه، وخذ بما خالفهم).

فقلتُ: ربما كانا موافقين لهم، أو مخالفين، فكيف أصنع؟ فقال (ع): (إذن فخذ بما فيه الحائطة لدينك، واترك ما خالف الإحتياط).

فقلتُ: إنهما معاً موافقان للإحتياط أو مخالفان له، فكيف أصنع؟ فقال (ع): (إذن فتخيّر أحدهما فتأخذ به، وتدع الآخر). وفي رواية أنه قال (ع): (إذن فأرجه، حتى تلقى إمامك فتسأله)⁶⁶⁰.

3- الترجيح بأحوال الرواة: وهو النظر في صفات الراوي وأحواله من حيث الوثاقة والعدالة. فإذا كانا ثقّتين عادلين فإنه يأخذ بالأوثق والأعدل،

⁶⁵⁹ بحار الأنوار ج 2 ص 245.

⁶⁶⁰ المصدر السابق.

فالقاعدة: (خذ بما يقول أعدلها عندك، وأوثقهما في نفسك)⁶⁶¹، كما في الرواية السابقة. وإذا لم يتم إحرار الثقة بهما يسقط الخبر.

4- حديثهم (ع) هو حديثه (ص): أن حديث أئمة أهل البيت (ع) هو حديث رسول الله (ص): فما ورد عن آل البيت (ع) من أحاديث لم تكن عن رأي أو إستحسان أو مصالح مرسلة، بل إما نقلاً عن رسول الله (ص)، وإما بما أودع الله لديهم من علوم.

وفي ذلك شواهد، منها: قوله (ع): (إنا لو كنّا نحدثكم برأينا لكنّا من الهالكين، ولكننا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله (ص) كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم)⁶⁶²، و(لو أننا حدّثنا برأينا ضللنا كما ضل من كان قبلنا، ولكنّا حدّثنا ببينة من ربنا بيّنها لنبيه (ص) فبيّنها لنا)⁶⁶³.

لم يحدث الإمام الباقر (ع) حديثاً وقال فيه أنه من رأيي أو استحساني أبداً. بل كان (ع) يرفعه إلى النبي (ص). وعندما كان يحدثهم (ع) أحاديث مرسلة كان يسندها إلى النبي (ص) عن طريق السلسلة الذهبية، فيقول (ع): (إذا حدثت بالحديث فلم أسنده، فسندي فيه أبي زين العابدين، عن أبيه الحسين الشهيد، عن أبيه علي بن أبي طالب، عن رسول الله (ص)، عن جبرئيل عن الله عزّوجلّ)⁶⁶⁴.

⁶⁶¹ بحار الأنوار ج 2 ص 245.

⁶⁶² بحار الأنوار ج 26 ص 28.

⁶⁶³ بصائر الدرجات ص 299.

⁶⁶⁴ إعلام الوری ص 270.

مسالك العلم عند الإمام الباقر (ع)

للأنبياء وأوصيائهم (ع) طرق معرفية يوصلون بها المعرفة والعلم إلى الناس. والقاسم المشترك بين الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) هو معاناتهم من الناس، واتهامهم بالكذب من قبل أعدائهم، بأساليب متفاوتة. ولا يبقى إلا التسديد الآلهي لنصرتهم في إيصال ما كُلفوا بإيصاله إلى الناس.

كان من الطرق المعرفية للإمام (ع) هو الإستدلال مباشرة بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية الشريفة، وتفسير القرآن بالأثر الصحيح دون إدخال الرأي في ذلك.

الطريق الأول: الإستدلال المباشر بالقرآن الكريم

لاشك أن الإستدلال بالقرآن الكريم في أية مسألة يأتي في الرتبة الأولى، لأن القرآن كتاب الله المجيد المحفوظ بين الدفتين والذي تعهد الله تعالى بحفظه من التغيير والتحريف.

والدليل القرآني هو أحد أصليين في المعرفة الإسلامية. ولكن لأن القرآن الكريم (... حملاً ذو وجوه)⁶⁶⁵ كما قال أمير المؤمنين علي (ع)، فالإحاطة الواقعية بعلوم القرآن ليست ميسورة لكل وارد، ومن كانت مقدمته

⁶⁶⁵ الإتيان في علوم القرآن - السيوطي ج 1 ص 440، جاء فيه: بعث الإمام علي بن أبي طالب (ع) عبد الله بن عباس إلى الخوارج قال له: (لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حملاً أوجه، ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً).

خاطئة كانت نتيجته خاطئة أيضاً. إلا أن الإمام الباقر (ع) خصوصاً، وأهل البيت (ع) عموماً أختصوا بعلوم القرآن كما قال (ع): (لا يفهم القرآن إلا من خوطب به)⁶⁶⁶.

والقاعدة في المعرفة الإسلامية هو ربط تلك الآيات الشريفة بعناوينها. ولاشك أن ربط الأفكار بالنصوص يُنتج ذلك النسيج المحبوك الذي نفتقده أحياناً في فهم الشريعة. وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: نبه الإمام الباقر (ع) إلى قاعدة شرعية مهمة، وهي: (إذا حدثتكم بشيء فأسألوني من كتاب الله)⁶⁶⁷. وبعد حين ذكر حديثاً نبوياً فقال (ع) في بعض حديثه: (أن النبي (ص) نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال). فقيل له: أين هذا من كتاب الله تعالى؟

قال (ع): قوله تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...)⁶⁶⁸، وقال: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا)⁶⁶⁹، وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدُّ لَكُمْ

⁶⁶⁶ بحار الأنوار ج 72 ص 248.

⁶⁶⁷ الإحتجاج ج 2 ص 49.

⁶⁶⁸ سورة النساء: الآية 114.

⁶⁶⁹ سورة النساء: الآية 5.

تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ⁶⁷⁰.

النموذج الثاني: لما حج هشام بن عبد الملك، بعث إلى الإمام الباقر (ع)،
حيث كان جالساً عند الكعبة، من يسأله: كيف يأكل الناس ويشربون حتى
يُفصل بينهم يوم القيامة؟

أجابه الإمام (ع): (يحشر الناس على مثل قرصة البُرِّ النقي⁶⁷¹،
فيها أنهار متفجرة، يأكلون ويشربون حتى يفرغ من الحساب).
ظن هشام أنه قد ظفر بالإمام (ع)، فقال: الله أكبر إذهب إليه فقل
له: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ!

فأجابه الإمام (ع): (هم في النار أشغل، ولم يشغلوا عن أن قالوا
(...أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...)⁶⁷²⁶⁷³.

كان الإشكال الموجّه من قبل هشام بن عبد الملك إلى الإمام (ع)
فخاً علمياً، ظنّ منه هشام أنه يوقع الإمام (ع) فيه. فلذلك بعث من يسأله.
والسؤال على أية حال لم يكن سؤالاً فقهيّاً أو عقائديّاً. بل أراد أن يستوضح
عن كيفية معيشة الناس يوم الحساب.

⁶⁷⁰ سورة المائدة: الآية 101.

⁶⁷¹ قرصة البُرِّ النقي: الخبز من حبوب القمح.

⁶⁷² سورة الأعراف: الآية 50.

⁶⁷³ الإحتجاج ج 2 ص 51.

أجاب الإمام (ع) إجابة في غاية الدقة، وهي طالما لم ينته حساب الناس، فإن احتياجاتهم الدنيوية من طعام وشراب باقية كما هي. إنما التغيير يحصل عندما ينتهي الحساب، جماعة تُساق إلى الجنة، وأخرى إلى النار. وما قبل الجنة والنار يكون رغيغ الخبز، أو قرصة البر النقي هو الطعام. والماء يشربونه من الأنهار.

الطريق الثاني: الإستدلال بالكتاب والسنة معاً

وهي أحد الطرق الأساسية عند الإمام (ع)، لأن القرآن الكريم والسنة الشريفة مصدرا الإستدلال في الأحكام والعقائد. وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: في كلامه (ع) عن الخوارج، قال الإمام (ع): (قل لهذه المارقة، بما استحلتم فراق أمير المؤمنين (ع)، وقد سفكتم دماءكم بين يديه، وفي طاعته، والقربة إلى الله تعالى بنصرته؟ فسيقولون لك: إنه حكّم في دين الله، فقل لهم: قد حكّم الله تعالى في شريعة نبيّه رجلين من خلقه، قال جلّ اسمه: (... فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا...) ⁶⁷⁴، وحكّم رسول الله (ص) سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكّم فيهم بما أمضاه الله.

أو ما علمتم أنّ أمير المؤمنين (ع) إنما أمر الحكمين أن يحكّما بالقرآن ولا يتعدياه، واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرجال؟ وقال

⁶⁷⁴ سورة النساء: الآية 35.

حين قالوا له: حَكَمْتَ على نفسك من حَكَمَ عليك؟ فقال: ما حَكَمْتَ مخلوقاً
فإنما حَكَمْتَ كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر الحكم بالقرآن،
واشترط ردّ ما خالفه، ولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان⁶⁷⁵.

وخلاصة المطلوب أن الإمام علي (ع) خاطب أحد زعماء الخوارج.
والخوارج هي فرقة من جنود الإمام (ع) خرجت عليه بدعوى أنه حَكَمَ في
دين الله الرجال! يردّ الإمام الباقر (ع) على تلك الدعوى بالقول بأن تحكيم
الرجال ليس مخالفاً للشريعة إذا تم عن طريق الأصول الشرعية المتبعة.
وفي ذلك دليلان:

الأول: تحكيم الله تعالى في الإسلام رجلين في قضية الإصلاح بين الزوج
وزوجته إذا حصل خلاف ما قد ينتهي إلى الطلاق، فقال تعالى: (...
فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ
بَيْنَهُمَا...)⁶⁷⁶. فقضية التحكيم هنا شرعية بنص القرآن الكريم.

الثاني: تحكيم رسول الله (ص) سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكّم فيهم
بما أمضاه الله تعالى. وغزوة بني قريظة قادها رسول الله (ص) بسبب
غدرهم بالمسلمين في معركة الخندق، ونقضهم العهود التي كانت بينهما.
وانتهت الغزوة بإستسلام بني قريظة بشرط التحكيم. فطلبوا من رسول الله
(ص) أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ لأنه كان حليفاً لهم في الجاهلية.
وقضية التحكيم هذه قضية شرعية بنص السنّة النبوية.

⁶⁷⁵ الإحتجاج ج 2 ص 51.

⁶⁷⁶ سورة النساء: الآية 35.

طبّق الإمام أمير المؤمنين علي (ع) ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في سنّة رسول الله (ص)، فحكّم أبا موسى الأشعري من طرفه، وحكّم معاوية: عمرو بن العاص. وأمرهم (ع) أن يحكّموا بالقرآن ولا يتعدّياه، واشترط رد ما خالف القرآن من أحكام الرجال.

وعندما أثّرت الشبهة على الإمام أمير المؤمنين (ع) بأنه قد حكّم الرجال، قال (ع): (ما حكّمْتُ مخلوقاً، إنّما حكّمْتُ كتاب الله تعالى). ولكن إذا خانّت الرجال الذي وكلّوا بالتحكيم، فما بال الإمام (ع) أن يفعل؟ وهؤلاء الذين اتهموا علياً (ع) مرقوا عن الدين كما يرمى السهم من الرمية، ولذلك سماهم (ع) بالمارقة. وهذه لم تكن سابقة من نوعها، فقد حصل ما يشبه ذلك مع النبي (ص) في صلح الحديبية عندما اعتراضوا على الصلح، وحصلَ بعد فتح مكة أيضاً عندما زعموا أنه (ص) حابي عشيرته، ونحوها!

النموذج الثاني: حديث الإمام الباقر (ع) مع أخيه زيد بن علي الذي كان يستعجل القيام على بني أمية. عندما دخل زيد بن علي على الإمام الباقر (ع) ومعه كتب أهل الكوفة يدعونه فيها إلى أنفسهم، ويخبرونه بإجتماعهم، ويأمرونه بالخروج. قال له الإمام (ع): (هذه الكتب ابتداءً منهم؟ أو جواب ما كتبت به إليهم ودعوتهم إليه؟). فقال: بل ابتداءً من القوم لمعرفتهم بحقنا وقرابتنا من رسول الله (ص)، ولما يجدون في كتاب الله عزّوجلّ من وجوب مودتنا وفرض طاعتنا، ولما نحن فيه من الضيق والظنك والبلاء. فقال له الإمام (ع): (إن الطاعة مفروضة من الله عزّوجلّ، وسنّة أمضاها

في الأولين، وكذلك يجريها في الآخرين، والطاعة لواحدٍ منا والمودة للجميع، وأمر الله يجري لأوليائه بحكم موصول، وقضاء مفصول، وحتم مقضي، وقدر مقدور، وأجل مسمى لوقت معلوم، فلا يستخفّك الذين لا يوقنون، إنهم لن يغنوا من الله شيئاً. فلا تعجل، فإن الله لا يعجل لعجلة العباد، ولا تسبقنّ الله فتعجزك البلية، فتصرعك).

كان الإمام الباقر (ع) واضحاً وصريحاً في إعلان مبادئ الإمامة، فقال (ع): إن طاعة الله تعالى، ورسوله (ص)، والإمام من أهل بيته (ع) واجبة في كل زمان، وهي تجري في الأولين والآخرين. والأساس في ذلك أن الطاعة لإمامٍ واحدٍ في زمانه، والمودة لجميع أئمة أهل البيت (ع)، كما نصّ: (والطاعة لواحدٍ منا، والمودة للجميع). وفيه إشارة إلى أخيه زيد بن علي لو فهمها، لرفع الضرر عنه وعمن اتباع أثره.

ثم قال (ع) إن الله تعالى يُجري الأمور بقضاء حتمي، وقدر محدد، ووقت مسمى، فلا يمكن للإنسان أن يتعجل الأمور قبل موعد قضائها.

لم يقبل زيد بموقف الإمام (ع)، معللاً بأن الإمام ليس من جلس في بيته وأرعى ستره!! أجابه الإمام الباقر (ع): (هل تعرف يا أخي من نفسك شيئاً مما نسبتها إليه، فتجئ عليها بشاهدٍ من كتاب الله أو حجة من رسول الله (ص)، أو تضرب به مثلاً فإن الله عزّوجلّ أحلّ حلالاً، وحرم حراماً، وفرض فرائض، وضرب أمثالاً، وسنّ سنناً، ولم يجعل الإمام القائم بأمره شبهة فيما فرض له من الطاعة أن يسبقه بأمر قبل محله، أو يجاهد فيه قبل حلوله، وقد قال الله عزّوجلّ في الصيد: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ...⁶⁷⁷، أفقتل الصيد أعظم أم قتل النفس التي حرم الله، وجعل لكل شيء محلاً، وقال الله عزوجل: (...وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا...)⁶⁷⁸، وقال عزوجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ...)⁶⁷⁹، فجعل الشهور عدّة معلومة، فجعل منها أربعة حرماً، وقال: (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)⁶⁸⁰، ثم قال تبارك وتعالى: (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...)⁶⁸¹. فجعل لذلك محلاً. وقال: (... وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ...)⁶⁸²، فجعل لكل شيء أجلاً، ولكل أجل كتاباً، فإن كنت على بينة من ربك، ويقين من أمرك، وتبيان من شأنك، وإلا فلا ترومنّ أمراً أنت منه في شك وشبهة، ولا تتعاطَ زوال ملك لم تنقضِ أكله، ولم ينقطع مداه، ولم يبلغ الكتاب أجله، فلو قد بلغ مداه، وانقطع أكله، وبلغ الكتاب أجله لانقطع الفصل، وتتابع النظام، ولأعقب الله في التابع والمتبوع الذل والصغار.

أعوذ بالله من إمامٍ ضلّ عن وقته، فكان التابع فيه أعلم من المتبوع، أتريد يا أخي أن يحيي ملة قومٍ قد كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله

⁶⁷⁷ سورة المائدة: الآية 95.

⁶⁷⁸ سورة المائدة: الآية 2.

⁶⁷⁹ سورة المائدة: الآية 2.

⁶⁸⁰ سورة التوبة: الآية 2.

⁶⁸¹ سورة التوبة: الآية 5.

⁶⁸² سورة البقرة: الآية 235.

(ص) واتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، وادعوا الخلافة بلا برهان من الله، ولا عهدٍ من رسوله، أعيدك بالله يا أخي أن تكون غداً المصلوب بالكناسة). ثم أرفضت عيناه ، وسالت دموعه. ثم قال: (الله بيننا وبين من هتك سترنا، وجددنا حقنا، وأفشى سرنا، ونسبنا إلى غير جدنا، وقال فينا ما لم نقله في أنفسنا)⁶⁸³.

هنا يضع الإمام الباقر (ع) الخط الأحمر في الإمامة ويقول لأخيه عليك أن تلتزم بشروط الإمام والإمامة. فإن الله جعل ذلك واضحاً لا شبهة فيه، فلكل فرضٍ أو واجبٍ نظامٌ وضعه الله تعالى، ولا ينبغي أن نسبق الله بأمرٍ قبل محله، أو جهادٍ قبل حلوله. وإذا كان الله حرّم الصيد في الحج وقت الإحرام، فإن قتل النفس المحرمة أعظم عند الله من الصيد. لقد جعل الله لكل شيءٍ أجلاً، ولكل أجل كتاب أو وقت محدد. وما الإمامة الشرعية إلا جزءٌ لا يتجزأ من هذا الأجل. فلا تتعجل في شبهة تقع فيها، وقد وضع الله سبحانه تصميماً لهذه الحياة، فلا تستعجل زوال أمرٍ ملكٍ (وهو ملك بني أمية) لم يأت أمره، ولم يبلغ الكتاب أجله. ولو بلغ الكتاب أجله لقضى الله أمراً هو جاعله.

ثم يستعيد (ع) بالله من إمامٍ ضلَّ عن وقته، فكان التابع فيه أعلم من المتبوع، وهو يحاول أن يعلم أخيه زيد بن علي أن يكون حذراً، ويطيع أمامه الواجب الطاعة، ثم يتنبأ (ع) بأنه سيكون غداً المصلوب بالكناسة. وهو عين ما حصل لزيد بن علي.

⁶⁸³ الكافي ج 1 ص 356-357.

كان موقف زيد بن علي من الإمام الباقر (ع) موقف المجتهد مع الإمام الواجب الطاعة (ع). فحاول الإمام (ع) أن يوضح له الموقف الشرعي الصحيح من القيام على الظالم، وهو أن هناك أجلاً معلوماً، وقدراً مقدوراً، ولا يمكن استعجال الأشياء ما لم يأت بها أمرٌ من الله تعالى. ثم قام الإمام (ع) بتوضيح الفكرة الأساسية، وهي: أن الله عزَّوجلَّ حلَّ الحلال، وحرم الحرام، وفرض الفرائض عبر تصميمٍ متقنٍ للحياة. فكما حرّم الصيد في الحرم والحجيج محرمون، كذلك حرّم القتال في الأشهر الحرم. وقتل النفس البشرية أعظم من صيد الأنعام. فكيف يمكن طاعة الله تعالى في شك وشبهة؟ وكيف تدخل مدخلاً ولم يبلغ الكتاب أجله؟ وكان في بداية حديثه أن سأله الإتيان بحجةٍ من كتاب الله أو سنة نبيه (ص) تجيز له الخروج في ظرفٍ قاسٍ على الدين مثل ذلك الظرف، فلم يقم الحجة أو الدليل!

الطريق الثالث: تفسير القرآن الكريم

ولا يكفي - أحياناً - مجرد ذكر آيات القرآن الكريم في إثبات المدعى، بل يحتاج الأمر إلى تفسيرٍ لآيات الكتاب المجيد، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالشبهات التي كان يطرحها الناس. وقد ذكرنا سابقاً نماذج من تفسيره للقرآن الكريم، ولكن نذكر هنا التفسير من زاوية الطريق المعرفي عند الإمام (ع). وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: عمرو بن عبيد الله المعتزلي (ت 144 هـ) يسأل الإمام الباقر (ع) عن معنى قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...) ⁶⁸⁴. ما هذا الرتق؟ وما هذا الفتق؟
يجيب الإمام (ع): (كانت السماء رتقاً لا تُنزلُ المطر، وكانت الأرض رتقاً لا تُخرجُ النبات، فرتق الله السماء بالقطر، وفتق الأرض بالنبات) ⁶⁸⁵.
بيان: قال اللغويون ⁶⁸⁶: رَتَّقَ الفَتَقَ: سَدَّهُ أو لَحَمَهُ، عكسه فَتَقَهُ. والرتق: الضمّ والإلتحام. رتق القميص: خاطه. رَتَّقَ الفَتَقَ: أصلح شأنه. قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ (ت 15 هـ):

يا رسولَ الملِكِ إنَّ لسانِي راتقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُورٌ ⁶⁸⁷

ومنه قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: ورتق الفتوق وفتق الرتوق ونقض الأمور وإبرامها ⁶⁸⁸. رَتَّقَ الفَتَقَ: أصلح شأنه، ومنه قول أبو طالب (رض):

أبْنِي طَالِبُ إنَّ شَيْخَكَ ناصِحٌ فيمَا يَقولُ مُسَدِّدٌ لكَ راتقٌ ⁶⁸⁹

لم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم إلا مرة واحدة. بمعنى أن الكون في بداية خلقه كان وجوداً أقرب إلى النسيج (الرتق) بحيث ينفق كما ينفق

⁶⁸⁴ سورة الأنبياء: الآية 30.

⁶⁸⁵ بحار الأنوار ج 46 ص 290.

⁶⁸⁶ القاموس المحيط. مادة (رتق).

⁶⁸⁷ لسان العرب ج 10 ص 114.

⁶⁸⁸ الأشباه والنظائر - السيوطي ج 1 ص 112.

⁶⁸⁹ ديوان (شيخ الأباطح) أبي طالب ص 48.

الثوب المنسوج. ونفهم من كلامه (ع) أن الكون في بداية تكوينه كان: حيث السماء لم ينزل منها رَجْع، والأرض ليس فيها صَدْع، ففتقهما الخالق عزَّوجلَّ بالماء والنبات.

من الناحية الفلكية، اشتهر بين الفلكيين أن الأرض كانت في بدايتها ملتهبة لا تُنبِت شيء من النباتات، وطالما كانت ملتهبة فلم يحتمل الفضاء القريب من الأرض الغيوم والأمطار. ولكن عندما بردت الأرض تكوّن الغلاف الجوي فوقها ليحمل السحاب. وهكذا رتق الخالق عزَّوجلَّ السماء بالمطر، وفتق الأرض بإنشاقها ليخرج النبات.

النموذج الثاني: عمرو بن عبّيد يسأله عن قوله تعالى: (... وَمَنْ يَخْلُقْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)⁶⁹⁰، ما ذلك الغضب؟
أجاب الإمام (ع): (العذاب، وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستفزه، ويغيره عن الحال التي هو بها إلى غيرها، فمن زعم أن الله يغيره الغضب والرضا ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق)⁶⁹¹.
بيان: الغضب في اللغة هو: ضد الرضا. والعَضْبَة: الصخرة الصلبة، قالوا: ومنه أُشْتُقَّ الغضب، لأنه إشتداد السخط⁶⁹².

⁶⁹⁰ سورة طه: الآية 81.

⁶⁹¹ الإحتجاج ج 2 ص 49.

⁶⁹² مقاييس اللغة - ابن فارس ج 4 ص 428. لسان العرب ج 1 ص 648.

معنى الغضب في الإصطلاح: قال الجرجاني (ت 816 هـ): " الغَضْبُ: تغيّر يحصل عند غليان دم القلب، ليحصل عنه التشفي للصدر"⁶⁹³.
فلو فهم الغضب في الآية الكريمة كما عرّفه الجرجاني، لكان وصفاً للخالق بصفة المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.
وبذلك نفهم سبب تأكيد الإمام الباقر (ع) على أن الغضب الالهي معناه العذاب، لأن:

- 1 - الغضب البشري يصاحبه غليان الدم، وهذا منزلة عنه الخالق عزّوجلّ.
- 2 - أراد الإمام (ع) من الغضب: إرادة العقوبة الالهية النازلة بالعصاة.
- 3 - هذه الآية الكريمة تخاطب بني إسرائيل بعد أن أنزل الله عليهم النعم الثلاث: النجاة من فرعون حيث أغرقه الله ونجى بني إسرائيل بعد محنة طويلة، ومواعدة موسى أربعين ليلة لإنزال التوراة، وإنزال المنّ والسلوى، وهو نوع من الطعام وقيل أن المنّ هو العسل الجبلي، والسلوى لحم الطير⁶⁹⁴. ثم قال: (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)⁶⁹⁵. و"الغضب من صفاته الفعلية، مصداقه إرادته تعالى إصابة المكروه للعبد بتهيئة الأسباب لذلك عن معصية عصاها"⁶⁹⁶.

⁶⁹³ التعريفات - الجرجاني ص 209.

⁶⁹⁴ تفسير بن كثير ج 5 ص 34.

⁶⁹⁵ سورة طه: الآية 81.

⁶⁹⁶ الميزان في تفسير القرآن - الطباطبائي ج 14 ص 187.

4 - وكون الغضب الالهي : إرادة العقوبة الألهية بالعصاة، لا يختلف عن القول بأنها إرادة إصابة المكروه للعبد بتهيئة الأسباب لذلك عن معصية عصاها. أي أن الإرادة الألهية المعبر عنها بالغضب الالهي ربما تكون عبر تهيئة الأسباب لإنزال المكروه بالعاصي. وذلك شكلاً آخر من أشكال العقوبة الألهية على العصاة.

الطريق الرابع: النهي عن التفسير بالرأي:

نهى الإمام (ع) التفسير بالرأي الشخصي الذي تداولته مدرسة الرأي، وهو الأخذ بالإعتبارات العقلية الظنية التي ترجع إلى الإستحسان. وفي ذلك نماذج:

الأول: استتكار الإمام الباقر (ع) تفسير قتادة بن دُعامة فقيه أهل البصرة للقرآن الكريم، فأشار عليه ناصحاً: (يا قتادة، إن كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلك... ويحك يا قتادة، إنما يعرف القرآن من خُوطب به)⁶⁹⁷.

الثاني: استتكار الإمام (ع) لما نقله الحسن البصري عن رسول الله (ص) القول: من كتم علماً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار. قال (ع): (كذب ويحه، فأين قول الله: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ

⁶⁹⁷ بحار الأنوار ج 46 ص 349.

أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ...⁶⁹⁸ (ع)⁶⁹⁹.
ثم أكد (ع) مرة أخرى أن العلم عند آل محمد (ع).

الثالث: تثبيته أن علم رسول الله (ص) قد انتقل إليهم (ع) لحكمة ربانية. فهو ينتقد بصورة غير مباشرة من أفتى وفسر بالرأي، ويثبت أن علم رسول الله (ص) قد انتقل إليهم (ع). فعندما سُئِلَ (ع) عن قول الله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا)⁷⁰⁰؟ قال الإمام (ع): (إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)⁷⁰¹، وكان والله محمدًا ممن ارتضى، وأما قوله: عالم الغيب، فإن الله تبارك وتعالى عالم بما غاب عن خلقه، فما يقدر من شيء، ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه وقبل أن يقبضه إلى الملائكة. فذلك علمٌ موقوفٌ عنده إليه، فيه المشية، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأما العلم الذي يقدره الله ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله (ص)، ثم إلينا⁷⁰².

⁶⁹⁸ سورة غافر: الآية 28.

⁶⁹⁹ بصائر الدرجات ص 10.

⁷⁰⁰ سورة الجن: الآية 26.

⁷⁰¹ سورة الجن: الآية 27.

⁷⁰² بصائر الدرجات ص 113.

نماذج في المنهج العلمي: تفسير القرآن الكريم

صلاحية تفسير كتاب الله المجيد من قبل أهل البيت (ع) واضحة وضوح الشمس، فقد ورد عن رسول الله (ص): (إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي...) ⁷⁰³، فالقرآن الكريم كتاب الله المجيد، وأئمة أهل البيت (ع) كتابٌ تفسيريٌّ عمليٌّ للقرآن، إذا صح التعبير! وإلى ذلك قال أمير المؤمنين علي (ع): (هذا كتاب الله الصامت، وأنا كتاب الله الناطق...) ⁷⁰⁴.

والفكرة الأساسية في هذا المنهج التفسيري هو أن تفسير الإمام (ع) متصلٌ بمنهج رسول الله (ص). وفي ذلك نماذج نذكرها ضمن العناوين التالية:

في التوحيد:

1 - اليد معناها القوة والنعمة: قال تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي) ⁷⁰⁵. سأله السائل عن تفسير تلك الآية، فقال (ع): (اليد في كلام العرب: القوة والمنعة، قال تعالى: (...وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) ⁷⁰⁶، (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) ⁷⁰⁷ أي بقوة. ويقال

⁷⁰³ بحار الأنوار ج 22 ص 476.

⁷⁰⁴ الكافي ج 1 ص 61.

⁷⁰⁵ سورة ص: الآية 75.

⁷⁰⁶ سورة ص: الآية 17.

⁷⁰⁷ سورة الذاريات: الآية 47.

لفلان عنده أيادٍ كثيرةٍ أي فواضل وإحسان، وله عندي يد بيضاء أي
نعمة⁷⁰⁸.

بيان: أن المنصرف من اليد في اللغة هو العضو المخصوص. ويستحيل
ذلك على الله تعالى لأنه يستلزم التجسيم، وهو ممتنع عليه عقلاً، تعالى
عن ذلك علواً كبيراً. وإستعمالها هنا هو على نحو المجاز، فهو اشتراك
لفظي، أي اشتراك كلمة واحدة في معنيين.

2 - وجه الله يعني دين الله: في قوله تعالى: (... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...)⁷⁰⁹، قال (ع): (يا فلان فيهلك كل شيء ويبقى وجه
الله؟ الله أعظم من أن يوصف، ولكن معناها كل شيء هالك إلا دينه، نحن
وجه الله الذي يؤتى الله منه، لم نزل في عباد الله ما دام الله فيهم روية)،
قلت: وما الروية جعلني الله فداك؟ قال (ع): (حاجة. فإذا لم يكن له فيهم
حاجة رَفَعْنَا إِلَيْهِ، فيصنع بنا ما أحب)⁷¹⁰.

3 - الروح تعني القدرة: عن قوله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
رُوحِي...)⁷¹¹ سئل (ع) عن معنى: من روحي، فقال (ع): (من
قدرتي)⁷¹².

⁷⁰⁸ بحار الأنوار ج 46 ص 288.

⁷⁰⁹ سورة القصص: الآية 88.

⁷¹⁰ بصائر الدرجات ص 61.

⁷¹¹ سورة الحجر: الآية 29.

⁷¹² التوحيد ص 172.

4 - الهداية تعني الولاية: في قوله تعالى: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)⁷¹³. الهداية: الولاية لأئمة أهل البيت (ع). قال (ع): (فوالله لو أن رجلاً عَبَدَ اللهَ عمره ما بين الركن والمقام، ولم يجئ بولايتنا إلا أكبه الله في النار على وجهه)⁷¹⁴.

بيان: في الآية الشريفة أربع مراحل للمغفرة الالهية، وهي: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، ثم الهداية. فالتوبة حيث يتوب الإنسان من معاصيه، ثم يؤمن بالله عزّوجلّ وما أنزل، ثم يعمل صالحاً. وفي نهاية تلك المراحل يهتدي بهداية أهل البيت (ع). ولو أراد تعالى معنى غير ذلك لكانت الهداية هي أول المراحل.

دلالات تفسير الإمام الباقر (ع):

1 - نزه الإمام (ع) الخالق عزّوجلّ من صفات التجسيم التي انتشرت بين الناس في زمانه. حيث استخدم القائلون بالتجسيم نفس مفردات القرآن الكريم لإثبات دعواهم.

فقال (ع) أن اليد تعني القدرة أو القوة، ووجهُ الله يعني دينه، والروح تعني القدرة الالهية، والغضب الالهي يعني إرادة العذاب. وبتفسير الإمام (ع) عَلِمْنَا بِإِنْسِجَامِ الْأَفْكَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَمَاسُكِهَا. فالله تعالى ليس كمثله شيء، ولا تدركه الأبصار، وكل يوم هو في شأن. وهذا يثبت الصورة

⁷¹³ سورة طه: الآية 82.

⁷¹⁴ تفسير نور الثقلين - الحويزي ج 3 ص 457.

الواقعية للوجود وخالفه، بينما تزعم فكرة التجسيم المفردات الأساسية لعقيدة التوحيد، وتناقضها.

2 - كان الإمام (ع) يعالج مشكلة عقائدية فرضتها السياسة الأموية على مبادئ الإسلام. والمشكلة تتمثل في محورين:
الأول: ما يتعلق بالتوحيد من تجسيم، ومن أفكار حول ماهية الخالق تعالى ووجوده.

الثاني: ما يتعلق بالإمامة، ونشر فكرة معادية مفادها أن الإمامة الشرعية لا تنحصر بأهل البيت (ع)، بل يستطيع أي إنسان أن يكون إماماً فاضلاً حتى لو كان مفضولاً وبجنبه من هو أعلم منه. وعلى هذا الأساس كانت أحاديث الإمام الباقر (ع) من تفسير تصبُّ في هذا الإتجاه. ولم تُطرح فكرة النبوة كمشكلة، ولذلك نلحظ قلة الأحاديث الخاصة بالنبوة، لأن الظاهر أن الجميع كان متفقاً عليها. وتلك فذلكة من بني أمية حيث زرعو بذور الشك في التوحيد والإمامة، وتمسكوا بظاهر النبوة ولم يناقشوها أو يفتروا عليها، عدا الأحاديث الموضوعية التي أسسوا لها، ولكن أصل فكرة النبوة بقيت كما هي!

3 - طرح (ع) ولاية أهل البيت (ع) بفكرة يستطيع أن يتقبلها أي مسلم عبر التساؤل التالي: لماذا يؤخذ بفكرة آل إبراهيم (ع) ولم يؤخذ بفكرة آل محمد (ص)؟ وقد جعل الله تعالى الكتاب والحكمة والملك العظيم في آل إبراهيم، قال تعالى: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا

عَظِيمًا)⁷¹⁵، فلماذا لا يأخذوا بآل محمد (ع) بنفس درجة أخذهم بآل إبراهيم، وقد قال (ص): (قولوا: اللهم صلّ على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين)⁷¹⁶؟

وآل محمد (ع) هم الأمة الوسط، وأهل الذكر، وهم الذين يعلمون، وهم الأئمة الهداة المهديين، وهم السابقون بالخيرات، وهم شهداء الأعمال بنص الآيات القرآنية ذاتها.

4 - أن مراحل المغفرة الالهية في قوله تعالى: (وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)⁷¹⁷، أعظم دليل على ولاية أهل البيت (ع). فمراحل المغفرة هي: التوبة، ثم الإيمان، ثم العمل الصالح، ثم الإهداء إلى أهل البيت (ع). فالإنسان إذا ارتكب المعصية تاب، وإذا تاب، آمن قلباً بالله تعالى، ثم عمل صالحاً. هل هذا يكفي التائب؟ يقول الإمام (ع) على لسان الآية الشريفة أن هذا ليس كافياً ما لم يقترنه بالولاية لأئمة الهدى (ع)، ويثبت فكرة: لو أن رجلاً عبَدَ اللهَ عمره ما بين الركن والمقام، ولم يجيء بولايتنا إلا حاسبه الله على ذلك حساباً عسيراً. وهذا التفسير من أبلغ الكلام وأكثره دقة وصراحة. وقد قاله الإمام الباقر (ع) في تلك المرحلة السياسية الحساسة التي انتشر فيها المطّبلون لولاية خلفاء بني أمية وفقهائهم، والمعادون لولاية أهل بيت النبي (ص).

⁷¹⁵ سورة النساء: الآية 54.

⁷¹⁶ الدر المنثور - السيوطي ج 5 ص 217.

⁷¹⁷ سورة طه: الآية 82.

وقريبٌ من ذلك ما قاله (ع): (إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذته نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذته رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذته خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء - وقبض يده⁷¹⁸ - قال له: يا إبراهيم (...إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...) ⁷¹⁹ فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: يا رب ومن ذريتي؟ قال: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ⁷²⁰.

5 - قام (ع) في أحاديث أخرى بتقييد المطلق، وتخصيص العام، فلولا كلامه لم نكن لنعرف أن الإستقامة على الطريقة تعني الإستقامة على ولاية آل محمد (ص). وأن المتوسم أو المتفرس هو النبي محمد (ص) وأهل بيته (ع)، وأن السابق بالخيرات هو الإمام (ع)، والمقتصد هو العارف للإمام (ع)، والظالم لنفسه الذي لا يعرف الإمام (ع) في زمانه.

نماذج في المنهج العلمي: الحديث الشريف

لاشك أن السنّة النبوية هي العمود الثاني بعد القرآن الكريم في الإستدلال. فالسنّة تبين مجمله ومبيّنه، وناسخه ومنسوخه، وتقييد مطلقاته، وتخصيص عمومياته، وتعرض لأحكام الله في العبادات والمعاملات. قام الإمام الباقر (ع) بعملين متوازيين:

⁷¹⁸ قبض يده: أي ضم الإمام (ع) أصابعه.

⁷¹⁹ سورة البقرة: الآية 124.

⁷²⁰ بحار الأنوار ج 38 ص 134.

الأول: نَشَرَ الإمام (ع) أحاديث النبي (ص) مباشرة خلال خطبه ودروسه وأحاديثه.

الثاني: إهتَمَّ بخيرة طلبته وأصحابه المتفانين في خدمة الدين في نشر الحديث النبوي الشريف، وإفتاء الناس، كان منهم: جابر الجعفي، وأبان بن تغلب، وزُرارة بن أعين الذي قال فيه الإمام الصادق (ع): (رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة ونظراؤه لأندرست أحاديث أبي)⁷²¹. وقال فيه وفي جماعة من أصحابه منهم: أبو بصير، ومحمد بن مسلم، ويزيد بن معاوية العجلي: (لولا هؤلاء ما كان أحد يستتبط هذا الفقه، هؤلاء حقاظ الدين وأمناء أبي (ع) على حلاله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والآخرة)⁷²².

ووضع قاعدة لتفاضل الموالين لأهل البيت (ع)، فقال (ع): (إعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدارية للرواية يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان. إنني نظرت في كتابٍ لعلِّي (ع) فوجدتُ في الكتاب: أن قيمة كل امرئ وقدره معرفته أن الله تعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدنيا)⁷²³.

⁷²¹ الإختصاص ص 66.

⁷²² وسائل الشيعة ج 27 ص 144.

⁷²³ بحار الأنوار ج 2 ص 184.

ما رواه الإمام الباقر (ع): روى الإمام الباقر (ع) جملة من الروايات عن رسول الله (ص)، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). ولتلك الروايات قيمة عظيمة عهد أهل العلم لسببين، الأول: سندها صحيح. والثاني: لأن إختياره (ع) لها يكشف عن طبيعة تلك المرحلة الزمنية حيث كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت الناس هي مشكلة الإعتقاد، والأخلاق. نذكر نماذج منتخبة لما رواه عنهم (ع). فهي روايات يجمعها جامع مشترك أنه هو (ع) نقلها عن النبي (ص) بسندٍ عن أبيه السجاد (ع)، عن جده الحسين الشهيد (ع)، عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، عن جده رسول الله (ص). وليس هناك من عطرٍ أطيب من عطر آل محمد (ص) عندما ينقلون أحاديثهم عن رسول الله (ص). فعنه (ص) روى: (ما جمع شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم)⁷²⁴، و(فضل العلم أحب إلى الله من فضل العبادة، وأفضل دينكم الورع)⁷²⁵، و(رأس العقل بعد الإيمان بالله عزّوجلّ التحبب إلى الناس)⁷²⁶.

وروى (ع) أيضاً عن أمير المؤمنين (ع)، فيكون سنده أبوه زين العابدين، عن أبيه الحسين الشهيد (ع)، عن أبيه علي بن أبي طالب (ع): (إن قلوب الجهال تستفزها الأطماع، وترتهنها المنى، وتستعلقها الخدائع)⁷²⁷، (جُمع الخَيْرُ كله في ثلاث خصال: النظر، والسكوت،

⁷²⁴ مجمع الزوائد ج 1 ص 325.

⁷²⁵ الخصال ج 1 ص 4.

⁷²⁶ مجمع الزوائد ج 8 ص 17.

⁷²⁷ الكافي ج 1 ص 23.

والكلام. فكل نظر ليس فيه إعتبار فهو سهو، وكل سكوت ليس فيه فكرة فهو غفلة، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو. فطوبى لمن كان نظره عبثاً، وسكوته فكراً، وكلامه ذكراً، وبكى على خطيئته، وأمن الناس شره)⁷²⁸، وسئل أمير المؤمنين (ع) كم بين الحق والباطل؟ فقال (ع): (أربع أصابع - ووضع يده على أذنه وعينه - فقال: ما رأته عينك فهو الحق، وما سمعته أذناك فأكثره الباطل)⁷²⁹.

كانت الأحاديث المروية عن رسول الله (ص) التي رواها (ع) تتدرج في قضايا العقيدة: كالتوحيد، والنبوة، والإمامة؛ وفي قضايا الأخلاق: كطلب العلم، والتحبيب إلى الناس، ومساعدة ذوي الحاجة، وخصال التجارة؛ وفي قضايا الإنسان: كالبكاء من خشية الله، وجمع الحلم إلى العلم، والورع. وما رواه (ع) عن أمير المؤمنين علي (ع) كان محوره: في فضائل النفس كالنظر والسكوت والكلام، وفي الفرق بين الحق والباطل والمسافة بينهما، وفي العلم والجهل حيث يكون الجاهل مخدوعاً طامعاً مرتهنأ بالأمانى.

وما نستنتجه من أحاديث الإمام الباقر (ع) المسندة إلى رسول الله (ص) وأمير المؤمنين علي (ع) أن رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) كانوا يعملون وعلى مدى دهور زمنية طويلة كفريقٍ علمي يساند بعضه بعضاً، منسجم ومتكامل في الفكر والسلوك، فلا ترى تناقضاً على مدى تلك الحقبة

⁷²⁸ من لا يحضره الفقيه ج 4 ص 405.

⁷²⁹ الخصال ص 236.

الطويلة من الزمان، مع تربص الأعداء بهم في كل زمان ومكان. وتلك قضية تثبت صدقهم في مبادئ العصمة والإمامة التي طرحوها بقوة أمام الناس.

ومصدق ذلك رواية تبين تماسك أفكار أهل البيت (ع) يقول أحد الرواة، وهو نجبة بن الحارث العطار: سألت الإمام الباقر (ع) عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال (ع): (صوم متروك بنزول شهر رمضان، والمتروك بدعة). قال نجبة: فسألتُ الإمام الصادق (ع) من بعد أبيه (ع) من ذلك فأجابني بمثل جواب أبيه. ثم قال (ع): (أما أنه صوم يوم ما نزل به كتاب ولا جرت به سنة إلا سنة آل زياد بقتل الحسين بن علي صلوات الله عليهما)⁷³⁰.

نماذج في المنهج العلمي: الإعتقادات

كانت حرب الإعتقادات في القرنين الأول والثاني الهجري حرباً طاحنةً، مؤلها الحكام عبر دعم من جاء بأفكار جديدة في التوحيد والإمامة بالخصوص. فظهرت العقائد التي تناولت صفات الخالق عزَّوجلَّ وذاته، وقضايا إيمان الإنسان وعمله، وغير ذلك. وأثاروا مختلف الشبهات حول إمامة أهل البيت (ع) وعصمتهم. وكان الإمام الباقر (ع) فاعلاً على الساحة الفكرية يذبُّ عن دين الله شبهاتهم، وينصِّرُ رسالة محمد (ص) بما أوتي من قوة علمية.

⁷³⁰ الكافي ج 4 ص 146.

ففي التوحيد كانت الشبهات تدور حول ذات الله وصفاته، فتصدى لها الإمام (ع) عبر العلم والدليل: (إن الله، تباركت أسماؤه التي يُدعى بها وتعالى في علوّ كُنْهِهِ واحدٌ، توحد بالتوحيد في توحده، ثم أجره على خلقه، فهو واحد صمد، قدوس يعبده كل شيء، ويصمد إليه كل شيء، ووسع كل شيء علماً)⁷³¹.

وعندما يسأله السائل: أخبرني عن ربك الذي تعبده هل رأيته؟ ومتى كان؟ يجيبه الإمام (ع): (ويلك إنما يقال لشيء لم يكن، متى كان؟! إن ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كونٌ كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعدما كَوّن الأشياء، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً مذكوراً، ولا كان خلواً من الملك قبل انشائه، ولا يكون منه خلواً بعد ذهابه، لم يزل حياً بلا حياة، وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً، وملكاً جباراً بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيف ولا له أين، ولا له حد، ولا يعرف بشيء يشبهه، ولا يهرم لطول البقاء، ولا يصعق لشيء. بل لخوفه تصعق الأشياء كلها، كان حياً بلا حياةٍ حادثية، ولا كون موصوف ولا كيف محدود، ولا أين موقوف عليه، ولا مكان جاور شيئاً، بل حي يعرف، ومَلِكٌ لم يزل له القدرة والمُلْك، إن شاء ما شاء حين شاء بمشيئته، لا يحد ولا

⁷³¹ التوحيد ص 94.

ببعض، ولا يفنى، كان أولاً بلا كيف، ويكون آخراً بلا أين، وكل شيء هالكٌ إلا وجهه، له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

إن ربي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يحار، ولا يجاوزه شيء، ولا تنزل به الأحداث، ولا يسأل عن شيء، ولا يندم على شيء، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى)⁷³²، و(كان الله عزّوجلّ ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه)⁷³³.

وقد نهى (ع) الكلام في ذات الله، فقال: (تكلّموا في كل شيء، ولا تتكلّموا في ذات الله)⁷³⁴، و(تكلّموا في خلق الله، ولا تتكلّموا في الله فإنّ الكلام في الله عزّوجلّ لا يزيد إلا تحيراً)⁷³⁵.

وظائف الإمامة الكبرى وحقوقها

كانت الإمامة الكبرى، كفكرة ومصداق، من أهم موارد الإختلاف بين الحاكم والمحكوم منذ وفاة النبي (ص). ولذلك نافح أهل البيت (ع) في تثبيت تلك الفكرة الأساسية بين الناس. وقام الإمام الباقر (ع) بدور رئيسي في ذلك من خلال شرح حاجة الناس إلى الإمام المعصوم (ع)، ووجوب معرفته، وطاعته. وفي ذلك ورد:

⁷³² التوحيد ص 173.

⁷³³ التوحيد ص 145.

⁷³⁴ بحار الأنوار ج 10 ص 341.

⁷³⁵ الهداية - الشيخ الصدوق ص 14.

1 - الحاجة إلى الإمام في كل زمان: يحتاج الناس إلى إمام عادل جامع لشروط الإمامة في كل زمان. سُئل (ع) عن علّة حاجة الناس إلى نبي أو إمام، أجاب (ع): (لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أن الله عزّوجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام، قال الله عزّوجلّ: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...)⁷³⁶، وأردفه بقول النبي (ص): (النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون)، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عزّوجلّ طاعتهم بطاعته، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...)⁷³⁷، وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون...)⁷³⁸.

2 - وجوب معرفة الإمام (ع): من أخطر الروايات تلك التي ذكرت قوله (ع): (إنما يعرف الله عزّوجلّ ويعبده من عرف إمامه منا أهل البيت، ومن لا يعرف الله عزّوجلّ ولا يعرف الإمام منا أهل البيت، فإنما يعرف ويعبد غير الله)⁷³⁹، و(كل من دان الله عزّوجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه، ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحير، والله شانى⁷⁴⁰ لأعماله،

⁷³⁶ سورة الأنفال: الآية 33.

⁷³⁷ سورة النساء: الآية 59.

⁷³⁸ تفسير نور الثقلين ج 1 ص 501.

⁷³⁹ الكافي ج 1 ص 180.

⁷⁴⁰ شانى: من شناً فلاناً كرهه وأبغضه.

ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها فهجمت⁷⁴¹ ... من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عزّوجلّ ظاهراً عادلاً أصبح ضالاً تائهاً...⁷⁴².

يربط الإمام الباقر (ع) في الحديث الأول بين معرفة الله تعالى وصحة عبادته وبين معرفة إمام الحق من آل البيت (ع). ولاشك أن الإمامة الشرعية هي صمام أمان عقيدة التوحيد، فالإمام المُعَيَّن من قبل الله تعالى ورسوله (ص) هو المنبع الصحيح لأفكار الدين، بما فيها قضايا الاعتقاد والعبادات. وبدون ذلك تصبح الإلزامات الدينية عرضة لأهواء الناس. وما تجربة اليهود وأحبارهم عنا ببعيد.

وفي الحديث الثاني يتوضح الأمر أكثر، فلا بد للدين من إمام منصوص بعد النبي (ص)، وإلا دخل الناس في تيه وضلالة. ولو تجردنا عن كل العواطف الإنسانية، ووضعنا العقل مقياساً لصحة كلام الإمام (ع) لثبت لنا مطابقة كلامه (ع) للواقع. ذلك لأن الإنسان المكلف يحتاج على مدى عقود طويلة إلى قرآن عملي يطبق كل الأفكار النظرية الموجودة في القرآن الكريم، وهذا لم يثبت إلا عن طريق أئمة الهدى من آل بيت النبي (ص).

3 - طاعة الإمام (ع): في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...) ⁷⁴³، قال (ع): (ذروة الأمر وسنامه،

⁷⁴¹ هجمت: ذهبت فتاهت.

⁷⁴² بحار الأنوار ج 23 ص 86.

ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضا الرحمن تبارك وتعالى، الطاعة للإمام بعد معرفته. إن الله تبارك وتعالى يقول: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (744/745).

يفسر الإمام الباقر (ع) في هذا الحديث العلاقة بين أولي الأمر وآل البيت (ع)، فهم أولي الأمر الذين يجب طاعتهم ومحبتهم، وتلك الطاعة مرتبطة بطاعة الله عزوجل. فإذا أردنا فهم طبيعة الدين علينا فهم تلك الرابطة في الطاعة، تبدأ بطاعة الله تعالى، ثم طاعة الرسول (ص)، ثم طاعة أولي الأمر الأتقياء، المعصومون، المطهرون، الذين لا يذنبون. تلك السلسلة في الطاعة طبيعية، وليست بمعزل عن طبيعة الحياة، ذلك أن طاعة الله تعالى تجب لأنه الخالق الموجد البارئ الرحيم، وهي مرتبطة بطاعة رسوله الخاتم (ص) لأنه بُعث إلينا لتبليغنا الرسالة السماوية، وتلك مرتبطة بطاعة من وُصفوا بالقرآن العملي، أو المثال الأسمى في التطبيق. فسلسلة الطاعة مفهومة ومنسجمة مع طبيعة الدين والإلزامات المتعلقة به.

4 - حق الإمام (ع): للإمام الحق في الطاعة من قبل الناس، وعليه أداء الأمانة الثقيلة الموكولة به. سئل الإمام علي بن أبي طالب (ع): ما حق

⁷⁴³ سورة النساء: الآية 59.

⁷⁴⁴ سورة النساء: الآية 80.

⁷⁴⁵ غاية المرام - البحراني ج 3 ص 78.

الإمام على الناس؟ قال (ع): (على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحقّ على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا)⁷⁴⁶.

في هذا الحديث يشرح أمير المؤمنين (ع) وظيفة الإمام (ع) ويجملها بالحكم بما أنزل الله تعالى، بحيث لا يحيد في أداء وظيفته عن الحكم الواقعي قيد شعرة، وهذا الأمر أقرب إلى الإستحالة لأي فرد عدا الإمام المنصوص من قبل الله تعالى ورسوله (ص). وأداء الأمانة الآلهية في تنظيم أمور الناس والمجتمع من أشدّ التكاليف تعقيداً وأصعبها تنفيذاً. ذلك أن القضاء بين الناس يتطلب عدالة واقعية وعلم تفصيلي، فما بالك بالحكم بكل ما أنزل الله تعالى من أبسط الحقوق الشخصية إلى أعظم الواجبات الإجتماعية، خصوصاً في قضايا العدالة بين البشر، وحقن دماء الناس، ومنحهم حقوقهم، والاقتصاص من الظالمين والجنّة.

5 - صفات إئمة أهل البيت (ع): ذكرنا سابقاً صفات أهل بيت النبي (ص)، ونعيد هنا بعضاً من تلك الصفات لإقتضاء الموضوع. في صفاتهم (ع) عناصر استثنائية لا تتوفر لدى عامة الناس، كما وصف (ع): (نحن ولاة أمر الله، وخزّان علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، طاعتنا فريضة، وحبنا إيمان، وبغضنا كفر، محبنا في الجنة، ومبغضنا في النار)⁷⁴⁷.

⁷⁴⁶ تفسير النيشابوري ج 5 ص 79.

⁷⁴⁷ بحار الأنوار ج 26 ص 252.

و(نحن جنب الله تعالى [أي طاعة الله]، نحن صفوة الله، نحن أمناء الله، نحن مستودع مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال الله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)⁷⁴⁸، نحن رحمة الله للمؤمنين، بنا يفتح الله، وبنا يختم الله، من تمسك بنا نجا، ومن تخلف عنا غوى، نحن قادة الغر المحجلون، من عرفنا وعرف حقنا، وأخذ بأمرنا فهو منا وإلينا)⁷⁴⁹.

و(نحن خزان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض)⁷⁵⁰. وقد شرحنا أقواله (ع) في هذا الحقل شرحاً وافياً فيما مضى.

مشخصات الإمامة الكبرى

لقد عرفنا الآن الكثير من صفات الإمامة الكبرى لأهل البيت (ع) في كلام الإمام الباقر (ع)، فأهل البيت (ع) يملكون:
أ - العصمة (المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون)، والعصمة مأكدة تعصم صاحبها عن الجهل والمعصية. فالمعصوم (ع) إذن هو المتقي

⁷⁴⁸ سورة الأنعام: الآية 153.

⁷⁴⁹ أمالي الشيخ الطوسي ج 2 ص 267.

⁷⁵⁰ الكافي ج 1 ص 192.

الذي يتقي غضب الله تعالى فلا يعصيه، وهو قادرٌ عليها لكنه لا يرتكبها، وهو العالم الذي لا يفارق القرآن، والقرآن لا يفارقه.

ب - ولاية الأمر: فالإمام (ع) منهم هو ولي الأمر، ومن تجب طاعته، قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...) ⁷⁵¹، وقد قرن الله تعالى طاعتهم بطاعته.

ج - الأمان لأهل الأرض: وأهل البيت (ع)، وبسبب تفانيهم لله تعالى وكمال انقطاعهم لدينه، هم أمانٌ لأهل الأرض كما أن النجوم أمانٌ لأهل السماء، وبهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر البلاد، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم تخرج بركات الأرض.

د - رحمة للعالمين: وبأهل البيت (ع) يُمهّل الله أهل المعاصي، ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب عسى أن يتوبوا إلى بارئهم فيتوب عليهم. وهم رحمةُ الله للمؤمنين، بهم يفتح الله، وبهم يختم. من تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم غوى. فهم أهل بيت الرحمة، وشجرة النبوة.

وظيفتنا:

أما تكليفنا تجاه أئمة أهل البيت (ع)، فهو:

أ - وجوب معرفتهم (ع): فمن عرف إمامه (ع) عرف ربه تعالى. لأن الإمام (ع) يعلمه طاعة الله تعالى بعد أن يعرّفه به. ومن لم يعرف إمامه أصبح تائهاً ضالاً.

⁷⁵¹ سورة النساء: الآية 59.

ب - **وجوب طاعتهم (ع):** والآية القرآنية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...) ⁷⁵² جامعة مانعة. فقد قرن طاعة أهل البيت (ع) بطاعة رسول الله (ص). وقال تعالى في آية أخرى: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا) ⁷⁵³.

وظيفة أهل البيت (ع):

أ - **حفظ الدين:** يقول (ع): (... نحن خزان علم الله) ⁷⁵⁴ والخازن هو الحافظ لعلم الله تعالى. ويقول (ع): (نحن مستودع مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ...) ⁷⁵⁵ ⁷⁵⁶.

ب - **العدل بين الرعية:** وظيفة الإمام (ع)، بالإضافة إلى الهداية والإرشاد هو: أن يقسم بينهم بالسوية، ويعدل في الرعية). وربما قصد (ع) المساواة في بذل العلم، والعدل في بذل المال والعطاء. لأن العلم يُبذل بالمساواة، أي أن الإمام (ع) يتحدث بنفس اللغة الإرشادية للجميع، بينما قد يحتاج إنسان

⁷⁵² سورة النساء: الآية 59.

⁷⁵³ سورة النساء: الآية 80.

⁷⁵⁴ الكافي ج 1 ص 192.

⁷⁵⁵ سورة الأنعام: الآية 153.

⁷⁵⁶ أمالي الشيخ الطوسي ج 2 ص 267.

إلى المال أو العطاء بمقدار أكثر من غيره لتقل عياله مثلاً، أو عدم قدرته
على العمل، أو لكبر سنه، ونحوها، والله أعلم.

الفصل السادس

أصول المناظرة والإحتجاج

مقدمة. المناظرة والجدل في اللغة والإصطلاح.
الدليل والبرهان في المناظرة. المناظرة في
القرآن الكريم. مناظرات الإمام الباقر (ع):
النظرية والمصداق. في البرهان والبرهان التحليلي.

مقدمة

من أهم شروط المناظرة الناجحة هو القابلية على إقناع الطرف المقابل بأحقية المعلومات التي يطرحها المناظر. فإذا تم ذلك أذعن الطرف المناظر غالباً إلى الحق. فالإنتصار في المناظرة العلمية يتم بقوة الحقائق والأدلة التي يسردها المناظر لإيضاح موقفه للطرف الآخر. ولن يتم هذا إلا على المستوى العملي.

أما على المستوى النظري فإن قابلية الإقناع في المناظرات تعكس حقيقة أن المناظر المنتصر فكرياً أعلى مستوى، وأقوى حجّة من ناحية الفكر والإستدلال من الطرف الخاسر. وما المناظرة التي يقوم بها صاحب الملكة والعصمة إلا صعوداً إلى سلّم الكمال. فالمناظرة الصحيحة تضيء جوانب من الفكر الديني عند الإنسان، وتقلبه إلى مستوى الإقتراب من الحقيقة التي جاء بها الوحي.

ولاشك أن نتيجة المناظرة العلمية بين طرفين يختلفان في صحة الإستدلال وقوته مهمة للغاية، لأنها تبين صحة عقيدة المناظر وما يدعيه من حقائق دينية.

فالمناظرة - في مقدماتها - تعني إختلافاً في وجهات النظر، وتبايناً في الدليل والحجة. وفي - نتیجتها - ثمرة الإقناع بقوة الحجة وصحة الدليل. وهكذا كانت الأجواء المحيطة بالمدينة المنورة في نهايات القرن الأول الهجري: شبهات عديدة تحتاج إلى رد علمي مُحكم من طرف الإمام الباقر (ع).

كانت لدى أئمة أهل البيت (ع) قابليات إستثنائية في المناظرات، وكان إمامهم (ع) بالعلوم الآلهية، وضبطهم لمعاني القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجعلهم في صدارة أي نقاش يتم بينهم وبين من يقابلهم من الناس، حكماً كانوا أو متفقيهم من مذاهب أخرى، أو متفلسفين بفلسفة وضعية. وكان إقناع الخصم بقوة الدليل يتم عبر وضع الحقائق وكأنها أحجاراً بناءً مصممةً للإستقرار بعضها فوق بعض، بجمالية وبهندسة مُحكّمة.

المناظرة والجدل في اللغة والإصطلاح

والإنسان بطبيعته يميل إلى الجدل، فما أن يأتي برأيٍ إلا يردُّ عليه برأيٍ مقابل، وقد قال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جِدَلًا)⁷⁵⁷. والجدل يعبر، في أغلب حالاته، عن التباين في طبائع الناس من الناحية العقلية والنفسية. أما المناظرة فهي سلاحُ أهل الحق لطرح الدليل والحجة على صحة معتقداتهم. ولاشك أن القرآن الكريم بيّن لنا أصول المناظرات، وإسلوب الإستدلال والإعتراض، وإقامة البرهان الذي هو غاية البيان. وغالباً ما يرد هذان المصطلحان: المناظرة والجدل.

⁷⁵⁷ سورة الكهف: الآية 54.

المناظرة: كلمة المناظرة جاءت من النظر والانتظار، ومن النظر بالبصيرة. وناظرة في قضايا العلم: جادلته، وناقشه⁷⁵⁸. وفي الإصطلاح هي النظر بالبصيرة من الطرفين المتناظرين بغرض إظهار الصواب؛ والأصل في المناظرة هو النظر الإستدلالي، وهو النظر في الدليل أو الحجة التي توصله إلى الحق، عن طريق متسائل ومجيب ينتظران الوصول إلى ملتقى تقاطع الحقيقة.

من هنا كانت المناظرة المثالية عملية لا تتم إلا عبر مصدرٍ يتحلى بالملكة العلمية، أو العصمة في بحثنا هذا. ومقصود الإمام الباقر (ع) في التناظر هو إظهار الحق في موارد النظر. وكان سلاحه (ع): العلم الديني من منابعه الأصيلة، وهكذا كانت المناظرة العلمية وسيلةً لتفنيد الحجج الباطلة والإدعاءات الموضوعية، وتصحيح الأخطاء العقائدية التي يقع فيها الناس عادةً .

الجدل: هو مقابلة الحجة بالحجة، وتكون بحقٍ أو بباطلٍ، وأصله الخصومة الشديدة، ويسمى جدلاً لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُحكم خصومته وحقته إككاماً بليغاً على قدر طاقته تشبهاً بجدل الحبل وهو إككام فتله، يقال جادله يجادله وجدالاً⁷⁵⁹.

⁷⁵⁸ لسان العرب ج 8 ص 606.

⁷⁵⁹ تهذيب الأسماء واللغات - النووي ج 3 ص 48.

قسّم القرآن الكريم الجدل إلى نوعين. الأول: ما كان محموداً في تقرير الحق: (... وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)⁷⁶⁰. والثاني: ما كان مذموماً، وهو في نصرة الباطل: (... وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)⁷⁶¹.

والإشتراك بينهما هو إبداء كلِّ طرفٍ نظره، حقاً كان أو باطلاً، إلى الطرف الآخر. وفي هذا الفصل نترك موضوع الجدل جانباً، ونبحث في المناظرة العلمية، وهي عرض الدليل العلمي لإفحام الخصم في الفكر الديني.

الدليل والبرهان: في المناظرة

لا تكتمل المناظرة بدون دليلٍ واضحٍ قويٍّ يُقحم المنازع؛ فالمناظرة تبقى كلمات مفردة ما لم تحمل دليلاً صادقاً على صحة المدعى. فلا بد أن يعرّف الدليل ومرادفاته.

قوة الدليل: والأصل في المناظرة هو قوة الحجج أو الأدلة كما قلنا، فالحجة أو الدليل في المناظرة كالجملّة المفيدة في الكلام المتداول بين الناس. فلا حديث أو كلام بدون جملة مفيدة، ولا مناظرة بدون دليل.

⁷⁶⁰ سورة النحل: الآية 125.

⁷⁶¹ سورة غافر: الآية 5.

وطالما حملَ المتناظران دعاوى متفاوته، أثمرَ التناظرُ طرحاً جديداً، ونقداً لاذعاً، وبرهاناً للطرف المحقّ، ودفاعاً عن حقيقةٍ مستورةٍ. ويتخذ الدليل أشكالاً مختلفةً. فربما كان دليلاً قرآنياً، وربما كان دليلاً روائياً، وربما كان دليلاً عقلياً. وقوة الدليل تحمل الخصم على مراجعة آرائه وتقنعه بخطائها وضرورة تصحيحها. فالمناظرة مدرسة من مدارس العلم والفكر لجميع طبقات الأمة.

وضوح البرهان: البرهنة على المدعى هي العملية الرئيسية في المناظرات، ولذلك كانت معرفة البرهان ضرورية، وكذلك معرفة مرادفاته مثل: البيان، والحجة، والسلطان، والدليل. فالبرهان: هو الحجة البيّنة الفاصلة⁷⁶². قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)⁷⁶³. أي البيّنة الواضحة.

وفي القرآن الكريم وردت عدة مصطلحات تُفيد معنى الدليل وإقامة الحجة في المناظرة، منها:

1 - **البيان:** ما بُيّن به الشيء من الدلالة ونحوها. وبيان الشيء أي أتضح. قال تعالى في شأن الأنثى: (أَوْ مَنْ يُنْتَشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ

⁷⁶² المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية، مادة: برهن.

⁷⁶³ سورة النساء: الآية 174.

مُبين⁷⁶⁴، أي أن الأنتى لا تكاد تستوفي الحجة القضائية، لأن عالمها البيت والزينة.

2 - الحُجَّةُ: الدليل والبرهان، ويُقال: حاججته. قال تعالى في أمر إبراهيم (ع) مع قومه: (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)⁷⁶⁵، أي أنهم أحتجوا عليه بأدلة باطلة لا تصمد أمام الدليل الحق.

3 - البرهان: وهي الحجة الفاصلة القاطعة لدفع الخصم. قال تعالى: (...تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)⁷⁶⁶، ومن برهن فقد أقام الحجة على الخصم.

4 - السلطان: الحجة والبينة، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)⁷⁶⁷. قال الفراء: "السلطان عند العرب الحجة، يذكر ويؤنث، فمن ذكر السلطان ذهب به إلى معنى الرجل، ومن أنثه ذهب به إلى معنى الحجة"⁷⁶⁸.

5 - الدليل: ما يُستدلُّ به، ودلّه على الطريق أراه الطريق، قال تعالى: (الَّذِي تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ

⁷⁶⁴ سورة الزخرف: الآية 18.

⁷⁶⁵ سورة الأنعام: الآية 80.

⁷⁶⁶ سورة البقرة: الآية 111.

⁷⁶⁷ سورة هود: الآية 96.

⁷⁶⁸ لسان العرب ج 7 ص 231.

دَلِيلًا⁷⁶⁹، أي "أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل⁷⁷⁰، من كونه ثابتاً في مكان، زائلاً عن آخر، ومتسعاً في موضع، ومقلصاً في غيره؛ فيبنون حاجتهم إلى الظل..."⁷⁷¹.

البرهان المنطقي: البرهان هو إستدلال ينتقل فيه الذهن من قضايا مسلّمة إلى أخرى تنتج منها بالضرورة. يقول المنطقة بأنه إستدلالٌ يقوم على أساسٍ من مقدمات يقينية وينتهي إلى نتائج يقينية. وبتعبيرٍ آخر هو إستدلال شرطي إفتراضي لا تصدق نتيجته إلا إذا صدقت مقدماته. ونقصد بالبرهان عملية الإستدلال التي يكون هدفها تأكيد صدق القضية أو كذبها. وينحصر البرهان على الحجة العقلية والشرعية في العلوم الدينية والإنسانية، دون الحجج الأخرى كالحجة التجريبية مثلاً في العلوم التجريبية مثل الطب، والفيزياء، والكيمياء.

والإستدلال التي تترتب عليها القضية المنطقية والتي يُبنى عليها البرهان تسمى الحجج. ولابد من صدق الحجج، على شرط أن لا تتضمن مقدمات تفترض القضية المراد البرهنة عليها.

⁷⁶⁹ سورة الفرقان: الآية 45.

⁷⁷⁰ والأصح في مسير الأرض حولها، لأن الشمس ثابتة.

⁷⁷¹ التفسير الكبير - الفخر الرازي ج 2 ص 99.

المناظرة في القرآن الكريم

مقدمة:

قال أهل العلم: "لا يعرف الحق من الباطل إلا أهل العلم، فعون أهل الحق على حقهم، ودفع أهل الباطل عن باطلهم من أفضل الأعمال، وهو عمل بالقرآن لأن الله يقول: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ...)⁷⁷² "773. فهلا كان أئمة أهل البيت (ع) أحق بمعرفة القرآن من غيرهم لقربهم من رسول الله (ص) وعصمتهم؟! نعم هو كذلك، فهم أهل الذكر، وهم حملة القرآن ومفسروه، وهم الذين يعلمون.

القرآن الكريم وأهل البيت (ع):

ولما كان أئمة أهل البيت (ع) صنو القرآن الكريم، وقد قال فيهم رسول الله (ص): (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي...)⁷⁷⁴، فإننا نرى هذا الخط المتوازي بين المناظرات المذكورة في القرآن الكريم وبين مناظرات الإمام الباقر (ع).

فكان محور تلك المناظرات المقابلة بين الحق والباطل، وإستخدام الأدلة الشرعية والعقلية في أصول العقيدة في قضايا التوحيد والنبوة والإمامة. و"ما من برهان وتقسيم وتحديد ينبئ عن كليات المعلومات

⁷⁷² سورة الأنبياء: الآية 18.

⁷⁷³ شرح مذاهب أهل السنة - ابن شاهين ص 97.

⁷⁷⁴ صحيح مسلم ج 4 ص 1873.

العقلية والسمعية إلا والقرآن قد نطقَ به، ولكن أوردته الله تعالى على عادة العرب⁷⁷⁵.

ودلالة القرآن، كما في كتاب (مفتاح دار السعادة) لأبن قيم الجوزية (ت 751 هـ) "البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها فتكون دليلاً سمعياً عقلياً أمرٌ تميّز به القرآن، وصار العالم به من الراسخين في العلم، وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب وتسكن عنده النفس ويزكو به العقل، وتستتير به البصيرة، وتقوى به الحجة، ولا سبيل لأحدٍ من العالمين إلى قطع من حاجٍ به، بل من خاصم به فليجث حجتَه وكسر شبهة خصمه⁷⁷⁶".

وعندما نقرأ ذلك المقطع لابن الجوزية، نحسّ بأن المؤلف كان - من غير قصد - يصف الإمام الباقر (ع) في علمه بالقرآن وإحتجابه به. خاض الإمام (ع) حرباً ضد الإتجاهات الفكرية المتضاربة التي سادت زمانه (ع). وإذا كان الإمام الحسين (ع) قد دافع عن دين محمد (ص) بالسيف والدم في ساحة الطف، فإن معركة الإمام الباقر (ع) كانت بالكلمة والمداد في ساحة الفكر. وتلك معركة تحتاج إلى ملكات أو مهارات لا يملكها إلا أوصياء النبي (ص).

إن مسائل أصول الدين كالإقرار بوجود الخالق ووحديته، وعلمه وقدرته، وقضائه ومشيئته، ونبوة محمد (ص) وإمامة علي (ع) وأولاده

⁷⁷⁵ (مقدمة) تفسير الراغب الاصفهاني ص 75.

⁷⁷⁶ مفتاح دار السعادة - ابن قيم الجوزية ج 1 ص 146.

المعصومين (ع) قد دلّ الشارع عليها بالدليلين العقلي والنقلي. وكان الظرف التاريخي بحاجة إلى مُخبر صادق ينقل ذلك، وإلى مصدر موثوق يُخبر بالمعاني الحقيقية لكتاب الله المجيد، فكان الإمام الباقر (ع).

نماذج المناظرات في القرآن الكريم:

وإذا تأملنا في القرآن الكريم نجد فيه أسرار المناظرات، باستخدام الحجة والدليل، لإبطال الشبهة الفاسدة، ومن ذلك مناظرة النبي إبراهيم (ع) مع نمرود، ومناظرة النبي موسى (ع) مع فرعون، ومناظرة النبي محمد (ص) مع نصارى نجران.

النموذج الأول: ناظر النبي إبراهيم (ع) نمرود ملك بابل، كما ينقلها قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)⁷⁷⁷.

كان نمرود يرى في نفسه الألوهية في زمانه. فالمناظرة التي وقعت بينه وبين إبراهيم (ع) تكشف أن إبراهيم (ع) كان يقول "أن ربه الله لا غير، ونمرود كان يدعي أنه هو رب إبراهيم وغيره. ولذلك لما احتج إبراهيم

⁷⁷⁷ سورة البقرة: الآية 258.

(ع) على دعواه بقوله: ربي الذي يُحيي ويميت، قال: أنا أُحيي وأميت، فادعى أنه متصفٌ بما وصف به إبراهيم ربه...⁷⁷⁸.

ولم يستطع إبراهيم (ع) تبين وجه المغالطة لنمرود، لأن ذلك يستدعي شرح الفارق بين المعنيين المجازي والحقيقي للحياة والموت، وذلك بأن الأشياء لا تقوى على إيجاد نفسها بنفسها أو إفنائها بنفسها، والأسلوب الذي استخدمه نمرود في الإحياء والإماتة هو أسلوب مجازي، بأن يكون سبباً في موت شخص أو إبقائه حياً.

فعدل إبراهيم (ع) إلى حجة جديدة لم يستطع نمرود المكابر أن يعارضه فيها، فقال إبراهيم (ع): إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. وطالما كان الشروق والغروب بيد الله تعالى، وهو الفاعل الإرادي إذا إختار ذلك بالإرادة، ونمرود يعلم ذلك، بُهت نمرود، ولم يستطع أن يقول أنا آتيتها من المغرب بدل المشرق. وتلك مناظرة مثالية في إثبات صحة الدعوى.

مبنى المناظرة: كان لإبراهيم (ع) في مناظرته مع نمرود إحتجاجين يثبتان وجود الله الخالق البارئ عزوجل.

الأول: أن الحياة الحقيقية والموت الحقيقي هما بيد الله تعالى، لا بيد غيره. لكن نمرود تلاعب بالألفاظ، وقال: أنا أُحيي وأميت، أي أنا ربك الذي

⁷⁷⁸ الميزان في تفسير القرآن ج 2 ص 350.

وصفته بأنه يُحيي ويُميت. بمعنى أنه أُنْفَع الحضور من حاشيته بأنه قادر على الإحياء والإماتة عبر العفو أو القتل.

الثاني: أن تدبير الكون وتسييره هو بيده تعالى، لا بيد غيره. فالله تعالى يأتي بالشمس من المشرق. وكان إحتجابه (ع): فأْتِ بها من المغرب. أي أنه لما يئس من المضي في إحتجابه الأول في الحياة والموت، أنتقل إلى الإحتجاج الثاني وكأنه بنى على الإحتجاج الأول بإحتجاج ثانٍ كما يدل عليه التفريع بالفاء في قوله: (... فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ...) ⁷⁷⁹، والمعنى: "إن كان الأمر كما تقول: أنك ربي ومن شأن الرب أن يتصرف في تدبير أمر هذا النظام الكوني، فالله سبحانه يتصرف في الشمس بإتيانها من المشرق، فتصرف أنت بإتيانها من المغرب حتى يتضح لك أنك رب، كما أن الله رب كل شيء، أو أنك رب فوق الأرباب، فُبْهت الذي كفر" ⁷⁸⁰.

النموذج الثاني: ناظر النبي موسى (ع) فرعون، كما ورد في قوله تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ

⁷⁷⁹ سورة البقرة: الآية 258.

⁷⁸⁰ الميزان في تفسير القرآن ج 2 ص 355.

وَالْمُغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ
مِنَ الْمَسْجُونِينَ⁷⁸¹.

تمت المناظرة بين النبي موسى (ع) وفرعون بعد أن عرض موسى
(ع) عليه فحوى رسالته المتمثلة بالإيمان بالله تعالى. فأنكر فرعون ذلك،
وبدأت مناظرتها بخصوص الخالق عزَّوجلَّ. فكان موسى (ع) مرسلًا من
قبل الله تعالى، وكان فرعون وثنيًا يعبد الأصنام، كما ورد في قوله تعالى:
(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَأَلِهَتَكَ...)⁷⁸²، ويدعي الألوهية في نفس الوقت كما في قوله تعالى على
لسانه: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)⁷⁸³.

فرعون ربُّ للناس كما يدعي، ومربوبٌ للآلهة من الأصنام في
نفس الزمان، فكانت المناظرة:

سأل فرعون: من هو هذا الموصوف برب العالمين؟ (... وَمَا رَبُّ
الْعَالَمِينَ)⁷⁸⁴ وما حقيقته؟

فأجابه موسى (ع): (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ
مُوقِنِينَ)⁷⁸⁵. كانت صيغة الجواب مطابقة لصيغة السؤال، فهو رب
السماوات والأرض وما بينهما، وهو ربُّ الوجود تدبيراً واحداً مرتبطاً

⁷⁸¹ سورة الشعراء: الآية 23-29.

⁷⁸² سورة الأعراف: الآية 127.

⁷⁸³ سورة النازعات: الآية 24.

⁷⁸⁴ سورة الشعراء: الآية 23.

⁷⁸⁵ سورة الشعراء: الآية 24.

بعضه ببعض، وليس فيهما ربّ سواه. وارتباط الأجزاء في الوجود يدلُّ على وحدانية الخالق عزّوجلّ، وعلى تدبير المخلوقات، ودقة النظام في الكون. ولما أسقط ما في يده، توجه فرعون إلى حاشيته: (قَالَ لِمَنْ حَوْلُهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)⁷⁸⁶ أي ألا تتعجبون من قول موسى أسأله عن ماهية رب العالمين، فيجيبني بأنه رسول رب العالمين؟! وما نسبة السموات والأرض إلى (العالمين)؟ هنا تصور فرعون أنه ظفر بموسى (ع)، ولكن! أجابه موسى (ع): (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ)⁷⁸⁷، وهو أنه وجه طريق المناظرة بما يريده هو (ع) لا بما يريده فرعون. فأصبح أكثر صراحة في المقصود، فذكر أن الله تعالى هو رب العباد بالإضافة إلى رب الكون والجمادات. فكأنه [أي فرعون] كان يقول: إن أردت برب العالمين الله تعالى، فهو رب الأرباب لا غير. وإن أردت غيره من الآلهة فكلُّ منهم ربُّ عالمٍ خاص، فما معنى رب العالمين؟ فأجاب موسى (ع) ملخصاً أنه ليس في الوجود من ربِّ إلا ربُّ واحد، فيكون رب العالمين فهو ربكم وقد أرسلني إليكم⁷⁸⁸.

حاول فرعون توجيه سير المناظرة إلى طريقه مرة أخرى، ف(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)⁷⁸⁹. فسمى موسى (ع) رسولاً تهكماً وإستهزاءً، ثم نسبه إلى من حوله إستكباراً منه أن يكون رسولاً إليه خاصة،

⁷⁸⁶ سورة الشعراء: الآية 25.

⁷⁸⁷ سورة الشعراء: الآية 26.

⁷⁸⁸ الميزان في تفسير القرآن ج 15 ص 271.

⁷⁸⁹ سورة الشعراء: الآية 27.

ثم رماه بالجنون، وهو أن موسى (ع) يخلط الواقع بالخيال، وهذا هو شأن المجنون. فما يقوله موسى (ع) ليس واقعاً، كما زعم فرعون.

أراد موسى (ع) ثلاثة توجيه المناظرة إلى الوجهة التي يريدتها ف(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)⁷⁹⁰، وذلك التوجيه كان تأكيداً لموقفه (ع) من أن التدبير الالهي متصل بالمشرق والمغرب، وهو إتحد لا يقبل إلا تدبيراً واحداً من قبل رب واحد.

وهنا انقطعت حجة فرعون، فهدده بالسجن (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)⁷⁹¹. إلى هنا انتهت المناظرة العلمية بين النبي موسى (ع) وفرعون، وابتدأت المصاديق العملية لنبوة موسى (ع) في العصا ومعجزاتها.

النموذج الثالث: ناظر النبي محمد (ص) نصارى نجران، كما في قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)⁷⁹².

قصة نزول هذه الآية أن نصارى نجران وفدوا على رسول الله (ص)، فسألوه أسئلة أشبه بالمناظرة. فأجابهم بأنه رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب. فسألوه على سبيل الإيقاع به في فخ: من أبوه؟

⁷⁹⁰ سورة الشعراء: الآية 28.

⁷⁹¹ سورة الشعراء: الآية 29.

⁷⁹² سورة آل عمران: الآية 59 - 60.

فأجابهم رسول الله (ص): ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب؟ فأجابوا: نعم. قال (ص): فمن أبوه؟ فبهتوا. فأنزل الله الآية⁷⁹³.

فوجه الإستدلال هنا أن المناظرة تمت بسؤالٍ له (ص) منهم عن ماهية الدعوة التي تقوم بها؟ فأجابهم (ص) بالشهادتين، ثم أضاف (ص) تصحيحاً لإعتقادهم بعيسى (ع)، وهو أن عيسى (ع) عبداً مخلوقاً وليس خالفاً أو ابناً للخالق عزّوجلّ، كما يزعمون.

هنا وجهوا دفة الحديث أو المناظرة بالقول: إذا كان مخلوقاً فمن أبوه؟ وليس هناك بشرٌ يُخلق دون أب. فأفحمهم رسول الله (ص) بأن شأن عيسى (ع) في الخلق كشأن آدم (ع) خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

مناظرات الإمام الباقر (ع): النظرية والمصداق

كانت الأجواء العامة في زمن الإمام الباقر (ع)، تفصح عن مناظرات تعدّ لونهاً من ألوان العلم، لأن الناس بدأت تبحث عن فحوى الشبهات التي طغت على الأجواء الفكرية الدينية آنذاك، وقد اعترف بذلك الداني والقاصي، فقد "كانوا يتناظرون في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام بالأدلة المرضية والحجج القوية، حتى قلّ مجلس يجتمعون عليه إلا ظهر

⁷⁹³ الإرشاد ج 1 ص 167.

الصواب، ورجع راجعون إليه، لإستدلال المستدل بالصحيح من الدلائل،
وعلم المنازع أن الرجوع إلى الحق خير من التماسي في الباطل...⁷⁹⁴.
ولكنهم كانوا يسمعون الحق أحياناً من الإمام الباقر (ع) ولا
يأخذون به. ومن ذلك أن أبا يوسف (ت 798 هـ) سئل أستاذه أبو حنيفة
(ت 767 هـ) عن لقائه بالإمام الباقر (ع)، فقال: نعم. وسألته: أراد الله
المعاصي؟ فقال (ع): (أفيعصى قهراً؟). قال أبو حنيفة: فما رأيت جواباً
أفحم منه⁷⁹⁵.

ولقد أشرنا أكثر من مرة إلى أن من أهم لوازم المناظرة هي أنها
يجب أن تستند على علم تام بالشريعة يرتقي إلى درجة العصمة. ولذلك
أدان القرآن الكريم المناظرة بغير علم، فقال: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)⁷⁹⁶.

ويقول مبكراً⁷⁹⁷ أهل الكتاب جدالهم بغير علم: (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ)⁷⁹⁸. والآية ناطقة بالمنع من الجدل مع الجهل، أو أن يجادل
المرء فيما لا علم له به.

⁷⁹⁴ تنبيه الرجل العاقل - ابن تيمية ص 24.

⁷⁹⁵ تنكرة الخواص ص 302.

⁷⁹⁶ سورة الحج: الآية 8.

⁷⁹⁷ مبكراً: من بكتته: أي قرعه بالحجة.

⁷⁹⁸ سورة آل عمران: الآية 66.

طرق المناظرة عند الإمام (ع):

للمناظرة العلمية مباني هدفها رفع الشبهات، وإيصال الحقائق، كما ألمحنا إلى ذلك في المقدمة. وتلك وظيفة من وظائف أئمة أهل البيت المعصومين (ع)، لأن للعصمة ركنين مهمين هما: العلم، والتقوى. والمناظرة طريقة من طرق إيصال العلم الديني في أصول الدين وفروعه إلى الناس.

نستقرأ من دراسة مناظرات الإمام الباقر (ع) خمس نظريات في

علم المناظرة، وهي:

الأولى: المناظرة بإسلوب الوسائط.

الثانية: المناظرة بإسلوب إعادة التوجيه والإستدلال.

الثالثة: المناظرة بالإجابة السريعة الخاطفة.

الرابعة: المناظرة بالإستدلال التفصيلي.

الخامسة: المناظرة بإسلوب الأخذ والرد من المناظر نفسه.

وسوف نشرح كل نظرية مع نماذج لكلٍ منها من مناظراته (ع) .

النظرية الأولى: المناظرة بإسلوب الوسائط

هذه النظرية، وفي كل مرحلة من مراحلها تصحح أخطاء المنازع، وترشده إلى الفكرة الحقيقية. فهي تعرّف الموضوع، وتتسج الحقائق نسجاً واقعياً منسجماً مع الأفكار الشرعية الأخرى، ثم تقمّم الموضوع، وتضع العلم في مكانه الصحيح.

وسائط المناظرة: وسائط جمع واسطة. والواسطة هو ما يتوصل به إلى الشيء. وطالما وقع الإختلاف في المناظرة وأصبح عدم الإلتفاق مع الخصم أمراً واقعاً، إحتاج المناظر عندها إلى بناء منهج لإقامة الحجة على إحكام موقفه، والبرهنة على صحته.

فهنا ثلاث وسائط للمناظرة:

الأولى: الواسطة الوصفية: وموضوعها تعريف الأشياء، ومعرفة طبيعتها. فينبغي أن تُعرّف الأشياء بتعاريفها المنطقية الصحيحة، حتى يصبح النقاش متوازياً، لا أن يتكلم الأول في موضوع والثاني في موضوع آخر، بل لا بد من سياق واحد يجري عليه طرح الحجج العلمية من الطرفين. فوحدة الموضوع، عبر تعريفه وتشخيص حدوده المنطقية أمرٌ أساسي في المناظرة.

الثانية: الواسطة الإرتباطية: وموضوعها العلاقة العقلية والشرعية بين شيء وآخر. وهو أن يكون هناك رابطاً ما يجمع الأفكار المطروحة على طاولة البحث. فالأفكار التي يجمعها عنوان واحد ورابطة مشتركة تكون أكثر إنسجاماً من الأفكار المبعثرة. وإذا انقطع الإرتباط بين الأفكار إنقطع الفهم والإدراك. ومن هنا كان على المناظر أن يستمر في النسيج الفكري للموضوع الذي يدافع عنه أو يناقش فيه. فإذا كان الحديث عن التوحيد، يجب أن تكون الأفكار المطروحة متعلقة بالتوحيد، لا أن تشدّ إلى موضوع آخر لا علاقة له بالتوحيد.

الثالثة: الواسطة التقييمية: وموضوعها إستحقاق الموضوع للمناظرة. فلا بد للمناظر من أن يُقيّم سير المناظرة، وأن يطمئن على أنها تسير بخط

متوازٍ. فإذا أحسّ المناظر أن غريمه لا ينهض على الردّ قام بتوجيه الحديث بالوجهة التي يراها صالحة، مع شرط أن يكون هو صاحب المبادرة في عرض الحجة أو الدليل الذي يناسب مقام البحث.

من مصاديقها: ومن أجل فهم نظرية الإمام (ع) في هذا النوع من المناظرات نسرد بعضاً من المصاديق، لنتوصل إلى طريقته (ع) في الإستدلال الديني، ونعرض لأمثلة تعدُّ من مصاديق المناظرة بأسلوب الوسائط:

النموذج الأول: سأل نافع بن الأزرق⁷⁹⁹ أبا جعفر (ع) قال: أخبرني عن الله عزوجل متى كان؟ قال (ع): (متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً)⁸⁰⁰. وإذا طبّقنا خطوات وسائط المناظرة العلمية، فإننا نلاحظ ما يلي:

كانت الوسائط الوصفية في هذا المثال هو تعريف صفة الخالق عزوجلّ عن طريق الأزلية. فقد نفى الإمام (ع) تحديده تعالى بزمان أو مكان عن طريق الإستفهام (متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟)، فعن طريق هذه الوسائط التعريفية نفى الإمام (ع) ما كان يحمله المنازع من أوهام حول الخالق عزوجلّ. وعن طريق الوسائط الوصفية وضع الإمام

⁷⁹⁹ نافع بن الأزرق: أحد رؤساء الخوارج.

⁸⁰⁰ الإحتجاج ج 2 ص 48.

(ع) تعريف الخالق عزّوجلّ بالصورة التي آمن بها (ع) لا بالصورة التي آمن بها المنازع.

أما الوساطة الإرتباطية، وهو إرتباط المواضيع الفكرية بعضها ببعض، فقد إحتج الإمام (ع) على السائل بإعادة تعريف الموضوع، فأرجع (ع) الموضوع إلى الأزلية. فالأزلي: القديم العريق الذي لا أول له. فالله أزليّ في ملكوته، خالدّ دائم الوجود لا بدء له. وهذا معنى قول: خلق الله العالم منذ الأزل، أي ما لا نهاية له في أوله.

ربط الإمام (ع) موضوع العلاقة العقلية بين الأزلية التي ذكرناها للتو وبين صفة من صفاته في كونه خالقاً واحداً لا خالق سواه. فقال (ع): (سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً)⁸⁰¹. فالإمام (ع) إستخدم وسائل المناظرة، ولم يعترف بسؤال السائل، بل وجهه (ع) إلى التعريف الصحيح وهو: (متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟).

أما الوساطة التقييمية، فقد كان موضوع المناظرة مهماً إلى درجة أنه كان يستحق الخوض في غماره العلمية، ولذلك إسترسل الإمام (ع) واصفاً الخالق عزّوجلّ: (سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً)⁸⁰². بمعنى أن الله أزليّ أبديّ، واحدٌ أحدٌ، لا شريك له ولا ولد، وتلك من أعظم صفات الخالق عزّوجلّ في قضية التوحيد.

⁸⁰¹ الإحتجاج ج 2 ص 48.

⁸⁰² المصدر السابق.

النموذج الثاني: عمرو بن عبيد سئل الإمام الباقر (ع) في قوله تعالى: (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)⁸⁰³، ما غضب الله؟ فقال (ع): (الغضب: العذاب. وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستغزه، ويغيّره عن الحال التي هو بها لغيره. فمن زعم أن الله يغيّره الغضب والرضا، ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق)⁸⁰⁴. وفي رواية ثانية أنه (ع) قال: (غضب الله تعالى عقابه، ومن ظنّ أن الله يغيّره شيء فقد هلك)⁸⁰⁵. والمعنى في الروایتين واحد، وإن تغيرت الألفاظ.

في هذا المثال، يُشكّل عمرو بن عبيد على الإمام (ع) بأن قوله تعالى: (وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)⁸⁰⁶، يعني بأن الله تعالى يغضب، كما يغضب الإنسان! فيأخذ الإمام (ع) بوسائل المناظرة:

1 - فهو (ع) يعيد عليه تعريف الموضوع بالصورة الصحيحة، ويقول له: أن معنى الغضب: هو العذاب. بمعنى أنه ليس تقطيب الوجه وفوران الدم كما هو الحال عند الإنسان.

2 - ثم يوضح العلاقة العقلية بين حس المخلوق وصفاته التي لا تنطبق على الخالق عزوجل، فيقول (ع): (وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستغزه، ويغيّره عن الحال التي هو بها إلى غيرها...). والمخلوق

⁸⁰³ سورة طه: الآية 81.

⁸⁰⁴ الإحتجاج ج 2 ص 49.

⁸⁰⁵ الإحتجاج ج 2 ص 55.

⁸⁰⁶ سورة طه: الآية 81.

سرعان ما يغضب لقضايا تزعجه فيفور دمه، وتنتفخ أوداجه، تعالى الله عن ذلك. والخالق عزوجل لا يتصف بصفات المخلوق.

3 - ثم يقيم له الموضوع: (...فمن زعم أن الله يغيره الغضب والرضا، ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق)⁸⁰⁷. فالخالق عزوجل، بذاته وصفاته، يختلف عن المخلوق. والمشاركات اللفظية في الغضب والرضا لا تعني أن الخالق عزوجل له صفات المخلوق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فلا بد من الأخذ بالسياق القرآني لفهم صفات الخالق عزوجل. فهو تبارك وتعالى (... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)⁸⁰⁸، وفي الآية كفاية علم لنفي صفة الغضب والرضا المادي عنه. فيتعين أن غضب الله تعالى هو إرادة العقاب فقط.

الإستنتاج:

تتبع أهمية نظرية الوسائط من كونها مدرسة علمية في المناظرة، فهي لا تقتصر على السؤال والجواب فحسب، بل إنها تحدد ماهية الموضوع عبر تعريفه، واكتشاف العلاقة بينه وبين التفريعات المترتبة عليه، وتقوم بتقييمه، ثم تعطي الجواب بعد ملاحظة جميع أبعاد ذلك الموضوع. ومصاديق هذه النظرية في هذا البحث أختصت بفكرة التوحيد.

⁸⁰⁷ الإحتجاج ج 2 ص 49.

⁸⁰⁸ سورة الشورى: الآية 11.

والحق، أن الإمام (ع) كان يجيب سألبيه حتى لو كانوا ملحدين
إجابةً ملؤها العلم الشامل، والأدب الجم، فلم يتهمهم بالكفر ولا بالزيف، بل
فتح قلبه (ع) لهم وحاول إرشادهم، وتلك من أخلاقية مناظراته (ع).

النظرية الثانية: إعادة التوجيه والإستدلال

هذه النظرية تفترض أن مقدمات المنازع غير صحيحة، فتقوم على
الإستدلال عبر إعادة توجيه الفكرة الخاطئة إلى وجهة جديدة صحيحة.
وللمناظرة بإسلوب إعادة التوجيه والإستدلال ثلاث مراحل، هي:
الأولى: المطالبة بالجواب. يقوم المنازع بسؤال الإمام (ع) سؤالاً أساسياً
ويطالب بالجواب. والناس أحرارٌ عموماً في طرح الأسئلة، مهما كان
فحواها. ومن وظيفته (ع) أن يُجيب عليها بما ملكه من علم ومعرفة.
الثانية: إعادة توجيه فكرة السؤال: ينبري الإمام (ع) بتقنييد حجة الخصم
من خلال توجيه السؤال وجهة صحيحة. وهنا ينقل الإمام (ع) الخصم من
مساحة المعرفة التي يفهمها والمألوفة لديه إلى مساحة جديدة عليه وغير
مألوفة لديه. تلك المساحة الجديدة هي في الواقع نقلة نحو المرحلة الأخيرة،
وهي مرحلة الإستدلال.

الثالثة: الإستدلال: ومرحلة الإستدلال تعني أن الرابط بين مطالبة المنازع
بالجواب وبين إبراز الدليل أصبحت ممكنة. فالإستدلال لا يعني تقديم
الدليل فحسب، بل يعني إقناع المقابل بصحة الدليل وقوته. وعملية
الإستدلال تفتح الباب في ذهن الإنسان لفهم الرابط بين الأفكار الأولية

للسائل وبين الأفكار النهائية للإمام (ع). هذه القوة الدلالية تدفع السائل نحو قبول الجواب والإذعان لصحته.

النموذج الأول: وهو نموذج ذكرناه في النظرية الأولى، ولكن نعيده هنا وننظر إليه من زاوية النظرية الثانية. وهو سؤال نافع بن الأزرق قال: أخبرني عن الله عزوجل متى كان؟ قال (ع): (متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحان الله من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً)⁸⁰⁹.

نطبق خطوات نظرية إعادة التوجيه على هذا المثال:

الخطوة الأولى: يسأل المنازع الإمام (ع) طالباً منه إخباره عن الله تعالى متى كان؟ فالإمام (ع) مطالب بالجواب. وللسائل إرادة وتوجيه معين من وراء سؤاله، وربما كان ذلك التوجيه مقصوداً، وهو تثبيت فكرته حول كون الخالق تعالى حادثاً وليس بأزلي.

أي أن السائل أراد من صياغة سؤاله تحديد طبيعة الجواب بما يتناسب مع عقيدته المخالفة لعقيدة الإمام (ع). هنا تتبين علمية الإمام (ع) عن طريق إعادة توجيه السؤال. وتلك هي المرحلة الثانية.

الخطوة الثانية: يقوم الإمام (ع) في هذه الخطوة بإعادة توجيه السؤال إلى السائل. فهو (ع) لم يهمل الجواب، لكنه يعيد صياغة الفكرة من جديد

⁸⁰⁹ الإحتجاج ج 2 ص 48.

بسؤال السائل، فيقول (ع): (متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟). هنا أعاد الإمام (ع) للموضوع فكرته الجوهرية.

الخطوة الثالثة (الإستدلال): وعندما تمكن الإمام (ع) من ترويض المنازع وفنّد باطن سؤاله الذي أراد منه أن الله عزوجل حادث، قام (ع) بالإستدلال. فطالما كان الله تعالى أزلي أبدي، فليس لهذا السؤال محلّ. أستدل الإمام (ع) بصدق القضية المراد البرهنة عليها بإظهار خطأ مقدمات السائل. ثم قال (ع): (سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً)⁸¹⁰.

وبالإجمال فنّد الإمام (ع) فكرة الطرف المنازع، وصحح له سؤاله بإعادة توجيه السؤال توجيهاً صحيحاً، ثم أعطاه الجواب الصائب.

النموذج الثاني: عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر (ع) وقد دخل عليه رجل من الخوارج، فقال له: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟ قال (ع): (الله). قال: رأيتك؟ قال (ع): (بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبهه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا الله)⁸¹¹. فيخرج الرجل مذعناً بجواب الإمام (ع).

⁸¹⁰ الإحتجاج ج 2 ص 48.

⁸¹¹ المصدر السابق.

في هذا النموذج ثلاث مراحل للمناظرة:

المرحلة الأولى: يسأل الرجل الإمام الباقر (ع) عن ماهية عبادته (ع)، وكأنه يريد أن ينصب فخاً للإمام (ع)، ويريد أن يقول له كيف تعبد رباً لم تره. وهل العبادة إلا للمحسوس المتيقن رؤيته!! وهو قوله: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟

المرحلة الثانية: يُجيب الإمام (ع): (الله). أي أنه (ع) أراد تثبيت جوابه بصورة قطعية. وهو أنه يعبد الله عزوجل بإعتباره الخالق البارئ المصور، فالله سبحانه هو الذي يستحق العبادة دون سواه. لكن السائل المنازع يمضي فُدماً في توجيه رأيه عبر سؤال الإمام (ع): رأيتَه؟ وكأنه أراد القول كيف تعبدُ رباً لم تره؟ أو ربما أراد التجسيم، فتوهم بأن الخالق عزوجل يمكن رؤيته بعين الإنسان! وبذلك ينتقل الإمام إلى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: وبعد أن يعيد (ع) توجيه السؤال، وهو أنه يعبد رباً يراه ولا يمكن له أن يعبد رباً لم يره، يقوم بالإستدلال. فالعالم الظاهري الذي نعيش فيه، لا يكشف لنا كل شيء بالعين الباصرة، بل هناك حقائق لا تصلها العين الإنسانية، بل تصلها القلوب بحقائق الإيمان. يقول (ع): (بلى [رأيتَه]. [لكن] لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان).

وهنا يقرر الإمام (ع) الحقائق التالية:

1 - أن الله تعالى لا يمكن رؤيته بالعين الإنسانية المجردة ولا يمكن إدراكه بالحواس الإنسانية، بل بحقائق الإيمان التي هي من مختصات القلوب والعقول.

2 - أن الله تعالى لا يُعرف بعملية قياس الأشياء بعضها إلى بعض، ولا يشبه المخلوقات في شيء. فالمخلوق كائن ضعيف ضئيل لا يصل إلى إدراك كُنه الخالق عزوجل وجوهه. والقياس المنطقي تحصيل حاصل لا يأتي بجديد ولا يضيف إلى الحدود المعلومة شيئاً جديداً.

3 - أن العقل يعرف الله عزوجل ويراه بالآيات المعجزة، والآثار التي تدلّ عليه، أمثال دقة نظام الوجود، ولطافة خلق الكائنات، وتدبير المخلوقات. وتلك ميزة العقل الذي يرى الله تعالى في آثاره وأفعاله وصفاته.

4 - أن الله تعالى مدبّر لما خلق، فهو لا يترك الخلق لشأنهم بل يدبّر أمورهم، وهذا الذي نفهمه من أنه تعالى لا يجور في حكمه، فهو رحيم رازق مدبر، ينظر إلى شؤون من خلق. فيقول (ع): (لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُعرف بالقياس، ولا يُدرك بالحواس، ولا يُشبه بالناس، موصوفٌ بالآيات، معروفٌ بالدلالات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا الله)⁸¹².

5 - ردّ الإمام (ع) على الطرف المنازع بتوضيح فكرة أساسية تتعلق بالتوحيد، وهي أن رؤية الخالق عزوجل لا تتم بالعين المجردة، بل بالعقل وبإدراك العقل لآثار واجب الوجود عزوجل على الوجود. وتلك الرؤية أشدّ من رؤية الأبصار وأعمق. لأن الإنسان قد يرى شيئاً بعينه ولكن لا يلتفت عقله إليه. فالرؤية العقلية أمضى في قضايا الاعتقاد من الرؤية البصرية.

⁸¹² الإحتجاج ج 2 ص 48.

النموذج الثالث: روي أن رجلاً دخل على الإمام الباقر (ع) يريد أن يكلمه عن أمير المؤمنين علي (ع). فقال: جئْتُ أكلّمك في علي بن أبي طالب (ع) وأحداثه (يقصد مبارزته المشركين، وكذلك الخوارج لاحقاً).

قال (ع): (يا سالم أبلغك أن رسول الله (ص) بعث سعد بن عبادَةَ براءة الأنصار إلى خيبر، فرجع منهزماً، ثم بعث عمر بن الخطاب براءة المهاجرين والأنصار، فأتى سعد جريحاً وجاء عمر يجيّن أصحابه ويجبّونهم، فقال رسول الله (ص): (هكذا يفعل المهاجرون والأنصار)، حتى قالها ثلاثاً. ثم قال (ص): (لأعطيّن الراية غداً رجلاً كرّار ليس بفرّار، يحبّه الله ورسوله، ويحبّ الله ورسوله)؟

قال: نعم، وقال القوم جميعاً أيضاً.

فقال (ع): (يا سالم إن قلت أن الله تعالى أحبه وهو لا يعلم ما هو صانع فقد كفرت، وإن قلت أن الله تعالى أحبه وهو يعلم ما هو صانع فأنيّ حدث ترى له؟).

فقال: أعد عليّ.

فأعادَ عليه، فقال سالم: عبدتُ الله على ضلالة سبعين عاماً⁸¹³.

⁸¹³ الإحتجاج ج 2 ص 57.

بيان:

- 1 - يبدو من مسار الرواية أو المناظرة أن رجلاً اسمه سالم كان مضطرب الفكر من قضية نزاع الخوارج مع الإمام أمير المؤمنين علي (ع). فبدأ الشك يدب في عقله، هل كان الإمام علي (ع) صائباً في قتاله الخوارج؟
- 2 - أعاد الإمام الباقر (ع) توجيه الموضوع بالصورة التالية: أن الله تعالى يعلم ما سيقوم به علي (ع) حتى نهاية حياته، فقول رسول الله (ص): (لأعطين الراية غداً رجلاً كزار وليس بفزار، يحبه الله ورسوله...) يعكس صحة فعل علي (ع) في زمن رسول الله (ص)، ضمن مساحة الحب الالهي الممتدة على أفق الزمن. فالله تعالى يعلم أن علياً سيقا تل الخوارج لاحقاً، والله يحبه لأن عمله (ع) ذلك كان مرضاةً له.
- 3 - قطع الإمام الباقر (ع) شك السائل بيقين قول رسول الله (ص) بشأن علي (ع). والله تعالى عالم بما سيفعله علي (ع) بالخوارج بعد أكثر من ثلاثين سنة من قول رسول الله (ص) له. هنا رسّخ الإمام الباقر (ع) يقين السائل بفضل إعادة توجيه الفكرة والإستدلال عليها.

الإستنتاج:

نظرية إعادة التوجيه والإستدلال مهمة في تصحيح أخطاء الناس. فالسؤال من قبل المنازع أو السائل يعكس فهماً معيناً للمسألة المتنازع حولها. ومن أجل تثبيت الفكرة الصحيحة في الأذهان، لا بد من إعادة توجيه السؤال حتى يكون الإستدلال متوازياً مع التوجيه الجديد. ذلك هو جوهر هذه النظرية التعليمية في المناظرة.

النظرية الثالثة: أسلوب الإجابة السريعة الخاطفة

هذا اللون من المناظرة يقتضي علماً جماً، وسرعة فائقة في الإجابة، لأن التأخر في الجواب أو التردد يعني عدم معرفته، أو على الأقل عدم الإطمئنان بوثوق معلوماته. فليس هناك مجال للتفكير أو للتذكر. في هذا النوع من المناظرات دلالة قوية على أعلمية أهل البيت (ع)، لأن الأسئلة كانت تنهمر عليهم (ع) كالمطر، وكان جوابهم جواباً صحيحاً شافياً متوازياً مع سرعة السؤال، ومع دقة العلم الذي يحملونه (ع). ومن ذلك النماذج التالية:

النموذج الأول: كان الإمام الباقر (ع) جالساً في الحرم وحوله مجموعة من أصحابه، فأقبل طاووس اليماني (ت 106 هـ) في جماعة من أصحابه وطلب الإذن بالسؤال أو المناظرة، فإذن (ع) له. فكانت المناظرة التالية:

1 - قال: أخبرني متى هلك ثلث الناس؟

قال (ع): (وهمت يا شيخ! أردت أن تقول: متى هلك ربع الناس؟ وذلك يوم قتل قابيل هابيل، كانوا أربعة: آدم، وحواء، وقابيل، وهابيل. فهلك ربعهم). فقال: أصبت ووهمت أنا.

2 - قال: فأيهما كان أباً للناس، القاتل أو المقتول؟

قال (ع): (لا واحد منهما بل أبوهم شيث بن آدم)⁸¹⁴.

3 - قال: فلم سمي آدم آدم؟

⁸¹⁴ أقول ربما مات شيث بن آدم زمن أبيه، والله العالم.

- قال (ع): (لأنه رفعت طينته من أديم الأرض السفلى).
- 4 - قال: ولم سُميت حواء حواء؟
- قال (ع): (لأنها خلقت من ضلع حي، يعني ضلع آدم).
- 5 - قال: فلم سُمي إبليس إبليس؟
- قال (ع): (لأنه أبلس⁸¹⁵ من رحمة الله فلا يرحوها).
- 6 - قال: فلم سُمي الجنُّ جنًّا؟
- قال (ع): (لأنهم استجنوا⁸¹⁶ فلم يروا).
- 7 - قال: فأخبرني عن كذبة كُذِّبت من صاحبها؟
- قال (ع): (إبليس حين قال: أنا خيرٌ منه خلقتي من نار وخلقته من طين).
- 8 - قال: فأخبرني عن قوم شهدوا شهادة الحق وكانوا كاذبين؟
- قال (ع): (المنافقون حين قالوا لرسول الله (ص): نشهد أنك لرسول الله، فأنزل الله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)⁸¹⁷).
- 9 - قال: فأخبرني عن طائرٍ طارَ مرةً ولم يطرَ قبلها ولا بعدها، ذكره الله تعالى في القرآن، ماهو؟

⁸¹⁵ أبلَس: يئس وتحير وسكت لإنقطاع حجته.

⁸¹⁶ استجنوا: أي إستتروا.

⁸¹⁷ سورة المنافقون: الآية 1 .

قال (ع): (طور سيناء⁸¹⁸ أطاره الله تعالى على بني إسرائيل حين أظلمهم بجناح منه، فيه ألوان العذاب، حتى قبلوا التوراة، وذلك قوله تعالى: (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ...)⁸¹⁹).

10 - قال: فأخبرني عن رسول الله بعثه الله تعالى ليس من الجنّ، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال (ع): (الغراب بعثه الله تعالى لئيرى قابيل كيف يوارى سواة أخيه هابيل حين قتله، قال الله تعالى: (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَاءَ أَخِيهِ...)⁸²⁰).

11 - قال: فأخبرني عمّن أنذر قومه ليس من الجنّ، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال (ع): (النملة حين قالت: (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)⁸²¹).

12 - قال: فأخبرني عمّن كذّب عليه، ليس من الجنّ، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال (ع): (الذئب الذي كذّب عليه أخوة يوسف).

⁸¹⁸ طور سيناء: الجبل الذي نودي منه موسى (ع).

⁸¹⁹ سورة الأعراف: الآية 171.

⁸²⁰ سورة المائدة: الآية 31.

⁸²¹ سورة النمل: الآية 18.

13 - قال: فأخبرني عن شيء قليله حلال وكثيره حرام، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال (ع): (نهر طالوت، قال الله تعالى: (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ)⁸²²).

14 - قال: فأخبرني عن صلاة فريضة تصلى بغير وضوء، وعن صوم لا يحجز عن أكلٍ ولا شربٍ؟

قال (ع): (أما الصلاة بغير وضوء فالصلاة على النبي وآله عليه وعليهم السلام، وأما الصوم فقول الله تعالى: (...إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) ⁸²³).

15 - قال: فأخبرني عن شيء يزيد وينقص، وعن شيء يزيد ولا ينقص، وعن شيء ينقص ولا يزيد؟

قال (ع): (أما الشيء الذي يزيد وينقص فهو: القمر، والشيء الذي هو يزيد ولا ينقص فهو: البحر، والشيء الذي ينقص ولا يزيد هو: العمر)⁸²⁴.

⁸²² سورة البقرة: الآية 249.

⁸²³ سورة مريم: الآية 26.

⁸²⁴ الإحتجاج ج 2 ص 57.

بيان:

1 - طاووس بن كيسان اليماني (ت 106 هـ) هو أحد الأعلام التابعين وأصله من اليمن، كان فقيهاً جليل القدر. وكان تقياً يتجنب السلاطين. عدّه ابن شهرآشوب (ت 558 هـ) من أصحاب الإمام السجاد (ع) ووصفه بالفقيه⁸²⁵، وكذا الشيخ الطوسي في رجاله⁸²⁶.

وله موقف مشهود مع هشام بن عبد الملك حيث دخل عليه وخلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بأمره المؤمنين، ولم يكنه، وجلس إلى جانبه بغير إذنه.

فكان رده عندما عوتب على ذلك: أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ. ثم قال: فإني سمعتُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) يقول: (إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار، فأنظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام)..⁸²⁷

ونستفيد من قراءة خاطفة لحياة طاووس اليماني أنه كان موالياً لأهل البيت (ع)، ويثبت ذلك أن أبا نعيم "أخرج بإسناده عن ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاووس عن بريدة عن النبي (ص) قال: (من كنت مولاه فعليّ مولاه). قال أبو نعيم: غريب من حديث طاووس، لم نكتبه إلا

⁸²⁵ مناقب آل أبي طالب ج 4 ص 177.

⁸²⁶ معجم رجال الحديث - السيد الخوئي ج 9 ص 155 رقم 5984.

⁸²⁷ وفيات الأعيان - ابن خلكان ج 2 ص 510.

من هذا الوجه⁸²⁸. وعلى ضوء ذلك نستدل على أن لقاء طاووس بالإمام الباقر (ع) كان له هدفاً.

2 - كان لطاووس اليماني أحد هدفين:

أ - إما إختبار علم الإمام (ع)، فأغلب أسئلته كانت عويصة، ولا هدف منها سوى إختبار علمه (ع)، ولا يتأتى للإنسان الإجابة عليها ما لم يحط بها علماً.

ب - أو إراءة الناس علم الإمام (ع) عن طريق طرح الاسئلة العويصة، وكان طاووس على يقينٍ من قدرة الإمام (ع) على الإجابة السريعة، وفي ذلك تشبيهُ لأعلميته (ع).

وكانت إجابات الإمام (ع) سريعة خاطفة لم تترك مجالاً للرد عليها، لأنها معلومة صحيحة، غير مسبوقٍ معرفتها، ولا يعتري صحتها شك.

3 - في تلك الفترة القصيرة سأل طاووس اليماني خمسة عشر سؤالاً، والرواية طويلة وفيها اسئلة كثيرة، والإجابة عليها بتلك السرعة يتطلب علماً وافياً. وعلمٌ بذلك الحجم لا نراه ولا نلمس آثاره إلا عندهم (ع) اقتبسوه بالأصل من علم رسول الله (ص).

⁸²⁸ حلية الأولياء ج 4 ص 23.

النموذج الثاني: روى حمزان بن أعين قال: سألت الإمام الباقر (ع) قول الله تعالى: (...إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...) ⁸²⁹؟ ما هي الروح؟ قال (ع): (هي مخلوقة خلقها الله بحكمته في آدم وفي عيسى) ⁸³⁰.

بيان:

جواب يطابق كلام الله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ⁸³¹، فهو (ع) لم يبحث في ماهيتها، واقتصر قوله (ع) على أنها مخلوقة من قبل الله تعالى في آدم وعيسى، ولا أب لهما. فنفهم من كلامه (ع) أنها القدرة الالهية التي نقول للشيء كن فيكون. ويؤيد ذلك قوله تعالى في خلق عيسى (ع): (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) ⁸³²، (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ⁸³³.

النموذج الثالث: مناظرة القس النصراني. عندما زار الإمام الباقر (ع) دمشق الزيارة الثالثة، استقر به المجلس إلى حيث كان قس نصراني، كان

⁸²⁹ سورة النساء: الآية 171.

⁸³⁰ الإحتجاج ج 2 ص 50.

⁸³¹ سورة الإسراء: الآية 85.

⁸³² سورة الأنبياء: الآية 91.

⁸³³ سورة آل عمران: الآية 59.

شيخاً كبيراً جالساً، فسأل الإمام (ع): أمّا أنت أم من الأمة المرحومة⁸³⁴؟
قال الإمام (ع): من الأمة المرحومة. فقال: أمن علمائها أو من جهالها؟
قال الإمام (ع): (لستُ من جهالها؟)!
قال القس: أنتم الذين تزعمون أنكم تذهبون إلى الجنة فتأكلون وتشربون ولا تُحدثون؟

الإمام (ع): (نعم).

القس: هاتِ على هذا برهاناً.

الإمام (ع): (نعم. الجنين يأكل في بطن أمه من طعامها، ويشرب من شرابها، ولا يُحدث).

القس: أخبرني عن ساعة⁸³⁵ ليست من النهار ولا من الليل؟

الإمام (ع): (هذه ساعة من طلوع الشمس، لا نعدّها من ليلنا، ولا من نهارنا...).

القس: أخبرني عن رجلين ولدا في ساعة واحدة، وماتا في ساعة واحدة؟
عاش أحدهما مائة وخمسين سنة، وعاش الآخر خمسين سنة؟

الإمام (ع): (ذاك عزير وعزرة، ولدا في يوم واحد، ولما بلغا مبلغ الرجال مرَّ عزير على حماره بقرية وهي خاوية على عروشها، فقال: أتى يُحيي الله هذه بعد موتها، وكان الله قد اصطفاه وهداه، فلما قال ذلك غضب الله

⁸³⁴ الأمة المرحومة: يقصد الأمة المؤمنة بالإسلام.

⁸³⁵ الساعة في اللغة: هي الوقت القصير من الزمن.

وأما مائة عام ثم بعثه، فقيل له: كم لبثت؟ قال: يوماً أو بعض يوم.
وعاش الآخر مائة وخمسين عاماً، وقبضه الله وأخاه في يوم واحد)⁸³⁶.

بيان:

1 - نحن لا نعلم ما كان يدور في ذهن القس الشامي، ولكننا نفترض أن
الأسئلة كانت:

إما إختبارية، وهو يريد إختبار علم الإمام (ع).

وإما تعجيزية، والسائل يريد إظهار ضعف المسلمين من الناحية
الفكرية، خصوصاً وأن القس كان يعيش في دمشق زمن خلفاء بني أمية
المعروفين بجهلهم بأحكام الدين وعقائده.

وإما إستفهامية، والسائل يريد العلم والإجابة على أسئلته، وهذا
الوجه أضعف الوجوه. لأن أسئلته لا تحمل ظاهراً هذا المعنى.

2 - كان جواب الإمام (ع) السريع منسجماً مع نظرية الإجابة السريعة، ولم
نلاحظ إعتراضاً من القس على أجوبة الإمام (ع).

الإستنتاج:

للمناظرة بالإجابة السريعة الخاطفة ميزات: أنها تشفي غليل السائل
بإجابة سريعة صحيحة، وتثبت في الوقت نفسه أن الطرف المسؤول
شخصية علمية من الطراز الأول. والظاهر أن أغلب الأسئلة في هذا النوع

⁸³⁶ دلائل الإمامة - الطبري ص 106. الدر النظيم - اليافعي ص 190.

من المناظرات هي إختبارية بالدرجة الأولى، والسؤال يتم من طرف واحد، كما هو الجواب. وهو علمٌ نافعٌ يبيِّتُ للناس على أية حال، وإن كان خالياً من التفصيل. ونفترض أن الطرف الآخر كان مدعناً لأعلمية الإمام (ع)، لأن جميع الأجوبة لم تُثِرْ تعقيباً أو رداً على الإمام (ع) من أي نوع.

النظرية الرابعة: المناظرة بالإستدلال التفصيلي

المناظرة بالإستدلال التفصيلي هدفها توضيح المطالب بصورة تفصيلية، فتكون عادةً غنيةً بالعلم والمعرفة، فهي أقرب إلى المحاضرة العلمية ولكن مع جاذبية السؤال والجواب. وفي ذلك نماذج:

النموذج الأول: عن أبي حمزة الثمالي عن أبي الربيع قال: حججت مع الإمام الباقر (ع) في السنة التي حجَّ فيها هشام بن عبد الملك، وكان معه نافع مولى عمر بن الخطَّاب، فنظر نافع إلى الإمام (ع) في ركن البيت وقد اجتمع عليه الخلق، فقال: يا أمير المؤمنين [يقصد هشام بن عبد الملك] من هذا الذي تكافأ عليه الناس؟ فقال: هذا محمد بن علي بن الحسين.

قال: لآتينه ولأسألنَّه عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبيّ أو وصي نبي.

قال: فاذهب إليه لعلك تخجله!

فجاء نافع حتى أتكَأ على الناس وأشرف على الإمام (ع) فقال: يا محمد بن علي إني قرأت التوراة والإنجيل والزيور والفرقان، وقد عرفت حلالها

عن حرامها، وقد جئتُ أسألك عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن نبي.

فرجع الإمام (ع) رأسه فقال: (سئل عما بدا لك).

1 - قال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد من سنة؟

قال (ع): (أجيبك بقولك أم بقولي؟).

قال: أجبني بالقولين!

قال (ع): (أما بقولي فخمسمائة سنة، وأما بقولك فستمائة سنة).

2 - قال: فأخبرني عن قول الله تعالى: (وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ)⁸³⁷، مَنْ الذي سأل محمد (ص) وكان بينه وبين عيسى (ع) خمسمائة سنة؟

قال (ع): (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)⁸³⁸ كان من الآيات التي أراها محمداً حيث أسرى به الى بيت المقدس، أنه حشر الأولين والآخرين، من النبيين والمرسلين، ثم أمر جبرئيل (ع) فأذن شفعاً وأقام شفعاً وقال في أذانه: (حي على خير العمل) ثم تقدم محمد (ص) فصلّى بالقوم، فلما انصرف قال الله تعالى: (وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ)⁸³⁹، فقال رسول الله (ص):

⁸³⁷ سورة الزخرف: الآية 45.

⁸³⁸ سورة الإسراء: الآية 1.

⁸³⁹ سورة الزخرف: الآية 45.

على من تشهدون؟ وما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنت رسول الله، أخذت على ذلك عهدنا ومواثيقنا).

3 - قال: صدقت يا أبا جعفر! فأخبرني عن قول الله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)⁸⁴⁰، أي أرضٍ تُبَدَّلُ؟

قال (ع): (خبزة بيضاء يأكلونها حتى يفرغ الله من حساب الخلائق).

4 - قال: أنهم عن الأكل لمشغولون؟

قال (ع): (أهم حينئذٍ أشغل أم هم في النار؟).

5 - قال: بل هم في النار.

قال (ع): (فقد قال الله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...)⁸⁴¹ ما أشغلهم إذا دعوا بالطعام فأطعموا الزقوم، ودعوا بالشراب فسقوا من الجحيم!).

قال: صدقت يا بن رسول الله⁸⁴².

بيان:

1 - ادعى نافع أنه قرأ التوراة الإنجيل والزبور والفرقان. ولا نعم صدق المدعى، لكننا نعلم أنها كانت تمهيداً لإيقاع الإمام (ع)، كما ظنَّ، في فخٍ علمي، خصوصاً وهو يدعي أن تلك الأسئلة لا يجيب عليها إلا نبي، أو

⁸⁴⁰ سورة إبراهيم: الآية 48.

⁸⁴¹ سورة الأعراف: الآية 50.

⁸⁴² الإحتجاج ج 2 ص 52-54.

وصي نبي، أو ابن نبي. ومفهوم قوله: أنك لو أُجبت عليها لأعترفتُ لك أنك وصي رسول الله (ص).

وفي قوله دلالة على أن نافع ومن بعثه كانا يعلمان بأن أئمة أهل البيت (ع) هم أوصياء النبي (ص)، أو فلنقل كانا في مرحلة شك من ذلك، وبعد الإجابة تبين لهما أن الإمام الباقر (ع) وصي من أوصياء رسول الله (ص) في ذلك الزمان.

2 - كانت أسئلة نافع محبوبة بإمعان، فهو لم يسأل سؤالاً إفتراضياً، بل سأل سؤالاً واقعياً، وهو أنه إذا كان بين عيسى (ع) ومحمد (ص) خمسمائة عام، فمن سأل محمد (ص)؟ أجاب الإمام (ع) مستنداً إلى حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حول الإسراء والمعراج. ثم لما لم يجد نافع بدأ من إحراج الإمام (ع)، وقد فشل في مسعاه للتو، عاد وسئل الإمام (ع) عن يوم القيامة. فأجابه الإمام (ع) مستنداً إلى حقائق القرآن الكريم مرة أخرى.

3 - ذكر الإمام (ع) الفترة الزمنية بين عيسى (ع) ومحمد (ص) على قولين:

الأول: خمسمائة سنة، وهو قول أئمة أهل البيت (ع).

الثاني: ستة مائة سنة، وهو قول علماء مدرسة الرأي. فقد أخرج البخاري في صحيحه أثراً عن سلمان الفارسي، قال: فترة ما بين عيسى ونبينا محمد ستمائة سنة⁸⁴³. وفي تفسير القرطبي: "بين ميلاد عيسى (ع) والنبي محمد

⁸⁴³ صحيح البخاري ج 3 ص 197. حديث رقم 3732.

(ص) خمسمائة سنة وتسع وتسعون سنة⁸⁴⁴. وهكذا في تفسير مقاتل
ستمائة سنة ، وتفسير الصنعاني خمسمائة سنة وستون.
وعند النصارى كانت ولادة النبي (ص) سنة خمسمائة وسبعون
للميلاد.

والظاهر أن منشأ الاختلاف في السنة بين أنبياء الله الأطهار:
عيسى (ع) ومحمد (ص) هو الاختلاف في روايات المؤرخين. ولذلك قال
الإمام (ع): (أجيبك بقولك أم بقولي؟). ثم قال (ع): (أما بقولي فخمسمائة
سنة، وأما بقولك فستمائة سنة).

4 - يكشف النص أن المناظرة بالإستدلال التفصيلي تكشف علم الإمام
(ع) في ربط الحقائق القرآنية مع الحقائق النبوية بصيغة واضحة للسائل.
فلولا علم الإمام (ع) وتفسيره لنا، لما كنا قادرين على ربط صيغة سؤال
النبي (ص) بقضية العروج إلى السماء. فتفسير الإمام (ع) وضعنا في
أجواء تلك العملية الإعجازية وما صاحبها من صلاة للأنبياء بإمامة محمد
(ص) خاتم الأنبياء وسؤاله (ص) لهم.

النموذج الثاني: عن أبي حمزة الثمالي قال: أتى الحسن البصري (ت)
110 هـ) الإمام الباقر (ع) فقال: جئتك لأسألك عن أشياء ...
قال (ع): (ألسنت فقيه أهل البصرة؟).
قال: قد يُقال ذلك!

⁸⁴⁴ تفسير القرطبي ج 6 ص 121.

قال (ع): (هل بالبصرة أحدٌ تأخذ عنه؟).

قال: لا.

قال (ع): (فجميعُ أهل البصرة يأخذون عنك؟).

قال: نعم.

قال (ع): (سبحان الله! لقد تقلّدت عظيمًا من الأمر، بلغني عنك أمر فما

أدري أكذاك أنت أم يُكذّب عليك؟).

قال: ما هو؟

قال (ع): (زعموا أنك تقول: أنّ الله خلق العباد ففوّض إليهم أمورهم).

قال: فسكت الحسن.

وبعد حديثٍ طويلٍ، قال الإمام (ع): (... ذريةً مصطفاهُ بعضها من

بعض، فلم ينته الإصطفاء إليكم، بل إلينا انتهى، ونحن تلك الذرية

المصطفاهة ... وإياك أن تقول بالتفويض، فإنّ الله تعالى لم يفوّض الأمر

إلى خلقه، وهنأ منه وضعفًا، ولا أجبرهم على معاصيه ظلمًا)⁸⁴⁵.

بيان: إنتقد الإمام الباقر (ع) أفكار الحسن البصري (ت 110 هـ) في

ثلاثة موارد:

الأول: التفسير بالرأي: أدانه (ع) بتفسير القرآن الكريم بالرأي الشخصي،

وقال (ع) له: (لقد تقلّدت عظيمًا في الأمر)⁸⁴⁶، (... وإن فعلت ذلك فقد

⁸⁴⁵ الإحتجاج ج 2 ص 55-56.

⁸⁴⁶ الإحتجاج ج 2 ص 55.

هلكت وأهلكت)⁸⁴⁷. فتفسير القرآن موكول إلى أهله، أهل الذكر والمعرفة (ع)، من الذين أوصى بهم رسول الله (ص).

الثاني: القول بالتفويض: قال (ع): (زعموا أنك تقول: إن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم)، (... وإياك أن تقول بالتفويض، فإن الله تعالى لم يفوض الأمر إلى خلقه، وهناً منه وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظملاً).

الثالث: مسألة الإصطفاء: قال (ع): (... ذرية مصطفاة بعضها من بعض، فلم ينته الإصطفاء إليكم، بل إلينا انتهى، ونحن تلك الذرية المصطفاة...).

وكانت تلك المسائل الثلاث من أهم المسائل التي شغلت بال الناس في تلك الفترة، فقد تواجدت قوى سياسية تحارب أئمة أهل البيت (ع) وتقدح في إمامتهم، وكانت تساعد على نشر أفكار الجبر والتفويض والإرجاء، والتفسير بالرأي. وبكلمة، فقد حاول الأمويون تفرغ الإسلام من محتواه العقائدي على مدى قرن كامل من الزمان.

وبالإجمال، فإن هذا المثال هو مصداق للمناظرة بالإستدلال التفصيلي عند الإمام الباقر (ع).

⁸⁴⁷ الإحتجاج ج 2 ص 55.

النموذج الثالث: مناظرة هشام بن عبد الملك. تمت هذه المناظرة عندما إستدعاه هشام بن عبد الملك إلى دمشق، فقال هشام فيما قال: ألسنا بنو عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد؟

الإمام الباقر (ع): (نحن كذلك، والله إختصنا من مكنون سرّه، وخالص علمه بما لم يخصّ به أحداً غيرنا).

هشام: أليس الله بعث محمداً (ص) من شجرة عبد مناف إلى الناس كافة أبيضها وأسودها وأحمرها، فمن أين ورثتم ما ليس لغيركم؟ ورسول الله (ص) مبعوث إلى الناس كافة، وذلك قول الله عز وجل: (...وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...) ⁸⁴⁸؟ فمن أين ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد نبي، ولا أنتم أنبياء؟

أجابه الإمام (ع): (من قوله تعالى لنبيه (ص): (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَ بِهِ) ⁸⁴⁹، فالذي لم يحرك به لسانه لغيرنا أمره الله تعالى أن يخصنا به من دون غيرنا، فلذلك كان يناجي أخاه علياً من دون أصحابه، وأنزل الله به قرآناً في قوله : (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) ⁸⁵⁰، فقال رسول الله (ص): (سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي)، فلذلك قال علي (ع): (علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب)، خصّه به النبي

⁸⁴⁸ سورة آل عمران: الآية 180.

⁸⁴⁹ سورة القيامة: الآية 16.

⁸⁵⁰ سورة الحاقة: الآية 12.

(ص) من مكنون سرّه كما خصّ الله نبيّه، وعلمه ما لم يخص به أحداً من قومه، حتى صار إلينا فتوارثناه من دون أهلنا).

هشام: إنّ علياً كان يدّعي علم الغيب، والله لم يُطلع على غيبه أحداً، فكيف ادّعى ذلك؟ ومن أين؟

الإمام (ع): (إن الله أنزل على نبيه كتاباً بين دفتيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة في قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)⁸⁵¹، وفي قوله تعالى: (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ)⁸⁵²، وفي قوله تعالى: (... مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ...)⁸⁵³، وفي قوله تعالى: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)⁸⁵⁴، وأوحى الله إلى نبيه أن لا يُبقي في عيبة⁸⁵⁵ سرّه، ومكنون علمه شيئاً إلا يناجي به علياً، فأمره أن يؤلف⁸⁵⁶ القرآن من بعده، ويتولى غسله وتحنيطه من دون قومه... [ثم قال رسول الله (ص)]: فإنه مني، وأنا منه، له ما لي، وعليه ما عليّ، وهو قاضي ديني، ومنجز وعدي، ثم قال لأصحابه: علي بن أبي طالب يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله، ولم يكن عند أحد تأويل القرآن بكماله وعامه إلا عند علي، ولذلك

⁸⁵¹ سورة النحل: الآية 89.

⁸⁵² سورة يس: الآية 12.

⁸⁵³ سورة الأنعام: الآية 38.

⁸⁵⁴ سورة النمل: الآية 75.

⁸⁵⁵ عيبة: وعاء ينقل فيه الزرع، ومعناه هنا: وعاء أو حاوية سر علم النبي (ص).

⁸⁵⁶ يؤلف: يجمع.

قال رسول الله: (أقضاكم علي) أي هو قاضيكم، وقال عمر بن الخطاب:
لولا علي لهلك عمر، يشهد له عمر ويجده غيره!⁸⁵⁷.

بيان:

1 - هذه المناظرة من طرف هشام بن عبد الملك صريحة وقوية في إدعاء نكران التفاضل الألهي بين البشر، ويمكن تلخيص أفكارها بثلاثة إشكالات: الإشكال الأول: إذا كان نسب العرب يرجع إلى عبد مناف، فلماذا هذا الفضل الذي يدعيه أهل البيت (ع)؟
الجواب: أن الله تعالى فضّل أهل البيت (ع) بالعلم، لأن الأمة تحتاج في كل زمن إلى إمام علم وهدى. فعلم أهل البيت (ع) هداية للناس، قال (ع): (والله إختصنا من مكنون سره، وخالص علمه بما لم يخصّ به أحداً غيرنا).

الإشكال الثاني: كيف ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد (ص) نبي؟
الجواب: هناك دلائل قرآنية ونبوية على تخصيص هذا بعليّ (ع) ومن بعده أهل البيت (ع)، ومنها:
أ - (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْذُنٌ وَأَعْيَةٌ)⁸⁵⁸، وهي التي سأل الله فيها أن تكون أذن عليّ (ع).

⁸⁵⁷ دلائل الإمامة ص 104 - 106.

⁸⁵⁸ سورة الحاقة: الآية 12.

ب - (لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) ⁸⁵⁹ ، حيث أختصهم (ع) بعلمٍ مكنون وليس ذلك على الله تعالى بعزيز.

ج - قول علي (ع): (علمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم، يفتح من كل باب ألف باب)، ومعناه أن علم علي (ع) الذي تعلمه من رسول الله (ص) علمٌ غير متناهٍ، فكل نافذة تفتح له هذا الكم الهائل من النوافذ، فهذا علمٌ جمٌّ توارثه أهل البيت (ع).

الإشكال الثالث: كيف أدعى علي (ع) علم الغيب؟

الجواب: لم يدعي علي (ع) علم الغيب، وإنما علمٌ تعلمه من علم رسول الله (ص). ورسول الله (ص) مسلَّحٌ بالقرآن الذي فيه تبيان كل شيء. وهذا العلم القرآني المحيط نقله خاتم الأنبياء (ص) إلى علي (ع). فأية غرابة في ذلك؟

2 - كان الإمام علي (ع) متميزاً بين أصحاب رسول الله (ص) وكان ثقته، وحافظ سره، فلم لا يكون أعلم الناس بعد رسول الله (ص)؟ وقد شهد بذلك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فلم لا يشهد بذلك غيره؟

النموذج الرابع: عن محمد بن مسلم قال: سألت الإمام الباقر (ع) عن قول الله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...) ⁸⁶⁰، كيف هذا النفخ؟

⁸⁵⁹ سورة القيامة: الآية 16.

⁸⁶⁰ سورة الحجر: الآية 29.

قال (ع): (إنَّ الروحَ متحرِّكٌ كالريحِ، إنما سُمِّيَ روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح، وإنما أخرجَه عن لفظَةِ الريح لأنَّ الروحَ متجانسٌ للريح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح، كما اصطفى بيتاً من البيوت، وقال: (بيتي)، وقال لرسولٍ من الرسل: (خيلي)، وأشبه ذلك مخلوقٌ مصنوعٌ مربوبٌ مدبرٌ)⁸⁶¹.

وعن نفس المصدر قال: سألتَه (ع) عما روي: (إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ على صورته)؟ قال (ع): (هي صورةٌ محدثةٌ مخلوقةٌ، اصطفاهَا اللهُ واختارها، على أساس الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه، كما أضاف الكعبةَ إلى نفسه والروح، فقال: (بيتي)، وقال: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...)⁸⁶²(⁸⁶³.

بيان:

1 - لم يدخل (ع) في نقاش ماهية الروح وجوهرها، بل تحدث عن صفتها وطبيعة إضافتها إلى المولى عزَّوجلَّ. وقد ناقشنا ذلك في موضع آخر من الكتاب.

2 - هذا الحديث على خطٍ متوازٍ مع بقية أحاديثه (ع) في موضوع التوحيد. فهو (ع) لا يدخل في صلب الموضوع إذا كان متعلقاً بذات الله

⁸⁶¹ الإحتجاج ج 2 ص 50.

⁸⁶² سورة الحجر: الآية 29.

⁸⁶³ الإحتجاج ج 2 ص 50.

تعالى. وكل موضوع يخص ذات الله تعالى فإن الإمام يغيّر مجرى الحديث إلى صفاته تعالى. وفي هذا الحديث يشرح الإمام (ع) ياء النسبة إلى لفظ الجلالة في (بيتي)، و(خليلي)، و(روحي)، ويتجنب الحديث عن ذات الله تعالى.

النموذج الخامس: سئل عن قوله تعالى: (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)⁸⁶⁴.

قال (ع): (من لم يدلّه خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودوران الفلك بالشمس والقمر، والآيات العجيبات على أنّ وراء ذلك أمراً هو أعظم منه، فهو في الآخرة أعمى). وقال (ع): (فهو عمّن لم يعاين، أعمى وأضلّ سبيلاً)⁸⁶⁵.

بيان:

1 - هناك نوعان من العمى: عمى البصر، وعمى البصيرة. فالإنسان إذا لم يُبصر عظمة الله تعالى ببصيرته فهو أعمى بالبصيرة، لا يفهم من آيات الله العجيبة العظيمة شيئاً يوصله إلى معرفة خالقه. فهذا أعمى لم يقدر على معاينة طريق الحق.

⁸⁶⁴ سورة الإسراء: الآية 72.

⁸⁶⁵ الإحتجاج ج 2 ص 48.

2 - وإذا كانت بصيرة الإنسان لا ترى في الدنيا عظمة الخالق، ونحن في دار عمل ولا حساب، فكيف يستطيع أن يُبصر ببصيرته يوم القيامة وهو يوم حساب ولا عمل؟

الإستنتاج:

في المناظرة بالإستدلال التفصيلي يستطيع الإمام (ع) أن يُسهب في التفاصيل الدالة على الموضوع محل البحث. ويستطيع أن يربط بين الحقائق القرآنية والحقائق النبوية، خصوصاً في قضية الإمامة التي كانت ولا تزال الشغل الشاغل للناس، ومحل الصراع بين الحق والباطل.

النظرية الخامسة: أسلوب الأخذ والرد من قبل المناظر نفسه

وهذا أسلوب آخر في المناظرة، وهو أن يقوم المناظر بطرح الإشكال أو السؤال ويجب عنه، دون أن ينتظر طرح السؤال من قبل المناظر، وفيه أمران:

الأول: أن يكون المناظر أعلى رتبةً في العلم من المناظر.

الثاني: أن معلومات المناظر قطعية وواضحة، فلا يحتاج المنازع إلى مؤونة سؤاله من جديد. وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: هذا النموذج ذكرناه في مكان آخر، وفيه أن "تافع بن الأزرق جاء إلى الإمام (ع)، فجلس بين يديه يسأله عن مسائل في الحلال والحرام، فقال له الإمام (ع) في عرض كلامه:

قُلْ لهذه المارقة، بما استحللتم فراق أمير المؤمنين (ع)، وقد سفكتم دماءكم بين يديه، وفي طاعته، والقربة إلى الله تعالى بنصرته؟ فسيقولون لك: إنه حكّم في دين الله.

فقل لهم: قد حكّم الله تعالى في شريعة نبيّه رجلين من خلقه، قال جلّ اسمه: (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُتُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)⁸⁶⁶، وحكّم رسول الله (ص) سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكّم فيهم بما أمضاه الله، أو ما علمتم أن أمير المؤمنين (ع) إنما أمر الحكمين أن يحكّما بالقرآن ولا يتعدّياه واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرجال؟

وقال حين قالوا له: حكمت على نفسك من حكّم عليك، فقال: ما حكمت مخلوقاً فإيما حكمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر الحكم بالقرآن، واشترط ردّ ما خالفه، ولا ارتكابهم في بدعتهم البرهان). فقال نافع: هذا والله ما طرق بسمعي قط، ولا خطر مني ببال. هو الحق ان شاء الله تعالى⁸⁶⁷.

بيان: شرحنا معنى هذه الرواية فيما مضى في الطرق المعرفية عند الإمام الباقر (ع)، ونضيف هنا أن الإمام (ع) كان يبادر في هذه الرواية بالسؤال ويُجيب عنه. وتلك ميزة هذا اللون من المناظرات.

⁸⁶⁶ سورة النساء: الآية 35.

⁸⁶⁷ الإحتجاج ج 2 ص 51.

النموذج الثاني: الإمام (ع) يسأل أبا الجارود⁸⁶⁸ ما يقولون في الحسن والحسين (ع)؟ فيجيبه بأنهم ينكرون عليهما أنهما ابنا رسول الله (ص). قال (ع): (فبأي شيء احتججتم عليهم؟).

قلت: بقول الله في عيسى (ع): (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ)⁸⁶⁹ فجعل عيسى من ذرية إبراهيم، واحتجنا عليهم بقوله تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)⁸⁷⁰.

قال (ع): (فأي شيء قالوا؟).

قلت: قالوا قد يكون ولد البنت من الولد ولا يكون من الصلب.

⁸⁶⁸ أبو الجارود: زياد المنذر، قال صاحب المستدرک في ترجمته في الخاتمة: وأما أبو الجارود فالكلام فيه طويل، والذي يقتضيه النظر بعد التأمل فيما ورد فيما قالوا فيه: أنه كان ثقة في النقل، مقبول الرواية، معتمداً في الحديث، إمامياً في أوله وزيدياً في آخره، ثم أطال الكلام في حاله، إلى أن قال: وفي تقريب ابن حجر: "زياد بن المنذر أبو الجارود الأعمى الكوفي رافضي، كذبه يحيى بن معين من السابعة، مات بعد الخمسين أي بعد المائة" (الكنى والألقاب - القمي ج 1 ص 31).

⁸⁶⁹ سورة الأنعام: الآية 84-85.

⁸⁷⁰ سورة آل عمران: الآية 61.

قال (ع): (والله لأعطينكم من كتاب الله آيةً تسميهما أنهما لصلب رسول الله (ص) لا يردها إلا كافر).

قلتُ: جُعِلَتْ فداك وأين؟

قال (ع): (حيث قال الله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ...) ⁸⁷¹، فسلهم يا أبا الجارود وهل يحلُّ لرسول الله (ص) نكاح حليلتيهما؟ فإن قالوا نعم، فكذبوا والله، وإن قالوا لا، فهما والله إبنا رسول الله لصلبه، وما حرمن عليه إلا للصلب) ⁸⁷².

بيان: في هذا النموذج يسأل الإمام الباقر (ع) أبا الجارود عن قولهم في الحسن والحسين (ع)، بإعتبار أنهم ينفون كون الحسن والحسين (عليهما السلام) إبنا رسول الله (ص). ولذلك كانوا يطلقون على ذرية محمد (ص) بذرية فاطمة (ع) لا ذرية النبي (ص). وهنا نقاط:

1 - أن الإحتجاج عليهم يتم بثلاث:

الإحتجاج الأول: جعل الله عيسى بن مريم من ذرية إبراهيم (ع)، مع أن النسبة ترجع إلى أمه مريم (ع)، قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

⁸⁷¹ سورة النساء: الآية 23.

⁸⁷² الإحتجاج ج 2 ص 52.

كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ⁸⁷³، وفيه دلالة واضحة على أن القرآن الكريم يعتبر أولاد البنات وذريتهن أولاداً حقيقةً. ونظير ذلك آية الإرث وآية محرمات النكاح.

الإحتجاج الثاني: آية المباهلة في قوله تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)⁸⁷⁴، فوصف الحسن والحسين بالأبناء، أي أبناء النبي (ص).

الإحتجاج الثالث: ولكونهما أبناء رسول الله (ص)، فلا يحل للنبي (ص) - لو إختزلنا المسافة الزمنية إفتراضاً - نكاح مطلقة الحسن (ع) أو مطلقة الحسين (ع) لأنهما بمثابة الأبناء للأب. قال تعالى في آية التحريم: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ... إلخ) إلى قوله: (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ...)⁸⁷⁵.

2 - رفضوا الإحتجاجين الأولين، على لسان السائل حين زعموا بأن ولد البنت من الولد لا يكون من الصلب. فقدم لهم الإمام (ع) الإحتجاج

⁸⁷³ سورة الأنعام: الآية 84-85.

⁸⁷⁴ سورة آل عمران: الآية 61.

⁸⁷⁵ سورة النساء: الآية 23.

الثالث، وهو تحريم: (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَضْلَابِكُمْ ...) ⁸⁷⁶. فالحسن والحسين (ع) من صلب رسول الله (ص) من ابنته فاطمة الزهراء (ع).

الإستنتاج:

هدف هذا اللون من المناظرات إقامة الحجة أو البرهان بطريقة سريعة، بحيث يقوم (ع) بطرح الموضوع بنسيجه المتصل سؤالاً وجواباً، دون إنتظار الرد. فهو عرضٌ لموضوعٍ قد أشكلَ القومُ عليه، فيقدمه الإمام (ع) بمقدماته ونتائجه دفعة واحدة.

في البرهان والبرهان التحليلي

ونختم بحث هذا الفصل بالعودة إلى البرهان، لنلاحظ بعض التطبيقات المختصرة في مناظرات الإمام (ع) في البرهان التحليلي غير المباشر.

والبرهان يُعرّف أيضاً بالعلّة الغائية، وهو برهانٌ ينتج العلم أو المعرفة الضرورية الثابتة. وينقسم إلى قسمين. البرهان اللّمي ⁸⁷⁷، والبرهان الإتي ⁸⁷⁸.

⁸⁷⁶ سورة النساء: الآية 23.

⁸⁷⁷ البرهان اللّمي: أن يكون الحد الأوسط علّة لثبوت الأكبر للأصغر، مثلاً: (قطعة حديد انخفضت درجة حرارتها. وكل حديد انخفضت درجة حرارتها فهي متقلصة. فهذه الحديدية متقلصة). فهو يشتمل على السبب، وعلّة الوجود، أو علّة التصديق والوجود معاً، ويفيد علّة حصول النتيجة.

عن حمران بن أعين، قال الإمام الباقر (ع): (الإيمان ما استقرّ في القلب، وأفضى به إلى الله عزّوجلّ، وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلها، وبه حُقت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك من الكفر، وأضيفوا إلى الإيمان. والإسلام لا يشرك الإيمان، والإيمان يشرك الإسلام، وهما في القول والفعل يجتمعان، كما صارت الكعبة في المسجد [الحرام]، والمسجد [الحرام] ليس في الكعبة. وكذلك الإيمان يشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيمان، وقد قال الله عزّوجلّ: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)⁸⁷⁹، فقول الله عزّوجلّ أصدق القول).

السائل: فهل للمؤمن فضلٌ على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام، والحدود، وغير ذلك؟

الإمام (ع): (لا. هما يجريان في ذلك مجرى واحد، ولكن للمؤمن فضلٌ على المسلم في أعمالهما وما يتقربان به إلى الله عزّوجلّ).

⁸⁷⁸ البرهان الإثبي: أن يكون الحد الأوسط معلولاً للأكبر في وجوده في الأصغر لا علّة، وهو عكس البرهان اللّمي. أي البرهان الإثبي يعطي علّة التصديق فقط. مثلاً: (هذه الحديدة متقلّصة. وكل حديدة متقلّصة درجة حرارتها منجمدة. فهذه الحديدة درجة حرارتها منجمدة).

⁸⁷⁹ سورة الحجرات: الآية 14.

السائل: أليس الله عزَّوجلَّ يقول: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ
أَمْثَالِهَا...) ⁸⁸⁰، وزعمت أنهم مجتمعون على الصلاة، والزكاة، والصوم،
والحج مع المؤمن؟

الإمام (ع): (أليس قد قال الله عزَّوجلَّ: (... فَيُضَاعَفُهُ لَهُ أضعافًا
كثيرةً) ⁸⁸¹؟ فالمؤمنون هم الذين يضاعف الله عزَّوجلَّ لهم حسناتهم، لكل
حسنة سبعون ضعفًا، فهذا فضل المؤمن، ويزيده الله في حسناته على قدر
صحة إيمانه أضعافًا كثيرةً، ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير).

السائل: أريت من دخل في الإسلام أليس هو داخلًا في الإيمان؟
الإمام (ع): (لا. ولكنه قد أضيف إلى الإيمان، وخرج من الكفر،
وسأضرب لك مثلاً تعقل به فضل الإيمان على الإسلام. أريت لو بصرت
رجلاً في المسجد أكننت تشهد أنك رأيت في الكعبة؟).

السائل: لا يجوز لي ذلك.

الإمام (ع): (فلو بصرت رجلاً في الكعبة أكننت شاهداً أنه قد دخل المسجد
الحرام؟).

السائل: نعم.

الإمام: (وكيف ذلك؟).

السائل: إنه لا يصل إلى دخول الكعبة حتى يدخل المسجد [الحرام].

⁸⁸⁰ سورة الأنعام: الآية 160.

⁸⁸¹ سورة البقرة: الآية 245.

الإمام (ع): قد أصبَتْ وأحسنَتْ. كذلك الإيمان والإسلام⁸⁸².

الدلالات: ملخص مناظرة الإمام (ع) حول الإسلام والإيمان ندرجها في النقاط التالية:

- 1 - أن الإيمان هو ما استقر في القلب وصدقته العمل بالطاعة.
- 2 - أن الإسلام هو ما ظهر من قولٍ أو فعلٍ.
- 3 - الإسلام لا يشرك الإيمان، بمعنى ربما يكون الإنسان مسلماً بقول الشهادتين، لكن لا عمل له بأحكام الإسلام.
- 4 - الإيمان يشرك الإسلام، بمعنى أن المؤمن لا بد أن يكون مسلماً ابتداءً.
- 5 - المؤمن بعمله العبادي أفضل من المسلم الذي يدعي الإسلام باللفظ فقط، ولا عمل عبادي أو أثر اعتقادي له.
- 6 - يضاعف الله تعالى الحسنات للمؤمن. أما المسلم بلا عمل صالح ولا إيمان فلا حسنات له.
- 7 - لو كان الإيمان يُمَثَّلُ: بـ(الكعبة)، والإسلام يُمَثَّلُ: بـ(المسجد الحرام)، فلا بد في الوصول إلى الكعبة من الدخول إلى المسجد الحرام. هنا لا بد قبل الدخول في الإيمان من الدخول في الإسلام أولاً.

⁸⁸² الكافي ج 2 ص 26 - 27.

وبالنتيجة فإن الإمام (ع) يُقدّم برهاناً يُنتج معرفة حقيقية حول الفرق بين الإسلام والإيمان، أو الفرق بين الشهادة اللفظية المجردة والعمل الصالح من عبادات ومعاملات.

في البرهان التحليلي غير المباشر:

يتميز هذا البرهان المنطقي بمنهجٍ في الإستدلال العقلي لقضية من القضايا. يختلف هذا البرهان عن البرهان المباشر بالشكل التالي: يستدل على صدق القضية المراد البرهنة عليها بطريق غير مباشر بإظهار خطأ مقدمات معينة لها صلة وثيقة بها، بحيث أن إثبات خطأها يثبت صدق القضية. وهو برهانٌ يلزم العقل بالتسليم لنتائج دون إرجاع القضية المبرهن عليها إلى أسباب بديهية. وهي على نوعين:

الأول: برهان الخلف، وهو البرهان المؤدي إلى المحال، ويعني إثبات صحة قضية بإبطال نقيضها.

الثاني: البرهان المنفصل يكون المطلوب إفتراضاً من بين عدة إفتراضات للقضية، ويثبت فيه صدق المطلوب بإثبات كذب باقي الإفتراضات. ويمكن أن نطبق ذلك على نماذج من مناظراته (ع):

النموذج الأول: يسأل أبو حنيفة الإمام الباقر (ع): أراد الله المعاصي؟ فقال (ع): (أفيعصى قهراً؟)، هنا أستدلّ الإمام (ع) بصدق القضية المراد البرهنة عليها وهي: نفي الجبر والتفويض، بطريق غير مباشر بإظهار خطأ مقدمات السائل، وهي أن الله لم يرد المعصية من العبد، فلو كان

الأمر مفروضاً على الله تعالى، لكانت المعصية عليه قهراً. وذلك برهاناً تحليلي غير مباشر من قبل الإمام الباقر (ع).

النموذج الثاني: قال السائل: أخبرني عن الله عزَّوجلَّ متى كان؟ قال (ع):
(متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً)⁸⁸³.

هنا أستدل الإمام (ع) بصدق القضية المراد البرهنة عليها وهي نفي التجسيم أيضاً، بطريق غير مباشر بإظهار خطأ مقدمات السائل الزاعمة بأن الله حادث بزمان ما، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وبين له أن الله تعالى أزلي أبدي، ليس كمثله شيء، ولا يشاركه شيء، ولا يشابهه شيء، ف(سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً).

⁸⁸³ الإحتجاج ج 2 ص 48.

الفصل السابع

مواجهة النظريات المضادة

مقدمة. التصدي الحازم للأفكار الدخيلة.
القياس. الجبر والتفويض. فكرة الإرجاء.
الغلو: الفكرة والظاهرة. التجسيم
والتشبيه. البديل

مقدمة

انتشرت أفكار غريبة على الإسلام في القرنين الهجريين الأول والثاني كالإرجاء، والجبر، والتفويض، والتجسيم والتشبيه، وكثرت الشبهات حول التوحيد وماهية الخالق عز وجل وذاته، وتلونت تيارات الغلو والإلحاد، والتناسخ والحلول، والزندقة.

وكانت أفكارهم تدور حول إسقاط الثواب والعقاب، وإنكار البعث والنشور، وتزوير الروايات، وإختلاق فضائل مزعومة، وإنكار فضائل مثبتة، وزوجت نظرية عدالة جميع من رأى رسول الله (ص) أو صحبه بخلاف نص القرآن الكريم الذي أدان المنافقين والمتخلفين عن القتال زمن النبي (ص).

وانتشرت ظواهر أخرى جديدة على الفكر الإسلامي مثل الإفتاء بالرأي، والقياس في الأحكام الشرعية، وتفسير القرآن الكريم بما يناسب توجهات المذاهب المختلفة، والإعتزال عن الحياة الإجتماعية.

ويكلمة، فقد كانت الساحة الفكرية زمن الإمام الباقر (ع) تعجُّ بالأفكار والمذاهب، التي يمكن تلخيص أقوالها بما يلي:

أولاً: أهل الإرجاء: قالوا: أن الإيمان قولٌ بلا عمل. أي أن الإقرار بالإيمان يجزي عن العمل في العبادات والمعاملات.

ثانياً: الجهمية: قالوا: أن الإيمان هو المعرفة بلا قول ولا عمل.

ثالثاً: الخوارج: قالوا: أن مرتكب الكبيرة كافرٌ مخلدٌ في النار. فالعمل مؤثر في الإيمان، بحيث يكون تارك العمل العبادي كالصلاة مثلاً كافر.

رابعاً: المعتزلة: قالت: أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو فاسق، بل في منزلة بين الأمرين. وهو قولٌ وسطٌ بزعمهم بين المرجئة والخوارج. وصاحب الكبيرة يستحق العقوبة، إذا لم يتب، وإن مات بلا توبة يدخل النار.

خامساً: الأشاعرة: قالت: أن من عصى الله من أهل الشهادتين فهو مؤمن. سادساً: بقية المسلمين وعلى رأسهم أهل البيت (ع)، قالوا: أن الإيمان هو المعرفة والقول والعمل. ومرتكب الكبيرة ربما كان مؤمناً قبل المعصية، لكنه فاسقٌ وقت ارتكاب المعصية.

التصدي الحازم للأفكار الدخيلة

لا يستطيع المؤرخ أن يتصور الحياة الفكرية زمن الإمام الباقر (ع) أكثر مما تصوره الرواية المروية في كتاب (الكافي) لثقة الإسلام الشيخ الكليني (ت 329 هـ). وفحوى الرواية هو سؤال سفيان الثوري للإمام الصادق (ع) عن خطبة رسول الله (ص) في مسجد الخيف، فيُملئها الإمام (ع) عليه ويكتبها، لكن الراوي يستوقفه مقطع من الخطبة يريد أن يعرفه ويستوعبه، فيقول مشيراً إلى ما قاله رسول الله (ص) في الخطبة: (ثلاث لا يغلّ عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاصُ العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم)⁸⁸⁴. فيقول الراوي: عرفنا إخلاص العمل لله تعالى. ولكن: من هؤلاء الأئمة الذين يجب علينا نصيحتهم؟ معاوية بن

⁸⁸⁴ الكافي ج 1 ص 403.

أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم؟! وكلّ من لا تجوز الصلاة خلفه؟ وقوله (ع): واللزوم لجماعتهم، فأبي الجماعة؟ مرجئ يقول: من لم يصلّ، ولم يصمّ، ولم يغتسل من جنابةٍ، وهَدَمَ الكعبةَ، فهو على إيمان جبرئيل وميكائيل؟! أو قدرئ يقول: لا يكون ما شاء الله عزّوجلّ ويكون ما شاء إبليس؟! أو حروري⁸⁸⁵ يتبرأ من علي بن أبي طالب، ويشهد عليه بالكفر؟! أو جهمي⁸⁸⁶ يقول: إنما هي معرفة الله وحده ليس الإيمان شيء غيرها؟!!

يصل الراوي إلى نتيجة مفادها: أن علي بن أبي طالب (ع) هو الإمام الذي يجب علينا الأخذ بنصيحته، ولزوم جماعتهم: أهل البيت (ع)⁸⁸⁷.

وتلك الرواية تكشف الوضع الفكري العقائدي في مجتمع المسلمين زمن الإمام الباقر (ع) من حيث إعتقاد شريحة واسعة من الناس بأفكار الإرجاء، والجبر والتفويض، والغلو، والتجسيم، وكانت هناك مخالقات فقهية في إستحداث القياس، والقول بالرأي في الشريعة. وطالما تصدى جميع أئمة أهل البيت (ع) لتلك الأفكار، فإننا ملزمون بذكر آرائهم مع الإشارة إلى أقوال الإمام الباقر (ع) بهذا الخصوص، أينما وردت.

⁸⁸⁵ حروري: نسبة إلى الحرورية وهي طائفة من الخوارج، التي مرقت عن الدين. وتتسب إلى حروراء قرب الكوفة.

⁸⁸⁶ جهمي: نسبة إلى الجهم بن صفوان، من المجبّرة.

⁸⁸⁷ الكافي ج 1 ص 403.

القياس

وهو من مستحدثات القرنين الأول والثاني الهجري، وأول من قال به أبو حنيفة النعمان (ت 150 هـ). وللقياس أصلٌ فلسفي طُبِّقَ على أحكام الشريعة في مخالفة واضحة للسنة النبوية الشريفة.

فالقياس في المنطق هو: قولٌ مركَّبٌ من قضيتين أو أكثر، ومتى ما سلّمنا به لزمنا عنه قولٌ آخرٌ. مثلاً: إذا قلنا كلُّ إنسانٍ حيوان (مقدمة صغرى)، وكلُّ حيوانٍ جسمٌ (مقدمة كبرى)، إذن كلُّ إنسانٍ جسمٌ (النتيجة). و"القياس في الدين هو: إلحاقُ أمرٍ غير منصوص على حكمه الشرعي بأمرٍ منصوصٍ على حكمه لإشتراكهما في علّة الحكم"⁸⁸⁸. مثلاً: كلُّ مسكرٍ حرام، وكلُّ نبيذٍ مسكر، فالنتيجة كلُّ نبيذٍ حرام.

وتعريفٌ آخر لابن قدامة (ت 620 هـ) هو: "القياس: حملُ فرعٍ على أصلٍ في حكم جامع بينهما"⁸⁸⁹.

وقد أُسْتِنِدَ في حجّيته على أدلة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، إلا أنها خارجة عن موضوعه. فمن القرآن الكريم، في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ

⁸⁸⁸ روضة الناظر وجنة المناظر - ابن قدامة ج 3 ص 766.

⁸⁸⁹ روضة الناظر ج 2 ص 252.

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ⁸⁹⁰. ووجه الاستدلال في ذلك "أن الإعتبار من العبور وهو المجاوزة وهو ذاته معنى القياس، أي العبور من حكم الأصل إلى حكم الفرع"⁸⁹¹. وهذا تخصيص بدون مخصّص، وتقييد بدون مقيد! ومن السنّة النبوية الشريفة استدلوا بحديث معاذ أن رسول الله (ص) بعثه إلى اليمن، فقال (ص): (يا معاذ بم تقضي؟) قال: أقضي بكتاب الله. قال (ص): (فإن جاء أمرٌ ليس في كتاب الله، ولم يقض فيه نبي، ولم يقض فيه الصالحون؟). قال: أؤم جهدي. فقال (ص): (الحمد لله الذي جعل رسول رسول الله أن يقضي ما رضي به رسول الله)⁸⁹². و"وجه الدلالة من ذلك أن القياس جزءٌ من الإجتهد"⁸⁹³. والاستدلال في هذا الحديث، إن صحّ، هو استدلال على الإجتهد في القضاء وليس على القياس في الأحكام الشرعية!

- وُضِعَت للقياس أربعة أركان أساسية، وهي:
- 1 - الأصل: محل الحكم الذي ثبت بالنص أو الإجماع.
 - 2 - الفرع: المحل الذي لم يرد فيه نص ولا إجماع.
 - 3 - العلة: الوصف الجامع بين الأصل والفرع.

⁸⁹⁰ سورة الحشر: الآية 2.

⁸⁹¹ إرشاد الفحول - الشوكاني ص 176.

⁸⁹² سنن الترمذي - حديث رقم 1327. ج 4 ص 463.

⁸⁹³ إرشاد الفحول ص 177.

4 - حكم الأصل: الحكم الشرعي الذي ورد به النص في الأصل⁸⁹⁴،
وقيس عليه الحكم الجديد.

مثال: قياس النبيذ على الخمر بجامع الإسكار. الأصل: الخمر.
الفرع: النبيذ. العلة: الإسكار. حكم الأصل: التحريم.

أقسام القياس: تقاسيم القياس كثيرة، أهمها، على مبنى الشافعية:

1 - قياس الأولى: أن يكون الفرع فيه أولى بالحكم من الأصل لقوة العلة
فيه. مثل: قياس الضرب للوالدين على التأفيف بجامع الإيذاء.
2 - قياس المساوي: ما كان الفرع فيه مساوياً للأصل في الحكم من غير
ترجيح، مثل: قياس إحراق مال اليتيم على أكله بجامع التلف في كل
منهما.

3 - قياس الأدنى: أن يكون الفرع فيه أضعف من في علة الحكم من
الأصل، أي أقل ارتباطاً بالحكم من الأصل، مثل: إلحاق النبيذ بالخمر في
تحريم الشرب وإيجاب الحد⁸⁹⁵.

موقف أئمة أهل البيت (ع) من القياس:

شأن أئمة أهل البيت (ع) حملة شديدة على فكرة القياس باعتبار
(أن دين الله لم يوضع في الرأي والقياس)⁸⁹⁶، و(أن السنة إذا قيست مُحَقَّ

⁸⁹⁴ المستصفي ج 2 ص 54.

⁸⁹⁵ الإحكام في أصول الأحكام - الأمدي ج 3 ص 141 وص 258.

الدين)⁸⁹⁷. ومع أن القائلين بالقياس اشتروا فيه أن يكون الاصل معلوماً من الناحية الشرعية والفرع مجهولاً، إلا ان تطبيق القياس على جزء من الأحكام سوف يُسلب الشريعة من إرتباطها بالله تعالى وبخاتم الأنبياء محمد (ص)، وينزلها إلى مستوى عقل الذي يعتقد بصحة القياس في الدين!

فالقياس الذي اخترعته مدرسة الرأي، كان يشكّل خطراً كبيراً على الشريعة. لأنه لو قُدِّرَ لتلك الفكرة بالإننتشار دون معارضة لفسح المجال للتلاعب بأحكام الشرع بحجة موافقة القياس أو مخالفته. فيتبدل حكم الله عزّوجل في ميراث الرجل - بموجب القياس - من سهمين إلى سهم واحد، لأن الذكر أقوى من الأنثى ولا يحتاج إلى سهمين. ويتبدل حكم الله عزّوجل في الحائض - بموجب القياس - إلى قضاء الصلاة بدل قضاء الصوم، لأن الصلاة أكبر من الصوم. ويتبدل حكم الله في الوضوء للبول والغسل للمني - بموجب القياس - إلى غُسل للبول ووضوء للمني، لأن البول أنجس من المنى، وهكذا. خصوصاً وأن الكثير من الأحكام الشرعية سندها السنّة النبوية الشريفة، ويمكن أن تُعَيَّر حتى تطابق القياس! وهذا الطريق مخالفٌ تماماً للأصول الشرعية في فهم الأحكام.

فإننا كبشر لا نستطيع أن ندرك جميع علل الأحكام الشرعية. وهذا هو معنى قوله (ع): (إن دين الله لم يوضع في الرأي والقياس)⁸⁹⁸، لأن

⁸⁹⁶ وسائل الشيعة ج 18 ص 29.

⁸⁹⁷ الكافي ج 1 ص 57.

⁸⁹⁸ وسائل الشيعة ج 18 ص 29.

ملاكات الأحكام أمور توقيفية من وضع الشارع، ولا تدرك بالنظر العقلي إلا من طريق الملازمات العقلية القطعية. والقياس يُشك بحجيته، على أقل التقادير، والشك في الحجية كافٍ للقطع بعدمها.

وقد وردت رواية مناظرة بين الإمام (ع) وأبو حنيفة. ذكرت مرةً أنه الإمام الباقر (ع)⁸⁹⁹، وأخرى أنه الإمام الصادق (ع)⁹⁰⁰. وطالما أن ما يهمننا هو فكرة المناظرة، فإننا سنذكرها لنستفيد من أفكارها. وتجدر الإشارة هنا أن الإشتباه ربما يقع لإطلاق تسمية الصادقين أو الباقرين على الباقر والصادق (ع). والمهم الذي ينبغي أن نعرفه هو أن مدرسة القياس كانت نشطة زمن أيام الإمام الباقر (ع)، وأن أبا حنيفة كان قد بلغ من العمر سنة وفاة الإمام الباقر (ع) حوالي (34) سنة. فهناك دلائل على أن مناظرة مشابهة ربما وقعت أيام الباقر (ع) الذي قام بتقويض فكرة القياس في الشريعة.

الإمام الباقر (ع) مع رواد القياس:

سأل الإمام (ع) أبا حنيفة: بلغني أنك تقول بالقياس؟ فأجاب بنعم. فقال له: أول من قاس إبليس، حين أمر بالسجود لآدم فأبى، وقال: (...أنا

⁸⁹⁹ مناقب أبي حنيفة - المكي ص 143.

⁹⁰⁰ عيون أخبار الرضا (ع) ج 2 ص 276، وبحار الأنوار ج 2 ص 287.

خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)⁹⁰¹. أيهما أكبر القتل أم الزنى؟
فأجاب: القتل.

فقال الإمام (ع): (فَلِمَ جَعَلَ اللَّهُ فِي الْقَتْلِ شَاهِدِينَ، وَفِي الزِّنَى أَرْبَعَةً، أَيْقَاسُ لَكَ هَذَا؟ قَالَ: لَا... ثُمَّ سَأَلَهُ: فَأَيُّهُمَا أَكْبَرُ الصَّلَاةُ أَمْ الصَّوْمُ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ. قَالَ (ع): فَلِمَ وَجِبَ عَلَى الْحَائِضِ أَنْ تَقْضِيَ الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِيَ الصَّلَاةَ، أَيْقَاسُ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ (ع): فَأَيُّهُمَا أَوْجَعُ الْمَرْأَةَ أَمْ الرَّجُلَ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ. قَالَ (ع): فَلِمَ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمِيرَاثِ لِلرَّجُلِ سَهْمِينَ، وَلِلْمَرْأَةِ سَهْمًا، أَيْقَاسُ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا)⁹⁰².

في تلك المحادثة قوض الإمام (ع) أصل فكرة القياس بفكرة أساسية وهي أن العلل والأسباب تكون في أغلب الأحيان مستورة عن الإنسان، أو لا يستطيع إدراكها. ومن ذلك قوله (ع): (أول من قاس إبليس، حين أمر بالسجود لآدم فأبى، وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين)⁹⁰³، فهذا قياسٌ ظاهري بين النار والطين.

ولكن الواقع تبيُّهُ رواية أخرى قال له: يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس؟ قال: نعم. قال (ع): (لا تقس، فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقام ما بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار، لعرف فضل ما بين النورين، واصفاً أحدهما)⁹⁰⁴.

⁹⁰¹ سورة ص: الآية 76.

⁹⁰² بحار الأنوار ج 2 ص 287.

⁹⁰³ الكافي ج 1 ص 58.

⁹⁰⁴ الكافي ج 1 ص 58.

فأجرى إبليس القياس الظاهر بين النار والطين، وتوصل إلى أفضلية النار على الطين. ولكنه لو كان يعلم ما أضمرة الله عزّوجلّ لذلك المخلوق الجديد لما أعترض إبليس على ذلك. وهو أن نورية الإنسان أعظم وأجلّ من نورية النار. فكان القياسُ خاطئاً بالمعايير الألهية. وهذا يؤكد أن (ما من أمرٍ يختلف فيه إثنان إلا وله أصل في كتاب الله عزّوجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال)⁹⁰⁵.

ثم فنّد الإمام (ع) بعض الأحكام الشرعية التي لو أخذت بالقياس لأضحت إلى نقيضها، كما هو في: حكم الشهادة في القتل وفيه شاهدين، بينما في شهادة الزنى أربعة شهود، وفي حكم قضاء صوم المرأة المتعلق بدورتها الشهرية، وعدم القضاء في الصلاة، وفي حكم الميراث للرجل سهمين، وللمرأة سهم واحد. ولو طبّق القياس على تلك الأحكام لأنعكس الحكم تماماً.

فكان من آثار كلام الصادقين (ع) أن مدرسة الرأي استحدثت شروطاً جديدةً للقياس، ومنها أن يكون الحكم الأولي قد ورد فيه نص في الأصل⁹⁰⁶، وأن تكون العلة وصفاً جامعاً بين الأصل والفرع. وبذلك ضيّقت دائرة القياس إلى حدٍ كبير، وأصبح القياس مصطلحاً لا يتسع للكثير من المصاديق.

⁹⁰⁵ الكافي ج 1 ص 48.

⁹⁰⁶ المستصفى ج 2 ص 54.

الجبر والتفويض

والبحث فيهما هو بحثٌ في مسألة حرية الإرادة أو الإختيار عند الإنسان.
ترتبط مسألة الجبر والتفويض، أو القضاء والقدر بأمرين:
الأول: مسألة التوحيد، وعلاقتها بأفعال الإنسان.
الثاني: مسألة العدل الألهي، وعلاقة القدرة السماوية بفعل الإنسان.
فقد انقسم من قال بحرية الإرادة من عدمها إلى قسمين:

الأول: المجبّرة: وهي الفرقة التي آمنت بأن جميع أفعال الإنسان هي أفعال الله تعالى. والإنسان هو واحد في مجموع، فأفعال سائر المخلوقات في الكون هي أفعال الله تعالى. فليس للإنسان مشيئة إرادة أو مشيئة فعل. وبذلك أنكرت حرية الإنسان في الإختيار، وأسماها المتأخرون بأصالة نفي الإختيار.

واستندت في دعواها إلى القرآن الكريم في قوله تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...) ⁹⁰⁷، (... فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...) ⁹⁰⁸، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ⁹⁰⁹.

⁹⁰⁷ سورة الأنعام: الآية 125.

⁹⁰⁸ سورة فاطر: الآية 8.

⁹⁰⁹ سورة الصافات: الآية 96.

الثاني: المفوضة: التي آمنت بأن أفعال الإنسان هي أفعال حقيقية إختارها بإرادته دون أن يكون لله عليه قهراً، أو جبراً، أو إرادةً فيها. والتفويض هو إصالة إختيار الإنسان بملء إرادته، ولا دخل لله تعالى في أفعاله.

وأستدلّت في دعواها على القرآن الكريم في قوله تعالى: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ...)⁹¹⁰، (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...)⁹¹¹، و(كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ)⁹¹²، و(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)⁹¹³.

ويعني التفويض بزعمها: الحرية المطلقة بمعزلٍ عن إرادة الله تعالى. وتلك الفكرة قد صوّرت بشكل يزعم بأن الله تعالى خلق الإنسان، وجعله ذو إرادة مستقلة غير مرتبطة بالأسباب والعلل الألهية.

الصراع بين المفوضة والمجبرة: بدأ الصراع بين المفوضة والمجبرة من اللحظات الأولى لنشوء فكريتهما، ذلك لأن الطرفين سمعا بحديث رسول الله (ص) القائل ب: (أن القدرية مجوس هذه الأمة)⁹¹⁴، و(القدرية خصماء الله

⁹¹⁰ سورة غافر: الآية 17.

⁹¹¹ سورة الكهف: الآية 29.

⁹¹² سورة الطور: الآية 21.

⁹¹³ سورة الأنعام: الآية 160.

⁹¹⁴ غوالي اللثالي - ابن جمهور ج 1 ص 166.

في القدر)⁹¹⁵. فحاول كل طرفٍ نسبة القدرية إلى الأخرى، وبالنهاية تكفيرها.

فالمجبرة أطلقوا على المفوضة بالقدرية، وأتهموهم بأنهم ينكرون القدر، وينفون الإرادة الالهية في فعل الإنسان بحيث أصبح مختاراً إختياراً تاماً في أفعاله. فقالت المجبرة إن إنكاركم للقدر يعني أنكم قديرون! ولم تقبل المفوضة بهذا الإتهام، فقالت أن المجبرة يثبتون القدر لله، وبذلك سلبت إرادة الإنسان، وثبتت أن أفعال الإنسان مخلوقة من قبل الله. فقالت المفوضة إن إثباتكم للقدر يعني أنكم قديرون! فأصبح القدر، نفيًا وإيجاباً، هو محط الإيمان ومحط التهمة أيضاً. وهكذا وصل فهمهم للإسلام إلى هذا المستوى.

والواقع، أن إيمان كلا الطرفين قريبٌ من المجوسية. فالمجبرة تتسب جميع أفعال الإنسان إلى الله، وبضمنها الخير والشر، والطاعة والمعصية.

والمفوضة تتسب الإختيار التام إلى الإنسان في أفعاله، فلا دخل لإرادة الله فيها. والمشهور بين أهل العلم أن هذا يوافق المجوسية بأن أصل الخلق والوجود هو النور والظلمة⁹¹⁶، ولا دخل لله تعالى في أفعال الخلق! ومما زاد في هذا الصراع الفكري هو إصطفاف المعتزلة مع القدرية القائلون بالإختيار (المفوضة). وكان من روادهم: معبد الجهني، والحسن

⁹¹⁵ بحار الأنوار ج 5 ص 6.

⁹¹⁶ الملل والنحل - الشهرستاني ج 1 ص 224.

البصري، وغيلان الدمشقي، وواصل بن عطاء. وإصطفاف الأشاعرة والفقهاء من أهل الحديث والسنة مع القدرية القائلون بالجبر (المجبرة). وكان من روادهم: الجعد بن درهم مولى بني الحكم، والجهم بن صفوان. وكانت فكرة الجبر علاجاً أمورياً ناجعاً لإشغال "عقل المسلم" بقضية الحكم والمحكومين، فقد أباحت تلك الفكرة لهم الحكم والسلطة باسم الدين، بل زعموا أنهم مجبورون على ذلك، ولا خيار لهم إلا حكم الناس، والتمتع بثروات المجتمع، وظلم الأمة. وتلك إرادة الله تعالى ولا أحد يستطيع أن يقف أمام إرادته تعالى، كما يزعمون!

يقول الجهم بن صفوان (ت 128 هـ): "أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالإستطاعة، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتُنسب إليه الأفعال مجازاً، كما تُنسب إلى الجمادات...".

والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً.

وعلى هذا لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفي كونه: حياً، عالماً، وأثبت كونه: قادراً، فاعلاً، خالقاً، لأنه لا يوصف بشيء من خلقه بالقدرة، والفعل، والخلق"⁹¹⁷.

⁹¹⁷ الملل والنحل ج 1 ص 79 - 80.

وقال آخر منهم: "أن الباري تعالى عالمٌ قادرٌ على معنى أنه ليس بجاهلٍ ولا عاجزٍ، وأن أفعال العباد مخلوقة للباري تعالى حقيقة، والعبد مكتسبها حقيقة، وجوّز لذلك حصول فعل بين فاعلين"⁹¹⁸.

والأشاعرة قالوا بأن أعمال العباد مخلوقة ومقدّرة منه لقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)⁹¹⁹. و"أخصّ وصفه تعالى هو القدرة على الإختراع. وأن الإيمان والطاعة بتوفيق الله تعالى، والكفر والمعصية بخذلانه، والتوفيق عنده هو خلق القدرة على الطاعة، والخذلان عنده هو خلق القدرة على المعصية"⁹²⁰.

وأخذ الصراع منحىً خطيراً عندما أصبح الإستدلال مبنياً على آيات القرآن المجيد، كلٌّ يفهمها حسب رأيه الشخصي، ومذاقه العرفي.

الإستدلال والإستدلال المضاد: استدللّ القائلون بالجبر، على ثلاثة مبادئ: **الأول:** أن الإنسان غير قادر على تأدية أفعاله بنفسه أصلاً، ولو كان قادراً لإجتمعت قدرتان: قدرة الإنسان، وقدرة الله تعالى. وهذا باطل لإجتماع النقيضين. وإن وقع أحدهما دون الآخر أدى إلى ترجيح أحدهما وترك الآخر بدون مرجح، وذلك باطل. إذن فلا بد أن تكون أفعال العبد مخلوقة من قبل الله تعالى.

⁹¹⁸ الملل والنحل ج 1 ص 81 - 82. وهو قول: ضرار بن عمر.

⁹¹⁹ سورة الصافات: الآية 96.

⁹²⁰ الملل والنحل ج 1 ص 93.

الثاني: أن الأفعال التي تصدر من العباد لا بد أن يكون لها مرجح نهائي وهو الله تعالى. ولو افترضنا أن الترجيح كان من العبد، لأحتاج ذلك الترجيح إلى ترجيح ثانٍ، والترجح الثاني يفتقر إلى ترجيح ثالث، وهكذا. وهذا باطل لأنه تسلسل. فلا بد أن تكون أفعال العباد بترجح خارجي نهائي صادر من الله تعالى.

الثالث: لما كان الله تعالى قادرًا على كل شيء قدرة مطلقة، فلا مجال للقول بقدرة العبد. وقدرة العبد لا تساوي شيئاً أمام القدرة المطلقة لله عزَّوجلَّ. فالقول بقدرة العبد أمام قدرة الله هو وصف الله عزَّوجلَّ بالعجز والتعطيل، وهذا لا يستقيم مع قدرته تعالى.

وكان الرد عليهم من مدرسة أهل البيت (ع)، بالمبادئ التالية:

الأول: أن من أهم الأدلة على كون أفعال الإنسان بإرادته هو الثواب والعقاب. ولو كانت أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأن الإنسان مجبور عليها لبطل الثواب والعقاب، وهذا خلاف صريح القرآن الكريم، حيث قال: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)⁹²¹، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)⁹²²، و (...هَلْ نُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)⁹²³،

⁹²¹ سورة المدثر: الآية 38.

⁹²² سورة الزلزلة: الآية 7 - 8.

⁹²³ سورة النمل: الآية 90.

(فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)⁹²⁴، و(...إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)⁹²⁵.

الثاني: أن الهدف من بعث الأنبياء والرسل (ع) هو هداية الناس، وإنذارهم بالعقاب، وتبشيرهم بالثواب. فإذا كان العبد مُجبِراً على الأفعال، فما فائدة الأنبياء والرسل (ع)، وقد قال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...) ⁹²⁶، و(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)⁹²⁷.

الثالث: أن التكليف الالهي من وجوب وحرمة متناسب مع قدرة الإنسان على تأديته، وعلى قوته في الإختيار. فإذا كانت الأفعال مجبوراً عليها أو مخلوقة لله تعالى، فسوف يؤدي ذلك إلى التكليف بما لا يطاق، وقد قال الله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...) ⁹²⁸، شرح الإمام (ع) الآية بالقول: (الله أكرم من أن يكلف الناس بما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا يريد)⁹²⁹.

⁹²⁴ سورة يس: الآية 54.

⁹²⁵ سورة الأنعام: الآية 120.

⁹²⁶ سورة البقرة: الآية 213.

⁹²⁷ سورة الجمعة: الآية 2.

⁹²⁸ سورة البقرة: الآية 286.

⁹²⁹ الكافي ج 1 ص 160.

الرابع: من صفات الخالق عزّوجلّ العدالة المطلقة، فهو عادلٌ مع جميع من خلق. فإذا أجبر الله الناس على أفعالهم، كان عقابه للعاصي ظلم، لأن العبد مجبورٌ على فعله، والظلم قبيحٌ بحقه تعالى. قال سبحانه: (...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ)⁹³⁰، (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)⁹³¹.

الخامس: أن الحجة النهائية يوم الحساب هي لله تعالى: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)⁹³²، وإذا كان العباد مجبورون على أفعالهم، أنتفت حجة الله على عباده في إرتكاب المعصية، بينما يقرر القرآن غير ذلك، يقول تعالى: (مَا سَلَكْتُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ. وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ)⁹³³. فالفعل صدر بإرادة الإنسان، وهو مسؤول عنه، والحجة النهائية لله تعالى.

وقوف أئمة أهل البيت (ع) بقوة أمام المدّ الجديد:

وقف أئمة أهل البيت (ع) بقوة أمام تلك الأفكار الجديدة، وقالوا بفكرة أن الأمر بين أمرين، لا جبر ولا تفويض. فلإنسان أفعاله التي يفعلها بإختياره، ولكن بالقدرة التي أودعها الله تعالى فيه. فإذا وجد الداعي وارتفع

⁹³⁰ سورة آل عمران: الآية 117.

⁹³¹ سورة هود: الآية 117.

⁹³² سورة الأنعام: الآية 149.

⁹³³ سورة المدثر: الآية 42 - 46.

المحذور صدر الفعل من فاعله، ونسب إليه الفعل الصادر عنه، وأقرب مثال على ذلك هو الإحراق للنار من حيث قيام العلة بعلمته. فالنار محرقة، ولكن تحتاج إلى إنسان عاقل يقوم بإشعالها.

وأفعال الإنسان الإرادية مرتبطة به كمخلوق لأنها صادرة عنه، لكنها فيض من قدرته تعالى على الإنسان بإعطائه القدرة على الفعل. فالإنسان مسلح بالإرادة والدافع نحو الفعل، ولكنها لا تتقاطع مع إرادة الله تعالى. فهي سلسلة من الأسباب المترابطة، فإرادة الله هي الإرادة النهائية ولا تتنافى مع حرية الإنسان في الاختيار لفعله، وبالاختيار يُثاب على فعله أو يُعاقب على معصيته، وقد قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)⁹³⁴، (إِنْ هُوَ إِلَّا نَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)⁹³⁵.

قال الإمام الباقر (ع): (لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبعة: بمشيئة، وإرادة، وقدر، وقضاء، وإذن، وكتاب، وأجل. فمن زعم أنه يقدر على نقص واحدة منهن فقد كفر)⁹³⁶، و(أن الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب، ثم يعذبهم عليها، والله أعز من أن يريد أمراً فلا يكون). فسئل (ع): هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟ قال (ع): (نعم أوسع مما بين السماء والأرض)⁹³⁷، (ما يستطيع أهل القدر

⁹³⁴ سورة الكهف: الآية 29.

⁹³⁵ سورة التكويد: الآية 27 - 28.

⁹³⁶ المحاسن ص 244.

⁹³⁷ الكافي ج 1 ص 159.

أن يقولوا: والله لقد خلق الله آدم للدنيا وأسكنه الجنة ليعصيه فيردّه إلى ما خلقه له⁹³⁸.

وعندما سُئل الإمام الرضا (ع) عن توضيح معنى: أمرٌ بين أمرين؟ قال (ع): (وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه). فقال السائل: هل لله عزّوجلّ مشيئة وإرادة في ذلك؟ قال (ع): (فأما الطاعات فإرادة الله ومشيئته فيها: الأمر بها، والرضا لها، والمعونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي: النهي عنها، والسخط لها، والخذلان عليها).

قال السائل: فهل لله فيها قضاء؟ قال (ع): (نعم ما من فعل يفعله العباد من خيرٍ أو شرٍّ إلا والله فيه قضاء).

قال السائل: ما معنى هذا القضاء؟ قال (ع): (الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة)⁹³⁹.

والإمام الرضا (ع) وضع أصلاً في مسألة الجبر والتفويض، فقال (ع): (إن الله تعالى لم يُطع بإكراه ولم يعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدروهم عليه، فإن أنتم العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادراً ولا منها مانعاً، وإن إنتمروا بمعصية

⁹³⁸ علل الشرائع ج 2 ص 265.

⁹³⁹ عيون أخبار الرضا (ع) ج 1 ص 124.

فشاء أن يَحُولَ بينهم وبين ذلك فَعَلَ، وإن لم يَحُلْ ففعلوا فليس هو الذي أدخلهم فيه⁹⁴⁰، و(من يضبط حدود هذا الكلام فقد خَصِمَ من خالفه)⁹⁴¹.
والمأثور عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أن شيخاً سأله بعد رجوعه من صفين: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاءٍ من الله وقدرٍ؟ فقال (ع): (أجل يا شيخ ما علوتم تلعة⁹⁴² ولا هبطتم بطنَ وادٍ إلا بقضاءٍ من الله وقدر).
فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين؟ قال (ع):

(مه يا شيخ⁹⁴³، فوالله لقد عظمَ الله الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليه مضطرين)⁹⁴⁴.

فقال الشيخ: وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا إليه [مرغمين]، كان قضاءً حتماً وقدرًا لازماً؟ قال (ع): (لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي، والأجر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب ولا محبة للمحسن، والمحسن أولى بالعقوبة من المذنب. تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وحزب الشيطان، وقدرية هذه الأمة، ومجوسها. أن الله تبارك وتعالى كلّف تخييراً،

⁹⁴⁰ عيون أخبار الرضا (ع) ج 1 ص 144.

⁹⁴¹ المصدر السابق.

⁹⁴² التلعة: ما ارتفع من الأرض.

⁹⁴³ مَه: اسم فعل أمر، معناه: اكفّف.

⁹⁴⁴ نهج البلاغة - شرح محمد عبده ج 4 ص 17.

ونهى تحذيراً. وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مُكرهاً، ولم يملك مفوضاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار⁹⁴⁵.

يلخص الإمام الباقر (ع) الفكرة عند مخاطبته الحسن البصري: (زعموا أنك تقول: أن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم؟)، فعندما أجابه بالإيجاب، وضّح (ع) له بطلان القول بالتفويض، وحدّره قائلاً: (وإياك أن تقول بالتفويض، فإنّ الله عزّوجلّ لم يفوض الأمر إلى خلقه، وهنا منه وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً)⁹⁴⁶. وهذا القول هو زبدة الردّ، وجوهرة الفكر في تفويض فكرة التفويض.

فكرة الإرجاء

الإرجاء هو التأخير، ومنه أطلق على من قدّم الإيمان، وأخرّ العمل لفظ: المرجئة. فالمرجئة لغة: من الإرجاء، وهو التأخير والإمهال، قال تعالى على لسان قوم فرعون: (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)⁹⁴⁷، أي أمهله.

⁹⁴⁵ نهج البلاغة ج 4 ص 17.

⁹⁴⁶ الإحتجاج ج 2 ص 184.

⁹⁴⁷ سورة الشعراء: الآية 36.

وفي الإصطلاح أنهم قومٌ قالوا: الإيمان قولٌ بلا عمل. والمرجئُ
"فيمين كان من قوله: الإيمان قولٌ بلا عمل، وفيمن كان من مذهبه أن
الشرائع ليست من الإيمان، وأن الإيمان إنما هو التصديق بالقول دون
العمل المُصَدِّقِ بوجوبه"⁹⁴⁸. وكان شعارهم: "لا تضُرُّ مع الإيمان معصية
كما لا تنفع مع الكفر طاعة"⁹⁴⁹.

إعتقادات المرجئة: ويمكننا تلخيص إعتقادات المرجئة بالنقاط التالية:

- 1 - أن الإيمان هو التصديق بالقلب، أو تصديق القلب ونطق باللسان فقط. ثم تطورت تلك الفكرة وأصبح الإيمان هو المعرفة بعينها.
- 2 - لا يدخل العمل في حقيقة الإيمان، ولا هو جزء منه. وترك العمل العبادي أو عدم الإتيان به لا ينفي الإيمان، ولا يتنافى معه.
- 3 - أن أصحاب المعاصي (الكبائر) مؤمنون حقيقة، إكتمل إيمانهم بكمال تصديقهم. فالمرجئة ترى العاصي مؤمناً وإن ترك الصلاة، والصوم، وبقية الواجبات لكفاية التصديق القلبي أو كفاية الإقرار باللسان.
- 4 - أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأن التصديق بالشيء والجزم به لا يدخله زيادة ولا نقصان أولاً، ولأن أمر التصديق دائرٌ بين الوجود والعدم ثانياً.

⁹⁴⁸ تهذيب الآثار - الطبري ج 2 ص 661.

⁹⁴⁹ الملل والنحل ج 1 ص 139.

5 - لا يخلد مرتكب الكبيرة في النار وإن لم يتب. ولا يُحكم عليه بالوعيد والعذاب لإحتمال شمول عفوهِ تعالى له.

يقول الجهم بن صفوان: "أن الإيمان هو المعرفة. وفرعون يعرف الله في قرارة نفسه، قال له موسى: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...) ⁹⁵⁰، فهو يعرف الله في قلبه، فيكون مؤمناً. ويقول تعالى عن الكافرين: (...فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) ⁹⁵¹، فهم يعرفون أن الرسول (ص) صادق، فمعنى هذا أنهم كلهم مؤمنون" ⁹⁵².

طرب حكام بني أمية لفكرة الإرجاء القائلة بتقديم الإيمان وتأخير العمل، فليكن قلبك مؤمناً بالله وافعل ما شئت من عصيانٍ وفسادٍ وظلم. والإقرارُ باللسان، أو الإذعان بالقلب لا ينافي بزعمهم شرب الخمر، وترك الصلاة، وفعل الفاحشة.

الرد على المرجئة: لم تخلو الساحة الإسلامية من ردود عديدة على المرجئة، منها:

1 - الرازي (ت 606 هـ) في تفسير قوله تعالى: (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى) ⁹⁵³ "أن المرجئة يتمسكون بهذه الآية في أنه لا وعيد

⁹⁵⁰ سورة الإسراء: الآية 102.

⁹⁵¹ سورة الأنعام: الآية 33.

⁹⁵² مقالات الإسلاميين ج 1 ص 214.

⁹⁵³ سورة الليل: الآية 15.

إلا على الكفار! قال القاضي: ولا يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها،
ويدل ذلك [ملخصاً] على ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه يقتضي أن لا يدخل النار إلا الأشقى الذي كذب وتولى.
وثانيهما: أن هذا إغراء بالمعاصي.
وثالثهما: معلوم من حال الفاسق أنه ليس بأتقى⁹⁵⁴.

2 - القاضي النعمان (ت 363 هـ) قال: "روينا عن جعفر بن محمد (ع) أنه قال: (الإيمان قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان). وهذا الذي لا يصحُّ غيره، لا كما زعمت المرجئة أن الإيمان قولٌ بلا عمل، ولا كالذي قالت الجماعة من العامة إن الإيمان قولٌ وعملٌ فقط. وكيف يكون ما قالت المرجئة أنه قولٌ بلا عمل، وهم والأمة مجتمعون على أن من ترك العمل بفريضة من فرائض الله عزَّوجلَّ التي افترضها على عباده منكرًا لها أنه كافر حلال الدم ما كان مصرًا على ذلك، وإن أقرَّ بالله ووحدَه وصدَّق رسوله بلسانه، إلا أنه يقول هذه الفريضة ليست مما جاء به، وقد قال الله عزَّوجلَّ: (...وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)⁹⁵⁵، فأخرجهم من الإيمان بمنعهم الزكاة، وبذلك استحل القوم أجمعون بعد رسول الله (ص) دماء بني حنيفة وسبي ذراريهم، وسموهم أهل الردة إذ منعوهم الزكاة"⁹⁵⁶.

⁹⁵⁴ التفسير الكبير ج 31 ص 203.

⁹⁵⁵ سورة فصلت: الآية 6 - 7.

⁹⁵⁶ دعائم الإسلام ج 1 ص 3.

3- وقف أئمة أهل البيت (ع) من هذه الفكرة الهدامة موقفاً قوياً، فحثّ الإمام (ع) الشيعة على الإنتباه من تلك الأفكار، وأوجب عليهم تعليم أولادهم الإسلام الصحيح من بداية شبابهم، فقال (ع): (بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة)⁹⁵⁷.
وكان الإمام الباقر (ع) يعلنها صراحةً: (اللهم العن المرجئة، فإنهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة)⁹⁵⁸.

الغلو: الفكرة والظاهرة

انتشرت ظاهرة الغلو كفكرة في العقد الثاني من القرن الأول الهجري، ثم تطورت كمذهب وتيار، خصوصاً زمن الإمامين الباقر(ع) والصادق (ع).

ومعنى الغلو هو تجاوز الحد، وكان يطلق على أناسٍ تجاوزوا الحد في وصف أئمة أهل البيت (ع). ومنشأ الكلمة نابغ من قوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...)⁹⁵⁹.
وكان الكذب هو المحطة أو العتبة الأولى للصعود إلى سلم الغلو. فعن طريق الكذب يستطيع الراوي الكاذب الإفتراء بما شاء على أئمة أهل البيت (ع)، بقضيتين: شخصياتهم (ع)، وأفكارهم.

⁹⁵⁷ الكافي ج 6 ص 47.

⁹⁵⁸ بحار الأنوار ج 46 ص 291.

⁹⁵⁹ سورة النساء: الآية 171.

يعرض الإمام الصادق (ع) جانباً من تلك الصورة الأليمة لواقع الناس، فيقول (ع): (إن الناس قد أولعوا بالكذب علينا وإني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه، وذلك أنهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله، وإنما يطلبون الدنيا وكلّ يحب أن يكون رئيساً)⁹⁶⁰. وفي الحديث دلالات مهمة تكشف أهداف الغلو، منها:

1 - كان هدف الكذب دنيا يصيبها الكاذبون. أي أنهم ليسوا بأهل دين، ولم يكن مهمهم فهم الدين أو الإلتزام به، بل كانوا يطلبون أمراً دنيوياً.

2 - كانت صفتهم الرئيسية: الكذب، فقد (أولعوا بالكذب علينا...)⁹⁶¹، ووضعا أحاديث لم يحدث بها الإمام (ع)، قال الصادق (ع) أيضاً: (إن المغيرة بن سعيد دس في كتب اصحاب أبي [الباقر (ع)] أحاديث لم يحدث بها)⁹⁶². فالإمام الصادق (ع) يؤكد بأن المغيرة بن سعيد دس في كتب الإمام الباقر (ع) أحاديث مزورة لم يحدث بها الإمام (ع) أصلاً، من أجل الغلو في أمرهم (ع).

3 - تأويلهم للأحاديث، كما صرح (ع): (إني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه)⁹⁶³. ومن ذلك سؤال أحدهم: يا بن رسول الله، قد بلغنا عنك أنك قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم؟ قال

⁹⁶⁰ بحار الأنوار ج 2 ص 246.

⁹⁶¹ المصدر السابق.

⁹⁶² تحف العقول ص 310، ودلائل الإمامة ص 281.

⁹⁶³ بحار الأنوار ج 2 ص 246.

(ع): (إني قلتُ فاعملوا من الطاعات ما شئتم فإنه يقبل منكم)⁹⁶⁴. فكان التزوير: حذف كلمة (من الطاعات)، فبدلوا فهم الحديث، وأولوه تأويلاً بعيداً. والرواية تعكس مدى خطورة المشكلة على أصول الدين وفروعه!

مصاديق الغلو: غلت مجموعة من الأشخاص في أهل البيت (ع) غلوّاً مفرطاً، وأدعَوْ لهم الألوهية، فحاربهم الإمام علي (ع) وأحرقهم بالنار بعد أن إستتابهم فلم يتوبوا. وهكذا استمرت القضية لحد زمن الإمام الرضا (ع) وما بعده. وجذور القضية نشأت في زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) الذي قال: (ألا وإنه يهلك فيَّ مُحِبُّ مفرطٍ يُقرظني بما ليس فيَّ، ومبغضٌ يحمله شنأني على أن يبهتني، ألا إني لستُ نبياً ولا يوحى إلي ولكني أعمل بكتاب الله ما استطعتُ، فما أمرتكم من طاعة الله فحقٌ عليكم طاعتي فيما أحببتم وفيما كرهتكم، وما أمرتكم به أو غيري من معصية الله فلا طاعة في المعصية، الطاعة في المعروف، الطاعة في المعروف، الطاعة في المعروف)⁹⁶⁵.

ولم ينجو الإمام السجاد (ع) من تلك الظاهرة الكافرة، فقال (ع): (لعن الله من كذب علينا. إني ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي، لقد أدعى أمراً عظيماً، ما له لعنه الله؟ كان علي (ع) والله عبداً

⁹⁶⁴ بحار الأنوار ج 68 ص 356.

⁹⁶⁵ كنز العمال ج 11 ص 623، وج 13 ص 125.

لله صالحاً، أخو رسول الله (ص) ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله (ص) الكرامة من الله إلا بطاعته⁹⁶⁶.

ثم نال الإمام الصادق (ع) ما ناله من سبقه، حيث قال: (لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق. إن المغيرة كذب على أبي [الباقر (ع)] فسلبه الله الإيمان، وإن قوماً كذبوا علي ما لهم أذاقهم الله حرَّ الحديد، فوالله ما نحن إلا عبيدُ الذي خلقنا واصطفانا ما نقدر على ضُرِّ ولا نفعٍ، إن رَحِمْنَا فبرحمته، وإن عَذَّبْنَا فبذنوبنا، والله ما لنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإننا لميتون، ومقبورون، ومنشرون، ومبعوثون، وموقوفون، ومسئولون، ويلهم ما لهم لعنهم الله فلقد آذوا الله وآذوا رسوله (ص) في قبره، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي (ع)، وها أنا ذا بين أظهركم لحمُ رسول الله وجلدُ رسول الله أبيتُ على فراشي خائفاً وجللاً مرعوباً، يأمنون وأفزع، وينامون على فرشهم وأنا خائف ساهر وجل، أتقلقل بين الجبال والبراري، أبرأ إلى الله مما قال في الأجدع البراد⁹⁶⁷ عبدُ بني أسد: أبو الخطاب لعنه الله، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب ألا يقبلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجللاً أستعدي الله عليهم، وأتبرأ إلى الله منهم، أشهدكم أني امرؤ ولدني رسول الله (ص) وما معي براءة من

⁹⁶⁶ رجال الكشي ص 108.

⁹⁶⁷ الأجدع: مقطوع الأنف. والبراد: من احترق البرادة.

الله، إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذبي عذاباً شديداً، أو أشدَّ عذابه)⁹⁶⁸.

ولم يخلص منهم الإمام الرضا (ع) أيضاً، قال في دعائه: (اللهم إني بريء من الحول والقوة ولا حول ولا قوة إلا بك. اللهم إني أعوذ بك وأبرأ إليك من الذين ادّعوا ما ليس لنا بحق. اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا. اللهم لك الخلق ومنك الرزق وإياك نعبد وإياك نستعين. اللهم أنت خالق الأولين وخالق آبائنا الآخرين. اللهم لا تليق الربوبية إلا بك، ولا تصلح الإلهية إلا لك... اللهم إنا عبيدك وأبناء عبيدك لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. اللهم من زعم إنا أرباب فنحن منه براء، ومن زعم أن إلينا الخلق وعلينا الرزق فنحن براء منه...)⁹⁶⁹.

ويخص الإمام الرضا (ع) وضع الناس عندما يسأله سائل عن أخبار تأتي من مخالفيهم، فيجيبه (ع): (إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا. فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم وقد قال الله عزّوجلّ: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ

⁹⁶⁸ رجال الكشي ص 171.

⁹⁶⁹ الاعتقادات - الشيخ الصدوق ص 74.

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...⁹⁷⁰ [وضعوا مثالهم علينا]. يا ابن أبي محمود إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا فإنه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه، إن أدنى ما يخرج الرجل عن الإيمان أن يقول للحصاة هذه نواة، ثم يدين بذلك ويبرأ ممن خالفه. يا ابن أبي محمود احفظ ما حدثتك به فقد جمعت لك فيه خير الدنيا والآخرة⁹⁷¹.

وقد قال تعالى في العمل والجزاء: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)⁹⁷²، (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)⁹⁷³، (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)⁹⁷⁴.

فإن أدنى ما يعتقد به الإنسان ويخرجه عن الإيمان بالحقيقة هو إعتقاده بأن الحصاة الجامدة الصلدة هي نواة لها قابلية على الإنبات والإثمار. وهذا تصوير رائع لظاهرة الغلو، فالغلو هو إعتقاد خاطئ لأمر غير حقيقي، خصوصاً عندما ينزله ذلك الإنسان الخاطئ بمنزلة الحقيقة.

⁹⁷⁰ سورة الأنعام: الآية 108.

⁹⁷¹ عيون أخبار الرضا (ع) ج 1 ص 304.

⁹⁷² سورة الزمر: الآية 65.

⁹⁷³ سورة الأنعام: الآية 15.

⁹⁷⁴ سورة النساء: الآية 123 - 124.

التعامل مع الغلو: وضع الإمام علي (ع) القاعدة الأساسية في مواجهة الغلو، ثم سار عليها بقية أئمة أهل البيت (ع)، بضمنهم الإمام الباقر (ع)، وهي: (إياكم والغلو فينا، قولوا إنا عبيدٌ مريبون، وقولوا في فضلنا ما شئتم)⁹⁷⁵. فأهل البيت (ع) عبيدٌ لله تعالى، ولكن لهم فضلاً عظيماً في العلم، والإيمان، والتقوى، والإمامة.

ولأنه تزويرٌ للحقائق وتلفيقٌ للوقائع، لم يكن هناك طريقاً فكرياً لمواجهة الغلو، إلا القيام بمنهجٍ من ثلاثة مبادئ لمعالجته، وهي:

1 - البراءة من الغلاة: تبرأ الإمام علي (ع) من الغلاة، وقال فيهم: (اللهم إني بريءٌ من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى [الذين يشركون مع الله تعالى عيسى وروح القدس]، اللهم أذلهم أبداً، ولا تنصر منهم أحداً)⁹⁷⁶.

وتبرأ الإمام الباقر (ع) منهم، وخصَّ (ع) أحدهم، وقال فيه: (لعن الله بيان البيان...)⁹⁷⁷.

وكذلك فعل الإمام الصادق (ع) عندما سأله سدير الصيرفي عنهم، قال: (يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من

⁹⁷⁵ بحار الأنوار ج 25 ص 270.

⁹⁷⁶ أمالي الشيخ الطوسي ص 650.

⁹⁷⁷ بحار الأنوار ج 25 ص 263.

هؤلاء براء، برّ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وإياهم يوم إلا وهو عليهم ساخط)⁹⁷⁸.

وقال الصادق (ع) مخاطباً مرزوم بن حكيم، بخصوص شخص من سكنة الكوفة أظهر غلواً: (يا مرزوم إن اليهود قالوا ووجدوا الله، وإن النصاري قالوا ووجدوا الله، وإن بشاراً قال قولاً عظيماً، فإذا قدمت الكوفة فأته وقل له: يقول لك جعفر بن محمد: يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا بريء منك)⁹⁷⁹. وقال الصادق (ع) أيضاً: (اللهم أني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا)⁹⁸⁰.

2 - فضحهم على الملأ بأسمائهم وصفاتهم: فضح الإمام الباقر (ع) الغلاة بأسمائهم، أمثال: من ذكرهم الصادق (ع): الحارث الشامي، وبناناً، فقال: (كانا يكذبان على علي بن الحسين عليه السلام)⁹⁸¹. ثم ذكر المغيرة بن سعيد، وبزيعاً، والسري، وأبا الخطاب، ومعمراً، وبشار الشعيري، وحمزة الترمذي، وصائد النهدي، فقال: (لعنهم الله، إنا لا نخلو من كذاب يكذب علينا أو عاجز الرأي، كفانا الله مؤونة كل كذاب، وأذاقهم حرّ الحديد)⁹⁸².

⁹⁷⁸ الكافي ج 1 ص 269.

⁹⁷⁹ بحار الأنوار ج 25 ص 304.

⁹⁸⁰ الإعتقادات - الشيخ الصدوق ص 74.

⁹⁸¹ بحار الأنوار ج 25 ص 263.

⁹⁸² المصدر السابق .

وأوصى الباقر (ع) المفضل بن يزيد: (يا مفضل لا تقاعدوهم ولا
تواكلوهم ولا تصافحوهم ولا توارثوهم)⁹⁸³، و(أحذروا على شبابكم من الغلاة
لا يفسدونهم، فإن الغلاة شرّ خلق الله، يصغرون عظمة الله، ويدعون
الربوبية لعباد الله، والله إن الغلاة أشرّ من اليهود والنصارى والمجوس
والذين أشركوا)⁹⁸⁴.

ثم قال (ع): (إلينا يرجع الغالي فلا نقبله، وبنا يلحق المقصّر
فنقبله). ف قيل له: وكيف ذلك؟ قال: (لأن الغالي قد اعتاد ترك الصلاة
والزكاة والصيام والحج، فلا يقدر على ترك عاداته، وعلى الرجوع إلى طاعة
الله عزّوجلّ أبداً، وإن المقصّر إذا عرف عمل وأطاع)⁹⁸⁵.

3 - ذكر الحقائق الخاصة بأهل بيت النبوة (ع): شرح أئمة أهل البيت
(ع) الحقائق الخاصة بهم، وأظهروا للناس أنهم حَمَلَة علم النبي (ص)
حقيقة، في وقت انتشرت فيه الأفكار المضلّة للإسلام وما جاء به خاتم
الأنبياء (ص).

قال الإمام الباقر (ع): (نحن جنب الله تعالى [أي طاعة الله
تعالى]، نحن صفوة الله، نحن أمناء الله، نحن مستودع مواريث الأنبياء،
نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال الله

⁹⁸³ رجال الكشي ص 252.

⁹⁸⁴ أمالي الشيخ الطوسي ص 650.

⁹⁸⁵ المصدر السابق.

تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)⁹⁸⁶، نحن رحمة الله للمؤمنين، بنا يفتح الله، وبنا يختم الله، من تمسك بنا نجا، ومن تخلف عنا غوى، نحن قادة الغر المحجلون، من عرفنا وعرف حقنا، وأخذ بأمرنا فهو منا وإلينا)⁹⁸⁷.
ووضع الصادق (ع) منهجاً في معرفة الدين حقيقةً: (ما أتاكم عنا من حديث لا يصدقه كتاب الله فهو باطل)⁹⁸⁸. فجعل الميزان في قضية الألوهية والعبودية: كتاب الله المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبداً.

الغلو في فرق المسلمين عامة: ولم تسلم أي فرقة من فرق المسلمين من الغلو في الفكرة، أو في تهويل العناوين، أو في تمجيد الأشخاص ووضعهم فوق مستوى الفضيلة. والغلو هو تقييم خاطئ للشخص المراد تقييمه، بحيث ينبهر الجاهل إنبهاراً يخرج عن المعقول. ولاشك أن الغلو أكبر جناية بحق الدين، وبحق الله سبحانه وتعالى، وبحق رسول الله (ص)، وبحق الإمام (ع). وإن أراد البعض أن يقول بأن الغلو محصور بأصحاب أئمة أهل البيت (ع) فهذا غير صحيح، بل هو موجود في كل مذهب. إلا أن نصيب أئمة أهل البيت (ع) كان أكبر لأنهم أهل علم لا يقارن، وتقوى،

⁹⁸⁶ سورة الأنعام: الآية 153.

⁹⁸⁷ غاية المرام ص 136.

⁹⁸⁸ المحاسن ج 1 ص 221.

فعندما قال (ع): (... نحن صفوة الله، نحن أمناء الله، نحن مستودع موارِيث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين...) ⁹⁸⁹، لا بد أن نُحمل بعض تلك الكلمات على غير محلها.

ونعرض فيما قيل بعبيد الله تعالى، ونبدأهم بسيد المخلوقات وخاتم

الأنبياء محمد (ص):

أولاً: كُذِبَ على رسول الله (ص): عن الإمام الصادق (ع): (كان رسول الله (ص) أصدق الناس لهجة، وأصدق البرية كلها، وكان مسيلمته يكذب عليه) ⁹⁹⁰.

ثانياً: ما قيل في الإمام علي بن أبي طالب (ع) من الغلو: إستتاب الإمام علي (ع) جماعة، مدة ثلاثة أيام، ليتوبوا إلى الله من كفرهم وغلوهم فيه، فلم يتوبوا فأحرقهم بالنار ⁹⁹¹. قال الصادق (ع): (كان والله أمير المؤمنين عبداً لله طائعاً...) ⁹⁹².

ثالثاً: ما قيل في أبي حنيفة (ت 150 هـ) من الغلو: "أن الله خصّ أبا حنيفة بالشرعية والكرامة. ومن كرامته أن الخضر (ع) كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين. فلما مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربه، وقال: إلهي، إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد (ص)

⁹⁸⁹ غاية المرام ص 136.

⁹⁹⁰ رجال الكشي ص 324 رقم 174.

⁹⁹¹ رجال الكشي ج 1 ص 323. رقم 170.

⁹⁹² رجال الكشي ج 1 ص 324 رقم 174.

على الكمال فأحياه الله، وتعلّم منه العلم إلى خمس وعشرين سنة. وبعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره الله أن يذهب إلى القشيري ويعلمه ما تعلّم من أبي حنيفة. وصنّف القشيري ألف كتاب، وهي لا تزال وديعة في نهر جيحون، إلى رجوع المسيح، فيحكم بتلك الكتب. لأنه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد (ص) فيتسلم المسيح أمانة نهر جيحون، وهي كتب القشيري⁹⁹³.

رابعاً: ما قيل في مالك بن أنس (ت 179 هـ) من الغلو: "أن النبي (ص) هو الذي سمى كتاب مالك بالموطأ، وأنه سُئل (ص) في المنام: أن مالك والليث يختلفان في المسألة فأيهما أعلم؟ فقال: مالك وارثٌ جدِّي يعني إبراهيم (ع)"⁹⁹⁴، وأنه سُئل (ص) مرة أخرى في المنام: "من نسأل بعدك يا رسول الله؟ فقال: مالك بن أنس"⁹⁹⁵، وروي قول إسماعيل بن مزاحم المروزي: "رأيت النبي (ص) في المنام فقلت: يا رسول الله من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس"⁹⁹⁶. وتلك الروايات مروية عن أحلام ورؤى، فهي ليست حتى من السيرة النبوية المزعومة.

خامساً: ما قيل في أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) من الغلو: "أحمد بن حنبل إمام المسلمين وسيد المؤمنين، وبه نحيا ونموت، وبه نُبعث. فمن

⁹⁹³ الياقوتة - ابن الجوزي ص 45.

⁹⁹⁴ صفوة الصفوة ج 1 ص 28.

⁹⁹⁵ حلية الأولياء ج 6 ص 317.

⁹⁹⁶ حلية الأولياء ج 6 ص 317.

قال غير هذا فهو من الجاهلين⁹⁹⁷، و"أسند إلى الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق عليه اسم الكفر بالله العظيم؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة أبغض النبي، ومن أبغض النبي كفر بالله العظيم"⁹⁹⁸.

وتلك نماذج من الغلو، تباينت فيها أهداف المغالين وأساليبهم. وقد حكم فقهاء أهل البيت (ع) على الغلاة من الذين غلوا في أهل البيت (ع) بالكفر، بعد أن شكك في ولائهم إلى الإسلام.

قال الشيخ الصدوق (ت 381 هـ): "إعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنهم كفار بالله ﷻ، وأنهم شرُّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية، ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلّة"⁹⁹⁹.

والشيخ المفيد (ت 413 هـ) قال: "والغلاة من المتظاهرين بالإسلام، هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته إلى الإلوهية والنبوة ووصفوه بالفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا من القصد، وهم ضلال، كفار، حكّم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة بالإكفار والخروج عن الإسلام"¹⁰⁰⁰.

⁹⁹⁷ ذيل طبقات الحنابلة - ابن رجب ج 1 ص 136.

⁹⁹⁸ طبقات الحنابلة - ابن أبي يعلى ج 1 ص 13.

⁹⁹⁹ الإعتقادات ص 109.

¹⁰⁰⁰ تصحيح إعتقادات الإمامية - الشيخ المفيد ص 63.

والمحقق الحلي (ت 676 هـ) قال صريحاً: "وأما الغلاة فخارجون عن الإسلام وإن انتحلوه"¹⁰⁰¹.

وكذلك الشيخ النراقي (ت 1209 هـ): "لا ينبغي الريب في نجاسة الغلاة، وهم القائلون بألوهية علي أو أحد من الناس"¹⁰⁰². و"كذا لا تجوز الصلاة على النواصب والخوارج والغلاة، وإن كانوا من المنتحلين للإسلام بالإجماع"¹⁰⁰³.

وهكذا قال الشيخ النجفي (ت 1266 هـ) مصنف (جواهر الكلام): "أما الغلاة والخوارج والنواصب وغيرهم من علم منهم الإنكار لضروريات الدين، فلا يرثون المسلمين قولاً واحداً"¹⁰⁰⁴.

الإمام الباقر (ع) والغلاة:

ولم يتوقف الإمام الباقر (ع) عن مواجهة الغلاة والبراءة منهم، بإعتبارهم إنتهاكٌ صريحٌ لمبدأ الدين السماوي، وجهلاً كاملاً بأصول التوحيد، بل حاول إرشاد الناس إلى الحق، قائلاً لهم: (لا تضعوا علياً (ع) دون ما وضعه الله، ولا ترفعوه فوق ما رفعه الله)¹⁰⁰⁵.

¹⁰⁰¹المعتبر - المحقق الحلي ج 1 ص 98.

¹⁰⁰²مستند الشيعة - النراقي ج 1 ص 204.

¹⁰⁰³مستند الشيعة ج 6 ص 270.

¹⁰⁰⁴جواهر الكلام - النجفي ج 39 ص 32.

¹⁰⁰⁵بحار الأنوار ج 25 ص 283.

وكان (ع) يدعو إلى الاعتدال، ويخاطب شيعة أهل البيت (ع):
(يا معشر شيعة آل محمد كونوا النمركة الوسطى: يرجع إليكم الغالي، ويلحق
بكم التالي)¹⁰⁰⁶. أي كونوا أقرب الناس إلى الدين الألهي بفكركم وسلوككم
حتى يرجع إليكم من خلط الحقيقة بالوهم، ويرجع إليكم من حاداً عن الجادة
والصراط.

التجسيم والتشبيه

التجسيم: فكرة تزعم بأن الله عزوجل يحده العرش، وأنه موجود في
جهة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ومن آمن بالتجسيم سُمي مجسماً.
فالمجسمة فرقة زعمت بأن إثبات الصفات الذاتية لله سبحانه مستلزم
لوصفه بالأبعاد الثلاثة، أي تخيلهم بأن الله تعالى على شكلٍ من الأشكال،
كأن يكون إنساناً جالساً على كرسي الملك، أو جالساً على العرش، أو له
ساق. والتجسيم والتشبيه ألفاظ مترادفة.

والجسم هو ما يقبل فرض الأبعاد الثلاثة، وهي: الطول والعرض
والإرتفاع. فالتجسيم في عقيدة من قال به هو الإعتقاد بأن الله جسم،
والجسم لغةً: يدلُّ على التجمع والتشخص والتركيب. و"الجيم والسين والميم
يدلُّ على تجمع الشيء، فالجسم كل شخص مُدرك، كذا قال ابن دريد،
والجسيم: العظيم الجسم، وكذلك الجسام. والجُسمان: الشخص"¹⁰⁰⁷.

¹⁰⁰⁶ بحار الأنوار ج 67 ص 101.

¹⁰⁰⁷ مقاييس اللغة (معجم) ج 1 ص 457.

وللخالق عزّوجلّ صفات ثبوتية جمالية وأخرى سلبية جلالية. وكل ما يُنسب إليه إثباتاً للواقع هو ثبوتي مثل القدرة والعلم والحياة والخالقية، وكل ما يعتبر نقصاً عليه فينبغي أن يُسلب. والتجسيم يعدُّ نقصاً خطيراً، لا بد من سلبه من صفاته تعالى.

ثبّت المشبهون والمجسّمه لله تعالى صفات المحدثات والأجسام، كصفات اليد، والوجه، والساق، والقدم، والرجل، والعين، والجلوس، والحركة، والحد، والجهة، وأستدلوا بذلك على آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في اليد: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)¹⁰⁰⁸، وفي الوجه: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)¹⁰⁰⁹، وفي الساق: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)¹⁰¹⁰، وفي الجلوس: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)¹⁰¹¹.

وتلك الآيات الكريمة لها معانٍ تنزيهية، وهي مشتركات لغوية على أية حال، فاليد تعني القدرة، والعرش: العلم والتدبير، والوجه: الدين، والساق: الجد. إلا أنّ المجسّمه لم يأخذوا بذلك، بل فهموا الآيات على ظاهرها، فكان له تعالى يد، وساق، ووجه ونحوه مما هو للمخلوق! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

¹⁰⁰⁸ سورة الفتح: الآية 10.

¹⁰⁰⁹ سورة القصص: الآية 88.

¹⁰¹⁰ سورة القلم: الآية 42.

¹⁰¹¹ سورة طه: الآية 5.

وطالما كان الجسم بابعاده الثلاثة محدوداً بحدود الزمان والمكان، أصبح محتاجاً إلى المادة والصورة، متقوماً بغيره، ومخلوقاً. بينما تميز الخالق عزّوجلّ بالخالقية، والوحدانية، والغنى المطلق، وعدم الحاجة مطلقاً. والتحيز بالمكان والتقيّد من صفات المخلوقات، لا من صفات الخالق عزّوجلّ.

وبذلك أنقسمت مدرسة الرأي إلى قسمين: قسمٌ قال بثبوت التجسيم بتلميحٍ أو بتصريحٍ، والقسم الثاني نفى التجسيم ونأى بنفسه عنه.

من أثبت التجسيم: أكثر من عرض قضية التجسيم، وجعلها حقيقةً ثابتةً، ونظّر لها هو ابن تيمية (ت 728 هـ)، ثم ذكره الهيثمي (ت 807 هـ)، وابن حجر (ت 852 هـ). وكان البخاري (ت 256 هـ) من قبلهم قد ذكر روايات تدلّ على التجسيم.

ابن تيمية (ت 728 هـ) قال: "ولا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط"¹⁰¹².

وقال أيضاً: "وكذلك الحديث الذي رواه أهل العلم أنه (ص) قال رأيت ربي في صورة كذا وكذا، يروى من طريق ابن عباس ومن طريق أم الطفيل وغيرها، فعلم أن هذا الحديث رؤيا منام بالمدينة، كما جاء مفسراً

¹⁰¹² مجموعة الرسائل الكبرى - ابن تيمية. ص 136.

في كثير من طرقه أنه كان رؤيا منام مع أن رؤيا الأنبياء وحي، لم يكن رؤيا يقظة ليلة المعراج¹⁰¹³.

وفي مكان ثالث قال: "فالسحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عياناً، وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه لكن يُرى في المنام ويحصل للقلوب من المكاشفات والمشاهدات ما يناسب حالها، ومن الناس من تقوى مشاهدة قلبه حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه"¹⁰¹⁴.

وكان ابن بطوطة (ت 779 هـ) أكثر قسوة على ابن تيمية حين قال: و"كان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في فنون، إلا أن في عقله شيئاً... وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه قال: إنَّ الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر"¹⁰¹⁵.

ولم يكن البخاري (ت 256 هـ) استثناءً من المجموعة التي آمنت بذكر روايات التجسيم المزعومة، فقال: "أخرج الشيخان من طريق ابن شهاب عن أبي عبد الله الأغر وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة: أن رسول الله (ص): قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء

¹⁰¹³ مجموعة الفتاوى - ابن تيمية ج 3 ص 387.

¹⁰¹⁴ مجموعة الفتاوى ج 2 ص 336.

¹⁰¹⁵ رحلة ابن بطوطة ص 12.

الدنيا حين يبقى ثلث آخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفري فأغفر له¹⁰¹⁶!

وكذلك الهيثمي (ت 807 هـ) قال: "عن ابن عباس أنه كان يقول أن محمداً (ص) رأى ربه مرتين: مرة ببصره ومرة بفؤاده، رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح خلا جمهور بن منصور الكوفي، وجمهور بن منصور نكره ابن حبان في الثقات. وعن ابن عباس قال: نظر محمد (ص) إلى ربه تبارك وتعالى!! قال عكرمة: فقلت لابن عباس: نظر محمد إلى ربه؟ قال: نعم. جعل الكلام لموسى، والخلة لإبراهيم، والنظر لمحمد (ص)!!!"¹⁰¹⁷.

وابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) في ذكر النزول يوم عرفة، قال: "عن أسماء قالت: قال رسول الله (ص): رأيت ربي عزوجل على جملٍ أحمرٍ عليه إزار وهو يقول: قد سمحتُ، قد غفرتُ، إلا المظالم. فإذا كانت ليلة المزدلفة لم يصعد إلى السماء الدنيا وتتصرف الناس إلى منى"¹⁰¹⁸!

من نفى التجسيم: والملفت للنظر أن أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) قد نفى التجسيم بصورة قاطعة، وكذلك فعل الغزالي (ت 505 هـ)، والفخر الرازي

¹⁰¹⁶ صحيح البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل حديث رقم 6321.

¹⁰¹⁷ مجمع الزوائد ج 1 ص 78.

¹⁰¹⁸ لسان الميزان - ابن حجر ج 2 ص 238.

(ت 606 هـ). وذكروا بأن الفوقية في قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)¹⁰¹⁹ هي فوقية بمعنى القهر، وأكدوا على وجود القرينة في ذكر المتشابهات، وهذا مطابقاً لأفكار أهل البيت (ع).

أما أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) فقال: "إنما الأسماء مأخوذة بالشرعية واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الأسم على كل ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف، والله تعالى خارج عن ذلك كله فلم يجز أن يسمى جسماً لخروجه عن معنى الجسمية، ولم يجئ في الشريعة ذلك، فبطل"¹⁰²⁰.

وكذلك الغزالي (ت 505 هـ) فقد نحى منحى ابن حنبل، فقال: "إذا سمع لفظ الفوق في قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)¹⁰²¹، وفي قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)¹⁰²²، فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين: أحدهما نسبة جسم إلى جسم بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل، يعني أن الأعلى من جانب رأس الأسفل، وقد يطلق لفوقية الرتبة، وبهذا المعنى يقال: الخليفة فوق السلطان، والسلطان فوق الوزير، وكما يقال العلم فوق العمل، والأول يستدعي جسماً ينسب إلى جسم، والثاني لا يستدعيه. فليعتقد المؤمن قطعاً أن الأول غير مراد، وأنه على الله تعالى محال، فإنه من لوازم الأجسام أو

¹⁰¹⁹ سورة النحل: الآية 50.

¹⁰²⁰ طبقات الحنابلة - أبي يعلى ج 2 ص 298.

¹⁰²¹ سورة الأنعام: الآية 18.

¹⁰²² سورة النحل: الآية 50.

لوازم أعراض الأجسام، وإذا عرف نفي هذا المحال فلا عليه أن يعرف أنه لماذا أطلق وماذا أريد؟ فقس على ما ذكرناه ما لم نذكره¹⁰²³.

وفي إثبات أن القرينة اللفظية تمنع إرادة المعنى الظاهر، قال الفخر الرازي (ت 606 هـ): "... الفرع الرابع [في تعاريف مذهب السلف]: أنه كما لا يجوز الجمع بين متفرق، فكذلك لا يجوز التفرق بين مجتمع، فقول تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)¹⁰²⁴ لا يدل على جواز أن يقال: أنه تعالى فوق لأنه لما ذكر (القاهر) قبله ظهر أن المراد بهذه الفوقية: الفوقية بمعنى القهر لا بمعنى الجهة، بل لا يجوز أن يقال وهو القاهر فوق غيره بل ينبغي أن يقال فوق عباده، لأن ذكر العبودية عند وصف الله تعالى بالفوقية يدل على أن المراد من تلك الفوقية فوقية السيادة والإلهية...

واعلم أن الله تعالى لم يذكر لفظ المتشابهات إلا وقرن بها قرينة تدل على زوال الوهم الباطل، مثاله: أنه تعالى قال: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...)¹⁰²⁵ ذكر بعده آية قرآنية فأضاف النور إلى نفسه، ولو كان تعالى نفس النور لما أضاف النور إلى نفسه، لأن إضافة الشيء إلى نفسه ممتعة. ولما قال تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)¹⁰²⁶ ذكر قبله

¹⁰²³ إجماع العوام - الغزالي ص 9.

¹⁰²⁴ سورة الأنعام: الآية 18.

¹⁰²⁵ سورة النور: الآية 35.

¹⁰²⁶ سورة طه: الآية 5.

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى)¹⁰²⁷ ... وبعده (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)¹⁰²⁸ فقد ذكر أن هاتين الآيتين تدل على أن كل ما كان مختصاً بجهة الفوقية مخلوق محدث¹⁰²⁹.

الآيات الرئيسية في التجسيم: والآيات التي أُستدل بها على إثبات الجسم والهيئة للخالق تعالى عن ذلك، هي:
1 - قوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)¹⁰³⁰، ويراد منه جدّة الأمر وحدّته، فمن قام بعمل وهو جاد كشف عن ساقه أو شمّر عن ثوبه. وفي اللغة: شمّر للأمر: أراحه وتهايا له بجد.

وفي تفسير ابن كثير: "قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) قال: شدة الأمر. وقال ابن عباس: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) قال: شدة الأمر وجدّه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) هو الأمر الشديد المفضع من الهول يوم القيامة¹⁰³¹.

¹⁰²⁷ سورة طه: الآية 4.

¹⁰²⁸ سورة طه: الآية 6.

¹⁰²⁹ أساس التقديس - الفخر الرازي ص 188 - 189.

¹⁰³⁰ سورة القلم: الآية 42.

¹⁰³¹ تفسير ابن كثير ج 8 ص 199.

لكن ابن كثير في نفس تفسير الآية يذكر الرواية التالية التي تدلُّ على التجسيم: "وقد قال البخاري هاهنا: حدثنا آدم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي (ص) يقول: يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً"¹⁰³².

2 - قوله تعالى: (وَيَبْقَى وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)¹⁰³³. وقد أطنب الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ووصل الى نتيجة مفادها أن وجه ربك هي ذات الله¹⁰³⁴. قال: "الوجه يطلق على الذات، والمجسم يحمل الوجه على العضو، وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن؛ لأن قوله تعالى: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)¹⁰³⁵، يدل على أنه لا يبقى إلا وجه الله تعالى، فعلى القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقيقة الله أو غير ذات الله شيء وهو كذلك، وعلى قول المجسم يلزم أن لا تبقى يده التي أثبتتها ورجله التي قال بها، لا يقال: فعلى قولكم أيضا يلزم أن لا يبقى علم الله ولا قدرة الله، لأن الوجه جعلتموه ذاتاً، والذات غير الصفات فإذا قلت: كل شيء هالك إلا حقيقة الله، خرجت الصفات عنها، فيكون قولكم نفياً للصفات.

¹⁰³² تفسير ابن كثير ج 8 ص 199.

¹⁰³³ سورة الرحمن: الآية 27.

¹⁰³⁴ التفسير الكبير ج 7 ص 494.

¹⁰³⁵ سورة القصص: الآية 88.

نقول: الجواب عنه بالعقل والنقل¹⁰³⁶. وإستدلّاه في غاية الضعف، فهو أراد أن يبرهن بأن وجه الله تعالى هو ذاته! بدليل مزعوم أننا نعرف ذات الإنسان من معرفة وجهه!

بينما التفسير الصحيح هو ما نُقل عن الإمام الباقر (ع) عندما سأل عن: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)¹⁰³⁷، قال (ع): (الله أعظم من أن يوصف، ولكن معناها كلُّ شيء هالكٌ إلا دينه...)¹⁰³⁸.

3 - قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)¹⁰³⁹، وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...)¹⁰⁴⁰، وقوله تعالى: (...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...)¹⁰⁴¹، والإستواء على العرش يعني التدبير، فبعد أن خلق الخلق قام بتدبير أمورهم كما تشير الآية التالية: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ...)¹⁰⁴².

¹⁰³⁶ التفسير الكبير ج 7 ص 494.

¹⁰³⁷ سورة القصص: الآية 88.

¹⁰³⁸ الدعاء الساكنة ج 7 ص 154.

¹⁰³⁹ سورة طه: الآية 5.

¹⁰⁴⁰ سورة الأعراف: الآية 54، وسورة يونس: الآية 3، وسورة الرعد: الآية 2، وسورة

الفرقان: الآية 59، وسورة السجدة: الآية 4، وسورة الحديد: الآية 4.

¹⁰⁴¹ سورة البقرة: الآية 255.

¹⁰⁴² سورة يونس: الآية 3.

قالت المجيئة: "أصل الإستواء على العرش: ثابت بالكتاب والسنة واتفق سلف الأمة وأئمة السنة، بل هو ثابت في كل كتاب أنزل، على كل نبي أرسل"¹⁰⁴³. وبذلك "تؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، إستواءً حقيقياً يليق بجلاله سبحانه، ليس كإستواء البشر، ولكن كيفية الإستواء مجهولة بالنسبة لنا، ولذا، فإننا نفوض كيفيته إلى الله، كما قال الإمام مالك وغيره لما سُئل عن الإستواء: الإستواء معلوم، والكيفية مجهولة"¹⁰⁴⁴.

"وأما قولك: كيف استوى، فإن الله لا يجري عليه (كيف)، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش، ولم يخبرنا كيف ذلك، ولم تره العيون في الدنيا فتصفه بما رأته، وحرّم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون، فأمنوا بخبره عن الإستواء، ثم ردوا علم (كيف استوى) إلى الله"¹⁰⁴⁵. ونفوا أن يكون معنى الإستواء بمعنى الإستيلاء.

وبخصوص آية (...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...) ¹⁰⁴⁶ قال الطبراني: "عن ابن عباس قال: الكرسي موضع قدميه، والعرش لا يُقدَّرُ قدره. وقال الحاكم عقبه: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"¹⁰⁴⁷.

¹⁰⁴³ مجموعة الفتاوى ج 2 ص 188.

¹⁰⁴⁴ مجموعة الفتاوى ج 3 ص 25.

¹⁰⁴⁵ درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية ج 6 ص 118.

¹⁰⁴⁶ سورة البقرة: الآية 255.

¹⁰⁴⁷ المعجم الكبير - الطبراني. حديث رقم 12404. رواه الحاكم رقم 3116.

تعالى الله عن جميع تلك العوارض والحوادث، من ذهابٍ، وحركةٍ،
وإنتقالٍ، وصعودٍ، ونزولٍ، ومجيءٍ، وذهابٍ.

الإمام الباقر (ع) يردُّ: ردَّ الإمام الباقر (ع) على فكرة التجسيم في مواضع
متعددة، وكان رواد مدرسة الرأي يطرحون الفكرة عليه (ع) بمختلف
الأساليب، ومنها:

1 - بخصوص أنه تعالى لا يشغله حيز، يسأله المناظر: ما هو الله؟ يقول
(ع): (الأوحد). كيف هو؟ يجيب (ع): (ملكٌ قادرٌ). أين هو؟ يجيب (ع):
(بالمرصاد). فيقول السائل: ليس عن هذا أسألك! قال الإمام (ع): (ما
أجبتك به هو صفة الحق، فأما غيره فصفة الخلق)¹⁰⁴⁸.

2 - في غضب الله تعالى، قال الباقر (ع) في جوابه عن معنى: (...
وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)¹⁰⁴⁹: (الغضب: العذاب. وإنما يغضب
المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستفزه ويغيّره عن الحال التي هو بها لغيره.
فمن زعم أن الله يغيّره الغضب والرضا، ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة
المخلوق)¹⁰⁵⁰.

¹⁰⁴⁸ التوفيق الرياني ص 166.

¹⁰⁴⁹ سورة طه : الآية 81.

¹⁰⁵⁰ الإحتجاج ج 2 ص 49.

3 - لا يحدّ الله تعالى حدّ زمني، يُسئل: أخبرني عن الله عزّوجلّ متى كان؟ قال (ع): (متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً)¹⁰⁵¹.

4 - وعندما يسأله السائل: هل رأيت ربك الذي تعبدّه؟ يُجيب (ع): (بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبّه بالناس، موصوفٌ بالآيات، معروفٌ بالدلالات، لا يجور في حكمه ذلك الله لا إله إلا الله)¹⁰⁵².

5 - وفي وصف الله تعالى قال الإمام الباقر (ع): (أن الله عزّوجلّ لا يوصف، وكيف يوصف وقد قال في كتابه: (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)¹⁰⁵³، فلا يوصف بقدرة إلا كان أعظم من ذلك)¹⁰⁵⁴.

6 - وفي صفة القديم، قال الباقر (ع): (أنه واحدٌ صمدٌ أحدي المعنى، ليس بمعاني كثيرة مختلفة). قلتُ: جعلتُ فداك يزعم قومٌ من أهل العراق أنه يسمع بغير الذي يبصر، ويبصر بغير الذي يسمع؟ قال (ع): (كذبوا، وألحدوا، وشبّهوا تعالى الله عن ذلك، إنه سميعٌ بصيرٌ، يسمع بما يبصر، ويبصر بما يسمع). قلتُ: يزعمون أنه بصير على ما يعقلونه؟ قال (ع): (تعالى الله إنما يعقل ما كان بصفة المخلوق، وليس الله كذلك)¹⁰⁵⁵.

¹⁰⁵¹ الإحتجاج ج 2 ص 48.

¹⁰⁵² المصدر السابق.

¹⁰⁵³ سورة الحج: الآية 74.

¹⁰⁵⁴ التوحيد ص 127.

¹⁰⁵⁵ الكافي ج 1 ص 108.

7 - عن محمد بن مسلم، قال: سألت أبا جعفر (ع) عما يروون أن الله خلق آدم على صورته؟ فقال (ع): (هي صورة محدثة، مخلوقة، اصطفأها الله واختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه، كما أضاف الكعبة إلى نفسه، والروح إلى نفسه، فقال: بيتي، ونفختُ فيه من روعي)¹⁰⁵⁶.

8 - عن الباقر (ع): (قال رسول الله (ص) في بعض خطبه: الحمد لله الذي كان في أوليته وحدانياً، وفي أزليته متعظماً بالألهمية، متكبراً بكبريائه وجبروته، ابتداءً ما ابتدع، وأنشأ ما خلق، على غير مثال كان سبق، بشيءٍ مما خلق، ربنا القديم بلطف ربوبيته وبعلم خبره فتق، وبأحكام قدرته خلق جميع ما خلق، وبنور الإصباح فلق، فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه، ولا معقب لحكمه، ولا رادّ لأمره، ولا مستزاح عن دعوته، ولا زوال لملكه، ولا إنقطاع لمدته، وهو الكينون أولاً، والديموم أبداً.

المحتجب بنوره دون خلقه في الأفق الطامح، والعزّ الشامخ، والملك الباذخ، فوق كلّ شيءٍ علا، ومن كلّ شيءٍ دنا، فتجلّى لخلقه من غير أن يكون يُرى، وهو بالمنظر الأعلى. فأحبّ الإختصاص بالتوحيد، إذ أحتجب بنوره، وسما في علوه، واستتر عن خلقه، وبعث إليهم الرسل لتكون له الحجة البالغة على خلقه، ويكون رسله إليهم شهداء عليهم، وابتعث فيهم النبيين مبشرين ومنذرين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن

¹⁰⁵⁶ الكافي ج 1 ص 134.

بَيِّنَةٌ، وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيته بعد ما أنكروا، ويوحّدوه بالألّهيّة بعد ما عضدوا)¹⁰⁵⁷.

البديل

عندما نفى الإمام (ع) الغلو والإرجاء والجبر والتفويض والتشبيه والتجسيم، عرض مقومات التوحيد، عبر الأفكار التالية:

1 - بخلاف تصور البشر: عندما سئل السائل: أتوهم شيئاً؟ [كأنه أراد أن يقول أنه يتوهم رؤية الله عزوجل] فقال (ع): (غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء، ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل، وخلاف ما يتصور في الأوهام؟ إنما يتوهم شيء غير معقول ولا محدود)¹⁰⁵⁸، (أن الله تبارك وتعالى خلّو من خلقه، وخلقه خلّو منه، وكلّ ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله عزوجلّ فهو مخلوق، والله تعالى خالق كل شيء)¹⁰⁵⁹.

2 - ليس لكونه كيف: عن أبي بصير، قال: جاء رجلٌ إلى الإمام الباقر (ع) فقال له: أخبرني عن ربك متى كان؟ فقال (ع): (ويلك إنما يُقال لشيء لم يكن: متى كان. إن ربي تبارك وتعالى كان، ولم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون، كيف ولا كان له أين، ولا كان

¹⁰⁵⁷ التوحيد ص 44.

¹⁰⁵⁸ الكافي ج 1 ص 82.

¹⁰⁵⁹ التوحيد ص 105.

في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعدما كَوّن الأشياء، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً.

ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً مذكوراً، ولا كان خلواً من الملك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلواً بعد ذهابه. لم يزل حياً بلا حياة، وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً، وملكاً جباراً بعد إنشائه للكون. فليس لكونه كيف، ولا له أين، ولا له حدٌّ، ولا يعرف بشيء يشبهه، ولا يهرم لطول البقاء، ولا يصعق لشيء، بل لخوفه تصعق الأشياء كلها، كان حياً بلا حياة حادثة، ولا كَوّن موصوفٌ، ولا كيفٌ محدودٌ، ولا أينٌ موقوفٌ عليه، ولا مكانٌ جاور شيئاً.

بل حيٌّ يُعرف، وملكٌ لم تنزل له القدرة والملك، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئة، لا يحدّ ولا يُبعض ولا يفنى، كان أولاً بلا كيف، ويكون آخراً بلا أين، وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه، له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ويلك أيها السائل إن ربي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يحار، ولا يجاوزه شيء، ولا تنزل به الأحداث، ولا يُسأل عن شيء، ولا يندم على شيء، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، وما بينهما وما تحت الثرى¹⁰⁶⁰.

3 - ليس كمثله شيء: قال (ع) لجابر بن يزيد: (... إن الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيهه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلّ عن أوهام

¹⁰⁶⁰ الكافي ج 1 ص 88.

المتوهمين، واحتجب عن أعين الناظرين، لا يزول مع الزائلين، ولا يأفل مع الأفلين، ليس كمثله شيء، هو السميع العليم¹⁰⁶¹، (كان الله ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما كَوّن، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد ما كَوّنه)¹⁰⁶².

4 - الذي لا يعدله شيء: عن زرارة قلت للباقر (ع): فطرة الله التي فطر الناس عليها؟ قال (ع): (التوحيد)¹⁰⁶³، (ليس على الناس أن يعلموا حتى يكون الله هو المعلم لهم، فإذا علمهم فعليهم أن يعلموا)¹⁰⁶⁴، (ما من شيء أعظم من شهادة أن لا إله إلا الله، لأن الله لم يعدله شيء، ولا يشركه في الأمور أحد)¹⁰⁶⁵.

5 - الواحد الصمد: (أن الله تباركت أسماؤه التي يدعى بها، وتعالى في علوّ كنهه أحد، توحد بالتوحيد في توحدّه ثم أجراه على خلقه، فهو أحد صمد، قدّوس يعبدّه كل شيء ويصمد إليه، وفوق الذي عيننا تبلغ، وسع كلّ شيء علماً)¹⁰⁶⁶.

¹⁰⁶¹ التوحيد ص 179.

¹⁰⁶² التوحيد ص 145.

¹⁰⁶³ أمالي الشيخ الطوسي ج 2 ص 274.

¹⁰⁶⁴ المحاسن ص 200.

¹⁰⁶⁵ المحاسن ص 30.

¹⁰⁶⁶ المحاسن ص 241.

6 - الذي كان ولا شيء قبله أو بعده: (أن الله تبارك وتعالى كان، وليس شيء غيره، نوراً لا ظلام فيه، وصدقاً لا كذب فيه، وعلماً لا جهل فيه، وحياءً لا موت فيه، وكذلك هو اليوم، وكذلك لا يزال أبداً)¹⁰⁶⁷.

7 - إبطال الشك في قدرة الله تعالى: (العجب كلّ العجب للشّاك في قدرة الله وهو يرى خلق الله، والعجب كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، والعجب كلّ العجب للمصدّق بدار الخلود وهو يعمل لدار الغرور، والعجب كلّ العجب للمختال الفخور الذي خُلق من نطفة ثم يصير جيفة، وهو فيما بين ذلك لا يدري كيف يصنع)¹⁰⁶⁸.

8 - وجّه من وجوه تفسير الصمد: في الرواية أن وفداً من أهل فلسطين قدّم على الإمام الباقر (ع) فسألوه عن مسائل فأجابهم، ثم سألوه عن الصمد، فقال (ع): (تفسيره فيه. الصمد خمسة أحرف:

فالألف دليل على أنيته وهو قوله عزّوجلّ: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)¹⁰⁶⁹، وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس.

واللام دليل على إلهيته بأنه هو الله.

والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان، ولا يقعان في السمع، ويظهران في الكتابة دليلاً على أن إلهيته بلطفه خافية لا تدرك

¹⁰⁶⁷ المحاسن ص 242.

¹⁰⁶⁸ المصدر السابق.

¹⁰⁶⁹ سورة آل عمران: الآية 18.

بالحواس، ولا تقع في لسان واصف، ولا أذن سامع. لأن تفسير الإله هو الذي أله الخلق عن درك ماهيته وكيفيته بحسّ أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواس، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة، دليل على أن الله سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبدٌ إلى نفسه لم يرَ روحه كما أن لام الصمد لا تتبين، ولا تدخل في حاسة من الحواس الخمس. فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف، فمتى تفكّر العبد في ماهية البارئ وكيفيته أله فيه وتحير ولم تحط فكرته بشيء يتصور له. لأنه عزّوجلّ خالق الصور، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عزّوجلّ خالقهم ومركّب أرواحهم في أجسادهم. وأما الصاد، فدليلٌ على أنه عزّوجلّ صادقٌ وقوله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى إتباع الصدق بالصدق، ووعده بالصدق دار الصدق.

وأما الميم فدليلٌ على ملكه، وأنه الملك الحق، لم يزل ولا يزال، ولا يزول ملكه.

وأما الدال فدليلٌ على دوام ملكه، وأنه عزّوجلّ دائمٌ تعالى عن الكون والزوال، بل هو عزّوجلّ يكوّن الكائنات الذي كان بتكوينه كلّ كائن¹⁰⁷⁰.

ثم قال الإمام الباقر (ع): (الحمد لله الذي منّ علينا ووفقنا لعبادته، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن كفوّاً أحد، وجنبنا

¹⁰⁷⁰ التوحيد ص 92.

عبادة الأوثان، حمداً سرمداً، وشكراً واصباً، وقوله عزّوجلّ: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)¹⁰⁷¹ يقول: لم يلد عزّوجلّ فيكون له ولد يرثه، ولم يولد فيكون له والد يشركه في ربوبيته وملكه، (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)¹⁰⁷²، فيعاونه في سلطانه)¹⁰⁷³.

9 - معنى آخر عن الصمد: وفي مناسبة أخرى، سُئل مالصمد؟ فأجاب (ع) إختصاراً: (السيد المصمود إليه في القليل والكثير)¹⁰⁷⁴.

10 - في صفات الله تعالى: ففي جوابه لمن سأله عن جواز القول بأن الله شيء، قال: (نعم، تخرجه من الحدّين: حدّ التعطيل وحدّ التشبيه)¹⁰⁷⁵، (ياذا الذي كان قبل كل شيء، ثم خلق كل شيء، ثم يبقى كل شيء، وياذا الذي ليس في السموات العلى ولا فوقهنّ، ولا بينهما ولا تحتهنّ إله يعبد غيره)¹⁰⁷⁶، (إن ربي تبارك وتعالى كان لم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع له مكاناً)¹⁰⁷⁷.

¹⁰⁷¹ سورة التوحيد: الآية 3.

¹⁰⁷² سورة التوحيد: الآية 4.

¹⁰⁷³ التوحيد ص 92.

¹⁰⁷⁴ التوحيد ص 94.

¹⁰⁷⁵ الكافي ج 1 ص 85.

¹⁰⁷⁶ بحار الأنوار ج 3 ص 385.

¹⁰⁷⁷ بحار الأنوار ج 3 ص 326.

11 - في العبودية الخالصة لله تعالى: (لو أنّ عبداً عمل عملاً يطلب به وجه الله عزّوجلّ والدار الآخرة، فأدخل فيه رضى أحدٍ من الناس كان مشركاً)¹⁰⁷⁸.

12 - في الإنقطاع إليه: (لا يكون العبدُ عابداً لله حق عبادته، حتى ينقطع عن الخلق كله إليه)¹⁰⁷⁹.

¹⁰⁷⁸ بحار الأنوار ج 69 ص 297.

¹⁰⁷⁹ بحار الأنوار ج 67 ص 211.

الفصل الثامن

النتائج المستخلصة من بحوث الكتاب

الفصل الأول: في أيام الإمام محمد الباقر (ع)

كان استحداث يوم مخصوص من حياة الإمام الباقر (ع) ندرس فيه موضوع واحد كالعبادة أو العلم أو مخاطبة الحاكم، أو الصبر على الابتلاء هو استحداث افتراضي. كنا نحاول فيه فهم الطبيعة العلمية والتعبدية لذلك الإمام الخامس من أئمة أهل البيت (ع). فقد حاولنا حصر نشاطه العلمي والفكري في يومٍ معينٍ حتى نستوعب طبيعة تعامله، في شؤون الإمامة الكبرى، بكيفية نشر العلم، والتعامل مع الناس، وتطبيق أحكام الدين.

يوم الإمام العابد (ع):

الإمام الباقر (ع) هو الإمام العابد الساجد لله تعالى، كانت عبادته نابعة من علمه ومعرفته بالله تعالى. فالعبادة الحقيقية هي الحالة العقلية للإنسان التي تأمره بأن يرقب الخالق عزوجل في جميع تصرفاته. وكانت عبادته (ع) متميزة بصورة استثنائية بالشكل والمضمون. شكلاً كانت قياماً وقعوداً، ركوعاً وسجوداً، صلاةً واجبةً ومستحبةً؛ كانت صلاته متواصلةً حيث يوصلها بالليل والنهار، ويتوجه إلى ربه بكله، وكل شيءٍ في كيانه يدلُّ على خشوعه وذوبانه في حضرة خالقه العظيم. ومضموناً كانت تلك العبادة تتم بأبلغ عبارات التمجيد والشكر لله تعالى، حيث المناجاة البليغة، والوصف الرائع لرب العالمين، رب السموات والأرض، يدعوه بأوصافه الجميلة ليغفر له ذنوبه، ويجدد العهد معه بأن يتوب التوبة النصوح، ويتوسل إليه بحسن تدبيره متمنياً أن يمنَّ عليه

بالرحمة والمغفرة. وكان القرآن المجيد محور عبادته أيضاً، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار. فقد وضع دواء القرآن الكريم على داء قلبه، فأسهر به ليله، وأظماً به نهاره.

ولم تكن عبادته مقتصرة على الصلاة والصيام والدعاء وتلاوة القرآن، بل كان الحج من أعظم أشكال العبادة عنده (ع)، فكان الإمام الباقر (ع) يبدأ رحلة الحج، وهو في قمة الخشوع، يطلب من الله تعالى أن يرزقه الصبر والقوة في عبادته، والحفظ في أهله وماله. وكان الحج عنده وسيلة من وسائل نشر المعرفة الدينية الصحيحة بين الحجيج. وكان وسيلة ثانية من وسائل إشباع الفقراء، وسد حاجاتهم. فما أن ينتهي من أداء مناسك الحج حتى يُطعم الفقير، ويساعد المحتاج، ويتصدق بلحوم الأضاحي عليهم.

إذن كان للحج عند الإمام (ع) وسائل ثلاث: أداء المناسك (وهي العبادة)، والإجابة على أسئلة الحجيج (وهو العلم)، وإطعام الفقراء (وهو التكافل).

يومٌ في بلاغة الإمام (ع) وأدبه:

البلاغة طريقٌ أصيل لإيصال العلم الديني للمخاطبين، وتحريك مشاعرهم نحو الإيمان بالله تعالى، وتنفيذ ما أمرهم به. فالبلاغة هي حسنُ البيان، وقوة التأثير، والمطابقة للمعنى المراد مع فصاحة اللفظ، وحسن السبك. وتعتمد بلاغة الإمام الباقر (ع) على المادة والشكل:

فعلى صعيد المادة، كان كلامه (ع) مادة غنية بالمفاهيم والأفكار السماوية، فهو يتضمن في كل كلمة منه: حكمةً، وأدباً رفيعاً، وفكراً إلزامياً في الأوامر والنواهي.

ومن ذلك قوله (ع) في الحكمة والأدب الرفيع: (عجباً لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار)¹⁰⁸⁰. فهو (ع) يتعجب كيف يحتمي الناس من الطعام مخافة الداء والأذى، ولا يحتمون من الذنوب مخافة العقاب.

وعلى صعيد الشكل، كان (ع) يعتني بالتركيبية الخارجية للأفكار بإستخدام كلمات وإصطلاحات ذات بلاغة وفصاحة تحاكي نداء الإنسان في كل زمان، ومن ذلك قوله (ع) في طبيعة الرجاء المقيد بالحدود الدنيا: (كن لما لا ترجو أرجأ منك لما ترجو، فإن موسى (ع) خرج ليقبس ناراً فرجع نبياً مرسلًا)¹⁰⁸¹. وهو دعوة للمؤمن أن يصمم الرجاء المأمول على أقل المقاييس، فيتوقع الحد الأدنى مما يطمح إليه.

وبلاغة الإمام الباقر (ع) استندت على قاعدة وضوح الألفاظ التي خاطب بها المكلفين بمعانيها الشرعية الحقيقية، حيث تقوم على أساس فطرة الإمام (ع) في تذوق الألفاظ البليغة، وعلى بصيرته النافذة التي تُحكم بناء الأفكار الثابتة التي يطمئن لها العقل والقلب معاً. ومن أجل اكتشاف تلك الجمالية، لا بد من عرضها على أبواب البيان، والمعاني، والبديع.

¹⁰⁸⁰ بحار الأنوار ج 62 ص 269.

¹⁰⁸¹ بحار الأنوار ج 78 ص 188.

ففي البيان، وهو إيراد المعنى الواحد بطرقٍ مختلفةٍ في وضوح الدلالة عليه، نلاحظ قوله (ع): (اللهم إن قلبي يرجوك لسعة رحمتك، ونفسي تخافك لشدة عقابك، فوفقني لما يؤمنني مكرك، ويعافيني من سخطك، واجعلني من أوليائك...) ¹⁰⁸².

وفي المعاني، وهو إيراد معرفة أحوال اللفظ العربي التي يطابق مقتضى حال الخطاب، نقرأ قوله (ع): (سبق العلم، وجفّ القلم، ومضى القضاء، وتم القدر بتحقيق الكتاب، وتصديق الرسل بالسعادة من الله لمن آمن واتقى...) ¹⁰⁸³.

وفي البديع، وهو إيراد وجوه تحسين الكلام، وتطبيقه على مقتضى حال الخطاب ووضوح دلالاته، نقرأ في قوله (ع): (اللهم لك الحمد والشكر، والمنّ والفضل، والطول والنعمة، والعظمة والجبروت، والملك والملكوت، والقهر والفخر، والسؤدد والسلطان، والإمتتان والكرم، والجلال والجبر، والتوحيد والتمجيد) ¹⁰⁸⁴.

وهكذا كانت بلاغة الإمام الباقر (ع) قوة في التعبير العقلي والديني بلغة جميلة فصيحة، بحيث تنتهي بإقناع المخاطب بصحة المدعى. ولا تتم البلاغة إلا عن طريق حسن تركيب الكلمات، وعرض

¹⁰⁸² مصباح المتهدد ص 250.

¹⁰⁸³ تفسير القمي ج 2 ص 210.

¹⁰⁸⁴ بحار الأنوار ج 95 ص 204 - 205.

المفاهيم العقلية، وتفسير المبهمات بطريقة توصل المراد إلى المستمع المتلهف لسماعه.

يومٌ في العلم والصبر العظيم:

جمع الإمام الباقر (ع) بين العلم والاخلاق فعمل بهما معاً، فبالإضافة إلى علمه، كان سلوكه الرفيع مسحة إضافية تزيد من جمال شخصيته (ع) وكمالها. كان أفضل أهل زمانه زهداً وعفةً، فقد أعرض عن الدنيا بعلمٍ ورغبةٍ.

انتعشت بفضل علمه (ع) الحجج والبراهين، وكان بلسماً لجراح أمة محمد (ص) في الفكر والدين، في وقت انتشرت فيه الأفكار الجديدة البعيدة عن الإسلام، لكنه قطع حجة الخصم، وأرجع الفروع إلى أصولها، وأفحم فقهاء عصره، وهزم من ادعى العلم زوراً بحججه واحتجاجاته الفريدة. وإذا اتحد الصبر مع العلم في شخصية الإنسان كان ذلك الإتحاد من أعظم الفضائل. لأن الصبر هو حبس النفس على فعلٍ شيءٍ أو تركه ابتغاءً وجه الله تعالى. وكان ذلك واضحاً في شخصيته (ع) فقد كان صابراً جميع أيام حياته من أيام عاشوراء سنة 61 هـ مع جده الإمام الحسين (ع) إلى آخر لحظة من حياته.

كان الإمام الباقر (ع) صابراً من الطراز الأول. والصبر، عند الفقهاء والمفسرين، على أنواعٍ ثلاثة: صبرٌ على المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية.

فالصبرُ على المصيبة حالة عقلية تجعل الصابر يقبل بقضاء الله تعالى بنفسٍ مطمئنةٍ، ومن ذلك صبر الإمام (ع) عندما مات ابنه الصبي عبد الله، وكان يحبه حباً جماً، فصبر على ذلك، وقال: (إنا ندعو الله فيما يحب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يحب)¹⁰⁸⁵.

والصبر على الطاعة، وهي حالة عقلية تجعل الصابر يتحمل كل المصاعب من أجل طاعة الله تعالى، كالصلاة المستحبة في الليل الطويل حيث تهجع الناس وتأوي إلى فراشها، فكان الإمام (ع) يقضي ليله بالركوع والسجود، والدعاء والمناجاة، والناس حوله نيام.

والصبر عن المعصية، وهي حالة عقلية تجعل الصابر يتحمل مشاق الطاعة، كما في صيام يومٍ قانضٍ من شهر رمضان مثلاً. في كل ذلك كان صبر الإمام (ع) حالة ذهنية في الطاعة التامة لله تعالى، بل كان منهج حياة وميزة روحية وعقلية تلازم حياته في كل لحظة.

الفصل الثاني: تركيبية العلم عند الإمام (ع)

وطالما كان الإسلام خاتم الديانات السماوية، كان لابد أن يكون له إطارٌ علميٌّ محكمٌ على صعيد الأحكام والأخلاق، بحيث تكتمل فيه حاجات البشرية إلى يوم القيامة. ولعل أهم قضايا تركيبية العلم هي: آليات المعرفة، والخصائص العلمية والشخصية، وارتباط العلم بالتضحية، ونفي المعصية.

¹⁰⁸⁵ تاريخ مدينة دمشق ج 51 ص 52.

آليات المعرفة: للمعرفة آليات يستخدمها الإمام (ع) في بث العلم الشرعي، وهي:

1- الشمولية: وهي الشمولية في الموضوع، أو المعرفة التفصيلية بدقائق كل جزئية في قضايا الرسالة السماوية من عقائد، وأحكام شرعية، وأخلاق. وتلك المسؤولية في إظهار الحكم يورث إطمئناناً و يقيناً بصحة المنبع الفقهي والعقائدي الذي أُخذَ منه الحكم الشرعي.

2- طبيعة الإيصال: وهي إيصال العلم إلى المخاطبين بطريقة دقيقة متقنة. فلا بد للعلم الواقعي من الوصول إلى المكلفين جميعاً بأسلوب يبين أن المخاطب متمكّن من الموضوع، وهدفه إيصال تلك المادة بلغة واضحة مفهومة، لا مجاز فيها ولا غموض، حتى يستطيع المكلف أن يعمل بها وهو مطمئن إلى صحة فهمه لذلك الحكم.

3- فهم العلة: وفهم العلة الموضوعية هو إدراك علل الأحكام إدراكاً واقعياً حقيقياً. وإذا تم ذلك، كان الرد على جميع الإشكالات والشبهات التي ترد حول تلك الأحكام والعقائد رداً محكماً تاماً.

الإمام الباقر (ع): الخصائص العلمية

وفي علم الإمام الباقر (ع) خصائص مهمة هي:

1- أنه حقيقة صادقة: أي أن علمه (ع) ليس محاكاة لفكر استاذ آخر، ولا إقتباس لمفكر أو فيلسوف، وليس من المعارف التي تخضع للتجربة فإذا نجحت أخذنا بها، وإذا فشلت تركناها. بل هي حقائق صادقة صادرة عن رسول الله (ص) عن الوحي من الله تعالى.

وبذلك ينبغي أن تكون المعرفة الدينية معرفة يقينية قطعية صادرة ابتداءً من مصدر موثوق غاية الوثوق، وهو كتاب الله تعالى والحديث الصحيح عن رسول الله (ص).

2- له تبرير عقلائي: فهو ليس من باب الوهم أو الأسطورة. ومعنى ذلك أن الأحكام الشرعية والعقائد الصحيحة تتطابق يقيناً مع المنطق السليم. فقد خلق الله تعالى العقل وجعله أداة للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ. وأغلب الأحكام التي جاءت بها الشريعة مفهومة لدى أغلب الناس، وهي متطابقة مع العقل السليم والمنطق. أما الشك فقد حاربه الإسلام على صعيد العقيدة، والعبادة، ووضع ضوابطاً للتعامل معه. لأن الشك آفة العقل التي تزعزع إيمان الإنسان وتنزع منه اطمئنانه العقلي.

3- فيه مَعْلَمٌ من معالم الإيمان: لم يكن علمُ الإمام (ع) خارج إطار معاني الإيمان أبداً، بل كان هدفه من العلم والتعليم، ونشر المعرفة والتبليغ هو دفع الإنسان نحو طريق الفضيلة في معرفة ربه وطاعته، وعبادته آناء الليل، وأطراف النهار.

وطالما اختار الإنسان أداء العبادة وانجاز التكليف، بسبب امتلاكه ملكة العقل وما ترتب عليها من إيقاظ النفس اللوامة التي تدعوه للعمل، كانت النتيجة أنه سيواجه حساباً، ثواباً كان أو عقاباً. فكانت الجنة للمطيعين العابدين، والنار للعصاة المتمردين، كما أعلمنا الله تعالى وحذرنا.

4- ليست علماً تجزيئياً: فلا يمكن أن يكون علمُ الإمام (ع) علماً تجزيئياً، أي أنه يعلم في شيء ولا يعلم في شيء آخر. فلا بد أن يكون علمه (ع) علماً شمولياً تاماً في جميع ما يتعلق بالدين من أمور، وتلك من أهم

خصائص الإمامة الشرعية الحقّة. وإذا كان أهل البيت (ع) الحجة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض¹⁰⁸⁶، كما أشار الإمام الباقر (ع)، فلا بد أن تكون علومهم (ع) علوماً تامّةً كاملةً، وليست علوماً تجزئيةً تخصصيةً في أمر دون آخر.

الإمام الباقر (ع): الخصائص الشخصية

وهي مجموعة من الخصائص التي تجعله (ع) أفضل الناس في زمانه، فبناءً الإمامة مكوّن من أربعة أسس:

1- الحكم العقلي بأن الإمام الباقر (ع) أفضل الناس في زمانه، وهذا الحكم يستند على تقييم شخصي من قبل مجموعة كبيرة من العقلاء. ومن خلال دراسة صفاته العلمية (ع) من زاوية العين الاجتماعية يتبين لنا أنه حاز الأفضلية في العلم، والطاعة، والعبادة، والاخلاق، والتقوى من قبل مَنْ عاصروه، بل ومن قبل من جاءوا من بعده.

2- في كونه الأفضل يعني أنه أفضل الناس طول حياته، ولو نازعه شخص آخر في مقامه، سقط المنازع، وبقي الأصل في موضعه الصحيح. وهذا هو واقع الأمر، فقد كان الإمام الباقر (ع) الأفضل طول حياته، وسقط المنازعون وبقي الأصل في موضعه. ناظرهم الإمام (ع) وكشف عدم صحة معتقداتهم، وبقي الإمام الباقر (ع) الأفضل في الفكر والسلوك.

¹⁰⁸⁶ شرح أصول الكافي ج 5 ص 171.

3- كان للناس في زمنه خيارات عديدة يختارون منها من هو الأفضل في الإمامة الكبرى. بمعنى أن الإكراه لم يلعب دوراً في الإختيار. فقد كان زمانه مزدحماً بالعديد من علماء مدرسة الحديث والرأي والعقائد. ولكن الناس من الموالين وغيرهم اختارت الإمام الباقر (ع) لأنه امتلك المؤهلات الشرعية لتلك الإمامة الكبرى المنصوص عليها من قبل رسول الله (ص).
4- أن يقترن سلوك الأفضل بالكمال بكل ما للكلمة من معانٍ على مستوى العلم، والتقوى، والأخلاق، وطاعة الله عزوجل، فلا يمكن أن يكون متقياً لكنه عاجزٌ في العلم، ولا يمكن أن يكون عالماً لكنه فضّ قاسي الطباع. بل لابد أن يجمع كل معاني الفضيلة في العلم والتقوى والاخلاق والطاعة. جمع الإمام الباقر (ع) كل تلك الصفات، واقتدى بجدّه رسول الله (ص).

ارتباط العلم بالتضحية:

ارتبط علم الإمام الباقر (ع) دائماً بالتضحية، فحصة أهل البيت (ع) من التضحية والمعاناة والقتل أكبر من حصة أي إنسان آخر، وتلك منزلةً وكرامةً من الله تعالى لهم (ع). لم لا وهو القائل في شرح طبيعة معاناة أهل البيت (ع): إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل، كان يُذبح أبناؤهم وتُستحيا نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا¹⁰⁸⁷. وكان (ع) ينبه أصحابه ومحبيه بصعوبة الطريق في محبة آل البيت (ع)، فيقول: اتخذوا للبلاء جلباباً، فوالله أنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا

¹⁰⁸⁷ بحار الأنوار ج 46 ص 360.

من السيل إلى الوادي¹⁰⁸⁸. ثم يبين كيفية مقتلهم (ع)، فيقول: إن الله تبارك وتعالى قد كان قدّر ذلك عليهم، وقضاه، وأمضاه، وحتمه على سبيل الإختيار، ثم أجراه، وما كان ذلك الذي أصابهم لذنّبِ اقترفوه، ولا لعقوبة معصية خالفوا بها الله فيها، ولكن لمنازل، وكرامة من الله أراد أن يبلغوها¹⁰⁸⁹. بمعنى أن قضاء الله جرى عليهم في المصائب والمصاعب التي ابتلوا بها لمنازل وكرامة من الله تعالى لهم، لا لذنّبِ اقترفوه.

كان علم أهل البيت (ع) مرتبطاً بتضحيتهم الفريدة في النفس والمال والولد، ولا يمكن فصل العلم الآلهي عن التضحية الجسدية والنفسية. فالتضحية تصقل علم الإنسان، وتجعله أقرب إلى جوهر الطينة التي خلق منها، والسمو الذي جُبلَ عليه.

التكامل العلمي ونفي المعصية:

وإذا كان العالمُ مرتكباً للمعاصي كان علمه باهتاً ناقصاً لا يرقى إلى مستوى الفضيلة، ولا يكون ملزماً لبقية الناس. فالحياة العلمية للعالم تتكامل عندما تزول المعصية تماماً من قائمة اهتماماته. ومعصية الله تعالى تخرب أساس الدين، لأن الإرتقاء في الدين مبني على عدم مخالفة الخالق عزوجل فيما يخص الرغبات الجسدية الفانية، وعدم مخالفته فيما يخص الألوهية والعبودية.

¹⁰⁸⁸ المصدر السابق.

¹⁰⁸⁹ الكافي ج 1 ص 262.

والمستفاد من الروايات العديدة أن الله عزوجل اصطفى تلك المجموعة من الأطهار الذين رَوّضوا أنفسهم على عدم ارتكاب المعصية، فهم معصومون، مطهرون، لا يذنبون، وقد قال تعالى بشأن الأنبياء (ع): (... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...) ¹⁰⁹⁰، (... قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ¹⁰⁹¹، وبشأنهم (ع): (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ¹⁰⁹².

الصفات المذهبية لأهل البيت (ع):

يصفهم الإمام الباقر (ع) بأنهم ولاة الأمر الذين أوصى بطاعتهم القرآن الكريم، وهم خزان وحي الله الأمناء، وورثة الكتاب السماوي بعلمه، وهم الذين اصطفاهم الله لحفظ الوحي ورسالة السماء. هؤلاء الأخيار (ع) جعلهم الله دليل الأمة على الصراط، فهم نور الله في عقول المؤمنين وقلوبهم، وهم الأمان عندما يلتمسهم المقصرون، بل هم أمان لكل من تمسك بهم، لأنهم يدعون إلى الله، وبأمره يعملون، ويكتابه يحكمون.

وصفاتٌ بذلك الطراز وتلك القوة والرفعة لا بد وأن تكون قريبة مما أراد الله لهم، لذلك قال (ع): من وفى بعهدنا وفى بعهد الله، بمعنى إننا

¹⁰⁹⁰ سورة البقرة: الآية 124.

¹⁰⁹¹ سورة البقرة: الآية 124.

¹⁰⁹² سورة الأحزاب: الآية 33.

سحقنا ذواتنا من أجل الله، فنحن ندعو الله، وما أعطانا من علمٍ نستخدمه لله، فليس لنا مصلحة في هذه الدنيا إلا خدمة الله تعالى، وحفظ رسالته، وتبليغ ما علمنا الله به إلى الناس. فمن اتبع طريقنا في خدمة الله فقد وفى بعهد الله المبرم بينه تعالى وبين خلقه.

يصف الإمام الباقر (ع) أهل البيت (ع) بأنهم الميزان العقلي في الأمة الذي يضبط صحة الدين بعد رسول الله (ص). فالناس، خصوصاً أهل الفلسفة والفكر، يحبون أن يزيّدوا أو ينقصوا في الدين بما يلائم رغباتهم ومصالحهم. فيكون دور الإمام (ع) من أهل البيت (ع) أن يضبط ذلك بأن يدين الإنحراف أو الزيادة، ويتمم النقص. أي أن يُرجع الأصل إلى أصله، ويمنع الزيادة أو النقصان في شريعة سيد المرسلين (ص).

الفصل الثالث: المدرسة الإجتماعية عند الإمام (ع)

المدرسة الإجتماعية الإسلامية مدرسة فاضلة هدفها صياغة الإنسان الكريم، الرحيم، المهتم بأمر الناس. هي مدرسة تُعلم الناس قمة الأخلاق الإنسانية، وتذكّهم بالحياة والموت، وتهذب سلوكهم، وتدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وتقلل المنافسة الدنيوية في كسب المال بينهم، وتقوي المنافسة الأخلاقية التي تساهم في كفالة المحرومين من الناس.

مخاطبة الناس:

اهتم الإمام الباقر (ع) ببناء الإنسان من الناحية الدينية والاجتماعية، فالإنسان الفاضل العالم ذو الأخلاق الراقية هو أقرب إلى الله تعالى من الإنسان الجاهل. ولذلك كان الإمام (ع) يخاطب الناس ويتحدث إليهم وجهاً لوجه، محاولاً التأثير على قلوبهم وعقولهم عن طريق نقل الأفكار والكلمات، وإيصال الأوامر والنواهي الواردة في رسالة الدين. ولاشك أن للخطاب مستويات تتناسب فكراً وعمقاً مع المخاطب، فربما وجّه الخطاب إلى عموم الناس عبر وعظهم وإرشادهم، وربما وجّه الخطاب إلى الأعداء لهديتهم إلى طريق الخير، وربما وجّه الخطاب إلى الأمة اللاهية التي تحتاج إلى تذكرة أكثر من غيرها.

كان الإمام (ع) يذكر الناس بطبيعة الحياة والموت، ويحذرهم من أنهم عرضة لسهام الموت، فعليهم تجهيز أنفسهم لتلك اللحظة الفاصلة، ومحاسبة أنفسهم. وكان يفترض أن الدنيا شجرة أصولها أبائنا وأجدادنا، ونحن فروعها. فقد ذهب الأصل وهم أبائنا وأجدادنا وماتوا، وبقينا نحن ننتظر دورنا في الرحيل.

ولاشك أن وظيفة الإمام من أهل البيت (ع) يتلخص في دعوة الناس إلى طريق الهداية، وإبعادهم عن طريق الضلالة، وشرح معاني الإلتزام بكتاب الله تعالى، وحب أهل البيت (ع) وطاعتهم. فإن استجابوا كان ذلك من توفيقهم، وإن رفضوا فقد أدى الإمام (ع) وظيفته في تبليغهم.

الدعوة إلى الوسطية والاعتدال:

كان الأمل عند عترة النبي (ص) معقوداً على أن أمتهم ينبغي أن تكون أمةً متعلمةً، عالمةً عابدةً، ملتزمةً بأهداب الدين، وأخلاقيةً في سلوكها ومنهجها. فمجرد الوصف بكون الأمة توالي هؤلاء الأطهار (ع) لا يكفي هنا، بل لابد من إدماج الوصف بالعمل. أي أن الإنتماء إلى مجتمع أهل البيت (ع) لا يعني مجرد العنوان، بل لابد من طاعة الله وتجنب معاصيه، والتواضع مع الناس، والخشوع لله تعالى، والأمانة التامة في كل مناحي الحياة.

ويعني أيضاً كثرة العبادات من صيام، وصلاة، وتلاوة قرآن، وصدق حديث، وسمو أخلاق في حفظ آداب الجيرة، ومساعدة فقراء وغارمين وأيتام، وكف ألسن عن الغيبة والنميمة. بحيث يتبادر إلى ذهن الإنسان عندما يسمع وجود مؤمنٍ محبٍ لأهل البيت (ع) أن يقول وجدثٌ ضالتي في أخٍ قريبٍ يسمو بي إلى سلّم الإرتقاء، أي أن يكون ذلك السلوك الديني المتكامل متلازماً مع حبهم (ع) وإظهار الولاء لهم.

فلا قرابة بينهم وبين الله عزوجل، ولا يتقرب إليه تعالى إلا بالطاعة له، من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا، كما قال الإمام الباقر (ع) بتلك العبارات الصريحة الواضحة. فلا قيمة للولاء دون تلك الطاعة المشروطة.

يصور الإمام (ع) أيضاً للناس أن الدنيا مثلها مثل الظل تحت أشعة الشمس، فهي ليست حقيقةً أبدية، بل هي عارضٌ سيزول كما يزول ظلُّ الشاخص عندما تختفي الشمس، فعلى الناس أن يبنوا حياتهم على

أساس هذا الفهم، وعليهم أن يتبعوا الأصول في الإيمان بالله الواحد الأحد، وما يتبع ذلك من إلهامات فردية وجماعية.

ولا يستطيع الإنسان اجتياز الحياة الدنيا إلا بطاعة الله تعالى، وبدون تلك الطاعة فلا أمل في عاقبة حسنة. وكما أن الأمل معقود على رحمته تعالى، فإن صحيفة أعمال الإنسان تكون مؤشراً على مصيره، فإما الهلاك الأبدي، وإما الحياة الأبدية والنعيم الذي يلازمها. وفي كل ذلك، فإن الحساب في الآخرة لا يكتمل إلا بتبليغ واضح بين من الله تعالى في الدنيا، حتى لا يحتج الإنسان بعدم علمه بالأمر.

هكذا يريد الإسلام بناء المجتمع عبر الملازمة بين الاعتقاد والعمل، وبين الحب والطاعة، وبين كمالية الاخلاق وتهذيب النفوس. وهذا هو عين الاعتدال في ميزان الحياة الدنيوية.

الإيمان في حديث الإمام الباقر (ع):

كان الإنسان ولا زال محور التكليف السماوي، ومحور الرسالة الدينية على الأرض. وبدون بناء الإنسان المدرك لمضامين الحياة، وطبيعة الواجبات والمحرمات، فإن الرسالة الدينية لا تستطيع أن تؤدي وظيفتها. فقد تناول الإمام (ع) الأمراض الاجتماعية التي تصيب الإنسان، وهي: الظلم، والخيانة، والتكذيب، والمدح، والذم، وقدم لمعالجتها الدواء العملي، وجعل الأصل في ميزان النفس هو عرضها على الأحكام الأخلاقية والتعبدية في القرآن الكريم.

فنظرية الإسلام في تربية الإنسان الموالي مفادها أن الإنسان يجب أن يكون مستقلاً قوياً بعقله، لا تزعزعه آراء الناس أو رغباتهم أو استحساناتهم، بل الأصل أن يعرض نفسه على القرآن المجيد، فإن كان مطبقاً تعاليمه، خائفاً من وعيده، فإنه على خير وإلى خير. وإن كان خلاف ذلك فليصح سلوكه، ويهذب تصرفاته، فإن الولاء لأهل البيت (ع) وحده لا ينفع دون الإلتزام بأوامر الإسلام ونواهيه.

ولا ضير في أن الناس تطمح إلى سعة الرزق، ورغد العيش، إلا أن الإمام الباقر (ع) كان يدعو الناس إلى القناعة بقلة الرزق. فالأصل هنا هو شكر الله على نعمته. وكلما كان الرزق قليلاً كان الأُنسان قادراً على شكر الله على ذلك القليل.

وإذا كان الرزق محدوداً، والحياة شاقة، كان ذلك بوابة أساسية لتربية الإنسان عبر معرفة النفس، فهي المحطة الأولى لمعرفة الله عزوجل، فإذا عرف الإنسان نفسه سهّل عليه معرفة ربه وخالقه. فعن طريق تهذيب النفس الإنسانية نستطيع أن نخالف الهوى، ونعالج مرض القلب، ونتمسك باليقين، ونستصغر الدنيا، ونقصر الأمل، ونقرّ الإنصاف بين الناس. وأول مرحلة في معرفة النفس هو معرفة ما يريده الله تعالى منا. فنحن وفدنا على هذه الأرض بطاقات محدودة كي نعبّد الله سبحانه، ونُحسِن إلى من حولنا، ونتألف فيما بيننا، ثم نغادر هذه الأرض إلى عالمٍ أبديٍّ خالدٍ.

ومن مصاديق تهذيب النفس هو الإلتزام بعدم التسوية، وعدم الغفلة، وعدم التواني في الإلزامات. وفي معالجة الذنوب بشدة الندم على الذنب، وكثرة الاستغفار، وحسن المراجعة. وفي كيفية التعامل مع الدنيا

بإماتة الطمع، واليأس من الدنيا كحلمٍ زائلٍ، وقصر الأمل، واستعجال الفتوة والشباب في العبادات قبل الهرم والشيخوخة.

الأخلاق الإجتماعية الفاضلة:

يعرض الإمام (ع) نظرة الإسلام في الأخلاق الإجتماعية الفاضلة، ويلخصها بهذا الطريق:

1- في صفة المؤمن: أن يكون صادق اللسان، وأن يعفو عن ظلمه بقبول توبته، وأن يكون صاحب الفضل على الناس فيبدأهم بالإحسان، وأن لا يصف عدلاً ثم يخالفه. وتلك صفات شخصية فاضلة تصبُّ لصالح المجتمع الفاضل.

2- وفي صفة العلم يقول (ع) أن العلم ينقل الإنسان من الخشونة إلى الرفق واللين. فالعالم العارف بالله يكون حليماً، لين العريكة، رفيقاً تطمئن له القلوب.

3- وأن يشتغل الإنسان بعيوبه الداخلية فيصحها قبل أن ينظر إلى عيوب الناس وينتقدها. فلا بد للمؤمن من أن يشغله الخوف من الله تعالى عن أي خوفٍ آخر، وأن يتواضع لله، ويزهد في الدنيا رغبةً في الله تعالى، وطمعاً في رضوانه.

4- المجتمع الفاضل هو مجتمع النقي، وتجمع الأتقياء الذين لا يعصون الله تعالى، وهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم فشغلهم عن غرور الدنيا. فهم المؤمنون العاملون الزاهدون من أهل العلم والمعرفة، ومن أهل الإعتبار

والإختبار، قليل ما في أيديهم لكنهم أغنياء بالله، قدموا طاعة ربهم على لذاتهم وشهواتهم.

5- أن تكون الدنيا خسيصة صغيرة في عيون الأتقياء، فلا يعصون الله من أجلها، لأن الحياة الدنيا لا تستحق المعصية، بل أن الله تعالى يستحق الطاعة على إطلاقها.

6- الإستغناء عما في أيدي الناس، أي أن لا يسألهم الإنسان مالاً أو جاهاً أو منصباً أو منزلةً، لأن المتقي غني عن ذلك، وغناه نابع من اتصاله بالخالق عزوجل على مستوى الدعاء والتوسل والتفكير.

الكرم والجود من وسائل بناء المجتمع:

وطالما كان الجود من أعظم الوسائل في بناء الإنسان الصالح الكريم الذي يشعر بمعاناة الآخرين والأمهم، فلا عجب أن يكون الإمام الباقر (ع) أكرم الناس في زمانه وأجودهم في العطاء والكرم.

وتعني صفة الكرم عند الإنسان أن يفكر الكريم بالآخرين قبل تفكيره بنفسه. وهو تفكير عقلائي بلحاظ الفضائل والأخلاق الحميدة، وبذلك يناقض الكريم شعور الذات بالأنا، ويخالف إحساسه بالمصلحة الشخصية التي تزين للإنسان نفسه وذاته بعيداً عن الآخرين.

كان لكرم الإمام (ع) وجوده شروطاً، بدونها لا يمكن أن نعدّه كريماً ولا جوداً، منها:

1- طيبة نفس الكريم: فالجود لا يعتبر جوداً أو كريماً ما لم يقترن بطيبة نفس الكريم، فلا يمكن للمحسن أن يكون محسناً بدون الشعور بطيبة النفس

خلال عملية الإعطاء، وإلا أصبحت عملية الإعطاء غصباً من لون ما. فكان الإمام الباقر (ع) يعطي المحتاج وكان يسميه بأحسن اسمائه، ويقول لأهله: لا تقولوا يا سائل خذ هذا، بل قولوا يا عبد الله بورك فيك.

2- أن يكون دافع العطاء هو الله تعالى: ومصادقه الآية الكريمة: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)¹⁰⁹³، على لسان الأظهر من أهل البيت (ع) ممن أطعموا الفقراء وابتوا ليلتهم جياعاً.

3- أن يكون المُعطى له محتاجاً: وإلا فإن الكرم مع الأغنياء، وعمل الولائم لهم، وترك الفقراء من ذوي الحاجة يتضورون جوعاً ليس بكرم، ولا هدفه مرضاة الله، بل غايته دنيا يصيبها البازل.

4- عدم المنّ على الفقير: وهو مصداق قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...)¹⁰⁹⁴. وربما يكون الجود بالكلمة الطيبة أفضل من إعطاء العين بالمن والأذى، كما قال تعالى: (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)¹⁰⁹⁵.

ومع كرمه (ع) كان يعدُّ أفضل زهاد أهل زمانه، فقد أعرض عن الدنيا ولم تُعرض الدنيا عنه (ع)، ولم يتخذ الرياش في داره، وإنما كان يفرش في مجلسه حصيراً، وكان طعامه أبسط الطعام، وفراشه أبسط الفراش

¹⁰⁹³ سورة الإنسان: الآية 9.

¹⁰⁹⁴ سورة البقرة: الآية 264.

¹⁰⁹⁵ سورة البقرة: الآية 263.

واخشنه، وكان أخفّ الناس مؤونةً، ولا يشغله من الدنيا إلا ذكر الله تعالى، وحسن عبادته.

وصفاتٌ كصفات أئمة أهل البيت (ع) في الكرم والجود تبنى المجتمع، وتقرب قلوب الناس إلى بعضهم البعض، فالفقير لا يتبغى بفقره، والمحروم لا يكتوي بالحرمان، والغني يستشعر راحة الضمير. وإمامهم (ع) يعيش معهم معيشة أفقر الفقراء، ويقدم لهم بنفس طيبة كل ما يملك من مالٍ أو متاعٍ.

الفصل الرابع: مباني المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر (ع)

للمدرسة الفقهية أسس مهمة تقوم عليها، وهي:

1- سعة النظام المعرفي: تحولت الروايات العديدة المتناثرة، ووسائل المعرفة كالسؤال والجواب عند الإمام الباقر (ع) إلى نظام علمي معرفي واسع في الفقه الإسلامي. فأصبح لعلم الفقه اصطلاحات تتعامل مع قواعد معالجة الشك، وضرورة اليقين في أداء العمل العبادي، وعدم إشتغال الذمة بعد الفراغ من أداء الواجب، ونحوها.

وأرسى الإمام (ع) حدود النهاية للأفكار العقائدية، فلا يجوز الخوض في ذات الله، بل لا بد أن يقتصر البحث على صفاته عزوجل. وعمل (ع) على الترجمة العملية للتكليف، فقال بالوصف والأداء. وحصر علم القرآن الكريم وتفسيره بالأوصياء من أهل البيت (ع).

2- معاني الزمن: وهو وضع الزمن الثابت المتمثل بالشمس أو القمر، مقياساً لصحة أداء الصلاة والصيام والحج. فكان الإسلام دقيقاً في رصد

الزمن، من خلال وضوح أحكام دخول الوقت، ووجوب الصلاة أو استحبابها، فمحور قياس اليوم هو الشمس بطلوعها، ومغيبها، وانتصافها وقت الزوال (الظهر)، وحساب منتصف الوقت في الليل بين الغروب والشروق، ومحور قياس الشهر هو القمر بولادته واكتماله واختفائه، وأثر ذلك على الصيام، والحج، ومناسبات إسلامية أخرى.

3- علاقات الأحكام الشرعية بعضها ببعض: تبلورت العلاقة الأساسية بين الأحكام الشرعية والعقائدية نتيجة علومه (ع) بفكرة التوازي وعدم الإصطدام فيما بينها. فلا يمكن أن يكون الحكم الشرعي واجباً ومحزماً في نفس الوقت. ولا يمكن أن يجتمع الجبر الألهي مع العقوبة الألهي. والقاعدة أن كل حكم شرعي محدد بزمن معين. وطالما سارت الحياة قُدماً سارت معها الواجبات الشرعية بالتوازي مع مسيرة الحياة. وهكذا الأمر في جميع التكاليف الإسلامية.

4 - تفصيل الأحكام بالوصف والإستدلال: أي أن الإمام الباقر (ع) شرح الأحكام الشرعية بطريقة واضحة مفهومة، ثم تعدى إلى كشف طريقة الإستدلال عليها أيضاً. ومن ذلك مسح الرأس والقدمين في الوضوء، فاستند إلى الآية 6 في سورة المائدة، فذكر الحكم ثم شرحه (ع) على طريقة الإستدلال.

5- محاربة الشك في العبادة والإعتقاد: يعدُّ الشك من أهم عوائق الفكر الديني إن كان في المعتقد أو في العبادة، ذلك لأن عدم اليقين يزعزع الطمأنينة القلبية والعقلية التي أكد عليها الإسلام في أغلب المسائل الفقهية والإعتقادية.

يختلف حكم الشك باختلاف زمنه، فإذا كان خلال وقت العبادة أقتضت الإعادة كي تصح تلك العبادة. أما إذا خرج الوقت وشك الإنسان في عبادة مضي وقتها، فليس عليه إعادتها، لأن الخروج عن زمن العبادة هو خروج من الشك، فإن الشك وقت أداء العمل العبادي له حكم، وللشك بعد إنتهاء زمن العمل العبادي حكم آخر. وفي كلا الحالتين يجب معالجته وإزالة آثاره حتى تصح الفريضة.

تأثير الإفتاء بالرأي:

طالما كان الإفتاء بالرأي هو إفتاءً بعدم يقين، أو بخطأ في المقدمات، إزدادت نسبة الشك في ذلك الحكم المستند على الرأي. تصور أن الرأي الشخصي في الدين مشابهة لإنزال حكم الله إلى مستوى الرأي البشري دون الرجوع إلى الأصول التي شرعها الله تعالى. وإلى ذلك وضع الإمام الباقر (ع)، مستنداً على كتاب الله وسنة نبيه (ص)، طريقاً لمعالجة الإفتاء بالرأي:

1- تحريم فكرة الرأي في الإفتاء، والتوقف فيما لا يعلم الإنسان من دين الله. فمن أفتى بغير علم لحقه وزر من عمل بفتياه.

2- التشديد على فكرة القطع واليقين في إدراك الأحكام، ومن ذلك التأكد من سلسلة الإسناد حتى تصل إلى رسول الله (ص). وقد نقل الإمام (ع) أن كل ما أرسله من أحاديث ينقله مرسلأً عن أبيه (ع)، عن جده (ع)، عن رسول الله (ص)، ولاشك أن هذا التأكيد من الإمام الباقر (ع) يورث القطع واليقين بصحة المتن والإسناد.

3- تشخيص القائلين بالرأي بأسمائهم حتى يتجنب المسلمون فتاويهم التي لا تطابق مباني الشرع، وقد قال (ع): (لو أننا حدثنا برأينا ضللنا كما ضلَّ من كان قبلنا، ولكنَّا حدَّثنا ببَيِّنَةٍ من ربنا بيَّتْها لنبيه (ص)، فبيَّتْها لنا)¹⁰⁹⁶.

خصائص المدرسة الفقهية:

جعل الله سبحانه وتعالى هذا الوجود وما فيه من حياة وحركة مبنيَّ على النظام والدقة، بما فيها الحياة الفقهية والحقوقية. وترجم ذلك في إطار أحكام وعقائد مبنية على نظامٍ علمي يطمئن له القلب والعقل، حتى يُعَبَّد الله بعلمٍ ويقينٍ، وخشوعٍ وخضوعٍ. ومن تلك الخصائص العلمية في المدرسة الفقهية للإمام الباقر (ع):

1- ترتيب العلة: وهو أن يسير التعليل على خطٍ ترتيبيٍّ ضمن إطار الفكرة الشرعية، فإذا كان هناك تراحمٌ بين الإستحباب والوجوب مثلاً، فُدمَ الوجوب على الإستحباب. وإذا دخلت السنَّة على الفريضة، فُدمت الفريضة على السنَّة. فإن الأصل، ويُمثَّل له بالوجوب، لا يتأثر بالفرع الذي يُمثَّل له بالإستحباب.

2- ميزان الحكم على القضايا: يُحكم على صحة القضية من خلال الإطمئنان إلى دقة مصادرها. والأحكام توضع أمام الناس بميزانها الشرعي الصحيح، حيث يتميز الواجب واقعاً عن المتهم أو المُبتدع، وتتميز العبارات الشرعية الدقيقة عن غيرها لغوياً.

¹⁰⁹⁶ إعلام الوری ص 264 - 265.

مثال ذلك: ينفي الإمام (ع) وجوب الوضوء بعد غسل الجنابة، ويعتبره بدعةً وحكماً دخيلاً على الدين. ويستدل على حكم ثانٍ وهو وجوب قصر الصلاة في السفر؛ فعبارة (فلا جُنَاحَ عليه) في هذا الحكم تعني الوجوب.

3- فهم المعاني الفقهية: لا بد من فهم المعاني الفقهية وتمييزها عن المعاني اللغوية، لأنها تختلف أحياناً، ومن ذلك كلمة (الكعب) مثلاً حيث يدخل مسح الكعب في عملية الوضوء، ولذلك يجب معرفة حدوده. يوضح الإمام الباقر (ع) معنى تلك الكلمة في الفقه، ويبيّن عليه الحكم الشرعي.

4- أصالة مصدر المعلومة الفقهية: نعني أنه لا مفرّ من الإطمئنان إلى مصدر الحكم الشرعي. فالإمام الباقر (ع) ينقل أحاديثه مرسلة عن النبي (ص)، وفي ذلك النقل أو الإرسال إطمئنان ويقين إلى أصالة مصدر المعلومة الفقهية أو العقائدية، كما مثّلنا في قضية المسح على الخفين، والوضوء قبل غسل الجنابة، وعدم أكل الطعام الملوّث بميتة، وغير ذلك.

5- الصراحة في العلم الديني: تطرح شتى المواضيع العامة والخاصة، تحت عنوان شامل وهو: لا حياء في تعلم المسائل الشرعية الخاصة أو الاستفهام عنها. فالإمام (ع) يتحدث عن آداب الخلاء، والنظافة الشخصية، والتطهير من النجاسة، والعلاقة بين الرجل والمرأة.

فالصراحة في علوم الدين هي أقرب الطرق لتوصيل المعنى الحقيقي إلى الإنسان المأمور بأداء الواجبات، وترك المحرمات. فاللغة المجازية هنا لا تتماشى مع وضوح الأوامر والنواهي، على عكس أصول العقائد.

المدرسة الفقهية وأهل البيت (ع):

في دراسة الفقه والمدرسة الفقهية تطرح اسئلة حول ماهية أهل البيت (ع)، وطبيعة الإنسان الموالي لهم، وطبيعة التكاليف المنوطة بالناس، فهنا مسائل طُرحت على الإمام الباقر (ع) وأجاب عنها، نعرضها ضمن نقاط:

1- من هم أئمة أهل البيت (ع): هم الأتقياء، المطهرون، الذين لا يذنبون، ولا يعصون الله طرفة عين أبداً، وبسبب طاعتهم المطلقة وتقواهم يستجيب الله لهم بكل ما يسألون من إنزال المطر من السماء، وإخراج بركات الأرض وخيراتها، وبهم يعطي الله العصاة فرصة ثانية للتكفير عن ذنوبهم، لأن هؤلاء الأطهار ينظرون للناس من منظار الرحمة، ويتمنون على العصاة أن يتوبوا حتى ينعموا بمغفرة الله ورضوانه.

ومن صفاتهم (ع) أيضاً: الهداية: حيث ينشرون هدى الله أينما حلّوا. والإطراق: وهو الحياء والتعفف، وعدم النظر إلى ما في أيدي الناس. والإقرار: وهو الاعتراف لمحمد (ص) وآله بالفضل والمنزلة. والعلم الشامل: فهم محيطون بعلم شاملٍ لشؤون رسالته تعالى، خصوصاً علم القرآن الكريم وتفسيره.

2- من نحن الذين أمرنا الله بإتباعهم: أضفى الإمام الباقر (ع) على الموالين المحبين لأهل البيت (ع) أجمل صفات المتقين، فهم الصائمون الذين خمصت بطونهم من الجوع، القائمون بالليل الذين ذبلت شفاههم من كثرة ذكر الله وتسبيحه، الخائفون من الله عزوجل فشحبت ألوانهم، الذين لا

يملكون إلا القليل فيتخذونه فراشاً، لأنهم لا يعيرون للدنيا أهمية ولا يعطونها قيمة فأصبحوا من الفقراء الذين لا يملكون إلا تراب أقدامهم، سيكون كثيراً ويدعون الله كثيراً، أولئك هم شيعة علي (ع)، أولئك هم المؤمنون حقاً، كما قال (ع).

3- طبيعة التكليف التي أمروا أن يوصلوها إلينا: يوضح الإمام الباقر (ع) أن مفتاح الإمامة الكبرى ونجاحها هو طاعة الله تعالى، ثم طاعة رسوله (ص)، ثم طاعة الإمام الواجب الطاعة (ع) من قبل المؤمنين. وبدون تلك الطاعة لا يستطيع الإمام (ع) أن يقوم بدوره في توجيه الأمة وإمامتها.

ثم تأتي بعد ذلك رتبة التكافل الاجتماعي لمجموعة المؤمنين، فالقوي يعين الضعيف بالمال ووسائل الحياة، والغني يساعد الفقير، والعالم ينصح المتعلم، وأن يكون القرآن الكريم محور حياتهم، بحيث يكون هو الأصل في مطابقة الأحاديث التي تتوافد عليهم من كل حذب وصوب، فإن طابقت القرآن أخذوا بها، وإن لم تطابقه تركوها وعملوا بالقرآن المجيد.

4- طبيعة المكلفين في الأخذ بالولاية: يفصل الإمام الباقر (ع) ما بُني عليه الإسلام في العبادات والعقائد وهي: الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والولاية. ويقول (ع) أن أحكام العبادات لها رخصة إذا عجز الإنسان المكلف عن القيام بها، فالمريض يستطيع أن يصلي قاعداً إذا أضره القيام في الصلاة، والزكاة تسقط عن الإنسان إذا لم يكن له مال بل يحق له أن يأخذ الزكاة بدل دفعها، والحج لا يتم إلا بالإستطاعة المالية والجسدية، والصوم لا يتم إلا بالقدرة عليه من الناحية الجسدية. أما العقائد،

فبعد الإقرار بالتوحيد والنبوة تأتي الولاية لأهل البيت (ع)، ولأنها اعتقادٌ قلبي فهي واجبة ولا عذر فيها لأي إنسان بالتخلف عنها.

مميزات المدرسة الفقهية للإمام (ع):

تتميز مدرسة الإمام الباقر (ع) الفقهية بثلاث ميزات:

1- الشمولية: وتعني تكامل المنهج المعرفي وشموله لمختلف نواحي الحياة، بحيث أن تلميذ الإمام الباقر (ع) لا يحتاج إلى أن يذهب إلى مصدر آخر ليستقي معلوماته أو مصادره. فعندما يشرح لهم وضوء رسول الله (ص) فإنه يشرحه لهم شرحاً مفصلاً، دقيقاً، بحيث يكتفي المستمع بما سمعه منه، ويضمن لصحة إسناده، واكتمال مورده.

2- الهدفية: أي هناك هدفاً وتصميماً لهذا النظام العلمي الذي يطرحه الإسلام، وهو أن يكون العابد عالمًا، والعالم عابداً. فأفضل العبادة هي عبادةً لله تعالى بسلوك معرفة المعبود عزوجل.

3- الوسيلة أو الآلية: وهو الطريق الذي تستثمره المدرسة الفقهية في المجتمع، وأهمها طلب العلم، وآدابه، وجودة فهمه واستيعابه. فالعلم الديني لا بد أن يُطلب من مضانه، والعلم السليم يبني أفراد المجتمع، وينشر بينهم المحبة والتعاون. فالدين يسلك بالإنسان إلى طريقين:

الأول: معرفة الله تعالى، عن طريق العقل، وعبادته بما فرض من واجبات.
الثاني: التعامل مع الناس بالتودد إليهم، ونشر الخير بين جميع أفرادهم من الأبرار والفجار، فعمل من الفجار من يرتدع ويهتدي إلى الصواب، ومن

الأبرار من يرى في الإحسان إليه عاملاً في دفعه إلى الثبات والتمسك بالدين.

فالآلية هي في طلب العلم وتحصيله، فتكون العبادة حينئذٍ عبادةً عالمٍ، لها ميزانٌ يختلف عن ميزان عبادة الجاهل. فعبادة العالم كلها خيرٌ وإيثارٌ، وهدفها إضاءة نور العلم في قلوب الناس.

الدقة في المدرسة الفقهية

لا بد من الإقرار بالدقة المتناهية في الأحكام الشرعية، وتلك حقيقة واضحة لكل من تدبر في دراستها. فكل مسألة لها حدٌّ، وتعريفٌ، وحكمٌ وجوبي، أو استحبابي، أو نهي، أو كراهة، أو إباحة. والله سبحانه أنزل الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأخلاق بمقادير وموازين محسوبة. وفي دقة المدرسة الفقهية نقاط نعرضها:

1- النظام المعلوماتي: ليست الأحكام الفقهية كماً متفرقاً من المعلومات المتناثرة، بل هي نظامٌ للمعلومات مرتبة ضمن رُتب وتصانيف تخص عبادات الإنسان، ومعاملاته، وحاجاته في الحياة.

تذكر الروايات مثلاً الواجبات مرتبة ترتيباً منهجياً كنظام، فتبدأ بالفرائض (الواجبات)، ثم بالسنن (المستحبات)، ثم بالورع عن محارم الله تعالى، ثم بالرزق الحلال، ثم بالإنفاق، وهكذا. ومع اختلافها بالرتب، إلا أنها مترابطة، ومتعاضدة، ومنسجمة مع بعضها البعض.

2- التفسير المتعاضد: تُفسر الأحكام الفقهية بعضها بعضاً إذا جُمعت ضمن تركيبية علمية متعاضدة، ومثالها التفسير الذي شرحه الإمام الباقر

(ع) في طلاق السنّة وطلاق العدة. فالخط المشترك المتعاقد بين هذين الطلاقين هو أن في كليهما إمكانية رجوع الزوج إلى زوجته المطلقة بعد الطلاق. لكن الخط الفارق بينهما هو أن الزوج لا يستطيع أن يرجع إلى زوجته بعد الطلاق الثالث، في طلاق العدة، إلا أن تتزوج رجلاً آخر.

3- التوازي في الأحكام: الأحكام الفقهية متوازية ولا تضارب فيها، أي أن كل حكم يساند الآخر. ولا يناقضه، مع الأخذ بالإعتبار سعة محيطها، وتناولها جوانب عديدة من الحياة.

مثلاً أحكام الصلاة والصيام متوازية، أي ليس هناك تقاطع ولا تضارب بينها. فنسيان تكبيرة الاحرام مثلاً، التي هي مفتاح الدخول في الصلاة، حكمها الإعادة. والصيام الذي هو الإمتناع عن الطعام والشراب، لا دخل فيه لأمرٍ آخر خارج الطعام والشراب، مثل الإكتحال. وفي مثال إتيان البيوت من أبوابها أن الأصل في الأشياء إتيانها من وجهها. وهكذا في بقية الأحكام، فهي تجري مجرى إنسيابياً متوازياً، تسهلاً على الإنسان مع تقدير قدرته على الأداء.

4- التركيبية المنسجمة: صُممت الأحكام الشرعية في تركيب منسجم مع الوجود في قضايا العلية، والحكمة، والقدرة. فأحكام الصلاة وأوقاتها منسجم مع تركيبية الكون والوجود، ودوران الأرض حول الشمس، وكون اليوم مقسّم إلى زوال ظل الشمس، وغروبها، وشرقها. وفي كل حالة من تلك الحالات هناك صلاة لله تعالى. فالعبادة مرتبطة بالزمن، وهذا التيسير في العبادات يقع ضمن تصميم الخالق عزّوجلّ للوجود والكون والإنسان.

5- الحقيقة في التعبير الفقهي: عدم استخدام المجاز في التعبير الفقهي على عكس التعبير العقائدي، ذلك لأن الفقه أحكام محددة يتعين على المكلف الأخذ بها. فلا بد له أن يفهمها فهماً واضحاً. ولذلك فإنّ التعبير الفقهي تعبير حقيقي، لا يلعب فيه المجاز دوراً. أي ليس هناك تعبير مشترك بين الوجوب والحرمة مثلاً.

النظام المعرفي الفقهي

للنظام المعرفي الفقهي في مدرسة الإمام الباقر (ع) عناصر مهمة، مبنية على اليقين والقطع، ومن تلك العناصر:

1- الإطار الفكري: وهو البناء على أساس مصدرين رئيسين هما: القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة. والأصل فيها طاعة الله تعالى، وإتباع أحكامه. وهذا هو إطار الدين السماوي.

فالفكرة الأساسية أن الدين له تكاليف وواجبات، ولا يحابي أحداً، فكل إنسان هو مؤسسة وكيان مستقل يعمل في الدنيا، ويُحاسب على عمله في الآخرة، وليس للقرابة نصيب في ميزان الأعمال، ما لم تكن الأعمال نفسها صالحة وخيرة. فكل إنسان يُثقل ظهره الوزر الذي يحمله، وكلّ يحمل صحيفة أعماله معلقة في رقبته فتصبح جزءاً من شخصيته أينما حلّ في الآخرة.

2- الإطار الزمني: يعني أن الأحكام الفقهية في العبادات لها إطار زمني محدد. فالصلاة مثلاً مرتبطة بشروق الشمس وزوالها وغروبها. وهذا لا يتغير مهما تقادم الزمن، ومهما تبدل المكان. وأشهر الحج مبنية على

حساب الأشهر القمرية، وهذا لن يتغير أيضاً، وكذلك الصوم في شهر رمضان، ونحوها. وقد ذكرنا ذلك سابقاً في مباني المدرسة الفقهية.

3- تنظيم السيطرة على المعلومات: وهو إحكام السيطرة على تفسير المعلومات. وما يبذل الدين إلا التفسير الخاطئ للمعلومات الدينية، حيث يحزف المبادئ عن جادتها، ويغير مسيرة الناس عن طريقهم المرسوم.

ودور الإمام (ع) هنا التمييز بين الأفكار المترادفة أو المتشابهة ظاهراً كالإسلام والإيمان. وطالما قام المرجئة والتدريون بتشويشٍ على تلك الأفكار الأساسية في الإسلام، كان من وظيفة الإمام (ع) أن يبين. وفي مثال ذلك: الاختلاف بين الإسلام والإيمان، فإن الفارق بينهما هو التصديق القلبي. فالإسلام: قولٌ وعملٌ يطابقه، ولكن الإيمان: قولٌ وعملٌ يطابقه، ثم تصديقٌ قلبي بما قيل وعُمل من قبل الإنسان.

4- الإنفتاح على العقل: من أهم أصول الإجتهد هو الإنفتاح على العقل. وطالما كان الفقه يمس الحياة اليومية للإنسان فلا بد له من تحصيل الدليل العقلي، ومواكبة التغيرات في الحياة. ولا نعني بذلك تدخل العقل في الأحكام الشرعية، بل أن العقل يساعد الإنسان على عبادة ربه بالصورة الواقعية التي أرادها الله تعالى. فالعابد العالم أفضل من العابد الجاهل.

5- الإنسان هو محور النظام الفقهي: بمعنى أن النظام الفقهي يهتم بالإنسان أشد الإهتمام، وكل شيء مخلوقٌ في خدمته وتسهيل حياته. فالإنسان لديه عقلٌ وروحٌ وجسدٌ، والفقه يتعامل مع تلك العوامل بصورة متضافرة.

يريد الإسلام من الإنسان أن يكون محور النظام الفقهي، وأن يكون المحرك الرئيسي في عبادة خالقه، وتحريك المشاعر الأخوية فيما بينه وبين الآخرين، وتوزيع الثروة الإجتماعية بالعدل بين الناس، وأن يكون راقياً، مؤثراً غيره على نفسه، يسمو فوق مشاعر حب الذات والأنانية. هكذا أراد الإمام الباقر (ع) من النظام المعرفي الفقهي أن يكون.

الفصل الخامس: الإمام الباقر (ع) والمنهج العلمي

المنهج العلمي هو الطريقة العلمية المستقرأة من كلام الإمام الباقر (ع) في عرض الأدلة والحجج، فقد كان الإمام (ع) يعرض في نشاطه العلمي: معرفة جديدة صحيحة، أو يصحح معرفة خاطئة سابقة. وطالما كانت الساحة الفكرية مزدحمة بكل من كان يدلوه بدلوه في الآراء، والمذاهب، والحلال والحرام، كان وجود الإمام (ع) منار هداية لعرض الدين الذي جاء به سيد المرسلين محمد (ص) نقياً من الأفكار الدخيلة.

عناصر المنهج العلمي:

هي عناصر تبين طبيعة سعي الإنسان في البحث عن العلم، وهي:

1- مرحلة الإستفهام: وهو تحري الحقائق، والبحث عن العلم في صيغة السؤال. فالناس، وبعد أن تعيها التفاسير والتعليقات البشرية في الأشياء والظواهر تبدأ بالسؤال. فالسؤال هو مفتاح طلب العلم، وهو الخطوة الأولى في المنهج العلمي.

2- مرحلة الإفتراض: الإفتراض الفكري هو تقديم تفسير عقلي نسبي محدود لظاهرة معينة أو حكم معين. وقد يكون الإفتراض خاطئاً، كمن يفترض أن الله تعالى يحكمه حيز الزمان والمكان. فيسأل: ما هو؟ كيف هو؟ أين هو؟ وقد يكون الإفتراض صحيحاً كمن يسأله عن فرضية: روح من الله، فيجيبه الإمام (ع): هي مخلوقة خلقها الله بحكمته في آدم وعيسى. ثم لا يزد (ع) على ذلك شيئاً، لأن الروح مرتبطة بالله تعالى فلا يخوض فيها، ولا يخوض في ذات الله سبحانه.

3- مرحلة التحليل والنتائج: يستطيع العقل أن يفكك الأجزاء العلمية، ثم يُعيد تركيبها بصيغة ثانية أكثر قبولاً للإنسان. وهذا هو التحليل، حيث يبدأ الإنسان في هضم الحقيقة العلمية الأولية، ثم يعيد تجميعها بما يناسب إدراكه وفهمه. خصوصاً إذا لاحظنا أن الإسلام أعطى فسحة للعقل بالتحرك والتفكير والتحليل والمطابقة. فعندما كان البعض يفترض مختلف الإفتراضات عن الخالق عزوجل عبر الماهية والكيفية والأين، كان الإمام (ع) يوصلهم إلى النتيجة النهائية وهي أن الله تعالى هو الملك القادر الأوحد، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان.

وبهذه الطريقة رفع الإمام الباقر (ع) عنهم غطاء الجهل، وأوصلهم إلى معرفة المجهول من الأحكام والعقائد.

معالم المنهج العلمي:

المنهج العلمي يصف الحقائق الدينية وصفاً صحيحاً، فعلم التفسير مثلاً ليس مجموعة أفكار وكلمات، بل هو علمٌ منهجي في أسباب النزول، وحجية الظهور، والسياق القرآني. وينطبق الأمر على علم الحديث النبوي. ومن معالم ذلك المنهج ترد الموارد التالية:

1- الإستدلال التام: استخدم الإمام (ع) الدقة المتناهية في الإستدلال على موضوع البحث. فالسؤال والجواب هما منظومة معرفية لتحديد موضوع الحكم الشرعي والبناء عليه في الاحكام. فإذا كان السؤال حلقة من حلقات البحث عن الحقيقة، يكون الجواب الصحيح عليه إشفاءً لغليل السائل في طلب المعرفة. ولكن إذا استبطن السؤال توجيهاً نحو فكرة خاطئة، كان على الإمام (ع) التعامل مع السؤال، وإعادة توجيهه الوجهة الصحيحة.

فعندما يفسر الغضب الالهي في آية (... وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)¹⁰⁹⁷، فإنه يعرفه بإرادة العقوبة الالهية. هنا يرفع الإمام (ع) معنى التجسيم العالق في إذهان الناس إلى معنى الإرادة الالهية في العقوبة، وينزه الخالق عزّوجلّ من أفكار التجسيم والتشبيه. فأصبح المسلم يفهم الآية بإنسجامٍ وتوازٍ مع آيات الكتاب السماوي الأخرى التي تنزه الخالق عن التشبه بمخلوقاته، وأنه تعالى ليس كمثل شيء. وتلك ميزة لا نظير لها في الإستدلال التام.

¹⁰⁹⁷ سورة طه: الآية 81.

2- الثبوت على المنهج وعدم تغييره: أي ثبوت معايير الأخذ بصحة الحديث هي نفسها من زمن الإمام الباقر (ع) ولحد اليوم ثابتة ولن تتغير. بمعنى آخر أن فحوى الأحاديث التي ينقلها الإمام (ع) عن النبي (ص) ثابتة، والأحكام المتعلقة بها ثابتة أيضاً ولا تتغير.

3- عرض الحقائق الدينية: يقوم الإمام (ع) بعرض الحقائق الدينية، فيكون جوابه مطابقاً للحقيقة الشرعية الواقعية، ويكون سريعاً وقطعياً فلا يتردد في إعطاء الجواب الصحيح، فمحصل العلم عنده أنه يجمع بين الإلهام والتسديد الآلهي، والإكتساب عن رسول الله (ص) مباشرة أو بالواسطة.

4- كمالية الأجوبة: وقيمة الموضوع من الناحية العلمية يحدد بدقة الجواب وتكامله، لا بصعوبة السؤال وشدته. ولم يذكر لنا التاريخ ولا لمرة واحدة أن الإمام الباقر (ع) قال: لا أعلم، أو لا أدري، أو أتركوني فترة من الزمن أبحث عن الجواب. وفي ذلك دلالة عظيمة على عصمته من الخطأ، والجهل، والسهو، والنسيان.

5- مفاتيح البحث: مفاتيح البحث في أقوال الإمام (ع) أربعة:
الأول: تعريف الموضوع: يبدأ (ع) الجواب بتعريف الموضوع قبل الإجابة عليه، فإذا تم تعريف الموضوع تحددت معالمه عند السامع.
الثاني: تصميم الموضوع: فهو (ع) يصمم طبيعة الدخول في الموضوع المبحوث وطبيعة الخروج منه.

الثالث: انتخاب العناوين الفرعية. ينتخب (ع) العناوين الفرعية المتعلقة بصلب الموضوع. وتلك العناوين لها رابطة في إحكام النسيج العلمي للقضية موضع البحث.

الرابع: النتيجة النهائية من الموضوع: فالجواب عند الإمام (ع) له هدفٌ منطقي محدد وهو إعطاء النتيجة النهائية، فإذا كان السؤال عن صفات الله تعالى، فلا بد أن تصل من الجواب إلى نتيجة مفادها نفي التجسيم والتشبيه. 6- صلاحية المعرفة الدينية: وهي الصلاحية التي حُصرت فيهم (ع) من قبل النبي (ص). فإذا تم الإيمان بالولاية الشرعية لأهل البيت (ع) ثبتت عند المكلف الصلاحية العقلية والشرعية لمضمون كلامهم (ع) من أوامر ونواهي ومستحبات ومكروهات ومباحات.

طرق المنهج العلمي عند الإمام (ع):

وطالما كان العلم قوة عظيمة كان لابد من حملها على مركبٍ قوي لا تهزه رياح الشك، نسميه بالمنهج العلمي. وفيه ثلاثة طرق:

1- الطريق الوصفي: وهو الطريق الذي يمكن تطبيقه من خلال حديثٍ في موضوع ينطبق على مواضيع متعددة. مثل تعريف الإمام (ع) لليد على أنها القدرة، ومنها يُستنتج نفي التجسيم، والساق كنايةً عن جدية الأمر، ووجه الله كنايةً عن دين الله. وهي كلها تنفي التجسيم والتشبيه.

2- الطريق النوعي: وهو طريق تصحيح الإمام (ع) للأخطاء الشرعية التي كان يروجها، بعلمٍ أو دون علم، أرباب المذاهب والتيارات الفكرية المضادة. وهي إما أخطاء عشوائية تصدر من أشخاص يفتون بغير علم.

وإما أخطاء منهجية لها نظريات ومنهجة يؤخذ بها، كمنهجية التجسيم، والقياس، والمصالح المرسلّة، والإستحسان، وغيرها.

وكلا النوعين من تلك الأخطاء الشرعية تقود إلى إستنتاج خاطئ، وحكم شرعي جديد مخالف للحكم الشرعي الأصلي الذي أنزله الله تعالى في القرآن الكريم وقاله رسول الله (ص)، أو فعله، أو أمضاه.

3- الطريق البلاغي: وهو الطريق الذي يحمل الحقيقة العلمية على جناحي اللغة الفصحى والمنطق. فالبلاغة في اللغة أمرٌ مهم في توصيل المعلومات إلى الناس. ولا يمكن لإمام الأمة أن يخاطب الناس بلغة ركيكة، وعندها لا يستطيع توصيل المعلومة الشرعية إلى المكلفين. أما المنطق، فهو أن تكون أفكار الحكم الشرعي منسجمة ومتعاضدة مع الأفكار الأخرى في الإسلام. ولا يمكن أن تكون الأفكار المختلفة في الأحكام والعقائد متضاربة أبداً، بل لابد فيها من الإنسجام والتعاضد على نطاق القرآن الكريم والسنة الشريفة.

فعلى نطاق القرآن الكريم، كان له في التفسير ثلاثة مبادئ، هي:

1- إرادة المعنى الصحيح دون إرادة اللفظ: المعنى هو الأصل في فهم القرآن الكريم، وقد يُستخدم المجاز اللفظي في بعض الآيات القرآنية خصوصاً في العقيدة، وقد يُراد المُحكّم دون المتشابه، وقد يُراد الظاهر دون الباطن أو العكس. والتدبر في القرآن الكريم الذي أكد عليه رسول الله (ص) هو فهم المعاني على حقيقتها. ولا يتم ذلك إلا من مصدرٍ نطمئن إلى سلامته وإرتباطه برسول الله (ص).

2- التفسير بالأثر الصحيح: أي عدم جواز تفسير آيات القرآن الكريم إلا بالأثر الصحيح عن النبي (ص) وخلفائه من أهل البيت (ع). فما يرويه الباقر (ع) إنما يرويه عن زين العابدين (ع)، وعن الحسين الشهيد (ع)، وعن الحسن المجتبي (ع)، وعن علي بن أبي طالب (ع)، عن رسول الله (ص).

3- تفسير القرآن بالقرآن: ففي قوله تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ...)¹⁰⁹⁸، قال (ع): اليدُ في كلام العرب: القوة والمنعة، قال تعالى: (... وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ...)¹⁰⁹⁹، (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)¹¹⁰⁰، أي بقوة. فاستدل هنا بآيات القرآن في تفسير القرآن الكريم.

وعلى نطاق الحديث الشريف، فقد أعتنى (ع) به كما أعتنى بالقرآن الكريم، ووضع منهجاً واضحاً في العناية به، والتمييز بين صحيحه وضعيفه، فكانت القواعد الفقهية لعلاج تعارض الأخبار وتضاربها، أو تعارض موقف المكلف من الأحكام حسب الترتيب الزمني، وما له علاقة بمصلحة المكلف، ونحوها.

¹⁰⁹⁸ سورة ص: الآية 75.

¹⁰⁹⁹ سورة ص: الآية 17.

¹¹⁰⁰ الذاريات: الآية 47.

مسالك العلم:

من الطرق المعرفية للإمام (ع) هو الإستدلال مباشرة بالقرآن الكريم، وبالسنّة النبوية الشريفة، وتفسير القرآن بالأثر الصحيح دون إدخال الرأي الشخصي في ذلك.

والقاعدة في التفسير هو ربط الآيات الشريفة بعناوينها. وكان (ع) يكرر: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله. وعندما يسأله كان يشرح لهم موضعه في كتاب الله المجيد.

إضافة إلى ذلك نهى الإمام الباقر (ع) التفسير بالرأي الشخصي الذي تداولته مدرسة الرأي، وهو الأخذ بالإعتبارات العقلية الظنية التي ترجع إلى الإستحسان، أو المصالح المرسلة، أو غيرها.

والأصل في هذا الموضوع هو أن تفسير الإمام (ع) متصل بمنهج رسول الله (ص)، أو ممن علمهم رسول الله (ص)، وممن ألهمهم الله العلم بنص القرآن الكريم وأقوال النبي (ص).

والسنّة النبوية هي العمود الثاني بعد القرآن الكريم في الإستدلال. فالسنّة تبين مجمله ومبيّنه، وناسخه ومنسوخه، وتقييد مطلقاته، وتخصيص عمومياته، وتعرض لأحكام الله في العبادات والمعاملات.

قام الإمام الباقر (ع) بعملين متوازيين في هذا النطاق:

الأول: نشر الإمام (ع) أحاديث النبي (ص) الصحيحة مباشرة خلال خطبه ودروسه وأحاديثه.

الثاني: الإهتمام بخيرة طلبته وأصحابه المتفانين في خدمة الدين في نشر الحديث الشريف، وتشجيعهم على إفتاء الناس بتلك الأحاديث الصحيحة.

ثم وضع قاعدة لتفاضل المؤمنين الموالين لأهل البيت (ع)، فأشار (ع) عليهم بالقول: إعرفوا منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدارية للرواية يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان.

الفصل السادس: أصول المناظرة والإحتجاج

المناظرة في مقدماتها تعني إختلافاً في وجهات النظر، وتبايناً في الدليل والحجة. وفي نتائجها ثمرة الإقناع بقوة الحجة وصحة الدليل. وهكذا كانت الأجواء المحيطة بالمدينة المنورة في نهايات القرن الأول الهجري: شبّهات عديدة تحتاج إلى رد علمي مُحكّم من طرف الإمام الباقر (ع). كانت لدى أئمة أهل البيت (ع) قابليات إستثنائية في المناظرات، وكان إمامهم (ع) بالعلوم الآلهية، وضبطهم لمعاني القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجعلهم في صدارة أي نقاش يتم بينهم وبين من يقابلهم من الناس.

والمناظرة سلاح أهل الحق لطرح الدليل والحجة على صحة معتقداتهم. ولاشك أن القرآن الكريم بيّن لنا أصول المناظرات، وإسلوب الإستدلال والإعتراض، وإقامة البرهان الذي هو غاية البيان.

الدليل والبرهان: في المناظرة:

لا تكتمل المناظرة بدون دليلٍ واضحٍ قويٍ يُفحم المنازع؛ فالمناظرة تبقى كلمات مفردة ما لم تحمل دليلاً صادقاً على صحة المدعى. فلا بد أن

يُعرّف الدليل وتُشخّص مرادفاته. والأصل في المناظرة هو قوة الحجج أو الأدلة كما ذكرنا، فالحجة أو الدليل في المناظرة كالجملّة المفيدة في الكلام المتداول بين الناس. فلا حديث أو كلام بدون جملة مفيدة، ولا مناظرة بدون دليل.

وفي وضوح البرهان قيل أن البرهنة على المدعى هي العملية الرئيسية في المناظرات، ولذلك كانت معرفة البرهان ضرورية، وكذلك معرفة مرادفاته مثل: البيان، والحجة، والسلطان، والدليل. وما البرهان إلا حجةً فاصلةً بيّنة. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)¹¹⁰¹. أي البينة الواضحة.

المناظرة في القرآن الكريم:

دافع أهل العلم عن حقهم في الإيمان، واحتّمى أهل الباطل بباطلهم، فكان القرآن الكريم أفضل المصادر في المناظرات، والله سبحانه يقول: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ...) ¹¹⁰². فكان محور المناظرات في القرآن المقابلة بين الحق والباطل، وإستخدام الأدلة الشرعية والعقلية في أصول العقيدة من التوحيد والنبوة والإمامة. أوضح لنا القرآن الكريم كليات المعلومات العقلية والسمعية من البراهين.

¹¹⁰¹ سورة النساء: الآية 174.

¹¹⁰² سورة الأنبياء: الآية 18.

وإذا تأملنا في ذلك الكتاب الآلهي نجد فيه أسرار المناظرات،
باستخدام الحجة والدليل، لإبطال الشبهة الفاسدة، ومن ذلك مناظرة النبي
إبراهيم (ع) مع نمروذ، ومناظرة النبي موسى (ع) مع فرعون، ومناظرة
النبي محمد (ص) مع نصارى نجران.

ففي مثال نمروذ، كان لإبراهيم (ع) في مناظرته مع نمروذ
إحتجاجين يثبتان وجود الله الخالق البارئ عزوجل.

الأول: أن الحياة الحقيقية والموت الحقيقي هما بيد الله تعالى، لا بيد غيره.
لكن نمروذ تلاعب بالألفاظ، وقال: أنا أحيي وأميت، أي أنا ربك الذي
وصفته بأنه يُحيي ويُميت. فأراد إقناع الحضور من حاشيته بأنه قادر على
الإحياء والإماتة عبر العفو أو القتل.

الثاني: أن تدبير الكون وتسييره هو بيده تعالى، لا بيد غيره. فالله تعالى
يأتي بالشمس من المشرق. وكان إحتجاجه (ع): فأنت بها من المغرب. أي
أنه لما يئس من المضي في إحتجاجه الأول في الحياة والموت، أنتقل إلى
الإحتجاج الثاني وكأنه بنى على الإحتجاج الأول بإحتجاج ثانٍ كما يدل
عليه التفريع بالفاء في قوله: (... فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
المَشْرِقِ...) ¹¹⁰³.

ومثال موسى (ع) وفرعون، قام موسى (ع) بتوجيه المناظرة إلى
الوجهة التي يريدتها ثلاث مرات. وفي المرة الثالثة كان موقف موسى (ع)

¹¹⁰³ سورة البقرة: الآية 258.

من أن التدبير الألهي متصل بالمشرق والمغرب، وهو إتحاد لا يقبل إلا تدبيراً واحداً من قبل رب واحد. هنا انقطعت حجة فرعون بتعدد الآلهة. وفي مثال مناظرة النبي محمد (ص) مع نصارى نجران، عندما سأله أسئلة أشبه بالمناظرة. فأجابهم بأنه رسول الله، وأن عيسى عبدٌ مخلوقٌ يأكل ويشرب. فسأله على سبيل الإيقاع به في فخ: من أبوه؟ فأجابهم رسول الله (ص): ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب؟ فأجابوا: نعم. قال (ص): فمن أبوه؟ فبهتوا. فأنزل الله الآية: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)¹¹⁰⁴.

مناظرات الإمام الباقر (ع):

كانت للمناظرات العلمية التي أجراها الإمام الباقر (ع) هدف رئيسي، وهو رفع الشبهات، وإيصال الحقائق إلى الناس. ومن خلال دراسة فكر الإمام الباقر (ع) نستقرأ خمس نظريات في المناظرة استحدثها (ع)، وهي:

النظرية الأولى: المناظرة بأسلوب الوسائط: هذه النظرية، وفي كل مرحلة من مراحلها تصحح أخطاء المنازع، وترشده إلى الفكرة الحقيقية. فهي تعرّف الموضوع، وتتسج الحقائق نسجاً واقعياً منسجماً مع الأفكار الشرعية الأخرى، ثم تقيّم الموضوع، وتضع العلم في مكانه الصحيح.

¹¹⁰⁴ سورة آل عمران: الآية 59 - 60.

واستخدم في هذا النوع من المناظرة: الواسطة الوصفية: وهي تعريف الأشياء، ومعرفة طبيعتها؛ والواسطة الإرتباطية: وهي فهم العلاقة العقلية والشرعية بين شيء وآخر بحيث يكون بينها جامعاً يجمع الأفكار المطروحة؛ والواسطة التقييمية: وهو تقدير مدى استحقاق الموضوع للمناظرة.

النظرية الثانية: إعادة التوجيه والإستدلال: هذه النظرية تقترض أن مقدمات المنازع غير صحيحة، فتقوم على الإستدلال عبر إعادة توجيه الفكرة الخاطئة إلى وجهة جديدة صحيحة. وللمناظرة بإسلوب إعادة التوجيه والإستدلال ثلاث مراحل، هي:

الأولى: المطالبة بالجواب. يقوم المنازع بسؤال الإمام (ع) سؤالاً أساسياً ويطلب بالجواب. الثانية: إعادة توجيه فكرة السؤال، حيث ينبري الإمام (ع) بتفنيد حجة الخصم من خلال توجيه السؤال وجهة صحيحة. وهنا ينقل الإمام (ع) الخصم من مساحة المعرفة التي يفهمها والمألوفة لديه إلى مساحة جديدة عليه وغير مألوفة لديه. تلك المساحة الجديدة هي في الواقع نقلة نحو المرحلة الأخيرة، وهي الإستدلال. الثالثة: مرحلة الإستدلال: وتعني أن الرابط بين مطالبة المنازع بالجواب وبين إبراز الدليل أصبحت ممكنة. فالإستدلال لا يعني تقديم الدليل فحسب، بل يعني إقناع المقابل بصحة الدليل وقوته.

النظرية الثالثة: أسلوب الإجابة السريعة الخاطفة. هذا اللون من المناظرة يقتضي علماً جمأً، وسرعة فائقة في الإجابة، لأن التأخر في الجواب أو

التردد يعني عدم معرفته، أو على الأقل عدم الإطمئنان لوثوق معلوماته. فليس هناك مجال للتفكير أو للتذكر.

النظرية الرابعة: المناظرة بالإستدلال التفصيلي: هدفها توضيح المطالب بصورة تفصيلية، فتكون عادةً غنيةً بالعلم والمعرفة، فهي أقرب إلى المحاضرة العلمية ولكن مع جاذبية السؤال والجواب.

النظرية الخامسة: أسلوب الأخذ والرد من قبل المناظر نفسه: وهذا أسلوب آخر في المناظرة، وهو أن يقوم المناظر بطرح الإشكال أو السؤال ويجيب عنه، دون أن ينتظر طرح السؤال من قبل المناظر، وفيه أمران: الأول: أن يكون المناظر أعلى رتبةً في العلم من المناظر. الثاني: أن معلومات المناظر قطعية وواضحة، فلا يحتاج المنازع إلى مؤونة سؤاله من جديد.

الفصل السابع: مواجهة النظريات المضادة

كانت تلك الفترة على موعد مع أفكار جديدة غريبة عن الإسلام مثل: الإرجاء، والجبر، والتفويض، والتجسيم والتشبيه، وكثرت الشبهات حول التوحيد وماهية الخالق عزوجل وذاته، وتلونت تيارات الغلو والإلحاد، والتناسخ والحلول، والزندقة.

وكانت أفكارهم تدور حول إسقاط الثواب والعقاب، وإنكار البعث والنشور، وتزوير الروايات، وإختلاق فضائل مزعومة، وإنكار فضائل مثبتة، وزوجت نظرية عدالة جميع من رأى رسول الله (ص) أو صحبه

بخلاف نص القرآن الكريم الذي أدان المنافقين والمتخلفين عن القتال زمن النبي (ص).

وانتشرت ظواهر أخرى جديدة على الفكر الإسلامي مثل الإفتاء بالرأي، والقياس في الأحكام الشرعية، وتفسير القرآن الكريم بما يناسب توجهات المذاهب المختلفة، والإعتزال عن الحياة الإجتماعية.

القياس: هو الإشتراك في علة الحكم بين أمر غير منصوص مع أمر منصوص على حكمه. إستند في حجيته على أدلة من القرآن الكريم، لكنها خارجة عن الموضوع. فاستدلوا بقوله تعالى: (... فَأَعْتَبُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)¹¹⁰⁵، زاعمين بأن الإعتبار يعني العبور من حكم الأصل إلى حكم الفرع، وهو معنى القياس.

شكل القياس خطراً كبيراً على الشريعة. لأنه لو قُدِّرَ لتلك الفكرة بالإننتشار دون معارضة لفسح المجال للتلاعب بأحكام الشرع بحجة موافقة القياس أو مخالفته. فيتبدل حكم الله عزوجل في ميراث الرجل - بموجب القياس - من سهمين إلى سهم واحد، لأن الذكر أقوى من الأنثى ولا يحتاج إلى سهمين. ويتبدل حكم الله عزوجل في الحائض - بموجب القياس - إلى قضاء الصلاة بدل قضاء الصوم، لأن الصلاة أكبر من الصوم. ويتبدل حكم الله في الوضوء للبول والغسل للمني - بموجب القياس - إلى غسل للبول ووضوء للمني، لأن البول أنجس من المنى، وهكذا.

¹¹⁰⁵ سورة الحشر: الآية 2.

خصوصاً وأن الكثير من الأحكام الشرعية سندها السنّة النبوية الشريفة، ويمكن أن تُغيّر بطريقة من الطرق حتى تطابق القياس! وهذا الطريق مخالفٌ تماماً للأصول الشرعية في فهم الأحكام، حيث نفى أئمة أهل البيت (ع) شرعية القياس قائلين: (أن دين الله لم يوضع في الرأي والقياس)¹¹⁰⁶، و(أن السنّة إذا قيست مُحق الدين)¹¹⁰⁷.

الجبر والتفويض: والبحث فيهما هو بحثٌ في مسألة حرية الإرادة أو الإختيار عند الإنسان. ترتبط مسألة الجبر والتفويض، أو القضاء والقدر بأمرين:

الأول: مسألة التوحيد، وعلاقتها بأفعال الإنسان.

الثاني: مسألة العدل الألهي، وعلاقة القدرة السماوية بفعل الإنسان ومعاقبته!

واستدل القائلون بفكرة الجبر على ثلاثة مبادئ:

الأول: أن الإنسان غير قادر على تأدية أفعاله بنفسه أصلاً، ولو كان قادراً لإجتمعت قدرتان: قدرة الإنسان، وقدرة الله تعالى. وهذا باطل لإجتماع النقيضين.

الثاني: أن الأفعال التي تصدر من العباد لا بد أن يكون لها مرجح نهائي وهو الله تعالى. ولو افترضنا أن الترجيح كان من العبد، لأحتاج ذلك

¹¹⁰⁶ وسائل الشيعة ج 18 ص 29.

¹¹⁰⁷ الكافي ج 1 ص 57.

الترجيح إلى ترجيح ثانٍ، ثم إلى ترجيحٍ ثالثٍ، وهكذا. وهذا باطل لأنه تسلسل.

الثالث: لما كان الله تعالى قادرٌ على كل شيء قدرة مطلقة، فلا مجال للقول بقدرة العبد.

وكان الرد عليهم من مدرسة أهل البيت (ع)، بالمبادئ التالية:
الأول: أن من أهم الأدلة على كون أفعال الإنسان بإرادته هو الثواب والعقاب. ولو كانت أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأن الإنسان مجبور عليها لبطل الثواب والعقاب، وهذا خلاف صريح القرآن الكريم، حيث قال: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)¹¹⁰⁸، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)¹¹⁰⁹.

الثاني: أن الهدف من بعث الأنبياء والرسل (ع) هو هداية الناس، وإنذارهم بالعقاب، وتبشيرهم بالثواب. فإذا كان العبد مُجبِراً على الأفعال، فما فائدة الأنبياء والرسل (ع)، وقد قال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...)¹¹¹⁰.

الثالث: أن التكليف الإلهي من وجوب وحرمة متناسب مع قدرة الإنسان على تأديته، وعلى قوته في الإختيار. فإذا كانت الأفعال مجبوراً عليها أو مخلوقة لله تعالى، فسوف يؤدي ذلك إلى التكليف بما لا يطاق، وقد قال

¹¹⁰⁸ سورة المدثر: الآية 38.

¹¹⁰⁹ سورة الزلزلة: الآية 7 - 8.

¹¹¹⁰ سورة البقرة: الآية 213.

الله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
اَكْتَسَبَتْ...) ¹¹¹¹، شرح الإمام الباقر (ع) هذه الآية بالقول: (الله أكرم من
أن يكلف الناس بما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا
يريد) ¹¹¹².

الرابع: من صفات الخالق عزوجل العدالة المطلقة، فهو عادل مع جميع
من خلق. فإذا أجبر الله الناس على أفعالهم، كان عقابه للعاصي ظلم، لأن
العبد مجبوراً على فعله، والظلم قبيح بحقه تعالى. قال سبحانه: (...وَمَا
ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) ¹¹¹³، (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) ¹¹¹⁴.

الخامس: أن الحجة النهائية يوم الحساب هي لله تعالى: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ
الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) ¹¹¹⁵، وإذا كان العباد مجبورون على
أفعالهم، أنتقت حجة الله على عباده في إرتكاب المعصية، بينما يقرر
القرآن غير ذلك، يقول تعالى: (مَا سَلَكُكُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ
الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ. وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا

¹¹¹¹ سورة البقرة: الآية 286.

¹¹¹² الكافي ج 1 ص 160.

¹¹¹³ سورة آل عمران: الآية 117.

¹¹¹⁴ سورة هود: الآية 117.

¹¹¹⁵ سورة الأنعام: الآية 149.

نُكذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ)¹¹¹⁶. فالفعل صدر بإرادة الإنسان، وهو مسؤول عنه،
والحجة النهائية لله تعالى.

الإرجاء: قالت المرجئة أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وربما تصديق
بالقلب ونطق باللسان. وقالت أيضاً أن ترك العمل لا ينافي الإيمان، وأن
أصحاب المعاصي أو الكبائر مؤمنون حقيقة لكفاية الإقرار باللسان أو
التصديق القلبي. ردّهم الإمام الصادق (ع) بالقول: (الإيمان قولٌ باللسان،
وتصديقٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان). أي أن الإيمان القلبي لا بد أن يقترن
بالعمل المطلوب من قبل الله تعالى. نفهم من قوله (ع) أن الثواب والعقاب
لا معنى له من دون العمل. فلا بد من الإيمان بالقلب، والتصديق باللسان،
والعمل بالأبدان.

الغلو: هو تجاوز الحد في المحبة أو الكراهية، حتى يصل المغالي إلى ما
هو خلاف الواقع، حتى لو افتعل الكذب لتسديد غلوه. يلخص الإمام
الصادق (ع) ذلك ويقول: (إن الناس قد أولعوا بالكذب علينا وإنني أحدث
أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه، وذلك
أنهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله، وإنما يطلبون الدنيا وكلّ يحبُّ
أن يكون رئيساً)¹¹¹⁷.

¹¹¹⁶ سورة المدثر: الآية 42 - 46.

¹¹¹⁷ بحار الأنوار ج 2 ص 246.

إن أدنى ما يعتقد به الإنسان ويخرجه عن الإيمان بالحقيقة هو إعتقاده بأن الحصاة الجامدة الصلدة هي نواة لها قابلية على الإنبات والإثمار. وهذا تصويرٌ رائعٌ لظاهرة الغلو، فالغلو هو إعتقادٌ خاطئٌ لأمرٍ غير حقيقي، خصوصاً عندما ينزله ذلك الإنسان الخاطئ بمنزلة الحقيقة. وضع الإمام الباقر (ع) قاعدة في مواجهة الغلو، فقال: (إياكم والغلو فينا، قولوا إنا عبيدٌ مربيون، وقولوا في فضلنا ما شئتم)¹¹¹⁸. ولأنه تزويرٌ للحقائق، لم يكن هناك طريقٌ لمواجهة الغلو، إلا القيام بمنهجٍ أساسه: البراءة من الغلاة، وفضحهم على الملأ بأسمائهم وصفاتهم، وعرض الحقائق الخاصة بأهل البيت (ع) من حيث كونهم عبيدٌ لله تعالى، مع علمٍ خاص، وصفات خاصة في التقى والعبادة والإمامة الكبرى.

التجسيم والتشبيه: ثبت المشبهون والمجسمة لله تعالى صفات المحدثات والأجسام، كصفات اليد، والوجه، والساق، والقدم، والرجل، والعين، والجلوس، والحركة، والحد، والجهة، وأستدلوا بذلك على آياتٍ من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في اليد: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)¹¹¹⁹، وفي الوجه: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)¹¹²⁰، وفي الساق: (يَوْمَ

¹¹¹⁸ بحار الأنوار ج 25 ص 270.

¹¹¹⁹ سورة الفتح: الآية 10.

¹¹²⁰ سورة القصص: الآية 88.

يُكشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ¹¹²¹، وفي الجلوس:
(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)¹¹²².

ولكن لتلك الآيات الكريمة معانٍ تنزيهية، وهي مشتركات لغوية على أية حال، فاليد تعني القدرة، والعرش: العلم والتدبير، والوجه: الدين، والساق: الجدّ، والإستواء على العرش: التدبير. إلا أنّ المجيئة لم يأخذوا بذلك.

نُقل عن الإمام الباقر (ع) عندما سُأل عن قوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)¹¹²³، قال (ع): (الله أعظم من أن يوصف، ولكن معناها كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا دينه...)¹¹²⁴.

وأضاف (ع) وهو يصفُ الله تعالى بأعظم الصفات: (ياذا الذي كان قبل كل شيء، ثم خلق كل شيء، ثم يبقى كل شيء، وياذا الذي ليس في السموات العلى ولا فوقهنّ، ولا بينهنّ ولا تحتهنّ إله يعبد غيره)¹¹²⁵، (إن ربي تبارك وتعالى كان لم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع له مكاناً)¹¹²⁶.

¹¹²¹ سورة القلم: الآية 42.

¹¹²² سورة طه: الآية 5.

¹¹²³ سورة القصص: الآية 88.

¹¹²⁴ الدمعة الساكبة ج 7 ص 154.

¹¹²⁵ بحار الأنوار ج 3 ص 385.

¹¹²⁶ بحار الأنوار ج 3 ص 326.

المصطلحات الواردة في الكتاب (تُتبت حسب ورودها في الكتاب)

البلاغة: في اللغة هي الوصول والإنتهاء إلى الشيء. وفي الاصطلاح هي حسن البيان، وقوة التأثير، والوصول إلى المعنى.

البيان: إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

المعاني: معرفة أحوال اللفظ العربي التي تطابق مقتضى حال الخطاب.

البدیع: يُراد به وجوه تحسين الكلام، وتطبيقه على مقتضى حال الخطاب، ووضوح دلالاته.

العلم: فهمٌ للأشياء كالحقائق، والصفات، والمهارات، والمعلومات. ويتم اكتسابه عبر أحد وسائل المعرفة التالية: التعلم، أو الاكتشاف، أو الإبداع، أو الإلهام من الله تعالى، أو الوحي.

الاستحقاق: إضافة المال إلى من لا يعقل، كالسرح للدابة، سُمي استحقاقاً. وإن أضيف المال إلى من يعقل كانت اللام للملك، فيسمى مالكاً.

الإختصاص: إضافة الولد أو غيره إلى من يعقل. قيل إن لم يشهد العادة وغيرها بذلك فهي للاختصاص كقولك: هذا ابن لزيد، فإنه ليس من لوازم الإنسان أن يكون له ولد.

الكرم: ضد اللؤم، كرمٌ كرامةٌ وكرمًا، فهو كريمٌ وكريمةٌ، وكرم فلان: أعطى بسهولة وجاد.

الجود: المطر الغزير، وجاد الرجل بماله يجودُ جوداً، فهو جواد. والجواد هو الذي يعطي بلا مسألة، صيانةً للأخذ من ذلّ السؤال.
السخاء: وصفٌ للإنسان الكريم أعطى أم لم يعط. ويتعبّر آخر صفةً للإنسان داعية لبذل المقتضيات، حصل معه البذل أو لم يحصل، وهو من الخلق الرفيع.

المدرسة الفكرية: آراء مجموعة من العلماء أو المفكرين الذين يشتركون في فكرة واحدة أو فلسفة معينة. فيحسب لهم وكأنهم في صفٍ واحدٍ يطرحون آراءهم المتضافرة وهي تساند بعضها البعض. ومثالها: المدرسة الفلسفية المثالية، ومدرسة الرأي، ومدرسة الاعتزال وغيرها.

المدرسة الفقهية: وهي الأحكام والعقائد التي وردت في أحاديث الإمام الباقر (ع)، وهي مجموعة متضافرة من الأحاديث منسجمة مع بعضها البعض وغير متعارضة، نقلها الإمام (ع) عن رسول الله (ص) بواسطة آبائه الطاهرين (ع). وبمجمليها تمثل نظاماً فقهياً دقيقاً محكماً، يقينياً في طبيعته، علمياً في مبانيه.

المناظرة: من النظر والانتظار. وفي الإصطلاح هي النظر بالبصيرة من الطرفين المتناظرين بغرض إظهار الصواب. والأصل فيها النظر الإستدلالي، أي النظر في الدليل أو الحجة التي توصله إلى الحق.

الجدل: هو مقابلة الحجة بالحجة، وقد تكون بحقٍ أو بباطلٍ. وأصله الخصومة الشديدة، ويسمى جدلاً لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُحکم خصومته وحبته إككاماً بليغاً على قدر طاقته تشبهاً بجدل الحبل، وهو إككامٌ فتلّه.

الدليل: ما يُستدلُّ به، ويُقال: دلَّه على الطريق أي آراه الطريق. والدليل مرادفٌ للحجة. ولا مناظرة بدون دليل. ويتخذ الدليل أشكالاً مختلفةً. فربما كان دليلاً قرآنياً، أو روائياً، أو عقلياً. قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) ¹¹²⁷، أي أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها على أحوال الظل، من كونه ثابتاً في مكان، زائلاً عن آخر.

البرهان: الحجة الفاصلة القاطعة لدفع الخصم. قال تعالى: (...تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ¹¹²⁸، وَمَنْ بَرَّهَنْ فَقَدْ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى الْخَصْمِ.

البيان: ما بيّن به الشيء من الدلالة ونحوها. وبان الشيء أي أتضح. قال تعالى في شأن الأنثى: (أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) ¹¹²⁹، أي أن الأنثى لا تكاد تستوفي الحجة القضائية، لأن عالمها البيت والزينة.

الحُجَّةُ: الدليل والبرهان، ويُقال: حاججته. قال تعالى في أمر إبراهيم (ع) مع قومه: (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا...) ¹¹³⁰، أي أنهم أحتجوا عليه بأدلة باطلة لا تصمد أمام الدليل الحق. والإستدلال التي تترتب عليها القضية

¹¹²⁷ سورة الفرقان: الآية 45.

¹¹²⁸ سورة البقرة: الآية 111.

¹¹²⁹ سورة الزخرف: الآية 18.

¹¹³⁰ سورة الأنعام: الآية 80.

المنطقية والتي يُبنى عليها البرهان تسمى الحجج. ولا بد من صدق الحجج، على شرط أن لا تتضمن مقدمات تفترض القضية المراد البرهنة عليها. **السلطان:** الحجة والبينة، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)¹¹³¹. السلطان هي الحجة، يذكر ويؤنث، فالمذكر يعطي معنى الرجل، والمؤنث يعطي معنى الحجة.

البرهان المنطقي: هو استدلال ينتقل فيه الذهن من قضايا مسلّمة إلى أخرى تنتج منها بالضرورة. يقول علماء المنطق أنه استدلالٌ يقوم على أساسٍ من مقدمات يقينية وينتهي إلى نتائج يقينية. وتعبير آخر هو استدلال شرطي إفتراضي لا تصدق نتيجته إلا إذا صدقت مقدماته.

وسائط المناظرة: وسائط جمع واسطة. والواسطة هو ما يتوصل به إلى الشيء. وطالما وقع الإختلاف في المناظرة وأصبح عدم الإتفاق مع الخصم أمراً واقعاً، إحتاج المناظر عندها إلى بناء منهج لإقامة الحجة على إحكام موقفه، والبرهنة على صحته. هناك ثلاث وسائط للمناظرة: الواسطة الوضعية، والإرتباطية، والتقييمية.

البرهان التحليلي: ويسمى أيضاً بالعلّة الغائية، وهو برهانٌ ينتج العلم أو المعرفة الضرورية الثابتة. وينقسم إلى قسمين. البرهان اللّمي، والبرهان الإتي. والبرهان التحليلي على نوعين: البرهان التحليلي المباشر، والبرهان التحليلي غير المباشر.

¹¹³¹ سورة هود: الآية 96.

البرهان اللَّمِّي: أن يكون الحد الأوسط علةً لثبوت الأكبر للأصغر، مثلاً: (قطعة حديد انخفضت درجة حرارتها. وكل حديدة انخفضت درجة حرارتها فهي متقلصة. فهذه الحديدة متقلصة). فهو يشتمل على السبب، وعلةً الوجود، أو علةً التصديق والوجود معاً، ويفيد علةً حصول النتيجة.

البرهان الإثني: أن يكون الحد الأوسط معلولاً للأكبر في وجوده في الأصغر لا علةً، وهو عكس البرهان اللَّمِّي. أي البرهان الإثني يعطي علةً التصديق فقط. مثلاً: (هذه الحديدة متقلصة. وكل حديدة متقلصة درجة حرارتها منجمدة. فهذه الحديدة درجة حرارتها منجمدة).

البرهان التحليلي المباشر: يتميز هذا البرهان المنطقي بمنهج في الإستدلال العقلي لقضية من القضايا. ويُستدل على صدق القضية المراد البرهنة عليها بطريق مباشر.

البرهان التحليلي غير المباشر: يتميز هذا البرهان المنطقي بمنهج في الإستدلال العقلي لقضية من القضايا. يختلف هذا البرهان عن البرهان المباشر بالشكل التالي: يستدل على صدق القضية المراد البرهنة عليها بطريق غير مباشر بإظهار خطأ مقدمات معينة لها صلة وثيقة بها، بحيث أن إثبات خطأها يثبت صدق القضية. وهو برهانٌ يلزم العقل بالتسليم لنتائج دون إرجاع القضية المبرهن عليها إلى أسباب بديهية.

وهي على نوعين: الأول: برهان الخلف، وهو البرهان المؤدي إلى المحال، ويعني إثبات صحة قضية بإبطال نقيضها. الثاني: البرهان المنفصل يكون المطلوب إفتراضاً من بين عدة إفتراضات للقضية، ويثبت فيه صدق المطلوب بإثبات كذب باقي الإفتراضات.

الإرجاء: معناه التأخير، وهي فكرة أدعت أن الإيمان إنما هو قولٌ بلا عمل، أي أن الإقرار القلبي بالإيمان فقط يجزي عن العمل في العبادات والمعاملات. ومنه أُطلق على من قَدَّمَ الإيمان، وأخَّر العمل لفظاً: **المُرَجَّئَة**. رد أهل البيت (ع) على تلك الفكرة بالقول: (الإيمانُ قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان).

الجهمية: جماعة قالت بأن الإيمان هو المعرفةُ بلا قولٍ ولا عملٍ. أي أن الإنسان إذا عرف الله في قلبه فلا يحتاج إلى فعلٍ عبادي لإحراز مرضاة الله. وتُنسب الفكرة إلى الجهم بن صفوان، من المجبِّرة. رد أهل البيت (ع) على تلك الفكرة بنفس ما ردوا على فكرة الإرجاء.

الخوارج: فرقة من الغلاة، رفضت التحكيم بعد معركة صفين سنة 37 هـ. وقالت بأن مرتكب الكبيرة كافرٌ مخلَّدٌ في النار. فالعمل له تأثير على طبيعة الإيمان، بحيث يكون تارك العمل التعبدي كالصلاة مثلاً كافر بالله تعالى.

المعتزلة: جماعة كلامية اعتمدت على العقل في فكرتهم عن الدين وقَدَّمته على النقل. وقالت بأن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمنٌ ولا هو فاسقٌ، بل في منزلة بين الأمرين. وهو قولٌ وسطٌ بزعمهم بين المرجئة والخوارج. وصاحب الكبيرة يستحق العقوبة، إذا لم يتب، وإن مات بلا توبة يدخل النار.

الأشاعرة: جماعة جعلت العقل مدخلاً لفهم النصوص الدينية. وقالت أن من عصى الله تعالى من أهل الشهادتين فهو مؤمن.

ردَّ أهل البيت (ع) على من ذكرنا من العقائد السالفة بأن الإيمان هو المعرفة والقول والعمل. ومرتكب الكبيرة ربما كان مؤمناً قبل المعصية، لكنه فاسقٌ وقت ارتكاب المعصية.

الحرورية: جماعة من الخوارج تُنسب إلى حروراء قرب الكوفة، مرقت عن الدين زمن الإمام علي بن أبي طالب (ع) فحاربهم. ناصبوا علياً (ع) العدا والبغضاء، وكفروا المسلمين، واستحلوا دماءهم.

القياس: في المنطق هو: قولٌ مركَّب من قضيتين أو أكثر، ومتى ما سلّمنا به لزمنا عنه قولٌ آخرٌ. مثلاً: إذا قلنا كلُّ إنسانٍ حيوان (مقدمة صغرى)، وكلُّ حيوانٍ جسمٌ (مقدمة كبرى)، إذن كلُّ إنسانٍ جسمٌ (النتيجة).

أما في الدين فهو: إلحاقُ أمرٍ غير منصوص على حكمه الشرعي بأمرٍ منصوصٍ على حكمه لإشتراكهما في علّة الحكم¹¹³². مثلاً: كلُّ مسكرٍ حرام، وكلُّ نبيذٍ مسكر، فالنتيجة كلُّ نبيذٍ حرام.

اعترض أئمة أهل البيت (ع) بشدّة على فكرة القياس بإعتبار (أن دين الله لم يوضع في الرأي والقياس)¹¹³³، و(أن السنّة إذا قيست مُحقّ الدين)¹¹³⁴. ومع أن القائلين بالقياس اشترطوا فيه أن يكون الاصل معلوماً من الناحية الشرعية والفرع مجهولاً، إلا ان تطبيق القياس على جزء من الأحكام سوف يُسلب الشريعة من إرتباطها بالله تعالى وبخاتم الأنبياء محمد

¹¹³² روضة الناظر ج 3 ص 766.

¹¹³³ وسائل الشيعة ج 18 ص 29.

¹¹³⁴ الكافي ج 1 ص 57.

(ص)، وينزلها إلى مستوى عقل الإنسان الذي اعتقد بصحة القياس في الدين!

الجبر: هو الإيمان بأن جميع أفعال الإنسان هي أفعال الله تعالى. والإنسان هو واحد في مجموع، فأفعال سائر المخلوقات في الكون هي أفعال الله تعالى. فليس للإنسان مشيئة إرادة أو مشيئة فعل. وبذلك أنكرت حرية الإنسان في الاختيار، وأسماها المتأخرون بأصالة نفي الاختيار.

واستندت في دعواها إلى فهمها للآية الكريمة: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...) ¹¹³⁵.

التفويض: هو الإيمان بأن أفعال الإنسان هي أفعال حقيقية إختارها بإرادته دون أن يكون لله عليه قهر، أو جبر، أو إرادة فيها. والتفويض هو إصالة إختيار الإنسان بملء رأيه، ولا دخل لله تعالى في أفعاله. وأستدلّت في دعواها على فهمها للآية الكريمة: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ...) ¹¹³⁶.

ويعني التفويض بزعمها: الحرية المطلقة بمعزل عن إرادة الله تعالى. وقد صوّرت تلك الفكرة بشكل يزعم بأن الله تعالى خلق الإنسان، وجعله ذو إرادة مستقلة غير مرتبطة بالأسباب والعلل الألهية.

¹¹³⁵ سورة الأنعام: الآية 125.

¹¹³⁶ سورة غافر: الآية 17.

القدرية: جماعة آمنت بنكران القدر، ونفي الإرادة الالهية في فعل الإنسان بحيث أصبح مختاراً إختياراً تاماً في أفعاله.

أطلق المجبرة على المفوضة لقب القدرية، بينما أطلقت المفوضة على الجبرية لقب القدرية. قالت المجبرة للمفوضة إن إنكاركم للقدر يعني أنكم قديرون! ولم تقبل المفوضة بهذا الإتهام، فقالت أن المجبرة يثبتون القدر لله، وبذلك سلبت إرادة الإنسان، وثبتت أن أفعال الإنسان مخلوقة من قبل الله .

أهل البيت (ع) في مواجهة الجبر والتفويض: وقف أئمة أهل البيت (ع) بقوة أمام تلك الأفكار الجديدة، وقالوا إن الفكرة وسطية أي أنه أمرٌ بين أمرين، لا جبر ولا تفويض. فلإنسان أفعاله التي يفعلها بإختياره، ولكن بالقدرة التي أودعها الله تعالى فيه. فإذا وجد الداعي وارتفع المحذور صدر الفعل من فاعله، ونسب إليه الفعل الصادر عنه، وأقرب مثال على ذلك هو الإحراق للنار من حيث قيام العلة بعلة. فالنار محرقة، ولكن تحتاج إلى إنسان عاقل يقوم بإشعالها.

وأفعال الإنسان الإرادية مرتبطة به كمخلوق لأنها صادرة عنه، لكنها فيضٌ من قدرته تعالى على الإنسان بإعطائه القدرة على الفعل. فالإنسان مسلحٌ بالإرادة والدافع نحو الفعل، ولكنها لا تتقاطع مع إرادة الله تعالى. فهي سلسلة من الأسباب المترابطة، فإرادة الله هي الإرادة النهائية ولا تتنافى مع حرية الإنسان في الإختيار لفعله، وبالإختيار يُثاب على فعله

أو يُعاقب على معصيته، وقد قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)¹¹³⁷.

الغلو: هو تجاوز الحد، وكان يطلق على أناسٍ تجاوزوا الحد في وصف أئمة أهل البيت (ع). ومنشأ الكلمة نابعٌ من قوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...)¹¹³⁸.

وكان الكذب هو المحطة أو العتبة الأولى للصعود إلى سلم الغلو. فعن طريق الكذب يستطيع الراوي الكاذب الإفتاء بما شاء على أئمة أهل البيت (ع)، بقضيتين: شخصياتهم (ع)، وأفكارهم.

التجسيم: فكرة زعمت بأن الله عزَّوجلَّ يحده العرش، وأنه موجود في جهة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ومن آمن بالتجسيم سُمِّيَ مجسِّماً. فالمجسِّمة فرقة زعمت بأن إثبات الصفات الذاتية لله سبحانه مستلزمٌ لوصفه بالأبعاد الثلاثة، أي تخيلهم بأن الله تعالى على شكلٍ من الأشكال، كأن يكون إنساناً جالساً على كرسي الملك، أو جالساً على العرش، أو له ساق.

التشبيه: مصطلحٌ مرادفٌ للتجسيم. قال الإمام الباقر (ع) في ردِّ التجسيم والتشبيه: (أن الله تبارك وتعالى خلُق من خلقه، وخلقه خلُق منه، وكلُّ ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله عزَّوجلَّ فهو مخلوق، والله تعالى خالق كل شيء)¹¹³⁹.

¹¹³⁷ سورة الكهف: الآية 29.

¹¹³⁸ سورة النساء: الآية 171.

¹¹³⁹ التوحيد ص 105.

المصادر

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - الإتيان في علوم القرآن. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911 هـ). بيروت: دار الكتاب العربي، 1999 م.
- 3 - إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات. محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104 هـ). تحقيق: علاء الدين الأعلمي. بيروت: الأعلمي، 2004م.
- 4 - إجماع العوام عن علم الكلام. أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ). بومبي: طبعة حجرية، بدون تاريخ الطبع.
- 5 - الإحتجاج على أهل اللجاج. أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت 620 هـ). تحقيق: إبراهيم البهادري ومحمد هادي به. طهران: دار الأسوة، 1413 هـ.
- 6 - الإحكام في أصول الأحكام. علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الأمدي (ت 631 هـ). بيروت: المكتب الإسلامي، 1402 هـ.
- 7 - الإختصاص. المنسوب إلى محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). تحقيق: علي أكبر الغفاري. قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، 1414 هـ.
- 8 - الآداب الشرعية والمنح المرعية. محمد بن مفلح بن محمد المقدسي (ت 763 هـ). بيروت: مؤسسة الرسالة، 1999 م.
- 9 - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. محمد بن علي الشوكاني (ت 1250 هـ). بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.

- 10 - الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد. أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، تحقيق ونشر ، 1403 هـ.
- 11 - أساس التقديس. محمد بن عمر بن الحسين المعروف بالفخر الرازي (ت 606 هـ). القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1986 م.
- 12 - الإستبصار. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). طهران: الكتب الإسلامية، 1390 هـ.
- 13 - الأشباه والنظائر. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1990 م.
- 14 - الأشعثيات (أو الجعفریات). إسماعيل بن موسى عن رواية محمد بن الأشعث (توفي في القرن الرابع الهجري). طهران: مكتبة نينوى الحديثة، بدون تاريخ.
- 15 - الإعتقادات. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، 1413 هـ.
- 16 - الأعلام. خير الدين بن محمود الزركلي (ت 1396 هـ). بيروت: دار العلم للملايين، 2002 م.
- 17 - إعلام الوری بأعلام الهدى. أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548 هـ). النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، 1390 هـ.
- 18 - إعلام الموقعين عن رب العالمين. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قتيمة الجوزية (ت 751 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1991 م.

- 19 - أمالي الشيخ الصدوق. أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: الأعلمي، 1400 هـ.
- 20 - الأمالي. أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (ت 460 هـ). بيروت: دار الكتب الإسلامية، 1381 هـ.
- 21 - الأمالي. محمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). بيروت: دار التيار الجديد ودار المرتضى، بدون تاريخ.
- 22 - الإمامة والتبصرة. علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 329 هـ). قم المشرفة: مدرسة الإمام المهدي (ع)، 1404 هـ.
- 23 - الأمان من أخطار الأسفار والأزمان. رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت 664 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، 1409 هـ.
- 24 - الإنتصار. علي بن الحسين بن موسى المعروف بالشيخ المرتضى (ت 436 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1415 هـ.
- 25 - الإيضاح في علوم البلاغة. محمد بن عبد الرحمن بن عمر المعروف بالخطيب القزويني (ت 739 هـ). بيروت: دار الكتاب العربي، 1411 هـ.
- 26 - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (ع). محمد باقر بن الشيخ محمد تقي ملا مقصود على المجلسي الاصبهاني (ت 1111 هـ). بيروت: مؤسسة الوفاء، 1403 هـ. الطبعة الثانية.

- 27 - البداية والنهاية. الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774 هـ). تحقيق: أحمد جاد. القاهرة: دار الحديث، بدون تاريخ.
- 28 - البحر المحيط في أصول الفقه. بدر الدين الزركشي (ت 794 هـ). تحقيق: محمد محمد ثامر. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م.
- 29 - بشارة المصطفى (ص) لشيعه المرتضى (ع). عماد الدين محمد بن أبي القاسم الطبري الإمامي (من علماء القرن السادس الهجري). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1422 هـ.
- 30 - بصائر الدرجات. محمد بن الحسن بن فروخ الصفار (ت 290 هـ). بيروت: الأعلمي، 2010 م.
- 31 - البلد الأمين والدرع الحصين. إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (ت 900 هـ). بيروت: الأعلمي، 1997 م.
- 32 - البيان. محمد بن جمال الدين مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول (ت 786 هـ). قم المشرفة: مجمع الذخائر الإسلامية، بدون تاريخ.
- 33 - البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ). تحقيق: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب، 1968 م.
- 34 - تاج العروس من جواهر القاموس. أبو الفيض محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي الحنفي (ت 1205 هـ). تحقيق: علي شيري. بيروت: دار الفكر، 1414 هـ.

- 35 - تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك). أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: دار المعارف.
- 36 - تاريخ مدينة دمشق (تاريخ دمشق). علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت 571 هـ). تحقيق: عمرو بن غرامة. بيروت: دار الفكر، 1415 هـ.
- 37 - تاريخ اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي (ت 284 هـ). بيروت: دار صادر، بدون تاريخ.
- 38 - التبيان في تفسير القرآن. أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت 460 هـ). بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- 39 - تحف العقول عن آل الرسول (ص). أبو محمد الحسن بن علي الحراني المعروف بابن شعبة (ت 381 هـ). تحقيق: علي أكبر الغفاري. قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، 1404 هـ.
- 40 - تذكرة الحفاظ. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1998 م.
- 41 - تذكرة الخواص، المعروف بـ(تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة). شمس الدين سبط بن الجوزي (ت 654 هـ). طهران: مكتبة نينوى، بدون تاريخ.
- 42 - التعريفات. علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت 816 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1983 م.

- 43 - تصحيح إعتقادات الإمامية. محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). قم المشرفة: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، 1413 هـ.
- 44 - تفسير بن كثير. إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1419 هـ.
- 45 - (مقدمة) تفسير الراغب الأصفهاني. الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502 هـ). مصر: جامعة طنطا، 1999 م.
- 46 - تفسير الطبري. محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ). مصر: دار المعارف، بدون تاريخ.
- 47 - تفسير عبد الرزاق. عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 211 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1419 هـ.
- 48 - تفسير العياشي. أبو النضر محمد بن مسعود السمرقندي (توفي في القرن الثالث الهجري). طهران: المطبعة العلمية الإسلامية، 1380 هـ.
- 49 - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن). محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671 هـ). القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964 م.
- 50 - تفسير القمي. أبو الحسن علي بن إبراهيم (توفي في القرن الرابع الهجري). قم المشرفة: دار الكتاب، 1404 هـ.
- 51 - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب). محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين المعروف بالفخر الرازي (ت 604 هـ). بيروت: دار الفكر، 1981 م.

- 52 - تفسير الكشاف (عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل). جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ). بيروت: دار الكتاب العربي، 1407 هـ.
- 53 - تفسير نور الثقلين. عبد علي بن جمعة الحويزي (ت 1053 هـ). تحقيق: هاشم الرسولي. قم المشرفة: إسماعيليان، 1412 هـ.
- 54 - تفسير النيسابوري المسمى بـ(غرائب القرآن ورغائب الفرقان). نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري (ت 850 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1416 هـ.
- 55 - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام). أبو الحسن ورام بن أبي فراس بن حمدان (ت 605 هـ). قم المشرفة: مكتبة الفقيه، بدون تاريخ.
- 56 - تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل بالباطل. أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ت 728 هـ). مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، 1425 هـ.
- 57 - تهذيب الآثار. محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت 310 هـ). دمشق: دار المأمون، 1995 م.
- 58 - تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للمفيد. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). طهران: الكتب الإسلامية، 1390 هـ.
- 59 - تهذيب الأسماء واللغات. محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- 60 - التوحيد. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.

- 61 - التوفيق الرباني في الرد على ابن تيمية الحراني. جماعة من العلماء. مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت رقم 18823 ب. كُتبت بخط ابن قاضي شهبه. لم أجد لها إشارة في مصادرنا.
- 62 - ثواب الأعمال وعقاب الأعمال. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: طليعة نور، بدون تاريخ.
- 63 - جامع بيان العلم وفضله. يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت 463 هـ). الدمام: دار ابن الجوزي، 1994 م.
- 64 - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت 671 هـ). القاهرة: دار الكتب المصرية، 1994 م.
- 65 - جمهرة اللغة. محمد بن الحسن بن دريد (ت 321 هـ). بيروت: دار العلم للملايين، 1987 م.
- 66 - جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام. محمد حسن النجفي (ت 1266 هـ). تحقيق: محمود القوجاني. طهران: الكتب الإسلامية، بدون تاريخ.
- 67 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت 430 هـ). بيروت: دار الكتاب العربي، 1387 هـ.
- 68 - خزانة الأدب ولبّ ألباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي (ت 1093 هـ). القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997 م.
- 69 - الخصال. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). طهران: دار الكتب الإسلامية، 1376 هـ.

- 70 - الدر المنثور في التأويل بالمأثور. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911 هـ). بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ.
- 71 - الدرّ النظيم في خواص القرآن الكريم. عبد الله بن أسعد اليمني الياضي (ت 768 هـ). القاهرة: المكتبة العلامة، بدون تاريخ.
- 72 - درء تعارض العقل والنقل. أحمد بن عبد الحلّيم بن عبد السلام بن تميمية الحراني (ت 728 هـ). الرياض: جامعة محمد بن سعود، 1991 م.
- 73 - دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام. النعمان بن محمد بن مصور المعروف بالقاضي النعمان (ت 363 هـ). القاهرة: دار المعارف، 1963 م.
- 74 - دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني النحوي (ت 474 هـ). القاهرة: مكتبة الخانجي، بدون تاريخ.
- 75 - دلائل الإمامة. أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (من أعلام القرن الرابع الهجري). بيروت: الأعلمي، 1988 م.
- 76 - الدمعة الساكبة في أحوال النبي (ص) والعترة الطاهرة (ع). محمد باقر بن عبد الكريم البهبهاني (ت 1285 هـ). بيروت: الأعلمي.
- 77 - ديوان (شيخ الأباطح) أبي طالب (رضوان الله عليه). جمع أبو هفان عبد الله بن أحمد المهزومي (ت 257 هـ). قم المشرفة: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، بدون تاريخ.
- 78 - ديوان الكميت بن زيد الأسدي. جمع وشرح: محمد نبيل طريفي. بيروت: دار صادر، 2000 م.

- 79 - الذريعة إلى مكارم الشريعة. الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502 هـ). القاهرة: دار السلام، 2007 م.
- 80 - ذيل طبقات الحنابلة. عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت 795 هـ). الرياض: مكتبة العبيكان، 1425 هـ.
- 81 - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ). تحقيق: سليم النعيمي. بغداد: مطبعة العاني، 1956 م.
- 82 - رجال الطوسي. محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت 460 هـ). تحقيق: جواد القيومي. قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، 1373 هـ.
- 83 - رجال الكشي (إختيار معرفة الرجال). أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (ت 460 هـ). تحقيق: مهدي الرجائي. قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، 1404 هـ.
- 84 - رجال النجاشي. أبو العباس أحمد بن علي النجاشي الأسدي (ت 450 هـ). بيروت: الأعلمي، 2010 م.
- 85 - رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة (ت 779 هـ). بيروت: دار إحياء العلوم، 1987 م.
- 86 - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات. محمد باقر الخونساري الأصفهاني (ت 1313 هـ). بيروت: الدار الإسلامية، 1991 م.
- 87 - روضة الناظر وجنة المناظر (في أصول الفقه على مذهب أحمد بن حنبل). عبد الله بن أحمد بن محمد المعروف بإبن قدامة (ت 620 هـ). بيروت: الريان للطباعة، 1423 هـ.

- 88 - روضة الواعظين. محمد بن الفتحال النيسابوري (ت 508 هـ). تحقيق: غلام حسين مجيدي ومجتبى فرجي. قم المشرفة: دليل ما، 1381 هـ.
- 89 - (كتاب) سليم بن قيس. التابعي سليم بن قيس الهلالي (ت 76 هـ). تحقيق: محمد باقر الأنصاري. قم المشرفة: مطبعة الهادي، 1420 هـ.
- 90 - سنن الترمذي. محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى الترمذي (ت 279 هـ). بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ.
- 91 - سير أعلام النبلاء. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت 748 هـ). بيروت: مؤسسة الرسالة، 1417 هـ.
- 92 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب. عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الدمشقي (ت 1089 هـ). بيروت: دار ابن كثير، 1986 م.
- 93 - شذور العقود في ذكر النقود. أحمد بن علي المقرئ (ت 845 هـ). القاهرة: مطبعة إلیاس، 1939 م.
- 94 - شرح أصول الكافي. المولى محمد صالح المازندراني (ت 1081 هـ). بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1421 هـ.
- 95 - شرح شافية أبي فراس في مناقب الرسول (ص) ومناقب بني العباس. القاضي محمد بن عبد الملك بن أحمد العقيلي (ت 565 هـ). طهران: 1416 هـ.
- 96 - شرح الكوكب المنير (المسمى بمختصر البحرين). محمد بن أحمد المعروف بابن النجار (ت 972 هـ). تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد. الرياض: مكتبة العبيكان، 1993 م.

- 97 - شرح مذاهب أهل السنة ومعرفة شرائع الدين والتمسك بالسنن. عمر بن أحمد بن عثمان المعروف بابن شاهين (ت 385 هـ). السعودية: مؤسسة قرطبة، 1999 م.
- 98 - شرح نهج البلاغة. عز الدين عبد الحميد بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي المعروف بابن أبي الحديد (ت 656 هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار إحياء التراث، 1387 هـ.
- 99 - الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393 هـ). بيروت: دار العلم للملايين، 1987 م.
- 100 - صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ). تحقيق: مصطفى ديب البغا. بيروت: دار ابن كثير، 1410 هـ.
- 101 - صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج بن مسلم الشقيري (ت 261 هـ). القاهرة: مؤسسة محمد صبيح وأولاده، بدون تاريخ.
- 102 - الصحيفة السجادية - الجامعة لأدعية الإمام علي بن الحسين (ع). إشراف: محمد باقر الأبطحي. قم المشرفة: مؤسسة الإمام المهدي (ع)، 1411 هـ.
- 103 - صفات الشيعة ومصادقة الإخوان. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). طهران: عابدي، بدون تاريخ.
- 104 - صفوة الصفوة. عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت 654 هـ). بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

- 105 - الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة. أحمد بن حجر الهيتمي الكوفي (ت 974 هـ). إعداد: عبد الوهاب عبد اللطيف. مصر: مكتبة القاهرة، 1385 هـ.
- 106 - صيد الخاطر. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت 597 هـ). دمشق: دار العلم، 2004 هـ.
- 107 - طبقات الحنابلة. محمد بن محمد بن أبي يعلى (ت 526 هـ). بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- 108 - الطبقات الكبرى. أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد (ت 230 هـ). بيروت: دار صادر، 1968 م.
- 109 - العقد الفريد. ابن عبد ربه الأندلسي (ت 328 هـ). تحقيق: مفيد محمد قميحة. بيروت: دار الكتب العلمية، 1983 م.
- 110 - علل الشرائع. أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: دار إحياء التراث، 1408 هـ.
- 111 - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب. جمال الدين أحمد بن علي الحسني المعروف بابن عنبه (ت 828 هـ). النجف الأشرف: الحيدرية، 1961 م.
- 112 - عيون الأخبار. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1418 هـ.

- 113 - عيون أخبار الرضا (ع). محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: الشريف الرضي، 1378 هـ. ش.
- 114 - عيون الأخبار وفنون الآثار. أدريس بن الحسين بن الأنف القرشي الإسماعيلي (ت 872 هـ). بيروت: دار الأندلس، بدون تاريخ.
- 115 - غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام. السيد هاشم بن سليمان البحراني (ت 1107 هـ). تحقيق: علي عاشور. قم المشرفة: الكتب العقائدية، 1421 هـ.
- 116 - غوالي اللثالي العزيزية في الأحاديث الدينية. محمد بن علي بن إبراهيم الإحسائي المعروف بابن جمهور (ت 909 هـ). قم المشرفة: سيد الشهداء، 1403 هـ.
- 117 - فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي العسقلاني الشافعي المعروف بابن حجر (ت 852 هـ). بيروت: دار المعرفة، 1379 هـ.
- 118 - الفتوح. أحمد بن محمد بن علي بن أعثم (ت 314 هـ). تحقيق: علي شيري. بيروت: دار الأضواء، 1991 م.
- 119 - فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين (ع). إبراهيم بن محمد بن المؤيد الجويني (ت 722 هـ). تحقيق: محمد باقر المحمودي. بيروت: المحمودي للطباعة، 1978 م.
- 120 - فرق الشيعة. الحسن بن موسى النوبختي (ت 311 هـ). طبعة استانبول، 1931 م.

- 121 - الفروق اللغوية (معجم). أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت نحو 395 هـ). القاهرة: دار العلم والثقافة، بدون تاريخ.
- 122 - الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة (ع). علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي المعروف بابن الصباغ (ت 855 هـ). بيروت: الأعلمي، 1408 هـ.
- 123 - القاموس المحيط. أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت 817 هـ). تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1426 هـ.
- 124 - قرب الإسناد. عبد الله بن جعفر الحميري (من أعلام القرن الثالث الهجري). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، 1993 م.
- 125 - قصص الأنبياء (ع). قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت 573 هـ). تحقيق: غلام رضا عرفانيان. مشهد: مجمع البحوث الإسلامية، 1409 هـ.
- 126 - قصص العرب. إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002 م.
- 127 - الكافي: الأصول والفروع والروضة. أبو جعفر محمد بن يعقوب بن أسحاق الكليني (ت 329 هـ). تحقيق: علي أكبر الغفاري. طهران: دار الكتب الإسلامية، 1389 هـ.
- 128 - الكامل في التاريخ. عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الشافعي، المعروف بابن الأثير (ت 630 هـ). بيروت: دار صادر، 1385 هـ.

- 129 - كشف الغمة في معرفة الأئمة. أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت 693 هـ). بيروت: دار الأضواء، بدون تاريخ.
- 130 - كمال الدين وتمام النعمة. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: الأعلمي، 1991 م.
- 131- الكنى والألقاب. الشيخ عباس القمي (ت 1359 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1439 هـ.
- 132 - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. علاء الدين علي المتقي الهندي (ت 975 هـ). بيروت: مؤسسة الرسالة، بدون تاريخ.
- 133 - لسان العرب. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت 711 هـ). بيروت: دار صادر، 1410 هـ.
- 134 - لسان الميزان. أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ). بيروت: الأعلمي، 1971 م.
- 135 - مجمع البيان في تفسير القرآن. الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548 هـ). بيروت: دار العلوم للتحقيق، 2005 م.
- 136 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807 هـ). القاهرة: مكتبة القدسي، 1994 م.
- 137 - مجموعة الرسائل الكبرى. أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية (ت 728 هـ). الرسالة الوسطية. بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- 138 - مجموعة الفتاوى. أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية (ت 728 هـ). القاهرة: دار الوفاء، 1997 م.

- 139 - المحاسن. أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت 274 هـ). تحقيق: مهدي الرجائي. قم المشرفة: المجمع العالمي لأهل البيت (ع)، 1413 هـ.
- 140 - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان. عبد الله بن أسعد اليافعي (ت 768 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1997 م.
- 141 - مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول (ص). محمد باقر المجلسي (ت 1111 هـ). طهران: دار الكتب الإسلامية، 1404 هـ.
- 142 - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. عبيد الله بن محمد بن عبد السلام المباركفوري (ت 1414 هـ). الهند: إدارة البحوث العلمية، 1984 م.
- 143 - مروج الذهب ومعادن الجوهر. علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت 346 هـ). تحقيق: أسعد داغر. قم المشرفة: دار الهجرة، 1409 هـ.
- 144 - المستدرك على الصحيحين. محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 2002 م.
- 145 - مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل. الميرزا حسين النوري الطبرسي المعروف بالمحدث النوري (ت 1320 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، 1991 م.
- 146 - المستصفي. محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1993 م.
- 147 - مستند الشيعة في أحكام الشريعة. أحمد بن محمد مهدي النراقي (ت 1209 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1429 هـ.

- 148- مسند أحمد بن حنبل. أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت 241 هـ). بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001 م.
- 149- مصباح الكفعمي (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية). تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن العاملي الكفعمي (ت 905 هـ). النجف الأشرف: دار الكتب العلمية، 1349 هـ.
- 150 - مصباح المتهجد. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). بيروت: الأعلمي، 1998 م.
- 151 - مطالب السؤول في مناقب آل الرسول (ع). محمد بن طلحة (ت 652 هـ). بيروت: مؤسسة البلاغ، 1999 م.
- 152 - معاني الأخبار. أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). تحقيق: علي أكبر الغفاري. قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، 1361 هـ. ش.
- 153 - المُعتبر في شرح المختصر. جعفر بن الحسن المعروف بالمتحقق الحلبي (ت 676 هـ). قم المشرفة: مؤسسة سيد الشهداء (ع)، 1364 هـ. ش.
- 154 - المعجم الأوسط. سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت 360 هـ). القاهرة: دار الحرمين، 1415 هـ.
- 155 - معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة. أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت 1413 هـ). بيروت: الطبعة الخامسة، 1992 م.
- 156 - المعجم الكبير. سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني (ت 360 هـ). القاهرة: مكتبة بن تيمية، بدون تاريخ.

- 157 - مقاييس اللغة (معجم). أحمد بن فارس بن زكريا القزويني المعروف بابن فارس (ت 395 هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الفكر، 1979 م.
- 158 - المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. بيروت: مكتبة الشروق الدولية، 2004 م.
- 159 - مفتاح دار السعادة ومنتشور ولاية العلم والإرادة. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (ت 751 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- 160 - مفردات ألفاظ القرآن الكريم. الراغب الأصفهاني (ت 450 هـ). بيروت: دار القلم، 2009 م.
- 161 - مقالات الإسلاميين. علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري (ت 324 هـ). المانيا: دار فرانز شتاير، 1980 م.
- 162 - مقالات الأصول. الشيخ ضياء الدين العراقي (ت 1361 هـ). قم المشرفة: مجمع الفكر الإسلامي، 1420 هـ.
- 163 - الملل والنحل. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 548 هـ). تحقيق: محمد سعيد كيلاني. مصر: الحلبي، 1967 م.
- 164 - مناقب أبي حنيفة. أحمد بن سعيد المكي (ت 568 هـ). حيدرآباد: دائرة المعارف العثمانية، 1311 هـ.
- 165 - مناقب آل أبي طالب. محمد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني (ت 588 هـ). قم المشرفة: المطبعة العلمية، بدون تاريخ.

- 166 - مناهل العرفان في علوم القرآن. محمد بن عبد العظيم الزرقاني (ت 1367 هـ). القاهرة: البابي الحلبي، الطبعة الثالثة.
- 167 - منتهى المطلب في تحقيق المذهب. حسن بن يوسف بن مطهر المعروف بالعلامة الحلبي (ت 726 هـ). مشهد: مجمع البحوث الإسلامية، 1412 هـ.
- 168 - من لا يحضره الفقيه. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: الأعلمي، 1408 هـ.
- 169 - منهاج السنّة النبوية، أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ت 728 هـ). الرياض: جامعة محمد بن سعود، 1406 هـ.
- 170 - منهاج الكرامة في معرفة الإمامة. جمال الدين بن يوسف بن علي بن مطهر المعروف بالعلامة الحلبي (ت 726 هـ). تحقيق: عبد الرحيم مبارك. إيران: مؤسسة عاشوراء 1379 هـ. ش.
- 171 - مُهَج الدعوات ومنهج العبادات. علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت 664 هـ). بيروت: الأعلمي، 1994 م.
- 172 - المواهب اللدنية. أحمد بن محمد القسطلاني (ت 923 هـ). تحقيق: صالح أحمد الشامي. بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى.
- 173 - الميزان في تفسير القرآن. السيد محمد حسين الطباطبائي (ت 1400 هـ). بيروت: الأعلمي، 1973 م.
- 174 - نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس. عباس بن علي بن نور الدين الحسيني المكي (ت 1180 هـ). النجف الأشرف: الحيدرية، 1967 م.

- 175 - نقد الرجال. مصطفى بن الحسين الحسيني القرشي (من أعلام القرن الحادي عشر الهجري). قم المشرفة: تحقيق وطبع مؤسسة آل البيت (ع)، 1376 هـ. ش.
- 176 - النهاية في غريب الحديث والأثر. مجد الدين أبو السعادات المبارك محمد بن محمد الجزري ابن الأثير (ت 606 هـ). بيروت: المكتبة العلمية، 1979 م.
- 177 - نهج البلاغة (مجموعة خطب مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وأوامره وكتبه ورسائله). جمع محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي (ت 406 هـ). قم المشرفة: مركز الأبحاث العقائدية، 1419 هـ.
- 178 - نهج البلاغة (ما اختاره الشريف الرضي من أقوال الإمام علي عليه السلام). شرح محمد عبده (ت 1322 هـ). بيروت: دار المعرفة، بدو تاريخ.
- 179 - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار (ص). مؤمن بن حسن الشبلنجي (من علماء القرن الثالث عشر الهجري). قم المشرفة: الشريف الرضي.
- 180 - نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار (ص). محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت 1255 هـ). القاهرة: دار الحديث، بدون تاريخ.
- 181 - الهداية (في الأصول والفروع). محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: مؤسسة الإمام الهادي (ع)، 1418 هـ.

- 182 - (تفصيل) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة. محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، 1995 م.
- 183 - وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت 681 هـ). تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، بدون تاريخ.
- 184 - الياقوتة (مواظ ابن الجوزي). عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي (ت 597 هـ). طنطا: دار الصحابة للتراث، 1990 م.

الفهرس

7	مقدمة الكتاب
9	المحتويات
11	الفصل الأول: يومٌ في حياة الإمام محمد الباقر (ع)
13	مقدمة
14	يومٌ في الصلاة والدعاء والصيام
35	يومٌ في الحج
42	يومٌ مع الفكر والبلاغة
72	يومٌ في نشر العلم
78	يومٌ أمام الحاكم الظالم
85	يومٌ في الصبر
95	الفصل الثاني: التركيبة العلمية
97	مقدمة
97	ماهية العلم عند الإمام (ع)
99	آلية المعرفة
105	الإمام الباقر (ع): الخصائص العلمية
121	الإمام الباقر (ع): الخصائص الشخصية
134	التركيبة المذهلة لأئمة أهل البيت (ع)

141..... منهجية التصدي للفكرة المخالفة

151..... الفصل الثالث: المدرسة الإجتماعية

153..... مقدمة

153..... في مخاطبة الناس

163..... الدعوة إلى الاعتدال والوسطية

169..... المعاني الإجتماعية في خطبة الجمعة

176..... الإنسان في حديث الإمام الباقر (ع)

189..... الإخلاق الإجتماعية الفاضلة

203..... الكرم والجود من وسائل بناء المجتمع

217..... الفصل الرابع: المدرسة الفقهية

219..... بين المدرستين الفكرية والفقهية

220 مباني المدرسة الفقهية

231 تأثير الإفتاء بالرأي

234 خصائص المدرسة الفقهية

241..... المدرسة الفقهية وأهل البيت (ع)

255 ميزات المدرسة الفقهية للإمام (ع)

262..... الدقة في المدرسة الفقهية

272 النظام الفقهي المعرفي

287.....	الفصل الخامس: المنهج العلمي
289.....	مقدمة
290.....	عناصر المنهج العلمي
294	معالم المنهج العلمي
305	طرق المنهج العلمي:
309	أ- تفسير القرآن الكريم
313	ب- الأخذ بالحديث
318.....	مسالك العلم عند الإمام الباقر (ع)
333.....	نماذج في المنهج العلمي
344.....	وظائف الإمامة الكبرى وحقوقها
349	مشخصات الإمامة الكبرى
353....	الفصل السادس: أصول المناظرة والإحتجاج
355.....	مقدمة
356	المناظرة والجدل في اللغة والإصطلاح
358	الدليل والبرهان في المناظرة
362	المناظرة في القرآن الكريم
362	مناظرات الإمام الباقر (ع):
372	1- المناظرة بأسلوب الوسائط
378	2- المناظرة بأسلوب إعادة التوجيه
385.....	3- المناظرة بالإجابة السريعة

- 4- المناظرة بالإستدلال التفصيلي 394
5- المناظرة بإسلوب الأخذ والرد 407
في البرهان والبرهان التحليلي 412

الفصل السابع: مواجهة النظريات المضادة ... 419

- مقدمة 421
التصدي الحازم للأفكار الدخيلة 422
القياس 424
الجبر والتفويض 431
فكرة الإرجاء 442
الغلو: الفكرة والظاهرة 446
التجسيم والتشبيه 460
البديل 474

الفصل الثامن: النتائج المستخلصة 481

- المصطلحات الواردة في الكتاب 537
المصادر 547
الفهرس 569